

# المنهاج في التربية الإسلامية مفهومه وتطبيقاته

أ.د. ماجد عرسان الكيلاني



سلسلة النظرية التربوية الإسلامية

(3)

المنهاج في التربية الإسلامية: مفهومه وتطبيقاته  
دراسة مقارنة بين منهاج التربية الإسلامية ومنهاج  
التربية المعاصرة

الأستاذ الدكتور

ماجد عرسان رباح الكيلاني

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الطبعة ألغت ما قبلها لما تم من تطويرها تطويراً جذرياً لذلك تعتبر من وجه نظر المؤلف الطبعة الأولى لمنهاج المشروع التربوي الذي أشكر الله أن خلق في ونسب إلي، سائلاً المولى سبحانه أن يتم نعمته علي في هذا الميدان التربوي الذي تدور معركته بين نظم التربية المختلفة في الكرة الأرضية في حرب يصلح أن يطلق عليها الحرب العالمية الرابعة.

## بسم الله الرحمن الرحيم

### مقدمة

يكشف النظري تاريخ التربية أن الآراء كانت دائماً مختلفة حول المنهاج الذي يجب أن نعلمه وكيف نعلمه ولماذا نعلمه؟ وفي العقود الحديثة زادت شقة الاختلاف في (( مناهج )) التربية وتحديد مواصفاتها ومحتوياتها لأسباب أهمها:

**السبب الأول:** إن الناس - أفراداً وجماعات - يتعرضون في كل لحظة الى كميات هائلة من الخبرات والمعلومات التي يمتطروهم بها التلفزيون والراديو والصور المتحركة ودور النشر والمكتبات والصحف والمجلات والخطب والأحاديث والمناقشات والمحادثات والملصقات والإعلانات وشبكة الحاسوب وغير ذلك. وأمام هذا التفجر المعرفي تجد المجتمعات نفسها أمام موقفين متناقضين لا مناص من الاخذ بأحدهما، فإما أن تقبل ببعض هذه المحتويات وترفض البعض الآخر بطرق تلقائية غير محددة الاهداف ولا مدروسة النتائج، وإما أن تتعامل معها طبقاً لاهداف مدروسة تحدد نوع (( المحتوى )) الذي تقبله او ترفضه ثم تنظم هذا المحتوى في منهاج تبنيه خبرات تخصصيه ويقوم على أسس فلسفية وأسس اجتماعية ونفسية وعلمية ثم تنظم (( المواقف التعليمية )) و (( الطرق والأساليب )) التي تهئ للمتعلم أن يتفاعل مع بيئته المحيطة ليسهم في تحقيق الأهداف المبتغاة، ثم تتبع ذلك كله بـ (( التقييم )) الذي ييسر التعرف على نسبه النجاح أو الفشل في تحقيق الأهداف المشار إليها.

**السبب الثاني:** أن التربية الغربية الحديثة التي نشرها إنسان هذه التربية في غالب بقاع الأرض بوسائله التكنولوجية المتقدمة تقوم على أسس علمية قامت على تركيز الاهتمام بالوجود المادي الذي يدخل المختبر وإهمال ما عداه، ولكن هذه الأسس فقدت مصداقيتها بعد أن وصل البحث المادي بالعلماء الى مرحلة تحول المادة إلى وجود غير مادي، ونتج عن ذلك اهتزاز مصداقية المناهج التربوية التي بنيت على هذه الأسس، وتداعت أصوات المختصين لمراجعتها وتقييمها.

**والسبب الثالث:** أن هذه المناهج المختلفة المتباينة قامت - في الأصل - على أسس فلسفية واجتماعية ونفسية مشتقة مما عرفه الانسان الغربي عن الوجود المحسوس في مرحلة الحياة الدنيا وحدها دون تحقق جاد من الوجود المغيب في مرحلة النشأة والمصير، ومن الواضح أن هذه



المعارف والخبرات محكومة بقيم الإنسان الغربي الحديث وبما يعتقد عن عالمه وعن الأسئلة والاستفسارات المتعلقة به (1). وما يعتقد هذا الانسان هو ظنون يسلم بها دون برهان يقيني، ولذلك يطلق عليها المختصون مصطلح - مسلمات - ثم ينطلقون منها ليشتموا فلسفات التربية وما ينبثق عن هذه الفلسفات من مناهج ومحتويات وأنشطة وتقييم (2). ومن الطبيعي أن تتعدد (( المسلمات الظنية )) عند الفلاسفة الذين أفرزوها الامر الذي يفضي الى اختلاف (( ميادين المعرفة )) و (( مناهج التربية )) وتنافرها وتصادم آثارها في سلوك وعلاقات البشر الذين يتربون عليها. ولذلك كله تداعى جيل المرين المعاصرين الى مجابهة آثار هذا التصادم والتناظر والبحث عن معالجته كما سنرى في صفحات هذا البحث.

أما في العالم الاسلامي فإن المرين - منذ القرن الماضي - انقسموا وما زالوا ينقسمون، الى فريقين إزاء المنهاج الذي يجب أن يعلم، وكيف يعلم؟ ولماذا يعلم؟

فالآبائيون - أو مقلدو القديم - يجيبون عن هذه الاسئلة من خلال الدعوة الى تعليم موضوعات ينتقونها من تراث من كان قبلهم، أملين من خلال هذه العملية الارتقاء بمعارف المتعلمين ومهاراتهم الى الحد الذي بلغه الآباء الماضون في تحمل مسؤولياتهم وتلبية حاجاتهم دون اعتبار لاختلاف الزمان والمكان ومما يفضي إليه من اختلاف في الحاجات والتحديات.

اما المستغربون - أو مقلدو الغرب الحديث - فيجيبون عن هذه الاسئلة من خلال الدعوة الى استيراد الخبرات التربوية والمؤسسات والأساليب القائمة في المجتمعات الغربية الحديثة، أملين كذلك من خلال هذه العملية تأهيل الدارسين الى المستوى الذي يحتله رواد المجتمعات في تلبية حاجات مجتمعاتهم ومجابهة المشكلات التي تواجههم دون اعتبار لاختلاف الثقافات وتنوع المجتمعات.

والواقع أن كلا القسمين من التصور المقلد للمناهج فشل في إعداد الدارسين للقيام بمسؤولياتهم الحاضرة والمستقبلية، وأفرز ازدواجية في التفكير والسلوك مما قسم المجتمعات الاسلامية الى فريقين متناقضين متصارعين: فريق يرفع لواء العلمانية ويدعو للتمرد على القديم لمجرد أنه قديم، وفريق يرفع لواء الاسلام ويدرج تحته كل ما انحدر خلال التاريخ الاسلامي دون تمحيص علمي جاد لما يتفق مع الاصول الاسلامية وما يتعارض مع هذه الاصول.

ثم برزت تيارات العولمة - خاصة الامريكية - وكشفت بصراحة عن مقاصدها في اغتيال العالم الاسلامي وتقويض مرجعياته الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وتدمير مؤسساته فوضعت التحديات التربوية في الصف الاول من المواجهة بعد أن أصبحت هوية الأمة

هي المستهدفة وكياناتها هي المقصودة، وصار العمل التربوي المؤصل الجريء هو اسلوب العمل الذي يجب أن تركز حركات الإصلاح ورواد الاستقلال مستلهمين قوله تعالى: ( كفوا أيديكم ) وأن لا تستعجلوا أمر الله فالمطلوب - أولاً - أن نغير ما بأنفسنا من محتويات تربوية عميقة ليغير الله ما بنا من أحوال أسيفة.

لهذا كله صارت الحاجة ماسة ملحة الى بناء (( منهاج )) شامل متكامل يحيط واضعوه بحاجات (( حاضر المكان )) ومشكلاته، ويرسخون في معرفة (الماضي) وأصول الحاضر فيه، ويتفاعلون مع (( المستقبل )) وتحدياته، ثم يقومون بتحديد الاهداف واختيار الخبرات، وتعيين الانشطة والمواقف التعليمية، وتحديد طرائق التعليم وأساليب التقويم، لتعمل كلها متظافرة متكاملة لتحقيق الاهداف والكشف عن مدى تحقيقها وإنجازها(1).

ومنذ عقد الثمنيات من القرن العشرين برز الإحساس بخطورة السلبات التي أفرزها كلا النوعين من المناهج المقلدة، وقام الحوار حول ضرورة أسلمة التربية وبلورة مناهج إسلامية أصيلة معاصرة. فعقدت لذلك مؤتمرات وندوات وصدرت كتب وأبحاث اقتصرت - في غالبها - على التأريخ للتربية الإسلامية والإشادة بثمارها الماضية دون أن تطرح مناهج تجسد الأهداف المنشودة.

**السبب الرابع:** هو أن البشرية لم تعاني قط من الشقاء الإجتماعي والكوارث الطبيعية والأزمات الإقتصادية والثقافية والإكتواء بنيران الحروب مثلما اکتوت به في ظل الحضارة الأمريكية والغربية مما يجعلنا نقول أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين ذكر ظاهرة المسيح الدجال في أحاديث كثيرة فإنه في الواقع يشير إلى بربريتها وأفسادها الهائل للحياة الانسانية، فهذه الحضارة تدعي حب المسيح وجميع حملاتها العسكرية ذكرت أنها لأجل المسيح وممارسة أشنع أنواع البربرية تحت زعم يافطة المسيح.

وأضاف صلى الله عليه وسلم أن هذا المسيح الدجال أعور العين فإن هذه الحضارة عوراء تنظر الى الحياة بعين واحدة هي العين المادية وتنكر كل ما يتعلق بالخالق وعوالم الغيب والروح، وحين ذكر أنه يطوف في الأرض كلها ويدخل كل بيت آثارها السلبية في مظاهر حياتها العقلية والتربوية وفي لباسهم وأخلاقهم حتى أنه لم يبق إنسان لم تنله لطمخة من هذه الآثار<sup>1</sup>

<sup>1</sup> حين ذكرت ذلك لبعض الإخوة في كليات الشريعة علق قائلاً أن هذه اللطمحات لم ينج منها علماء كبار فبدلوا لقب الشيخ بالدكتور وخلعوا عمة العلماء واستبدلوها بمشظة الشعر الغربية قلت: وهذا يكشف لنا عن حجم التحرير الذي يجب أن نمارسه في أنفسنا وأهلينا لتخلص من الانهزام النفسي أمام حضارة الدجاجة.

فإن هذه الحضارة قد دخلت كل بيت وتركت أثرها وناله لطمحة منها وهذه من أبرز الآثار السلبية لحضارة الدجاجلة المعاصرة، وذكر أن لديه جنة ونار وهذه الحضارة الدجالة تغدق حياة الجنان على من يؤمن بها فتعطيها من المناصب والمكاسب المالية والسياسية ما لا يتصوره أهل العصور الماضية ومن خالفها لاقى الويل في سجونها وعلى أيدي مخبراتها وزبائنها.

**السبب الخامس:** هو انتهاء ظاهرة فترات الحضارات الاقليمية العرقية الموقوتة بحدود زمانية ومكانية كالحضارة اليونانية والرومانية والفارسية، وجاءت حقبة الحضارة العالمية الواحدة الممتدة على الارض كلها، وما هذه الاضطرابات والانحلال في ميادين الحياة كلها الدينية والاقتصادية والاجتماعية الا شواهد على ان النوع الاول من الحضارات لم يعد مؤهلاً لتوجيه البشرية، وأن نوع الحضارة المستمرة العالمية أصبحت تكشف كل يوم عن أهميتها وضرورتها كما هو في ظاهرة عالمية الحاجات والمشكلات والتحديات وكثير من العادات والتقاليد والاعراف. وليس هناك من نظم التربية من هو مؤهل لهذه المهمة الا التربية القائمة على تصور الكون كالتربية الاسلامية.

**السبب السادس:** لا تجد نظم التربية والتوجيه التي تخرج الانسان القادر على التفاعل مع الوثبات الحضارية الجديدة ولذلك هي تعاني من الفشل تلو الفشل كما هو الحال في جهود ومنجزات الحياة التي تقترحها الامم المتحدة ولذلك فان التربية الاسلامية هي المؤهل الوحيد لمعالجة هذه التحديات وتلبية تلك الحاجات العالمية.

**السبب السابع:** ان ترشيحنا للتربية الاسلامية لايجاد جهات الحضارة المنشودة يجب ان يقوم على اساس من البحث الجاد الرصين في مصادر الاسلام المتمثلة في القرآن والسنة والتاريخ الاسلامي والاحاطة بمبتكرات العالم وما يجري فيه من تيارات وانشطة وهذا مما يشترطه القرآن الكريم عندما يحثه على "تدبر" آيات الله في الكتاب و"التفكر" في آيات الله في الآفاق والانفس، ويعرف القرآن الإيمان قولاً وعملاً والمقصود بالقول هو البحث العملي الرصين وليس مجرد ثرثرة كلامية.

لهذه الأسباب العالمية والمحلية يأتي هذا البحث كمحاولة للإسهام في تحقيق أمور ثلاثة: **الأول**، تقديم أطر محددة مفصلة عن مناهج التربية الإسلامية كما توجه إليها "إضاءات" القرآن والسنة وتتطلبها التحديات والحاجات القائمة. والثاني، الإسهام في معالجة الثنائية القائمة في مؤسسات التعليم التي تفرز مضاعفاتها الخطيرة في ازدواجية العقلية المتنافرة المتصارعة في الأقطار الإسلامية. والثالث، فتح الباب أمام الفكر التربوي الإسلامي للمشاركة في الحوار التربوي الدائر في العالم كله.

والأساس الثاني الذي يقوم عليه هذا البحث هو أن المختصين الذين يريدون في التربية الإسلامية (( يشرعون )) - أي يبدأون - من أسس قرآنية صائبة يقينية تجنبهم مخاطر التصور الظني ثم يمشون في بناء (( مناهج )) تربوية تستند إلى (( الشريعة )) الإلهية ثم يتكون من مجموع تطبيقات (( الشريعة )) و (( المناهج )) و (( الشريعة )) التي توجه إلى ميادين الحياة المختلفة. وإلى هذه العملية التربوية يشير قوله تعالى: (( لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا )) ( المائدة:48).

وتختلف الشريعة التي يقدمها القرآن الكريم عن المسلمات الظنية التي يقدمها الفلاسفة في أن الشريعة منطلق يقيني متناسق مع سنن الوجود وقوانين الكون والحياة لأنها من عند الخالق العليم بما خلق، الخبير بما يخلق، مما يفضي إلى وحدة (( المنهاج )) المبنية على هذه الشرعات، وتناسقها وتكاملها وفعاليتها، وتحقق إنسانية البشر الذين يتربون عليها.

ولكن منهاج التربية الإسلامية - الذي يقدمه البحث - لا تعمل فيها (( شرعة )) الوحي و (( منهاجه )) و (( حدهما )) وإنما لا بد من تكاملها مع (( أبواب )) الراسخين في العلم القادرين على التفكير وتدبر آيات الله في الكتاب، ومع حواسهم المبصرة - السامعة لآيات الآفاق والانفس، لتكون حصيلة هذا التكامل هي إفراز (( منهاج التربية الإسلامية )) الفاعلة، المتصفة بالأصالة والمعاصرة. وهذا ما فهمه الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما قال:

(( وهذا القرآن إنما هو خط مستور بين الدفتين لا ينطق بلسان ولا بد له من ترجمان وإنما ينطق عنه الرجال)).

لذلك لا يقتصر البحث على معالجة تفاصيل (( منهاج التربية الاسلامية )) المنشود، وإنما يبحث أيضاً في المؤهلات النفسية والعقلية والعلمية والأخلاقية لـ ((المربين الذين يجب أن يعملوا)) في هذا المنهاج و (( المرابي المسلم )) الذي يجري البحث في مؤهلاته وصفاته هو نوع جديد من (( العلماء )) يختلف هذا النوع الذي عرفته الحضارة الإسلامية في الماضي وانتهى في صورة (( الشيخ )) المؤلف الحاضر. فهو إنسان يقوم بوظيفتين اثنتين: الأولى، انتاج المعرفة المتجددة الموسومة بالأصالة والمعاصرة في ميادين الحياة كلها. والثانية، إعداد إنسان التربية الإسلامية الذي يتقن - تقنياً وأخلاقياً - توظيف هذه المعرفة في حياة الأفراد والجماعات والأمم في ضوء علاقاته بالخالق والكون والإنسان والحياة والآخرة.

وأمثال هذا المرابي المسلم المنشود لا ينحصر في ميادين معرفية محدودة ولا يقتصر على ترديد معارف مألوفة أفرزها (( فقه الآباء )) للكتاب والسنة في مجتمعاتهم وازماتهم التي مضت، وإنما هم رواد معرفيون دائموا الإبحار في ميادين الآفاق والأنفس لاستكشاف سننها وقوانينها المؤدية الى الانتفاع بنعم الله وخزائنه ثم شهود (( آياته )) في الكون الكاشفة عن صدق (( آياته )) في الكتاب ثم تكون ثمرة ذلك كله شكره وعبادته. فأمثال هؤلاء المرابين هم الذين تتزوج في نفوسهم توجيهات (( الشرعة والمنهاج )) الإلهيين مع (( الوعي )) الناقد - المبصر للخلق المتجدد المستمر في الكون وفي الواقع الإنساني القائم لينجبا فهماً واجتهاداً راسخاً محيطاً يتكامل فيهما كل من الوحي والعقل والحواس لإبراز فقه (الشرعية) المؤهل لتلبية حاجات الزمان والمكان.

من هذا المنطلق ركز هذا البحث على إبراز - منهاج التربية الاسلامية ومؤهلات المرابين العاملين فيها - فما كان صائباً فمن نعمة الله وتوفيقه ودعائي إليه أن يسر له من يحيله الى تطبيقات ومؤسسات، وما كان خطأً أو ناقصاً فمن قصوري ومحدودية قدراتي الإنسانية، ودعائي الى الله أن يقيض له من ينبه إليه ويسهم في تقويمه وتكميله.

وفي الختام أرجو أن أتقدم بالشكر لجميع الذين كان لمناقشاتكم أثرها الإيجابي في بلورة محتويات الكتاب والتوصيات المقترحة فيه، ولمن اسهموا في إخراجها إلى حيز الوجود , وأسأله تعالى ان يسر طباعته ونشره في بقاع الارض كافة.



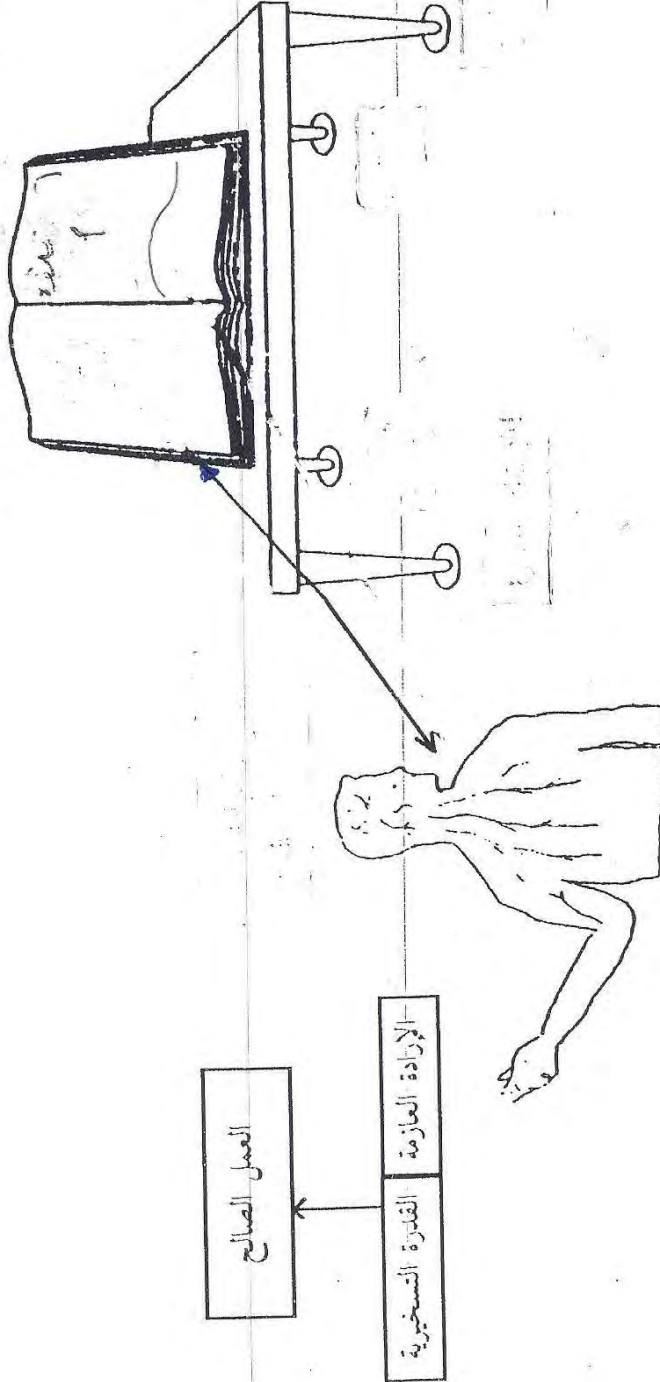
و الحمد والمنة لله وحده فإنه لا علم لنا إلا ما علمنا، ولا فهم لنا إلا ما فهمنا، نسأله تعالى أن  
ينور أفهامنا دائماً بالعلم وأن يزين أخلاقنا بالحلم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

## الباب الأول

### أهمية البحث في منهاج التربية الإسلامية

أ تلوذة الأبات

[شكل رقم 1]



العمل الأعلى + القدرات العقلية = الإرادة العازمة

الخبرات + القدرات العقلية = القدرة التفسيرية

الإرادة العازمة + القدرة التفسيرية = العمل الصالح

= الفرد الصالح - المصلح

تصميم الدكتور ماجد الكيلاني

البحث في منهاج التربية الإسلامية أمر هام وضروري لأسباب:  
أولها؛ حاجة النظم التربوية في الاقطار الإسلامية الى منهاج مؤصل قادر على تجديد الحياة  
العلمية وتغيير ما ران على المجتمعات من مفاهيم الآبائية والجمود ليغير الله ما بها من تخلف  
وهزائم.

والسبب الثاني؛ هو أزمة المناهج في التربية المعاصرة على المستوى العالمي كله.  
والسبب الثالث؛ هو التطلع إلى منهاج تربوية شاملة ومتكاملة تلي المحاولات الجارية للخروج  
من الأزمة القائمة.

أما عن تفاصيل هذه الأسباب فهي كما يلي:

## الفصل الأول

### حاجة النظم التربوية في الأقطار الإسلامية إلى تأصيل منهاج التربية

تعاني المناهج المعتمدة في المؤسسات التربوية القائمة في الأقطار الإسلامية من أزمة تتمثل في أمرين:

الأول؛ الآبائية؛ أي الاختصار على تعليم الابناء ما انحدر من الآباء.  
والثاني؛ الاغتراب؛ أي اغتراب المناهج عن واقع المجتمع وأصوله الحضارية.

أما تفاصيل هذه الأزمة فهي كما يلي:

#### أ- آبائية المنهاج في المؤسسات التربوية الإسلامية التقليدية:

تسلمت المؤسسات التربوية الإسلامية التقليدية منهاجها من الماضي ثم مضت في تطبيقها دونما تمحيص أو مراجعة، رغم أن النظر في التطورات التي مرت بها هذه المناهج تشير الى أن مكوناتها الرئيسية نمت مستقلة بعضها عن بعض، وحين وجدت نفسها أمام الحاجة الى الانتظام في نظرية تربوية متكاملة تواكب التجدد في (الخلق) وتلبي حاجات الأزمنة والامكنة لم تستطع - لعوامل عديدة - تخطت العقبات التي واجهتها وتركت مكوناتها التي نمت تتباعد وتشكل من منطلقات التصورات الجزئية والانتماءات المذهبية، الامر الذي أوقف النمو التربوي خلال القرون المتتالية وانتهى بالمنهاج التربوية لتعلم الأبناء ما أورثه الآباء<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> د. ماجد عرسان الكيلاني، تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، المدينة المنورة: دار التراث،

1407هـ - 1987م.



## اختلاف أصول المناهج الحديثة:

والواقع أن النظر في المناهج المعتمدة في المؤسسات التربوية التقليدية الحاضرة يكشف عن عدد من الصفات السلبية أهمها ما يلي:

**1- طغيان الماضي على محتويات هذه المناهج** وقلة المساحة التي تشغلها حاجات الحاضر ومشكلاته وتحديات المستقبل. ولذلك يكون الدارس الذي تخرجه هذه المؤسسات - في أحسن أحواله - (( راسخاً )) في علوم الماضين غير (( محيط )) بعلوم الحاضر وشئون المستقبل. مع ان تزاوج الرسوخ بعلوم الماضي مع الإحاطة بعلوم الحاضر شرط قرآني لتمكين إنسان التربية الاسى لامية من القيام بواجبه وحمل رسالته.

**2- طغيان " فقه " الشعائر والأحوال الشخصية المتعلقة بالأسرة** وشئون الفرد ومعاملات الاسواق على " فقه " شئون الامم وشبكة العلاقات الاجتماعية وتفريعاتها في ميادين السياسة والحكم والاقتصاد والاجتماع، وانعدام " فقه " الكون الطبيعي الذي يوجه إليه القرآن الكريم باعتباره المختبر الذي يرى فيه آيات الله في الآفاق المبرهنة على صدق آيات الله في الكتاب وباعتباره مستودع خزائن نعم الله الموجبة لحمده وشكره.

**3- سطحية " شهود " التيارات العالمية الجارية** في ميادين العلم والتربية وعدم التفاعل معها إلا ما يتعلق باستعارة التنظيم البيروقراطي للمؤسسات التربوية وأسماء الشهادات والمراحل التعليمية والرتب العلمية.

**4- انعدام البحث العلمي والتربوي والاكتماء** بترديد علوم الماضي وتطبيقاتها. لكل هذه الظروف التي تحيط بمؤسسات التربية الاسلامية التقليدية تبدو أهمية تأصيل منهاج التربية الاسلامية وعصرنتها شريطة أن تبدأ هذه العملية بالنظر الإجهادي في آيات الله في الكتاب وآياته في الآفاق والانفس ثم مراجعة مراحل الجمود والتقليد مراجعة ناقدة، ثم القيام بتزكية شاملة جريئة لمعارف هذه المرحلة وموروثاتها، ثم اكتشاف عصور الاجتهاد والازدهار لاستئناف السير من حيث توقفت، ثم المضي لمعالجة مشكلات الحاضر وتلبية حاجات المستقبل.

ب- اغتراب مناهج المؤسسات التربوية الحديثة التي أنشئت على النمط الغربي:

لعب المبشرون المسيحيون الغربيون دوراً رئيسياً في تنظيم النظم والمناهج التربوية التي تبنتها المؤسسات التربوية الحديثة في الأقطار الإسلامية (1). غير أن الحساسية الدينية

التي أثارها ممارسات المبشرين - خلال عهود الاستعمار الاحتلالي- جعلت الدول الغربية تسند النشاطات الثقافية الى مؤسسات جديدة اتخذت طابع المعونات الدولية **Philanthropic Foundations** ولقد ركزت هذه المؤسسات عملها من خلال استقدام النخبة من أبناء العالم الثالث - ومنه الاقطار العربية والاسلامية - لتعليمهم وتدريبهم في الجامعات الغربية ثم اعادتهم الى اقطارهم ليقوموا بدور الوكلاء الذين يهيئون الاجواء لاستهلاك نماذج الثقافة الغربية ومنتجاتها الصناعية. وكما كانت البعثات التبشيرية في غالبها أمريكية الجنسية، كذلك كانت مؤسسات المعونة الدولية، إلا ان أهدافها كانت أبعد من أهداف البعثات التبشيرية، فهي لم تقتصر على التربية وإنما أضافت لها البحث الاكاديمي الذي أسهم في تطوير برامج تقنية ونشاطات ذات أثر سياسي وأيدلوجي اعمق. ومن أشهر هذه المؤسسات: مؤسسة فورد، ومؤسسة روكفلر، ومؤسسة كارنجي (2)

ولقد ترتب على نشاط هذه المؤسسات ظهور نوع جديد من الاستعمار الثقافي الذي استمد قوته من خلال الهيمنة على مؤسسات التربية الحديثة في العالم الثالث وتوجيه وسائل الاعلام توجيهاً غربياً. وبسبب هذا الاستعمار الثقافي صارت مؤسسات التعليم في الأقطار الاسلامية تخرج علماء ولا تطور علوماً. فهي - مثلاً- تخرج أطباء وليس علوم طبية إسلامية، وتخرج اقتصاديين ولا تؤسس علوماً اقتصادية اسلامية، وتخرج عسكريين ولا تؤسس علوماً عسكرية اسلامية وهكذا (3).

ولقد ناقش دور مؤسسات المعونات الثقافية الدولية عدد كبير من المختصين منهم: فيليب جـ. التباخ مدير مركز التربية المقارنة وأستاذ الدراسات التربوية في جامعة نيويورك (بافالو)، وأدوارد هـ. بيرمان رئيس قسم المؤسسات التربوية في جامعة لوزفيل، وريمي كلاينت أستاذ البيئة الإنسانية في جامعة مارييلاند، ثم مدير منظمة التعاون التقني في باريس بفرنسا، ودوجلاس فوللي أستاذ الأنثروبولوجيا (علوم الإنسان) في جامعة تكساس بيوستن، وجبل ب. كيللي أستاذ الإدارة والتخطيط التربوي في جامعة نيويورك في بافالوا، وكاترين جنسن أستاذة علم الاجتماع في جامعة ومنج، وباتريشا سورومي أستاذة التاريخ في جامعة

فكتوريا بكندا، وجين تايلور من قسم تطوير التعليم العالي في أندونيسيا في جامعة ويسكونسن، ماديسون وغيرهم كثير<sup>(1)</sup>.

ويذكر - إدوارد هـ. بيرمان - أن مؤسسات المعونات الدولية التي مر ذكرها تقاسمت النشاطات الثقافية واختص كل منها نوع من التخصصات فمثلاً اختصت مؤسسة فورد Ford Foundation بتقديم المنح والبعثات الدراسية لإعداد المختصين في العلوم الاجتماعية والإدارة العامة والتربية وتمويل تنظيم البرامج التربوية وإعداد المعلمين في دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية واستقدامهم للدراسة والتدريب في الجامعات الأمريكية. واختصت مؤسسة كارنيجي Carnegie Foundation بنشر الكتب والنشرات المختلفة المتعلقة بالموضوعات المشار إليها في أقطار آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. واختصت مؤسسة روكفلر Rockefeller Foundation بإجراء البحوث والدراسات في الميادين الطبية والزراعية في أقطار العالم الثالث المذكورة.

ويضيف - إدوارد هـ. بيرمان - أن نشاطات مؤسسات المعونات الدولية - وكما عبر رؤسائها - تركزت حول أعداد القيادات المحلية في أقطار آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية لتقوم برعاية مصالح الولايات المتحدة كما يرعاها القائمون على مؤسسات المعونات الدولية أنفسهم، وأنه بسبب هذا الهدف بدأت هذه المؤسسات بعد عام 1945 تحوض حرباً ثقافية باردة مساندة لأولئك الذين يقومون بنشاطات عسكرية واقتصادية وسياسية في ما وراء البحار<sup>(2)</sup>.

كذلك تناول - فيليب جـ. ألتباخ - ما أسماه - توزيع المعرفة في العالم الثالث والاستعمار الحديث - فذكر أن من أبرز سمات العالم الحديث هو تبادل المعرفة والثقافة على نطاق عالمي ومن خلال مؤسسات عالمية كالليونسكو والبنك الدولي ووكالات المعونات الدولية وشبكات الكمبيوتر العالية، وتبادل المعلومات الجامعية والمؤسسية. وخلال هذا التوزيع العالمي للثقافة يعاني العالم الثالث من "اضطراب ميزان المدفوعات الثقافية" حيث يستورد من المعرفة والثقافة أكثر مما يصدره. فالعالم الثالث يعتمد بشكل رئيس على الدول الصناعية فيما يستعمله

(1) Philip G. Altbach & Gail P. Kelly, (ed). Education and Colonial Experience (New Brunswick: Transaction Books. 1984. P 293.

(2) Edward H. Berman, "Foundation Philanthropy and New - Colonism" In Education and Colonial Experience, ed by Philip G. Altbach & Gail P. Kelly. Pp 253-271.

من برامج ومناهج تعليمية وفيما يقرأه من كتب ومجلات ونشرات، وفيما يشاهده من برامج تلفزيونية وأشرطة فيديو، وفي البحث التربوي العلمي والمعرفة التكنولوجية والإدارية والعسكرية، وحتى في المعلومات والدراسات والمعارف المتعلقة بالعالم الثالث نفسه. فهذه وأمثالها يجري إنتاجها في جامعات الأقطار الصناعية المتقدمة في مؤسسات البحث ودور النشر فيها ثم توزع في العالم الثالث من خلال خبرائها وبعثاتها وإرسالياتها ومؤسساتها الثقافية والدينية والإعلامية وغيرها. وما لم يرقم في العالم الثالث مؤسسات وبرامج ومناهج تربوية ومعرفية وعلمية مستقلة يعمل فيها باحثون وعلماء مستقلو التفكير ثم تتظافر لإنتاج معارفها ومناهجها وعلومها الخاصة، ثم تتفاعل مع سوق المعرفة الدولية بكفاءة واستقلال فسوف يظل العالم الثالث ملحقاً معرفياً ومختبر تجارب وسوق استهلاك تربوي وثقافي للأقطار الصناعية الكبرى<sup>(1)</sup>. وازدادت خطورة هذه المؤسسات التربوية في القرن الحالي - قرن العولمة الأمريكية - بعد أن قررت إيقاف استقدام البعثات إلى القارة الأمريكية، ثم إقامة جامعات ومدارس جديدة - في العالم الثالث خاصة الأقطار الإسلامية تحت شعارات نشر الديمقراطية والتحرر - مستهدفة تغريب النخبة المثقفة والأكثرية الشعبوية سواء - ثم اقتلاع الأجيال من انتمائها العربي - الإسلامي وتحويلها إلى - قطعان عمالية (برولوتاريا) تخدم النخبة السادة في القارتين الأوروبية والأمريكية تماماً كما كانت أيام الحضارة الرومانية والهلينية التي استعبدت المنطقة قبل عصر الفتوحات الإسلامية والحضارة الإسلامية.

لذلك لا يفيد في تأصيل "المناهج" التربوية في الأقطار العربية والإسلامية ثلاثة فرقاء: فريق الآبائيين، وفريق المثقفين المستغربين، وفريق الخبراء الأجانب. وفريق الآبائيين مغتربون في الماضي ولا وعي لهم بحاجات الحاضر وتحديات المستقبل، ولا اتصال مباشر لهم بالكتاب والسنة. فهم أناس يرفعون فهم الآباء للكتاب والسنة إلى منزلة الكتاب والسنة، ويصرون على تقليدهم ويعتقدون عصمتهم. وفريق المثقفين المستغربين الذين أسرقتهم الثقافة الغربية وشكلت أنماط التفكير عندهم، وصنعت منهم وكلاء توزيع وتسويق لثقافتها ومعارفها.

(1) Philip G. Altbach "The Distribution of knowledge in the thire world A Case Study in neo- Colonialism" in Education and Colonial Edperience, pp 229-251.

فهؤلاء تشابهت قلوبهم -حسب تعبير القرآن- مع قلوب المبشرين الذين خططوا المناهج التربوية في عهود الاستعمار الاحتلالي، وقلوب الخبراء العاملين في مؤسسات المعونات الدولية الذين خططوا مناهج التربية ومؤسساتها في عهود الهيمنة الأمريكية؛ لذلك لا يكون لجهودهم من أثر إلا تكريس الاستعمار الثقافي والاعتراب التربوي.

أما عن الخبراء والمستشارين الأجانب فهؤلاء توجههم أهداف بلادهم في الاستعمار الثقافي والهيمنة الفكرية. لذلك فإن الركون إليهم يضر بحاضر الأمة ومستقبلها، ويصطدم مع التوجيهات القرآنية التي صدقتها الخبرات التاريخية في الماضي والحاضر. وحينما سئل الحسن عن قوله صلى الله عليه وسلم: " لا تستضيئوا بنار المشركين"، قال: إنه يقول لا تستشيروا المشركين في شيء من أموركم، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ } (أل عمران: 118) <sup>(1)</sup>. ومصدق هذا التوجيه القرآني قائم في مناهج التربية في الأقطار الإسلامية حيث عند الخبراء الأجانب -مثلاً- إلى ملء المقررات الدينية بمقررات الفرق والمذاهب المتصارعة المتنازعة، ومقررات التاريخ بأخبار العصبية القبلية والعائلية والشعبية، ومقررات الأدب بأشعار التاريخ بأخبار العصبية القبلية والعائلية والشعبية، ومقررات الأدب بأشعار الغزل والهجاء والمدح والفخر الجاهلي وامتداداتها فيما بعد في العصر الجاهلي. وجميع هذه المناهج أسهمت -وما زالت تسهم- إسهاماً فعالاً في إثارة الفتن السياسية والمفاسد الاجتماعية المتمثلة في التفتت السياسي والهويات الإقليمية والنظم المتسلطة والولاءات المذهبية وأنماط الحياة التي تبتعد عن قيم الإسلام شيئاً فشيئاً.

(1) البيهقي، السنن الكبرى، ج1، كتاب آداب القاضي، 127.



## الفصل الثاني

### أزمة التربية المعاصرة في ميدان المناهج التربوية

والسبب الثاني الذي يجعل البحث في مناهج التربية الإسلامية أمراً عظيم الأهمية هو الأزمة القائمة في مناهج التربية المعاصرة على مستوى العالم كله رغم التنظيم الدقيق الذي يتبع في بناء هذه المناهج. وتتجسد هذه الأزمة في مظاهر هي:

#### أ- أزمة أهداف المنهاج:

الأهداف هي النهاية التي تتحرك التربية نحوها أو تعمل من أجل الوصول إليها. ويدور الخلاف حول الأهداف التي ينظم من أجلها أي منهاج تربوي، وهو خلاف نابع من اختلاف النظريات التربوية نفسها. فهناك نظرية التمركز حول حاجات المتعلم **Child- Centred** التي تدعو إلى تحديد محتوى المنهاج انطلاقاً من رغبات الطفل وحاجاته<sup>(1)</sup>. وهناك نظرية التمركز حول حاجات المجتمع. وهناك نظرية التمركز حول المواد الدراسية **Subject Centred**. وهذا التركيز ذو البعد الواحد: أي التركيز على المحتوى الدراسي، أو على حاجات المتعلم، أو على حاجات المجتمع أدى إلى ظهور أنماط متناقضة من التفكير<sup>(2)</sup>، وإلى امتداد الخلاف إلى الجماعات التي أشرفت على تطبيق هذه الأهداف. فمثلاً - في الولايات المتحدة الأمريكية - اتهم أنصار التربية المتمركزة حول الموضوعات الدراسية، أنصار التربية المتمركزة حول رغبات الطفل بالتفكير السطحي وعدم القدرة على تطوير مقاييس أكاديمية ناضجة - مدركة، وأن إسهام تنظيم المنهاج إلى الخبراء الكبار الرسميين يحقق للمجتمع الاستقرار والنظام وهو ما أسموه بنظرية "الضبط الاجتماعي" أو - الفاعلية الاجتماعية -<sup>(3)</sup>.

(1) Keith Thompson, "Subject Centred and child- Centred theories" in Education and Philosophy, ed. By Keith thomps (1977) p60.

(2) Hilda taba, Curriculum Debelopment, p3.

(3) Herbert M. Kliebard, the Struggle for the American Curriculum (Boston: Routledge & Kegan Paul, 1986). P 174.

ولقد تعرض أنصار نظرية الفاعلية الاجتماعية للنقد الشديد واتهموا بأنهم يشكون بقدرة الجماهير على حكم نفسها، وأن أفكارهم الاجتماعية موجهة لتوفير الاستقرار لمصلحة الطبقة العليا، وأنهم يعبرون عن تحييزات شخصية مدرجة تحت اسم الموضوعية، وأنهم يتخذون من التربية ذريعة لتكريس وضع قائم وتقاليد قائمة<sup>(1)</sup>.

كذلك تعرضت -التربية التقدمية- التي تدور حول المنهاج المبني حول حاجات الطفل ورغباته لنقد مماثل واتهمت بأنها نوع من الصوفية الخيالية وأنها ترديد لآراء جان جاك روسو عن الطفل الفطري الذي يجب عدم التدخل في نموه<sup>(2)</sup>.

وإلى جانب هاتين النظريتين قامت نظرية "مناهج الفاعلية الإنتاجية Efficiency" وكانت الشخصية الرئيسة وراء هذه النظرية- فردريك ونسلو تايلور Frederick Winslow Taylor الذي كان من رجال الصناعة ولم يعمل في التربية قط، إلا أن أثره في ميدان التربية كان فعالاً من خلال تلامذته الذين نقلوا أفكاره إلى ميدان المناهج التربوية.

والحقيقة أن المنهاج التربوي كميدان متميز في عالم التربية ولد وتبلور خلال -حركة الفاعلية الإنتاجية- وامتداداتها في القرن العشرين. فلقد أخذت البيروقراطية الأمريكية رموزها وتنظيماتها من حركة تنظيم الإدارة العلمية التي بلورها -تايلور- لزيادة إنتاج المصانع ولجعل العامل يعمل ضعف أو أربعة أضعاف ما يعمل في الظروف العادية. وكان مفتاح نظرية تايلور التي نشرها في كتابه -مبادئ التنظيم العلمي- هو أن يحلل العمل إلى مكوناته الأولية بحيث لا يؤثر كل جزء على قدرة العامل لإنجازه وبذلك يقل الخطأ ويزيد الإنتاج<sup>(3)</sup>.

ولم يخف مخططو المناهج التربوية اعتمادهم على نظرية تايلور الصناعية لجعل المنهاج التربوي قوة مؤثرة في صياغة شخصية المواطن المطلوب للمستقبل وليكون أداة لإيجاد مجتمع عامل مستقر سليم العلاقات<sup>(4)</sup>. ومما ساعد مخططي المناهج المشار إليهم أن النقد حول عدم فاعلية المدارس كان شديداً، فكانت الخطوة السريعة لتلبية هذا النقد هي تطبيق نظام تايلور في إدارة المصانع على إدارة المدارس وتنظيم المنهاج التربوي القائم فيها. ففي الفترة التي تلت عام 1918 أصبحت أهداف نظرية الفاعلية الإنتاجية توجه المناهج التربوية التي صارت تخصصاً

(1) Ibid, pp 78-85, 174-176.

(2) Boyd H. Bode, Modern Education theories, (New York Macmillan co. 1927) pp 142-165.

(3) Herbert M. Kliebard, Op cit pp. 95-96.

(4) Herbert M. Kliebard, Op cit pp. 96-99

تربوياً هاماً، مع أن أهداف المنهاج المذكور نخلت من التطلعات الاجتماعية والأفكار الإنسانية العليا وركزت على خدمة الحياة المادية الجارية<sup>(1)</sup>. ولقد تحمس الأمريكيون لتحقيق أهداف منهاج الفاعلية الإنتاجية ووضعها موضع التطبيق ووجهت اختيار محتوى المنهاج وأنشطته وممارساته حتى بداية عقد الستينيات من القرن العشرين حين بدأت أشكال من النقد والمعارضة تتصاعد بوجه هذا المنهاج وتطبيقاته من ذلك ما قام به -السدير ماكتاير- عام 1964 حيث قدم بحثه حول أهداف التربية القائمة وأخذ على المنهاج اقتصره على الإعداد للوظيفة وزيادة الإنتاج الصناعي وزيادة استهلاك المنتجات والخدمات، وأضاف أن التربية حين تقتصر على الوسائل دون الغايات العليا للحياة فإنها تفرز مجتمعاً عديم العقل مجرداً من الإنسانية<sup>(2)</sup>.

ثم تصاعد الخلاف وتفرغ حول ماهية أهداف المنهاج التربوي وما يجب أن تكون عليه خلال العقود التالية. ولقد جمع كل من -لاندون- و-بيار- و-مايكل و.أيل- في كتابهما - المنهاج: مشكلاته وسياساته واحتمالاته- مجموعة كبيرة من الموضوعات التي كتبها مربون متخصصون خلال المناقشات وأنماط الجدل التي تدور في الوقت الحاضر حول أهداف المنهاج ومحتواه وتخطيطه وتقويمه<sup>(3)</sup>.

#### ب- أزمة محتوى المنهاج:

تتمثل أزمة محتوى المنهاج التربوية المعاصرة في أمرين: الأول هو اختلاف المختصين حول الخبرات التي يجب أن يتضمنها المنهاج والثاني هو الفصام بين (الإنسانيات) و (العلوم) أما عن تفاصيل هذين الأمرين فهي كما يلي:

#### 1. الاختلاف حول الخبرات ونوع المعلومات التي يجب أن يتضمنها المنهاج:

لقد كان واقع المنهاج في عقد 1890 يقوم على نظرية -التدريب التربوي- التي اشتقت مفهومها من عالم النفس الألماني -كريستين وولف-. وتقوم هذه النظرية على القول أن هناك موضوعات تقوي الملكات العقلية كالذاكرة والتفكير والإرادة والتخيل، وتنشط العقل مثلما تنشط العضلات بالتمارين. وكانت هذه الموضوعات تدور حول اللغات اليونانية واللاتينية والرياضيات والأدب كالمسرحية والشعر. ولقد ترتب على هذه النظرية أن صار

(1) Ibid, pp 4-7.

(2) د. ماجد عرسان الكيلاني، أهداف التربية الإسلامية، ص24.

(3) London E. Beyer & Michael W. Apple, the Curriculum: Problems, Politics and possibilities. (State Unifersity on New York Press, 1988).

التعليم يقوم على تمارين رتيبه ممله، ونظام قاس وتسميع حرفي بدون تفكير، ولذلك كانت المدارس كتيبة لا مرح فيها<sup>(1)</sup>. الأمر الذي جعل التصدع في نظرية التدريب العقلي يبدأ منذ وقت مبكر، إذ بدأ التساؤل لماذا يقتصر تدريب الملكات العقلية من خلال الموضوعات القديمة التقليدية ولا يهتم بموضوعات تجريبية تتفق ومتطلبات المجتمع الصناعي القائم؟ ولقد قاد هذا النقد في الولايات المتحدة الأمريكية طليعة من أمثال وليم جيمس، وثورانديك، وود وورث، وجرانفيل ستانلي هول. ثم تكونت عدة لجان لمعالجة العيب المشار إليه ولكنها لم تنل الرضى المطلوب. وعلى الأثر نمت قوة المعارضة للمنهاج التقليدي وكان غالب المعارضين ممن درسوا في ألمانيا وغلب عليهم المنهج العلمي فكونوا -جمعية هاربات القومية- وشنوا حملة على المنهاج التقليدي أكثر من نصف قرن<sup>(2)</sup>. وكانت خلاصة نظرياتهم أن الطفل يلخص التطور الثقافي في حاجاته العقلية والنفسية كما يلخص التطور البيولوجي للجنس البشري في جسده، ولذلك يجب أن يكون الطفل محور المنهاج المدرسي<sup>(3)</sup>. وبالرغم من تنامي هذا الاتجاه العلمي وحماس الكثيرين له، وبروز جون ديوي كأشهر الناطقين باسمه، إلا أن إصلاحاتها التربوية بقيت محدودة في عالم الأفكار أكثر من عالم التطبيق. أما النجاح الواقعي فقد تحقق لـ "حركة التربية التقدمية" التي مضت عدداً من المربين الذين أفرزوا أفكاراً كانت أكثر ملاءمة لقوى الصناعة والتجارة وأثرت في مجرى التربية في القرن العشرين<sup>(4)</sup>. ولقد دعم رجال الأعمال والصناعة والمؤسسات التابعة لهم، خاصة مؤسسة كارينجي، حركة التقدمية المذكورة، فعملت على تغيير المنهاج التقليدي بشكل كبير، وخلصته من المعارف اللاتينية وأعطت أهمية أكبر للغة الإنكليزية الحديثة وأزاحت ما أسمته -الزخارف الشكلية للمنهاج-، ودعت إلى التركيز على مهارات العمل واتجاهات الترويح والمواطنة ومعارف العائلة والصحة وما أشبه ذلك. ولقد أدى ذلك إلى ظهور ما عرف باسم -المنهاج المحوري- الذي ركز على تلبية رغبات الفرد وحاجات التلاميذ بشكل أكثر فاعلية. وكان جوهر هذا المنهاج ما عرف باسم -ميادين الحياة- أي: الحياة الشخصية، والعلاقات المدنية، والعلاقات الاقتصادية. ومن القضايا التي أعطيت عناية في هذه الميادين: تعلم اللياقة الاجتماعية من خلال التأكيد على الصحة والأناقة والنظافة والترتيب،، واللياقة البدنية

(1) Herbert M. Kliebard op cit 4-7.

(2) Ibid, pp 16-24.

(3) Ibid, pp 44-50.

(4) Ibid, pp 85.

والاستعداد للزواج، وتحسين النسل والوراثة، وقواعد اختيار الأصدقاء، واكتشاف فرص العمل، ودراسة قدرات الفرد المهنية، وعلاقات المدرسة والبيت ورعاية الأطفال، والشؤون العامة والعلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ويمكن القول أن -المنهاج المحوري- كان مزيجاً من منهاج الفاعلية الإنتاجية الذي يعد الفرد للحياة المقبلة، ومنهاج النشاط الذي يتمركز حول -رغبات الطفل- ومضت جمعية التربية التقدمية تقود حركة تطوير المناهج التربوية وكثرت الكتابة عنها وعن منهاج النشاط الذي ارتبط بها، حتى صارت كتاباتها خليطاً مكوناً من مواد مختلفة مكدسة بعضها فوق بعض. ولقد تسببت فوضى الغموض الذي أحاط "بالتربية التقدمية" إلى جعل التربية هدفاً سهلاً للنقد حيث أخذت أصوات الأكاديميين تتصاعد من هنا وهناك منذرة بالخطر وداعية لإنعاش الدراسات الإنسانية والتربية الحرة على الأقل في الدراسات العليا، كما شجب آخرون ما أسموه بالانتكاس الذي أصاب ميادين التربية والثقافة الأمريكية. وبالإجمال بدأت حركة التربية الأكاديمية بالعمل ضد تربية النشاط واقتراها بالتربية التقدمية. وصارت حصيلة نصف قرن من الكد لبناء المنهاج الأمريكي كلها موضع تساؤل<sup>(1)</sup>.

ولم تخرج مفاهيم المنهاج التربوي في أوروبا الرأسمالية عن الإطار العام الذي عرضناه في القارة الأمريكية. أما أوروبا الشيوعية فلقد اعتمد التربويون على اجتهادهم في حدود الفلسفة الماركسية. ومع إن ماركس لم يكتب عن التربية بشكل مباشر لأنه حصر تحليلاته في الاقتصاد السياسي، إلا أن الماركسيين التربويين قاموا بعده بتطبيق التحليل الماركسي في مجال التربية فاعتبروا المعرفة ملكية خاصة ورأس مال ثقافي والمدارس هي المصانع<sup>(2)</sup>.

#### نقد المناهج العلمية في المدرسة التقدمية:

وفي مطلع النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي بدأت الآثار الإيجابية للمناهج العلمية التقدمية في ميدان التكنولوجيا والصناعة، ولكن آثارها في سلوك الإنسان نفسه وعلاقاته الاجتماعية ومفهومه عن الذات والحياة كانت سلبية إلى درجة كبيرة. ولذلك تعالت الأصوات مرة أخرى منذرة محذرة وداعية إلى إعادة النظر في المنهاج وميادين التربية عامة.

(1) Herbert M.. Klibard op cit pp 227-239.

(2) Madan Sarup, Mardism and Education (London, Henley and Boston: Routledge & Kegan Paul 1978) pp 129-136.



1 \_ ومن الذين أسهموا - ويسهمون- في هذه الدعوة -جورهام مانسون- الذي كتب يقول إنه لا يمكن تبرئة الرأسمالية من الضرر الذي نزل بالتربية التي قامت على علم نفس ضيق محدود تناول قطاعاً جزئياً من النفس الإنسانية هو القطاع الذي يبحث في وظيفة الإنسان الغرائزي، واعتماداً على هذا النوع من علم النفس يجري تنظيم مناهج ومؤسسات تربوية تنمي الجشع الهائل، وتمنع الدوافع الكريمة، وتصنع من الإنسان مخلوقاً تتركز رغباته في الجمع والتملك<sup>(1)</sup>.

2 \_ ومن المرين الذين انتقدوا مناهج التربية التقدمية -فردريك بولمان- الذي يذكر أن العلم التجريبي بكل قوته بدأ خارج الجامعة، ثم اكتسب مكاناً له في حصن التعلم منذ حوالي قرن. أما قبل ذلك فقد كان عمل الجامعة محصوراً في تدريس العلوم الإنسانية والعلوم الكلاسيكية<sup>(2)</sup>. وحين قامت الثورة الصناعية واحتلت الصناعة والتجارة مركز الحياة في المجتمعات الغربية صار التدريس وتنظيم المناهج في الجامعات مسخراً لخدمة الحكومات والشركات والمؤسسات الاقتصادية بسبب المنح التي تقدمها للمؤسسات التعليمية. ونتيجة لذلك انحسر الاهتمام بالعلوم الإنسانية والاجتماعية وصار محدوداً بحدود خدمتها لأهداف الذين يقدمون المساعدات والمنح المالية، وصار البحث عن الحقيقة والخير والجمال متخلفاً عما كان عليه عند بعض قدماء اليونان<sup>(3)</sup>.

ونتيجة لذلك كله تدنت مكانة الأساتذة في الجامعة وتركزت اهتمامات الطلبة حول الحصول على الشهادات<sup>(4)</sup>.

3 \_ ومن عاجل أزمة - تحديد مناهج التربية وميادينها - برنارد إيدنجز بل - الذي ركز على خطورة هيمنة الدولة على التربية. ومن أقواله في هذا الشأن:

<sup>(1)</sup> Gorham Munson, the Dilemma of the Liberal, (New York: Coward-McCarnn, 1930) p234.

<sup>(2)</sup> Clearence C.Walton & Frederick dew. Bolman (ed.) **Disorders in Higher Education**. (Englewood Cliffs, N.J. Present-Hall, Inc. 1979) P.2.

<sup>(3)</sup> Ibid, P.11.

<sup>(4)</sup> Frederick dew. Bolman "not in our star" in **Disorders in Higher Education**, PP.12-13.

"من الواضح أن أكثر ما يهدد الحرية الأكاديمية وحرية البحث عن الحقيقة هي الحكومة العلمانية المنظمة. فالحكومة العلمانية هي العدو الحقيقي للحرية الأكاديمية. إذ بالحرية الأكاديمية وحدها تستطيع التربية أن تكون وسيلة لتطوير العالم".

4\_ وأضاف - برنارد بل - أن أصل الأزمة هو ظهور - البيروقراطية التربوية - التي تشجع جانباً من النشاطات وتمنع جوانب أخرى لتلائم ممارساتها الخاصة، وهي تدعم أضييق القضايا وأدى الأهداف لتلائم مقاييس إنجازاتها في الاقتصاد والعمل. وبالتالي تتسبب في تحكّم الإنسان بالإنسان، فتضع إنساناً ما في مركز القوة، وتضع آخر في مركز التبعية، وتضع نظاماً وقيوداً تنشر العبودية والرق وتجرد الإنسان من إنسانيته<sup>(1)</sup>.

5\_ كذلك انتقد - أبراهام ماسلو - محتويات المناهج التربوية والعلمية في مواضع كثيرة من كتبه. ونقده هذا قد تناول تفاصيل واسعة تحتاج إلى دراسة خاصة مستقلة. ويرفض - ماسلو - الاعتقاد الشائع الذي يقول إن مناهج التربية والتعليم القائمة هي نموذج المنهاج العلمي الذي يوصل إلى المعرفة العلمية. وهذا القول - عند ماسلو - رأي عنصري ولا يشكل رأي العالم كله، وهو يتهمك على المناهج التربوية التي تقول بهذا الرأي فيقول:

"تلخص عبارة - الحصول على الشهادة - كل شروط التربية التي تهتم بالمهارات الخارجية. فالطالب يحصل على الشهادة بشكل أوتوماتيكي - تلقائي بعد أن يدرس عدداً من الساعات في الجامعة يشار إليها باسم الساعات المعتمدة. فالمعرفة التي تعلم في الجامعة لها "قيمتها النقدية" التي يرمز بالساعات المعتمدة مع عدم التمييز بين المواد التي تدرس"<sup>(2)</sup>.

ولقد اتسعت حركة نقد المناهج التربوية المعاصرة منذ السبعينات من القرن العشرين واتسعت في عقدي الثمانينات والتسعينات. ومحور الانتقاد الذي تمارسه هذه الحركة هو أن المنهاج التربوي القائم لا يقوم على أسس علمية - كما يزعم واضعوه - وإنما هو صادر عن عقلية تكنوقراطية هدفها استغلال المنهاج لضبط سلوك المتعلمين وتوجيههم حسب مصالح قوى الصناعة والاقتصاد المسيطرة على مقدرات المجتمعات.

Bernard Idlings Bell, **Crisis in Education**, (New York: McGraw-Hill, (1) 1949) PP.190-191.

Abraham H. Maslow. **The Farther Reaches of Human Nature**, (2) (New York: Penguin Books, 1971-1979) P.175.

– ويرى النقاد الجدد أن تنظيم المناهج بشكلها القائم أفرز عدداً من العيوب والنقائص أهمها ما يلي:

1- لم تصنف المناهج السائدة نفسها أهما – نظرية تربوية – قابلة للمناقشة والنقد والمراجعة، وإنما قدمت نفسها على أساس أنها حقائق علمية كاملة الصواب.

2- تقوم العلاقات الاجتماعية التي تنظمها المناهج التقليدية، خلال التطبيق المدرسي، على أساس الإملاء وإصدار البيانات بدل الحوار والتواصل المتبادل. فالضبط، وليس التعلم، له الأفضلية في المناهج المذكورة.

3- يعكس تخطيط المناهج وتنفيذها وتقييمها طبيعة المعرفة والعلاقات الاجتماعية بين الطبقات وتوزيع القوى في المجتمع. وانطلاقاً من هذه القاعدة يمثل المنهج التقليدي التزاماً صارماً بالعقلية التقليدية المهيمنة سياسياً واجتماعياً والتي تستهدف الحفاظ على الأوضاع القائمة (1).

4- يخلو المنهج القائم من القواعد الأخلاقية الضرورية لتنظيم حياة الإنسان وعلاقات الجماعات (2).

5- تمتلئ الثقافة المدرسية السائدة بالممارسات التي تتصف بالهيمنة وتهدف في الغالب إلى ترويض الطلاب وتدريبهم على حياة الإذعان والانقياد للأوامر إضافة إلى تجريد المعلمين الذين يعلمونهم من الكفاءة والمهارة (3).

وبسبب هذه العيوب يرى النقاد ضرورة التركيز على خبرات تربوية تسهم في تطوير منهاج يفرز ثقافة العدالة الاجتماعية والمحبة وتبادل العواطف (4).

### نماذج من الباحثين في أزمة المناهج الحديثة

1 \_ مارتن كارنوي.

ومن الباحثين البارزين في نقد التربية الحديثة البروفسور – مارتن كارنوي – الذي كرّس أبحاثه للكشف عن الدوافع الحقيقية لأصل التربية الحديثة في أمريكا. ومما كتبه في هذا المجال أن الهيمنة

(1) Henry A Giroud, **Teachers As Intellectuals**, (Granby: Massach Bergin & Grabey Publishers, Inc. 1988) PP.12-15.

(2) Ibid. PP.19-20.

(3) Peter McLaren, "Forward" in **Teachers As Intellectuals**, P.ci.

(4) Dabid E. Purple. **The Moral & Spiritual Crisis in Education**, P.121.

على التعليم بدأت في ولاية ماساشوسس في الفترة ما بين 1840 – 1850م وهو ما عرف بأول إصلاح تربوي. أما الإصلاح الثاني فقد بدأ في الفترة ما بين 1900 – 1920<sup>(1)</sup>، حيث تداعى رجال الصناعة وقادة الإصلاح التربوي في عام 1860م لإنشاء التعليم العام. وكانت أهداف هذا التعليم تتلخص في إيجاد طبقة جديدة من العمال المؤهلين للعمل في الصناعة الجديدة والتخلي عن صفات عصر الحرف اليدوية والدكان الصغير، طبقة عمال جديدة يتم تدريبها على طاعة السلطة في المصنع وعلى دقة الوقت والانضباط في العمل، وقد قاوم العمال والطبقات الدنيا هذه الفكرة لأنهم لم يروا فيها فائدة لهم ولأنها أضفت عليهم ضرائب جديدة لدعم المدارس الجديدة وتمويلها. ولكن هذه المقاومة لم تفد كثيراً وانتشرت مدارس التعليم العام وهيمن عليها رجال الصناعة وحلفاؤهم من أنصار الإصلاح التربوي.

ولقد جاءت النظم الإدارية والتعليمية في التعليم الجديد مطابقة لما يقاومها في نظم العمل في المصانع. ولنجاح سلطة العمل الجديدة تم التخطيط لتحطيم سلطات المؤسسات القديمة كالعائلة والكنيسة والتقاليد الاجتماعية للحي أو المنطقة. كذلك خطط أنصار التربية الجديدة لجعل التعليم الجديد يوجد في الفرد رقابة داخلية وتطبيع داخلي لحياة العمل الجديدة يخففان كثيراً من الحاجة لرقابة السلطة الرسمية<sup>(2)</sup>. واعتقاداً بأن النساء أصلح لتعليم الأطفال وأقل كلفة مالية فقد عمل الإصلاح التربوي الجديد على إسناد التعليم لهن، ولذلك ارتفعت نسبة المعلمات في المدارس الجديدة في الفترة ما بين 1840 – 1860 حتى هبطت نسبة المعلمين الذكور إلى 14%<sup>(3)</sup>.

أما بالنسبة للمناهج فقد تم تصنيفها حسب التصنيف الطبقي للمجتمع حيث تم تخصيص – منهاج النشاط – الذي يركز على حرية التلميذ ويوفر فرص الحركة والنشاط له مدارس الطبقات العليا والمدارس الخاصة وذلك لتمكين أبناء هذه الطبقة من تذوق الحرية وتدريبهم على التفكير إزاء المشكلات التي يواجهونها تأهيلاً لهم لمراكز القيادة في المستقبل؛ بينما حُصص – منهاج العمل أو منهاج المادة الدراسية – الذي يتسم بالعمل والانضباط

<sup>(1)</sup> Martin Carnoy, **Education As Cultural Imperialism**, (New Yorl: Longman Inc. 1974) P. 235.

Longman Inc. 1974) P. 235.

<sup>(2)</sup> Ibid, PP. 238-241.

<sup>(3)</sup> Ibid, PP. 242-243.

لمدارس التعليم العام حيث يدرس أبناء الطبقات الدنيا العاملة وذلك ليتدربوا على حياة العمل والانضباط في المصانع والدوائر والجيش<sup>(1)</sup>. وكذلك وضعت مقاييس الإرشاد المهني وأدواته لتكون وسائل لتصنيف الدارسين وتوجيه أبناء الطبقات العامة نفسياً إلى الدراسة المهنية<sup>(2)</sup>. كذلك وضعت امتحانات القدرات والتوجيه التربوي والمهني التي استمدت محتوياتها من ثقافة الطبقات العليا الأمر الذي سهل لأبناء هذه الطبقات النجاح في هذه الامتحانات وهياً لهم الوصول إلى مراكز القيادة في الوقت الذي وضع العراقيل وقلل فرص النجاح أمام أبناء الطبقات الدنيا وجعلهم يعتقدون أن هذه الامتحانات تيسر لهم فرص النجاح أمام أبناء الطبقات الدنيا وجعلهم يعتقدون أن هذه الامتحانات تيسر لهم فرصاً عادلة ضمن حدود قدراتهم وإمكاناتهم، وبذلك حمل هذا التصنيف التربوي الطبقي مسؤولية تحديد مستقبل الفرد للفرد نفسه في الوقت الذي أخفى الأهداف الطبقيّة التي وجهت هذا التصنيف، وأضعف إرادة الفرد عن مقاومة المظالم الاجتماعية التي نزلة به في المجتمع الطبقي الذي يستأثر رجال الصناعة والاقتصاد فيهبكل شيء.

واخيراً يخلص - مارتن كارنوي - اللا القول ان هيكل التعليم القائم حالياً في الولايات المتحدة لو يكن عفويًا , وانما تم تخطيطه طبقاً لمصالح رجال الصناعة والتجارة ورغباتهم , وانه قام على فلسفة اقتصادية معينة تستهدف اقناع المتعلمين بان الاغنياء يستحقون الثروة والقوة , وان من صالح المجتمع ان يتم تقسيمه طبقاً لهذا المفهوم.

على ان اعمال النقاد التربويين المعاصرين لا تخلو من ملاحظة سلبية وهي ان غالبية هؤلاء يقفون عند تحليل سلبيات المناهج القائمة دون تقديم بديل شامل متكامل. والذين يحاولون طرح البديل يعانون من الحيرة والتخبط والاضطراب , ومثال ذلك - بيتر آبس - الذي بنى محاولته حول فكرة خلاصتها: إن الحضارة الغربية اعطت قيمة كبيرة ل((المفهوم)) على حساب (( الصورة)). ولذلك اهتمت ب (( العلوم العقدية )) على حساب (( الفنون)). وهذا بدوره ادى الى ضعف الوجدان الحي عند الانسان الذي تحول الى وجود آلي يشبه الآلات التي يتعامل معها.

Ibid, P. 254.<sup>(1)</sup>

Ibid, P. 251.<sup>(2)</sup>

## 2 \_ نقد بيتر آبس.

وللخلاص من هذه الازمة دعا- بيتر آبس - الى تعميق اثر الصورة في النفس حتى يبلغ منزلة - نظرية المعرفة - , لانه من خلال الصورة يمكن اكتشاف حقائق لا يمكن الوصول اليها بادوات معرفية اخرى. ويرى ايضاً ان المشكله هي في منهج المعرفة العقلي التي احتكرت الوصول الى الحقيقة واستبعدت الادوات الاخرى. فالفيلسوف يصوغ (( المفهوم )) والرسام يصوغ (( الحقيقة )) , والحقيقة تتطلب تظافر الاثنين لأننا نحلم ونتخيل بالصورة وناقش بالمفاهيم. ولذلك - حسب رأي بيتر آبس - حان الوقت لاعادة تقديم صور الآلهة ورموز الصنمية لأنها تقع في أعماق الروح وتجسد صور السلوك الخالد ودوافع الإنسان.

و "آبس" في الدعوة لإعادة الصور ورموز الأصنام متأثر بآراء - جيمس هلمان - الذي اقتبس عنه قوله: "ربما لم تكن الأصنام انحرافاً في الضمير الإنساني. إذ من خلال عبادة الصور والأيقونات كان بمقدور الناس أن يقوموا بالاتصال المباشر مع طاقاتهم الغريزية ومع أحلامهم وهوياتهم المدفونة في الأعماق<sup>(1)</sup>.

ولقد خلص - بيتر آبس - بعد هذا التقديم إلى تقرير ملاحظات ثلاث هي:

الأولى؛ وجوب التركيز على دور الفنون في المنهاج التربوي، لأن الفنون في الوقت الحاضر إما مهملة أو يُساء فهمها.

والثانية؛ وجوب الانتباه إلى أساليب اللغة الجافة التي أشاعها الأسلوب العلمي وضرورة تطوير أساليب لغوية أكثر إنسانية.

والثالثة؛ احتمال وصف بحثه بالطوبائية - أي الخيال الذي لا يتحقق - ولذلك فهو يجيب عن هذا النقد المحتمل بالقول إنه يعترف بأنه أسلوبه يتصف بالطوبائية في بعض المواقع، ولكن الطوبائية utopia ضرورة للدعوة إلى التحرك والبحث عن بديل جديد للمناهج التربوية القائمة وعن أصول جديدة للحياة لأن الأصول القائمة أصبحت صدئة بالية، ولأن التقدم التكنولوجي القائم والحضارة القائمة يقتربان من الدمار<sup>(2)</sup>.

<sup>(1)</sup> Peter Abbs "Education and the Libing Image in Toward the Recovery of Wholeness: Knowledge, Education and Human Values. Ed. By Douglas Sloan (New York: Teacher College Press: Columbia Unibersity, 1984) PP. 103-105.

<sup>(2)</sup> Ibid, PP. 120-124.

(2) الفصام بين "الإنسانيات" و "العلوم" في مناهج التربية المعاصرة:

ظهر الصراع بين ((الإنسانيات)) و ((العلوم الطبيعية)) بشكل واضح في القرن الثامن عشر الميلادي<sup>(1)</sup> عندما قادت النجاحات الكاسحة في ميدان العلوم الطبيعية إلى الاعتقاد بأنه يمكن الوصول إلى معرفة كل شيء، بما فيها طبيعة الإنسان بنفس الطرق المستعملة في موضوعات العلوم الطبيعية، وهذا ما رفضه علماء الإنسانيات لأن طبيعة الإنسان تختلف عن طبيعة الجمادات والنباتات. ونتيجة لذلك اتسعت الهوة بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، وسارت العلوم الطبيعية وحدها دون علم يعالج المنافع التي يحصل الإنسان عليها من التكنولوجيا والأثمان التي يدفعها مقابل ذلك<sup>(2)</sup>.

كذلك انعكست الخلافات بين أنصار العلوم الطبيعية وعلماء الإنسانيات على المنهج التربوي فحالت دون تقديم طروحات تحقق التوازن فيه. فالعلماء الطبيعيون أرادوا زيادة مقررات العلوم والرياضيات، بينما أراد علماء الإنسانيات نفس الشيء بالنسبة للعلوم والإنسانية. ولكنهم وجدوا أنفسهم دائماً في موقع الدفاع أمام ضغط المطالبة بزيادة التركيز على العلوم والرياضيات، وصاروا يشعرون أنهم يخوضون معركة خاسرة ومحيرة لأن الطرف الآخر يبدي عناية زائدة بالمهارات التكنولوجية ويهمل القدرات المعنوية والإبداعية الأخلاقية والفنية. ويعلق - برنارد ر. جيفورد - على هذا الوضع فيقول إنه إذا استمرت الفجوة القائمة بين العلماء الطبيعيين وعلماء الإنسانيات دون تشخيص ومعالجة فسوف تزداد الهوة وتستمر الأزمة إلى الحد الذي يصعب علاجه<sup>(3)</sup>.

3 \_ نقد البروفسور - سنو - .

ويرى البرفسور - سنو - أن الفجوة القائمة غير قابلة للردم لأن علماء الإنسانيات يعتقدون أن العلماء الطبيعيين سطحيون لديهم فهم ضحل عن الإنسان بينما يعتقد العلماء الطبيعيون أن

<sup>(1)</sup> Joseph Adelson, "The Social and the Humanities" in **Challenges to the Humanities**. Ed. By Chester E.Finn Jr. & Others, (New York: Holmes and Meier, 1985) PP.100.

<sup>(2)</sup> Bernard R. Gifford, "The Natural Sciences and the Humanities" " in **Challenges to the Humanities**. Ed. By Chester E.Finn Jr. & Others, PP.122-123.

<sup>(3)</sup> Ibid, PP. 109-112.



علماء الإنسانيات يفتقرون إلى النظر المستقبلي ولا يهتمون بما حولهم، وهم جامدون على ما ورثوه من معارف وفنون<sup>(1)</sup>.

4 \_ وليام ماي.

ولقد استعرض - وليام ماي - الانتقادات التي توجه إلى ((العلوم الإنسانية)) والتي تقول أنه لا مكان لهذه العلوم في المجتمعات الديمقراطية والعصور التكنولوجية الحديثة. وعلق على الأزمة المذكورة بالقول إن المأزق الذي يواجه أنصار الإنسانيات هو حاجة هذه العلوم إلى بلورة هويتها لأنها تعيش محاطة بعلوم غريبة عنها، ولا تبرز لها ثمار نفعية مباشرة، ولا توفر فرص العمل والثراء للمختصين بها<sup>(2)</sup>.

ويختلف الباحثون في نشأة الفجوة بين العلوم الطبيعية والإنسانيات وفي أسبابها. فأناس يرجعونها إلى أيام اليونان القدماء حينما اعتبر أفلاطون الشعراء خطراً على جمهوريته المثالية، ثم استمرت الفجوة المذكورة في الارتياح الذي أبدته الكنيسة إزاء الآداب الدنيوية، ثم جاء عصر الصناعة والتكنولوجيا فأوجد ثقافتين متنافرتين: ثقافة علمية تنظر للمستقبل وتتطلع للتقدم، وثقافة إنسانية تنظر للماضي وتحن للعودة إليه<sup>(3)</sup>.

5 \_ برنارد جيفورد.

ويرى - برنارد جيفورد - أن جذور الفجوة القائمة بين العلوم والإنسانيات تعود إلى عهد النهضة الأوروبية في القرن السادس عشر الميلادي حين وقعت الفجوة بين الكنيسة ورجال العلم<sup>(4)</sup>.

<sup>(1)</sup> C.P.Snow, **The Two Cultures**, ( Cambridge, Unibersity Press, 1963) PP. 60-61.

<sup>(2)</sup> William F.May, **The Humanities and the Civic Self**, (Bloomington Indiana: Indiana Unibersity Press, 1979) PP. 5-15.

<sup>(3)</sup> Moody E.Prior, **Science and the Humananities**. (Ebanston: North Western Unibersity Press, 1962) PP. 45-47.

<sup>(4)</sup> Bernard R.Gifford, **OP.Cit**, PP. 112-122.

## 6 \_ آرنست بيكر.

وأما - آرنست بيكر - فقد ذكر أن أزمة الانشقاق بين ميادين المعرفة

وعدم وضوح هذه الميادين هي عميقة الجذور في تاريخ الفكر الغربي وتكمن في منابع الحضارة الغربية وأصول مجتمعاتها. فهي تتجسد في - الفكر الألماني - وسعيه وراء تجسيد - الروح العامة - أو ما عرف باسم (( المثالية الروحية )) التي جسدها أمثال شيلر Schiller وجوته Goethe وليسنج Lessing وهيردر Herder وفخته Fichte وهيكل. وهي فلسفة تطلعت الى اخراج انسان يتجسد في وجرده المجتمع والكون والتاريخ. كذلك يجسد هذا الانشقاق العقلية الفرنسية التي دمرت القيم التقليدية.

كذلك ناقش - آرنست بيكر - مشكلة ضعف العلوم الانسانية في التربية الغربية عامة , فدعا الى مواجهة هذه الازمة بشجاعة ووضوح اذا اراد الغربيون احكام النضام الاجتماعي. وذكر ان من الاسباب التي تجعل من الاصلاح الاجتماعي في الغرب يبرز دائماً ضعيفاً , وينقلب ضد الانسان الغربي هو ان التربية استبعدت البعد الروحي والتسامي بالنفس اللذين يعطيان الحياة الدنيوية معنى اسمي. وبذلك يحقر الانسان نفسه وينتقصها من داخلها وخارجها ويصبح شيئاً ميكانيكياً جامداً يتحرك كأنه موصول بسلك كهربائي وبتقنين مبرمج للبحث عن شهوات النفس الامر الذي يحيله الى شيء يستحق الشفقة.

وفي العصور الحاضرة تجمعة عدة اسباب لحدوث الانشقاق بين الانسان والعلوم الطبيعية في الغرب , خاصة في المجتمع الامريكي , وهذه الاسباب هي:

السبب الاول؛ تقسيم المنهاج الدراسي وضور التخصص الامر الذي جزأ شخصية المتعلم وافرز انساناً جديداً لا يكرس نفسه للدين والإله وإنما للمعرفة والاكتشاف.

السبب الثاني؛ هو ان البحث العلمي بدأ خارج الجامعات بتمويل الاغنياء من رجال المال والاعمال اللذين انشأوا الأكاديميات والجمعيات العلمية , كما حدث في فرنسا خلال القرن الثامن عشر. اما دخول البحث العلمي الى الجامعات فقد بدأ في المانيا في القرن التاسع عشر حيث اقيمت المختبرات العلمية في الجامعات التي اصبحت فيما بعد مراكز التجارب العلمية وميادينها.

و حين هيمنت الشركات الكبرى على الجامعات , بسبب المنح المالية التي تقدمها لها , قامت بتحويل مسار العلوم الاجتماعية ووضعها في خدمة المؤسسات الاقتصادية في الانتاج والاستهلاك والسيطرة على الاسواق.

وتتعالى الأصوات لمعالجة الانشقاق القائم في المناهج الدراسية وميادين المعرفة، من ذلك ما قاله - فرانك تاننوم - الذي كتب يقول إن الخطأ الكبير في القرن الأخير هو الافتراض بأنه يمكن تنظيم المجتمع بكامله طبقاً لدوافع الربح والاقتصاد. فالإنسان لا يعيش بالخبز وحده، والشركات الكبرى التي تقدم الخبز والكيف أثبتت عدم جدارتها لمواجهة مطالب الحياة الصالحة<sup>(1)</sup>.

## 7 \_ جوزيه أورتيجا جزيت.

ومثله - الفيلسوف الإسباني الشهير - جوزيه أورتيجا جزيت Jose Ortega Y. Gasset الذي كتب في كتابه - رسالة الجامعة - يبحث العالم كله على إعادة الجامعة لدورها كقوة روحية عظيمة، وتمكينها من القيام برسالتها الأصلية: "رسالة التنوير والثقافة"، وأن تعالج ثقافة العصر وتكشف لبني الإنسان حقيقة عالم اليوم الهائل، بدل التحول إلى معهد تدريب مهني لرجال المال والصناعة والأعمال<sup>(2)</sup>.

وتذكر - هيلدا تابا - أن العلماء في الغرب يعترفون بأن التركيز على العلوم الطبيعية ومناهجها العلمية وحدها عطلّ الحس الإنساني عن المسؤولية الاجتماعية وجعل الإنسان عاجزاً عن عمل شيء بالنسبة لحياته ومصيره، وجعل الإنسان الغربي يركز على الإنتاج المادي كهدف أسمى للحياة<sup>(3)</sup>.

واستمرت حملة الانتقاد للفصل بين الإنسانيات والعلوم في - المناهج - الحديثة خلال عقدي السبعينات والثمانينات من هذا القرن وقادها نفر غير قليل عرفوا باسم - المراجعين Revisionists. ومن البارزين بينهم البروفسور - جول سبرنج - الذي ركز على البحث في تاريخ التربية الحديثة وإبراز بدايات الانحراف فيها ومساره والعوامل المؤثرة فيه. ومن النتائج

Frank Tannenbaum, **A Philosophy of Labor** (New York: Alford A. (1) knopf, Inc. 1952) P. 168.

Ernest Becker, **OP. Cit**, P.72.<sup>(2)</sup>

Hilda Taba, **OP. Cit**, P.44.<sup>(3)</sup>

التي توصل إليها أن بذور النقص في التربية الحديثة بدأت من الثورة الصناعية عندما أشار - آدم سميث - إلى أن التخصص الصناعي الحديث سوف يحيل الصانع إلى مخلوق غبي وجاهل عاجز عن الاستمتاع بأي حوار عقلي، أو تذوق أية مشاعر نبيلة أو حساسة.

ويضيف - جول سبرنج - أن واقع التربية المعاصر يثبت ما توقعه - سميث - لأن النظام التربوي الحديث أفقد الإنسان الإحساس بإنسانيته وصلته بالمجتمع، وأحاله إلى جزء من المصنع أو دائرة العمل أو مجرد ملحق بعملية الإنتاج، وذلك من خلال الفصل بين الدراسات الإنسانية والدراسات المهنية، الذي يعني فصلاً بين العقل والعضل، فمن أريد له العمل العضلي أهملت فيه تربية العقل، وكانت نتيجة ذلك تحطيم الإنسان والحياة الاجتماعية وإفراز رقيق جديد هو رقيق المصانع ودوائر العمل. ويضيف - سبرنج - أن حياة العامل في عصر الصناعة اليدوية كانت أفضل من حياته الحاضرة لأنه كان يتحكم بأداة العمل ويستعمل قدراته العقلية والعضلية في تشغيلها. أما في عصر الصناعات الآلية وتقسيم التخصص فقد أصبح يقوم بالعمل العضلي بينما يقوم المدير بالعمل الفكري. ولقد نتج عن ذلك عدة نتائج هي:

- 1- تحكّم صاحب العمل بالعمال وتسيير عقولهم بالشكل الذي يريد.
- 2- اعتقاد الطبقات الحاكمة في المجتمعات الصناعية بوجود الفصل بين الفكر والعمل في كل ميدان من ميادين الحياة.
- 3- انقسام المجتمعات إلى طبقتين: طبقة تعمل بدون تفكير ولا تملك شيئاً من المؤهلات الثقافية وما يتفرع عنها من قيم وأخلاق وصفات إنسانية رفيعة، وطبقة تفكير ولا تعمل وتجنّي ثمار عمل الطبقة العاملة، الأمر الذي أدى إلى خلق هوة سحيقة بين الطبقتين وإفراز الاعتقاد بامتيازات مطلقة للطبقة التي تمتلك الثقافة والفكر، وأفرز الاعتقاد بوجود تبعية الطبقة العاملة بشكل مطلق.
- 4- ظهور نوعين من الأخلاق المتباينة بين الطبقتين. فالطبقة التي تفكر وتجنّي ثمار العمل مالت إلى أخلاق الترف والاستمتاع والعجرفة، بينما شاع في الطبقة العاملة المحرومة الإحساس بالضعف والاعتراب وتحولت إلى قطعان سائبة لا ترقى إلى فكرة رفيعة أو خلق سام.
- 5- اتصاف حياة الفرد من كلا الطبقتين بالروتين والسّامة وعدم القدرة على التكيف مع التطورات الاجتماعية وعدم الاستمتاع بالعمل والحياة<sup>(1)</sup>.

Joel Spring, Education the Worked Citizen, (New York: Longman Inc. 1980) PP. 25-27.

### جـ-أزمة النشاطات التعليمية في المناهج التربوية المعاصرة:

تعرف النشاطات التعليمية بأنها الممارسات العملية لتطبيقات المحتوى النظري أو تلك التي تصاحبه. وهي ذات أثر بالغ في تشكيل خبرات المتعلم وتربيته<sup>(1)</sup>. ولذلك تركز الاهتمام بهذه النشاطات عند فريق من الباحثين التربويين الذين ركزوا بحوثهم على فحص المعارف والعلاقات الجارية في المدارس والجامعات وبرز نتيجة لذلك ما يعرف باسم - اجتماعيات التربية - ولقد لفتت هذه الاجتماعيات التربوية الأنظار إلى أهمية ما أسمته بـ "المنهاج المستتر Hidden Curriculum" الذي يشير إلى ظاهرة تعلم الطلبة من أجواء المدرسة ومن الأنشطة والعلاقات الجارية فيها أكثر مما يتعلمونه من محتويات المنهاج الرسمي الظاهر<sup>(2)</sup>. وأول من استعمل اصطلاح "المنهاج المستتر" هو العالم إيدجار ز. فرايدنبرج Edger Z.Friedenberg في مؤتمر عقد في أواخر الستينات من القرن العشرين. ثم شاع البحث في المنهاج المستتر وتناوله الكثيرون بالتحليل والتقييم. ولقد عرفه -هنري جيرو- بأنه: المعتقدات والعادات غير المدونة التي يراد تسريبها إلى أشخاص الطلاب من خلال القوانين والإجراءات التي تنظم عمل المدرسة والعلاقات الاجتماعية فيها. فحين يشدد في المدرسة على طاعة القوانين واللوائح دون نقاش فإن ذلك يوحي للطلاب بالخضوع للسلطة المطلقة خضوعاً أعمى. وحين يركز منهاج التاريخ على الحكام دون العلماء، أو الأغنياء دون الفقراء أو الرجال دون النساء، فإن ذلك يوحي للطلاب من هو المهم الذي يجعلونه ويرهبونه.

والغاية من "المنهاج المستتر" هو ترويض الطلبة على مفاهيم وأنماط سلوك يراد لهم أن يحيوها في المستقبل، وأن يتقبلوا المواقع الاجتماعية والأدوار المقررة لكل منهم. والمنهاج بهذا الشكل قد يكون نافعاً ينبه الطلبة ويدربهم لحياة اجتماعية أفضل، وقد يكون ضاراً يكرّس عدم المساواة والخنوع والظلم.

و"المنهاج المستتر" السائد في التربية الحديثة يكرس مفاهيم العمل الصناعي والتجاري وقيمه وعاداته من حيث أداء العمل والانضباط وطاعة الأوامر وغير ذلك. وهو يصنف المعرفة إلى درجات. ويغرس في نفوس التلاميذ تفوق المعارف التي تحقق المكاسب المادية على غيرها من

<sup>(1)</sup> Robert S. Zais, **OP. Cit**, PP. 350-354.

<sup>(2)</sup> Benett & Le Compte, **How School Work**, (Newy York: Longman, Inc.

1990) P. 188.

المعارف. ويعمل على تهيئة أبناء الفقراء الذين يدرسون في المدارس العامة الرسمية للأعمال المهنية، وتهيئة أبناء الطبقة الوسطى الذين يدرسون في المدارس الخاصة، للإدارة والوظائف العليا. كذلك يعمل - المنهاج المستتر - على تحديد مفهوم الطالب عن نفسه وذاته حيث إن فشله في المنهاج الصعب أو غير المناسب يجعله يلقي اللوم على نفسه، وتتكون لديه صورة متدنية عن ذاته. وفي المقابل فإن من يسهل المنهاج نجاحه يكون عن ذاته صورة عليا تجعله ينسب النجاح لقدرات متميزة فيه. أي أن المدارس في التربية الحديثة تطور عادة "لوم الضحية" و "مكافأة المستغل"<sup>(1)</sup>.

ويرى - بولو فرير - أن المنهاج المستتر المصاحب للمنهاج التربوي الرسمي الظاهر في العالم الثالث كان من الأدوات الرئيسة لضمان "ثقافة الصمت" عند من لا يملكون، ولدمج الناشئة في النظام الاجتماعي القائم وجعلهم يقبلون منطقة المساوي ويسهمون في المحافظة على استمراره<sup>(2)</sup>.

أما - فيليب ن. جاكسون - فيرى أن عناصر المنهاج المستتر تتشكل بفعل ثلاثة مفاهيم هي: التكديس البشري، والمدح، والقوة. ذلك أن تكديس التلاميذ في غرف الصفوف يعلمهم على حياة القطيع والتجمعات العمالية في مجتمعات الصناعة والتجارة والأعمال، ويدربهم على انتظار أدوارهم في العمل، وتأجيل حاجاتهم ومطالبهم، والبقاء صامتين هادئين مهما كانت درجة الضجر والمعاناة.

أما عن المفهومين الثاني والثالث أو - المدح والقوة - فإن التلاميذ يتعودون على تلقي المدح والرضي، إذا أحسنوا الإنجاز، من مصدر واحد هو المعلم الذي يلعب دور مدير العمل في المستقبل، بينما يقوم التلاميذ بأدوار جماهير العمال والموظفين العاجزين الذين لا حول لهم إلا انتظار الرضى أو الغضب، والمدح أو الانتقاد، والمكافأة أو العقوبة من صاحب القوة والنفوذ<sup>(3)</sup>.

#### د- أزمة التقويم في ميادين التربية المعاصرة:

التقويم هو البحث العلمي أو الموضوعي في نتائج العملية التربوية في ضوء الأهداف المتبناة للوقوف على مدى حصول التغييرات في السلوك أو الأوضاع ثم تقييم هذه التغييرات

<sup>(1)</sup> Benett & Le Compte, **OP. Cit**, PP. 188-191.

<sup>(2)</sup> Richard Shaul, "Forward" in **Pedagogy of the Opressed**, by Paulo

Freire, (New York: the Seabury Press, 1968) PP.10-11.

<sup>(3)</sup> Henry A. Giroud, **Theschers as Intellectuals**, PP.32-33.

استناداً إلى قيم ممثلة في الأهداف التي تحققت. والتقويم بهذا المعنى يرتبط بالمفهوم التقني الذي يُعرّف المنهاج على أنه تنظيم المواد الدراسية في المدرسة<sup>(1)</sup>.

ولقد كان التقويم في التربية الحديثة قبل القرن العشرين لا يأخذ باعتباره النتائج العملية للتربية لأن منهاج الدراسة كان يسبغ صفة الكمال على المادة الدراسية ولا يتناولها بالتحليل، وإذا لم يستطع الطلبة التعلم ولم يحدث تغيير في أنماط السلوك عندهم، فإن اللوم يوجه إليهم وحدهم، وتعزى أسباب الفشل إلى أشخاص وأساليب تعليمهم.

وفي مطلع القرن العشرين - وخلال النصف الأول منه - ظهرت التربية التقدمية وركزت على إظهار عيوب التقويم القديم، ودعت إلى تقويم النتائج والمنهاج نفسه بدل إسباغ الكمال عليه ولكن مفهومها عن التقويم كان ضيقاً انحصراً في المواد الطبيعية ولم يمتد إلى "العلوم الإنسانية" التي ما زالت تنال انتباهاً ثانوياً في التربية الغربية بشكل عام. وفي النصف الثاني من القرن العشرين تركز مفهوم تقويم نتائج المنهاج في المهارات التكنولوجية والمردود المالي، وانعكس هذا المفهوم على أساليب التقويم العملية حيث اقتصر التركيز على جوانب الإنجاز المادي والنمو المحسوس في مهارات المتعلمين دون الاهتمام بالجوانب الأخرى، وهذا هو طابع الامتحانات الموضوعية التي روجت لها المدارس التربوية<sup>(2)</sup>.

ومنذ بدء النصف الثاني من القرن الحالي حتى الوقت الحاضر أخذ مفهوم التقويم المشار إليه يتعرض للنقد مثله مثل بقية عناصر المنهاج. وقد اتخذ هذا النقد عدة أشكال منها اتهام التقويم الحديث بأنه يميل للتعامل مع الأفراد بمصطلحات تكنولوجية اقتصادية ناقصة الإنسانية لأن التربية الحديثة نفسها أصبحت عملية استثمارية ضيقة. ولذلك فإن ما يحتاجه التقويم الحديث هو إيديولوجية تربوية جديدة ينمو الإنسان من خلالها ويُقوّم بشكل أرفع وبتصور كامل لإنسانيته، باعتباره كائن مستقل الإدراك متميز المكانة في سلم المخلوقات، وأنه يصنع المعاني ويبني العالم<sup>(3)</sup>.

<sup>(1)</sup> George Willis, "The Human Problems and Possibilities of Curriculum Education" in **The Curriculum**. Ed. By Landon E. Beyer & Michael W. Apple, (State University of New York Press, 1988) PP. 320-325.

<sup>(2)</sup> Hilda Taba, **OP. Cit**, PP. 312-312.

<sup>(3)</sup> George Willis, **OP. Cit**, PP. 325-326.



وثمة شكل آخر للنقد الموجه للتقويم الحديث أنه - من خلال العلامات التي يستعملها في الامتحانات - يلعب دور المكافأة والعقوبة مما يؤثر في الصورة التي يكونها الطلبة عن أنفسهم. ففي التقويم الجاري حالياً تنتزع التربية الأفراد من المجموعات التي ينتمون إليها فتكافئ أولئك الذين ينالون علامات تمنحهم قيمة عالية في المجتمع الواسع، وتنقص من الحاجات النفسية عند أولئك الذين يضعهم ذكائهم وقدراتهم العقلية في مستوى أقل. وبهذه الطريقة يتهبأ الطلاب لقبول أحكام السلطات البيروقراطية حول صفاتهم الشخصية وما يتبع ذلك من تفاوت في الجوائز والعطاء في سوق ينال الرضى من المشتركين فيه<sup>(1)</sup>.

ويرى - مارتن كارنوي - أن خبراء التربية التقدمية قد ابتكروا نظام القياس والتقويم والامتحانات المستعملة فيه كأداة من أدوات الضبط الاجتماعي من أجل مصلحة الطبقة العليا في السلطة والتملك، وأن مؤسسات التربية الحديثة تعمل - من خلال الامتحانات - على تهيئة الناشئة للرضى بمكانتهم وبالطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها ذلك إن نتائج الامتحانات تغرس في نفوس الطلبة أنهم عوملوا بالعدل وأعطوا الفرصة لاستعمال قدراتهم كاملة، ولذلك فهم أنفسهم المسؤولون عن فشلهم أو نجاحهم في الحياة. وبذلك تضع الامتحانات المسؤولية في فشل الأفراد على عاتق الأفراد أنفسهم، وتصرف أنظارهم عن مسؤولية النظام الاجتماعي - الاقتصادي القائم، فيلوم الفرد نفسه إزاء فشله في المكانة والثروة وتصبح احتمالات المعارضة والثورة ضد النظام القائم أقل عنده من الشخص الذي يعتقد أن النظام القائم هو نظام طبقي جائر يقوم على الظلم والاحتكار<sup>(2)</sup>.

<sup>(1)</sup> George A. Smith, **Education and the Environment**.

Martin Carnoy, **Education as Cultural Imperialism**, (New York: (2) Longman Inc. 1974) P. 253.

## الفصل الثالث

### التطلع إلى مناهج تربوية شاملة ومتكاملة للخروج من الأزمة القائمة

بدأ الإحساس بالأخطار الناجمة عن تجزئة موضوعات المنهاج وتدني علوم الإنسان فيها منذ مطلع القرن العشرين. ولكن اشتعال الحرب العالمية الأولى حال دون معالجة المشكلة. ثم استؤنفت المحاولة في عقدي الثلاثينات والأربعينات، ولكن الحرب العالمية الثانية عطلت أيضاً هذه المحاولة حتى الستينات حين أصبحت قضيته وحدة المعرفة قضية حاسمة<sup>(1)</sup>. وعلى أثر ذلك قامت - في أمريكا - حركتان فكريتان للعمل على معالجة الانشقاق في ميادين المناهج التربوية وتفتت الفكر الناتج عن التخصص والتقدم في ميادين العلوم الطبيعية. ولقد عرفت الحركة الأولى باسم - حركة الإنسانية الجديدة **The New Humanism** - . وكانت خلاصة أفكارها هي العمل على حل أزمة التربية وتجزئة المعرفة من خلال الدعوة إلى تخطي العصور الوسطى وعصر الإصلاح وميراث القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ثم العودة إلى فترة - ولادة الإنسان العقلاني - التي طمستها عصور الرومانسية والاختلافات الدينية، وهيمنة العلم الميكانيكي الذي يرفض أفضلية الإنسان ويكرس الجهود لعبادة عالم الأشياء.

ومع أن حركة الإنسانية الجديدة لم تنجح إلا أنها أفرزت حركة أخرى عرفت باسم - برنامج الكتب العظيمة - . ورائد هذه الحركة هو - روبرت م. هوتشنيز - رئيس جامعة شيكاغو آنذاك. ومحور هذه الحركة هو القول إن علماء الماضي كانوا قادرين على البحث في القضايا الكبرى: قضايا النشأة والحياة والمصير، بسبب معارفهم الواسعة التي استمدوها من الكتب العظيمة<sup>(2)</sup>. ولكن ظهور التخصص وتجزئة المعرفة الحديثة أديا إلى اغتراب الإنسان المثقف ومحاصرة العلماء والجامعات في اهتمامات رجال التجارة والاقتصاد الذين يستغلون المعرفة لزيادة الأرباح. لذلك صارت القيم التجارية توجه عمل الجامعات وصارت الحاجة ماسة إلى إعادة تنظيم برامج الجامعة لتقدم وحدة الحياة والقضايا الإنسانية الكبرى، ولتفتح للجميع

(1) Ernest Becker, Op, Cit, PP. 5-6.

(2) Ibid, PP. 12-16.

بدل الاقتصار على خدمة مصالح النظام التجاري - الصناعي القائم وإعداد الموظفين الذين يحتاجهم هذا النظام<sup>(1)</sup>.

\_ محاولات اصلاح المناهج الأمريكية:

ولقد تعرض - برنامج الكتب العظيمة، وحركة الإنسانية الجديدة - لنقد شديد خلاصته أهمها حركتان مغتربتان في الماضي الهيبني والعصور الوسطى، ومعزولتان بموة سحيقة عن حقائق المجتمعات الحديثة. كذلك أخذ على الحركتين تجاهلهما للدراسات والمشكلات الاجتماعية وادعاء الصواب واحتكار الحقيقة، والقول أن قائمة الكتب الـ (53) التي أعدها - إريسكين Erskine - تشكل المنهاج الدراسي الثابت مع الزمان والمكان رغم أن القائمة لم تشتمل على كتاب واحد مما صدر بعد الحرب العالمية الأولى<sup>(2)</sup>. ومع أن معركة - الإنسانية الجديدة - ضد الميكانيكية الجديدة لها ما يبررها إلا أن الدعوة إلى نبذ العلم لم يكن الأسلوب الذي تُحارب به هذه الميكانيكية لأنه ليس من السهل التكرار للطريقة العلمية التجريبية والعودة للعقلانية التي سبقتها. لذلك قامت حركة بديلة هي - الحركة التقدمية - التي بنت فلسفتها على أساس أن الإنسان المحافظ متردد ثابت على المؤلف لا يخطو الخطوة الجارة للضرورة للتقدم. لذلك تحتاج التربية أن تعمل على تحرير الإنسان من قيود المعارف السابقة والمألوفة وإخراج الإنسان التقدمي الذي يخطو عبر المستقبل المجهول لاكتشاف معلومات وآفاق جديدة تنهض بالإنسان وتسمو بالمجتمع<sup>(3)</sup>.

وأكثر من عبّر عن هذه الفلسفة هو الفيلسوف - هوريس كالين - الذي صاغ فلسفة التربية التحريرية، وهي فلسفة تقوم إعداد الناشئة ليكونوا ما يستطيعون أن يكونوا، حتى وإن خالفوا الكبار، وأن تبحث التربية في تحرير قدراتهم الفردية المتميزة إلى المدى الذي تستطيعه ولو كان لهذه القدرات ارتدادات غير متوقعة ضد النظام الاجتماعي المؤلف، وبذلك تمد التربية المجتمع بأناس أقوياء قادرين على السيطرة على المشكلات الجديدة غير المتوقعة. ولتتمتع الإنسان الجديد بهذه القدرة لا بد أن تدرجه التربية على تصور - العالم الجديد - الذي يريده، وتحدي كل ما يقيد في النظام الاجتماعي القائم، لأن مأساة التناقض القائم في المناهج التربوية ليست في الفكر التربوي وإنما في الأوضاع القائمة التي تحرص الدول

Ernest Becker, Op, Cit, PP. 16-21. (1)

Ibid, PP. 21-26. (2)

Ibid, PP. 33-35. (3)

الحديثة على عدم تغييرها وتستغل الشباب للمحافظة عليها والدفاع عنها، والثورات والاضطهادات التي كلفت الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وروسيا وألمانيا ملايين الشباب. وإزاء هذه الولايات يجب أن لا تلام الرأسمالية أو الشيوعية أو النازية وإنما تلام الدولة نفسها لأنها تحول دون التغيير وتسبب في هذه المضاعفات. فالشباب في هذه الدول كلها منعوا من "التربية الحرة" التي تطور قدراتهم لإعادة تشكيل العالم وجرى إعدادهم لخدمة الدولة وحدها كأهم عبئ وأرقاء ينفذون ما يريده الكبار دون أن يكون لهم حق نقد الأوضاع القائمة وتحليلها والتخلص من تناقضاتها. لذلك وقع الشباب في العالم الرأسمالي في قبضة رجال الأعمال، وفي الدول الفاشستية في قبضة القيادات الغوغائية، وفي الدول الشيوعية في قبضة - الكوميساريين - أي المسؤولين عن نشر المبادئ الشيوعية.

والحقيقة أن جوهر المأساة يكمن في غايات التربية القائمة، لأن هذه التربية تعمل لتحقيق أربع غايات، منها ثلاث غايات مقبولة، أما الرابعة فهي مدمرة ومعطلة لآثار الثلاث التي قبلها. وهذه الغايات هي:

الأولى؛ تعليم الطالب ليعمل حتى يكسب.

والثانية؛ وضع الحكمة التي تراكمت خلال العصور أمام كل جيل.

والثالثة؛ تدريب المتعلمين على تقييم الحاضر والماضي بغية الحصول على فهم أفضل للحقيقة.

أما - الرابعة - وهي المأساة المميتة التي تغتصب الغايات الثلاث فهي تدريب المتعلمين ليخدموا الدولة بدون نقاش ولا مساءلة.

وعلق - هوريس كالين - على هذه الغاية الأخيرة فقال:

((هذه الوظيفة الرابعة للتربية هدفها تأمين خضوع الرأي العام وجعله قابلاً للتشكيل والاستفادة منه في الربح والكسب للطبقة الحاكمة مهما كان نوعها... ولذلك يجري التدخل في المناهج التربوية والضغط على المعلمين والمديرين حتى لا يتخرج من يعارض أو ينتقد أو يفحص الأسس التي تقوم عليها الأنظمة الاقتصادية والصناعية والمالية والسياسية. فهناك مؤامرة ضد التربية لإبقائها صامتة إزاء النظام الاجتماعي - السياسي، وعدم تمكينها من تحرير الرجال والنساء وتأمين العدل))<sup>(1)</sup>.

ولم يكتب التطبيق لهذه الفلسفة التقدمية لأنها اقتصر على الدعوة لتدمير النظام الاجتماعي القائم دون أن تقدم له بديلاً. لذلك استمرت مناقشات أزمة المنهاج التربوي القائم.

(1) Ernest Becker, Op, Cit, PP. 36-41.

ومن البارزين في هذا الميدان عالم الاجتماع - إرنست بيكر - نفسه (المتوفى عام 1975) والذي حلل أفكاره سابقه ومعاصريه ثم قدم تحليله الخاص، وخلاصته: أن الأزمة الرئيسية في ميادين المنهاج التربوي تكمن في كيفية تنظيم العلم الجديد والمعارف الإنسانية في ميادين متكاملة تشكل وحدة واحدة لتخرج التربية الإنسان المتحرر من كل ما ينتقص إنسانيته وتهميؤه للقيام بوظيفته على الأرض. ويمضي - بيكر - ليقول إن هذه الأزمة الرئيسة سببها مشكلتان مستعصيتان: الأولى: مشكلة درجة استجابة الإنسان للقيم والأخلاق التي تخرج شخصية متحررة من الضغوط النفسية والاجتماعية، مؤثرة للعمل لإسعاد الآخرين. والثانية: هي مشكلة التزاوج بين "تركيب المعرفة **Synthesis of Knowledge**" و "إعادة البناء الاجتماعي **Social reconstruction**". إذ نادراً ما حدثت العمليتان وتفاعلتا في آن واحد. فقد تحد الأولى ولا تحدث الثانية والعكس بالعكس. وقدم لذلك أمثلة من ألمانيا النازية، والشيوعية، والمسيحية، والرومان، والأرسطية، والنهضة الحديثة<sup>(1)</sup>.

وأخيراً ظن - بيكر - أنه قدم - المنهاج المتكامل - فكتب في مقدمة كتابه (ما بعد الاغتراب: فلسفة تربوية لأزمة الديمقراطية) يقول:

(( بعد مائة وخمسين عاماً من تلمس الطريق نقف الآن في محطة منها لنقدم ما أردنا دائماً ولم نستطع إنجازها في العصور الحديثة: أعني منهاجاً جامعياً موحداً شاملاً. منهاج يمد الإنسان الحديث بتصور موحد ناقد للعالم ويعطيه قوة عليا ومرونة وحرية لحل المشكلات الأساسية للتكيف الإنساني. إنه منهاج يمكن تعليمه ويجب أن يتعلمه كل فرد يهتم بأقصى درجات التحرير الممكن لطاقت الإنسان المبدعة وفي أي بلد يتطلع ليصبح ديمقراطياً حقاً.

إنني أدعو القارئ أن ينضم إلي لتأييد هذه الدعوى.. وأسأله شيئاً واحداً فقط وهو أن يقوم بقراءة مخلصه لما حاولت مخلصاً أن أبلور ما أراه فتحاً تاريخياً عظيماً في مشكلة التربية والديمقراطية.. اقرأ واحكم مع القراءة على: وحدة الإنسان، ووحدة المنهاج الجامعي، وكيف تتداخل الأفكار التي تشكل وحدة منطقية. فإذا توحدت علوم الإنسان في زماننا فسوف تحل مشكلة التربية بشكل طبيعي، وهذا ما أقدمه للقارئ))<sup>(2)</sup>.

(1) Ibid, P. 67.

(2) Ibid, PP. id-d.

وتداول القراءة كتاب - بيكر - ودرسته أقسام التربية ولكن الأزمة القائمة في ميادين المنهاج ظلت مستعصية واستمرت الجهود في محاولة علاجها. من ذلك ما حدث في نيسان عام 1968م حين طلب مدير "معهد صولك للدراسات البيولوجية" في أمريكا The Salk Institute of Biological Studies إلى عدد من الباحثين تقديم مجموعة من الأبحاث تسهم في نقل فلسفة الأحياء من التقنية المتحررة من القيم Value - Free Technological Philosophy إلى فلسفة علم أحياء إنسانية A Humanized Philosophy of Biology وكان بين العلماء الذين طلب إليهم المعهد الإسهام في هذا المشروع - أبراهام ماسلو - رائد مدرسة علم النفس الإنساني الذي قدم بحثه بعنوان: نحو علم أحياء إنساني Toward a Humanistic Biology<sup>(1)</sup>.

وفي حزيران عام 1980م انعقدت ندوة في مدينة - وود ستوك - بولاية فيرمونت وبإشراف كل من مؤسسة كاترتج وكلية المعلمين في جامعة كولمبيا بنيويورك. وكان موضوع الندوة يحمل عنوان: "شمولية المعرفة The Wholeness of Knowledge" حيث جرت مناقشة الأزمة المستعصية في المنهاج الدراسي وميادين المعرفة من خلال الأبحاث التي قدمت وهي:

- 1- البصيرة والمعرفة والعلم والقيم الإنسانية - ديفيد بوهم - جامعة لندن وبرنستون.
- 2- العقل المدرك للذات والمعنى وسر الوجود الشخصي - السير جون س. إلكيس - جامعة نيويورك - بافالوا.
- 3- اللغة وتطور الوعي واسترجاع المعنى الإنساني - أوين بارفيلد - مفكر بريطاني.
- 4- ما وراء تكوين العقل الغربي الحديث - هوستن سميث - جامعة هاملين، وجامعة سيراكيوز.
- 5- نحو كون حي - كاتلين رين - جامعة كمبردج - بريطانيا.
- 6- التربية والصورة الحية - بيتر أبس - جامعة سوسكس.
- 7- التصور الثقافي والمستقبل الإنساني - روبرت ن. بله - أستاذ علم الاجتماع في جامعة كاليفورنيا - بيركلي.
- 8- المعرفة والقيم الإنسانية: أصول العدمية - هيوبارت ل. درايفوس - جامعة كاليفورنيا في بيركلي.

(1) Abraham H. Maslow, The Farther Reaches of Human Nature, p. 3.

9- حدود تكنولوجيا الكمبيوتر والحاجة إلى علم يتمركز حول الإنسان - جوزيف وايزنبوم - جامعة هامبرك / ألمانيا.

وفي عام 1988م تكونت جمعية تربوية عرفت باسم - جمعية التربية الشاملة Holistic Education - هدفها معالجة مشكلة الانقسام في ميادين المنهاج والمعرفة وأصدرت مجلة تحمل اسمها صدر العدد الأول منها في ربيع عام 1988م يحمل شعار: "تربية للشخصية الشاملة ولكرة أرضية صحية"<sup>(1)</sup>.

وما زالت المناقشات تدور بين المختصين حول الانقسام في ميادين التربية ومناهجها. ومن أمثلة هذه المناقشات ما كتبه - آرنو أ. بلاك - الذي استعرض المشروعات التي تحاول حل أزمة الانقسام المذكور ثم خلص إلى التعليق على هذه المشروعات بقوله:

((يركز الانتباه في هذه المشروعات على أنظمة فردية بينما يعطي قليل من العناية للعلاقات بين موضوعات المعرفة الفردية أو بين برامج الدراسة والموقع الذي تحتاج أن تتخذه. فاللجان الوطنية العاملة في ميادين الكيمياء والفيزياء والأحياء تعمل مستقلة عن بعضها البعض، كما أن مشروعات الاقتصاد والجغرافيا وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) لا علاقة لبعضها ببعض أو بالعلوم الاجتماعية، ولا يوجد ترابط إلا في ميدان الرياضيات، ولكنه ترابط يقتصر على ميدان الرياضيات في داخله.. وأنا أشدد على ضرورة الانتباه إلى هذه المشكلة التي لا تقف حدودها عند زرع التناقض بين الأفكار وإنما تتعداه إلى بث الاضطراب والتناقض في شخصية المتعلم))<sup>(2)</sup>.

ويفسر البروفسور - مودي ي. بروير - أزمة الاضطراب في ميادين المناهج تفسيراً آخر فيذكر أن الأزمة القائمة بين العلماء الطبيعيين وعلماء الإنسانيات نابعة من تفجر المعرفة المعاصرة وصعوبة الإحاطة بمظاهرها. ولذلك أصبح جهل المختص في ميدان تخصصه مشكلة خطيرة صعبة العلاج لأنه يصعب عليه اللحاق بالمعرفة المتفجرة في ميدان تخصصه والوقوف على العلائق التي تربط تخصصه بالتخصصات الأخرى. ولذلك لا تنحصر المشكلة في الهوة القائمة بين العلوم الطبيعية والإنسانية وإنما هي قائمة في جميع العلوم حتى بين العلماء الطبيعيين أنفسهم

(1) Holistic Education Rebiw, Bol. 1. Spring, 1988.

(2) Arno A. Bellack "the Structure of Knowledge and the Structure of the Curriculum" in Contemporary American Education. ed. By Stan Dropkin & Others (New York: Macmillan Publishing C. 1975) PP. 290-293.



الذين أحلهم التخصص إلى وحدات معرفية مستقلة لا روابط بينها، وجعل من الصعب وجود خبير حقيقي في أي ميدان طالما لا يستطيع تتبع الجديد كله. ولعلاج هذه الأزمة لا بد من طريقة جديدة بعيدة عن تراكم المعرفة السريع، وعن أسلوب التخصص وعن مناهج البحث التي تفخر بها الحضارة المعاصرة وتنوء منها<sup>(1)</sup>.

أما البروفسور - مايكل و - أبل - فيذكر أنه منذ اشتد الصراع على ما يجب تعليمه لم يعد الأمر قضية تربوية، وإنما صار ذا أبعاد أيديولوجية وسياسية. فالمنهاج والقضايا التربوية (في الولايات المتحدة وغيرها) يحددها على الدوام صراعات طبقية أو عرقية أو دينية أو علاقات الجنسين. والاتجاهات المحركة لهذه الصراعات لا تنطلق من مقاييس علمية أكاديمية، وإنما تحركها العوامل الاجتماعية ومصالح الجماعات المختلفة. ويضاف إلى ذلك الضغوط المكثفة على النظم التربوية في أقطار كثيرة لجعل أهداف التجارة والصناعة هي المصادر الرئيسة لأهداف التعليم والتربية. ويمضي - أبل - ليفصل هذه الفقرة في فصول بحثه مدعماً آراءه بالشواهد العلمية ووقائع تطور النظم التربوية الحديثة وتاريخها والأساليب المستعملة في مؤسساتها ومناهجها القائمة<sup>(2)</sup>.

ويحلل البروفسور - ديفيد ي. بريل - الآثار النفسية والاجتماعية التي أحدثتها اضطراب موضوعات المناهج فيذكر أن مهنة التربية قد تم إضعافها من خلال يافطة التخصص والتقسيم والتفتت. فهناك أسوار بين المعلمين والمدراء، وبين المدارس والجامعات. وهناك مجموعة من العوامل داخل عوالم الموهوبين والأذكياء، والابتدائي والمتوسط، وتصنيفات العلوم. وهناك أيديولوجيات تربوية متعددة تتنوع من أولئك الذين يؤمنون بتركيز التربية حول اهتمامات الطفل إلى الموالين لاهتمامات المؤسسات، ولذلك أصبح المربون منقسمين مهزومين. والنتيجة العملية لذلك هي استمرار الضغط على استقلال المربين وتقليل أهمية دورهم وتحويلهم إلى عمال من خلال زيادة المراقبة الإدارية وضوابطها. وأمام هذه الأزمة فإن المطلوب هو تغير دور المعلم ليصبح على منهج الأنبياء، فلا يعمل على تدريب الطلاب على مهارات واتجاهات تملئها مراكز الصناعة وقوى السياسة، وإنما يعد

(1) Moady & Prior, Science and the Humanities, (Eban Ston: North

Western Unifersity Press: 1962) PP. 49-52.

(2) Michael W. Apple, Ideology and Curriculum, 2 nd. ed.(New York:

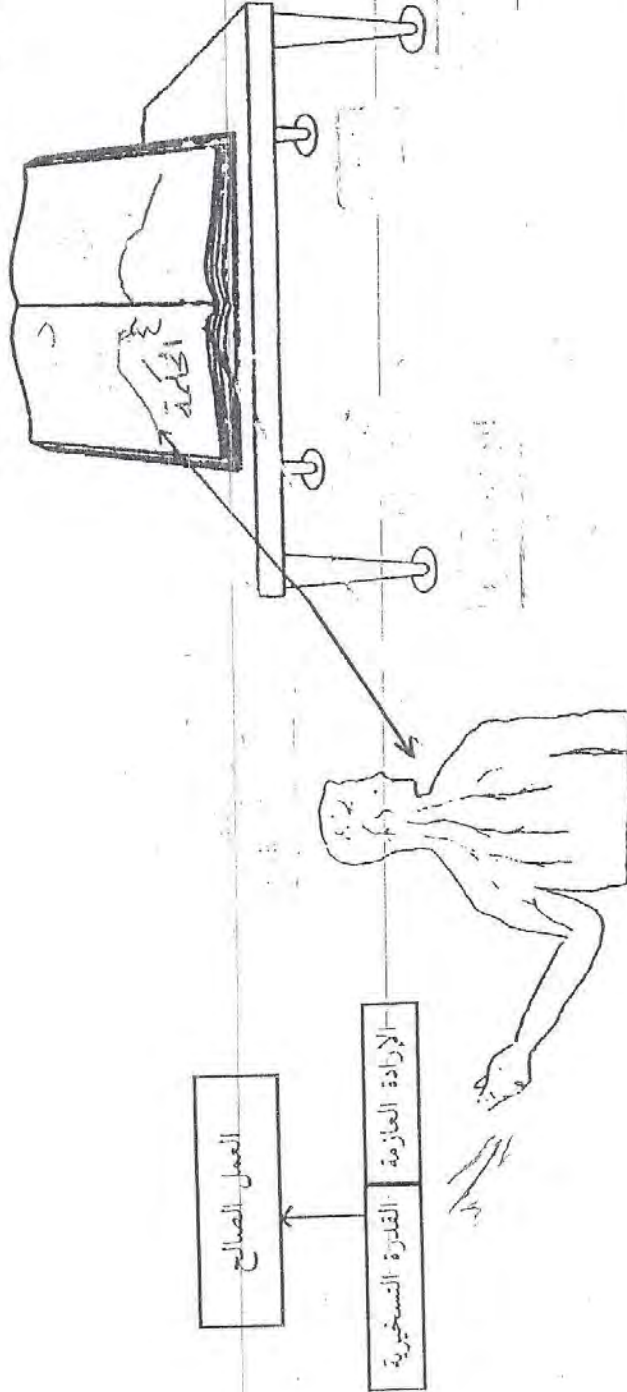
Routledge, 1990) PP. 102-111.

الطالب لتنمو شخصيته ومعارفه كإنسان يسهم في الكفاح ضد الظلم والاستغلال ويقوم برسالة الإصلاح. وهذا مطلب يتطلب من التربية أن تدرس سير الأنبياء كنموذج يحتذى به في إعداد المربين والمناهج المنشودة<sup>(1)</sup>.

---

(1) Dabid E. Purple, The Moral and Spiritual Crisis in Education, (Massachusetts, Gran – by: Bergin & Grafey Publishers, Inc. 1989)

شكل رقم ٤ [ صيران نعيم الحكمة ]



العقل - الأعلى + القدرات العقلية = الإرادة العازمة

الخبرات + القدرات العقلية = القدرة التسخيرية

الإرادة العازمة + القدرة التسخيرية = العمل الصالح

= القره الصالح - المصلح

تصميم الدكتور ماجد الكيلاني

## الباب الثاني

### منهاج التربية الإسلامية

الإضاءة القرآنية التي توجه الى منهاج التربية الإسلامية تتمثل في قوله تعالى: {الصورة المطبوعه { (الجمعة:2).

هذه هي ميادين التربية الإسلامية: { يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ { و { وَيُزَكِّيهِمْ { و { وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } أو نقول هي:

ميدان تلاوة الآيات.

والميدان الثاني هو ميدان التزكية.

والثالث ميدان تعليم الكتاب والحكمة.

ويلاحظ أن الآية المشار إليها تكررت في أربعة مواضع من القرآن الكريم مع اختلاف بسيط في الأداء اللفظي. ولكن قرائن المعاني التي تربط بين الآية المذكورة وبين الآيات التي تسبقها أو تتلوها في كل موضع من المواضع الأربعة تبرز حكمة هذا التكرار وغاياته.

ففي الموضع الأول وردت الآية على لسان إبراهيم عليه السلام وهو يدعو لذريته التي أسكنها في حوار البيت الحرام بأن يرسل الله فيهم رسولا من أنفسهم ليربيهم حسب هذه المنهاج. وفي ذلك إشارة إلى نشأة هذه المنهاج وأنها بدأت ببدء ظاهرة الأمة المسلمة التي خطط إبراهيم عليه السلام لها وأقام مؤسساتها في مكة والقدس<sup>(1)</sup>.

{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {127} رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ {128} رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {129} وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ { (البقرة: 127-130)

(1) راجع كتاب أهداف التربية الإسلامية، باب "إخراج الأمة المسلمة" للمؤلف.

وفي الحديث: (( أنا دعوة أبي إبراهيم ))<sup>(1)</sup>.

وفي الموضوع الثاني وردت الآية ضمن سياق الآيات التي استهدفت تعريف المؤمنين الذين آمنوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم بالمنهاج الذي يريهم عليه ويمنحهم التمييز بين الأمم ليحددوا منهاج حياتهم وأنشطتهم ضمن الأطر التي يحددها هذا المنهاج أنى كانوا:

{وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيٰهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {148} وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} {149} وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} {150} كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيْكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} {151} فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} (البقرة: 148-152).

وفي الموضوع الثالث وردت الآية ضمن سياق من الآيات التي عاجلت مواقف المسلمين إثر المحن التي أصابتهم في معركة أحد. وهي آيات استهدفت تنبيه المسلمين إلى خطورة خروجهم عن تطبيقات هذا المنهاج وأثر هذه الخروج فيما نزل بهم من مصائب وآلام:

{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} {164} أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {165} {أل عمران: 164-165}.

وفي الموضوع الرابع وردت الآية ضمن سياق سورة كاملة هي سورة الجمعة التي استهدفت توضيح أهداف هذه المنهاج وآثاره وأهميته في وجود الأمة المسلمة التي أخرجت للناس لتطبيق محتوياتها وتربية الناس عليها. ويلاحظ أن السورة بدأت بأصل من أصول التربية الإسلامية وهي أن الوجود الكوني مفطور على التسبيح لله أي الجريان حسب سننه وقوانينه التي أقام الخلق عليها. وفي ذلك توجيهه إلى أن ميادين التربية الإسلامية الثلاثة مصممة من لدن عليم خبير لتنسيق حياة الإنسان مع الكون كله ومع السنن والقوانين التي تنظمه، وأنه حين يخرج

(1)

الإنسان على التعاليم والقيم والممارسات التي توجه إليها هذه الميادين فإنه يصطدم مع هذه السنن، ويتحول إلى عنصر شاذ يصطدم بعناصر الكون كلها، وأن كل ما في الكون سوف ينقلب ضده ويدخل في صراع معه. ولكنه حين ينسجم مع تعاليم هذه الميادين فإنه ينسجم مع السنن والقوانين الكونية كلها ويصبح كل ما في الكون مسخراً له، وسوف يتنعم بثمار هذا التسخير، وسوف يرى فيها مظاهر قدرة الله والبراهين المؤدية إلى شكره وعبادته.

ثم يتحدث السياق في السورة عن تجربة الذين حملوا رسالة التوراة وعجزوا عن تطبيق مناهجها التربوية ليكون في هذا الحديث توجيه للأمة المسلمة التي حملت القرآن فلا تقترب ما اقترفه الذين حملوا التوراة من خوف على الحياة وإيثار لشهوات الدنيا. ويضيف السياق أن مثل الذين يكتفون باستظهار نصوص الوحي الإلهي دون تحويل توجيهاته إلى تطبيقات من المؤسسات والسياسات والممارسات العملية الفاعلة، كمثل الحمار الذي يحمل أسفار العلم دون أن يعلم شيئاً مما هو مدون فيها.

وأخيراً تنهي السورة الحديث بتنظيم العلاقة بين أمور العبادة -خاصة صلاة الجمعة- وبين أمور الدنيا المتمثلة بالبيع والشراة والتجارة تنظيمياً يجسد التطبيقات العملية لمنهج التربية الإسلامية التي تركزت حولها موضوعات السورة.

**الملاحظة الأولى:** تخصيص الرسول عليه الصلاة والسلام دون غيره من الرسل للقيام بالمهام التربوية التي أشارت الآية إليها وذلك لاستمرار الدعوة إلى رسالته وتربية الناس عليها بعده.

**والملاحظة الثانية:** أن الحديث عن المناهج المذكورة اقترن بالمسجد الحرام لأنه المؤسسة التربوية الأولى مثلما أن المسجد الأقصى هو المؤسسة الدعوية الأولى.

**والملاحظة الثالثة:** إن الآية في الموضع الرابع لم تكتف بالتوجه إلى جبل المؤمنين من العرب "الأميين" وإنما أضافت إليهم "الآخرين" الذين لم يلحقوا بهم بعد. وفي الحديث أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فوضع يده على سلمان الفارسي ثم قال: لو كان العلم في الثريا لناله رجال من هؤلاء<sup>(1)</sup>.

(1) الطبري، التفسير سورة الجمعة، ج 28، ص 96.

وعن مجاهد -تلميذ ابن عباس- أن هؤلاء "الآخرين" هم الأعاجم وكل من صدق النبي صلى الله عليه وسلم من غير العرب. وقال آخرون هم كل لاحق صدق النبي من جميع الأجناس<sup>(1)</sup>.

**والملاحظة الرابعة:** إن هذه الميادين فضل تفضل به الله على الناس من كافة الأعراق وأنه فضل يعطيه لمن يشاء ولا يقتصر على قوم دون قوم.

**والملاحظة الخامسة:** إن الأعراض عن هذه الميادين التربوية التي يوجه إليها الوحي الإلهي واستبدالها بمناهج بشرية أخرى هو ضرر خطير على الجنس الإنساني كله. لأن نتيجة هذه الأعراض هو انتقاص إنسانية الإنسان وتجريده من صفاته المؤدية إلى إكرامه بين المخلوقات. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} السفة: هو الانتقاص والامتهان والاستخفاف وإيراد الإنسان نفسه موارد الخسران والهلاك والضلال<sup>(2)</sup>. والسفة هو المرض الرئيس الذي يتداعى علماء النفس لإنقاذ الإنسان منه، ويأخذونه على الحضارة الحديثة وتوجيهاتها ونظمها التربوية والإدارية والسياسية والاقتصادية وهو ما يطلقون عليه مصطلح "انتقاص الإنسان Reductionism"<sup>(3)</sup>.

(1) نفس المصدر والصفحة.

(2) الرازي، التفسير، سورة البقرة: آية 130 ج4، ص70.

(3) راجع كتاب فلسفة التربية الإسلامية، الطبعة الرابعة، للمؤلف، ص302.



أما مضامين كل ميدان من الميادين التي وجهت إليها الآية فهي كما يلي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ  
رُسُلًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ  
وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ  
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي  
ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

[الجمعة: ٢]

## الفصل الرابع

### ميدان تلاوة الآيات

أولاً: معنى ((الآيات)) وأهمية المنهاج الذي توجه إليه:

للتعرف على مضامين هذا الميدان لا بد من النظر في الآيات والأحاديث التي أوردت كلمة "آية" للوقوف على المعاني التي توجه إليها؛ وهي كما يأتي:

1- (آية) بمعنى (معجزة):

قال تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ } (1).

وقال أيضاً: { وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ } (2).

وقال كذلك: { وَاضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى } (3).

وفي الحديث النبوي: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: "أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر" (4).

2- (آية) بمعنى (علامة):

قال تعالى: { قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ

رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ } (5).

وفي الحديث: "آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق، بغض الأنصار" (6).

(1) سورة البقرة: الآية 118.

(2) سورة المؤمنون: الآية 50.

(3) سورة طه: الآية 22.

(4) البخاري، الصحيح، كتاب الإيمان، باب 10.

(5) سورة آل عمران: الآية 41.

3- (آية) بمعنى (برهان أو دليل على قدرة الله):

قال تعالى: {وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ} {33} وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ {1}.

{وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ} {37} وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرًّا لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} {38} وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} {39} لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} {40} وَأَيَّةٌ لَهُمُ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ} {41} وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} {42} وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ} {2}.

وقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ} {20} وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} {21} وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ} {22} وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} {23} وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} {3}.

وفي الحديث: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته" (4).

(1) سورة يس: الآيات 33-34.

(2) سورة يس: الآيات 37-43.

(3) سورة الروم: الآيات 19-24.

(4) ابن ماجه، السنن، كتاب الصلاة، باب 152، رقم 1463، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، مكتبة عيسى الحلي وشركاه.



وفي ميدان الكون وجهت الإضاءات القرآنية إلى ضرورة أن يبحث الانسان نفسه في الكواكب والشموس والاقمار لاكتشاف مظاهر الآيات في هذا الميدان. ومثله توجيه الإضاءات القرآنية إلى استخراج المعجزة من خلق الكون بجماله وأتماره وأشجاره.

ومثل ذلك خلق الحيوان. ومثله في الجماد.

وهذا يعني بشكل واضح أن يكون الهدف من العلوم الطبيعية وعلم تشريح الانسان وعلوم الفلك والجيولوجيا وكل ما تدرجه نظم التربية القائمة في الوقت الحاضر تحت اسماء وعناوين مبتورة من الله، هي في وقاعها الاواني التي يجد الانسان فيها معجزات الرسالة ومن هنا كثرت في القرآن كلمة ومن آياته خلق السماوات والارض، ومن آياته منامكم بالليل والنهار، والخلاصة من ذلك أن القرآن يضع واجباً على علماء هذه الميادين لينوبوا عن الرسل في ايضاح شواهد الحق في ميدان الآفاق والأنفس، وبذلك تصبح جميع العلوم الطبية والطبيعية والتكنولوجيا كلها ميادين مليئة بالشواهد التي تثبت مضامين الرسالة الاسلامية التي تفضي لمعرفة الله تعالى، وهذه المعرفة طبقات تشير الى أفعال الله وبعضها تشير الى ذاته وبعضها الى صفاته.

لقد كان جرم العالم الحديث الى عمل في مختبرات الحضارة القائمة خطيراً لانه أبعد العلم عن مساره الطبيعي، ولم يمض في المسارات التي تنتهي بالانسان الى معرفة الله.

إن هذه الآيات ترشد إلى كيفية الانتفاع بثمرات العلوم عقلياً ونفسياً وجسدياً كما أنه ينظم العلاقات الاجتماعية بين الجماهير الانسانية

ففي عهد المجتمعات المحدودة، والمعرفة المحدودة، والوسائل المحدودة، وأدوات النشر والاتصال المحدودة التي أدت إلى محدودية العقل والتفكير، كانت الآيات تتنزل بشكل (معجزات) حسية -خوارقية مثل آية ناقة صالح، وعصا موسى، وشفاء عيسى للمرض.

أما حين وقفت البشرية على أبواب الثورة المعرفية، وانتشار وسائل البحث العلمي ووسائل الاتصال والمواصلات، فقد جاء مضمون الآيات التي توجه إليه القرآن الكريم - براهين- فكرية و (عبر) اجتماعية و (علامات وأدلة) كونية. وعندما طالبت قريش بآيات حسية -خوارقية تنزل الوحي بالإصرار على البراهين العلمية العقلية والأدلة الكونية والاجتماعية وذلك عند أمثال قوله تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} {50} أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (العنكبوت: 50-51).

وقد يتساءل البعض: لماذا جاء الرسول عليه الصلاة والسلام كذلك بمعجزات حسية مثل: انشقاق القمر، وتسبيح الحصى، وجريان الماء بين الأصابع، وتزايد الطعام الذي كفى جماعة المسلمين في غزوة الخندق؟ والجواب على هذا التساؤل إن هذه معجزات كانت لمعاصريه الذين كانوا يقفون من الناحية الزمنية والحضارية عند الحد الفاصل بين العصور القديمة والعصور الحديثة. أي أن الرسول صلى الله عليه وسلم ينتمي إلى طور الماضي من حيث كونه امتداداً للرسول السابقين، وإلى طور المستقبل من حيث تفرده باستمرار الرسالة حتى انتهاء قصة الإنسان على الأرض، والمعجزات الحسية -الحوارية التي تمت على يديه هي مظهر انتمائه لطور الماضي. أما القرآن الكريم فهو مظهر انتمائه للمستقبل: مستقبل التفجر المعرفي الذي وضحت معالمه في حاضر الإنسانية المعاصرة والحضارة الحديثة.

**والملاحظة الثانية:** أن (آيات) الرسل السابقين كانت موقوتة ب حياة الرسل الذين جاءوا بها. أما آيات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مستمرة ومتجددة بتجدد المعارف العلمية وانتشارها.

**والملاحظة الثالثة:** أن الآيات الحوارية السابقة كان يقوم الرسل أنفسهم بعرضها، أما آيات رسول الإسلام فقد طلب إلى الناس أنفسهم -في جميع العصور- أن يبحثوا عنها ليشهدوها في ميادين الآفاق والأنفس. أي هي آيات ترك شرف شهودها للعقل الإنساني ليشترك في شهود نعم الله على الإنسان ومظاهر قدرته تعالى في الخلق. وغني عن البيان أن القيام بهذا الدور يحتاج إلى نمط خاص من المربين الذين لديهم القدرات والمهارات التعليمية للتعريف بها ونشرها.

**والملاحظة الرابعة:** أن الآيات التي جاء بها الرسل السابقون محدودة الكم والمحتوى. أما الآيات التي يوجه القرآن لشهودها والتعريف بها هي آيات متجددة بتجدد الخلق المستمر ولا نهاية لها ولا حد لميادينها:

{قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا 9} (الكهف: 109).

**والملاحظة الخامسة:** أن ميدان تلاوة الآيات هو ميدان يتخذ مادته من مصادر ثلاثة: الأول، مراحل النشأة والحياة والمصير وما يتخللها من ظواهر الحياة والموت التي تعترى العوالم كلها. والثاني؛ ظواهر الاجتماع البشري والسنن والقوانين التي توجه هذا الاجتماع ومساره ومآله، وما يتخلله من خبرات نافعة أو ضارة، سارة أو محزنة. والثالث؛ هو ما يتوصل إليه

الناس من شهود للقوانين التي تنظم الكون القائم وما ينتج عن تطبيقات هذه القوانين في ميدان العلم والتكنولوجيا.

### أهمية منهاج تلاوة الآيات:

تتمثل أهمية منهاج تلاوة الآيات في مظاهر ثلاثة هي:

الأهمية الأولى؛ أن المنهاج المذكور يقدم للمتعلم المسلم "الأصول المعرفية الصائبة" التي توجه منطلقات المعرفة ومساراتها وتطبيقاتها وتتمثل هذه الأصول في "أخبار صادقة" عن النشأة والخلق المتعلقة بالكون والإنسان والحياة والمصير. وجميع هذه الأصول صادقة يقينية لأنها صادرة من عند خالق النشأة والحياة والمصير، وينحصر دور الرسول صلى الله عليه وسلم في مجرد "تلاوتها" كما أوحيت إليه، والطلب إلى العقل والحواس البشرية التوجه إلى مختبر الكون والنفس والتاريخ - أي مختبر الآفاق والأنفس - لشهود براهين صدقها.

وللاستيقان من أهمية "تلاوة" هذه الآيات أو الأصول يكفي أن ينظر الباحث كيف أن حرمان الحضارات قديماً وحديثاً من مثل هذه الأصول قد أوقعها في "الظنون" الكهنوتية والفلسفية الخاطئة مثل عقائد: تناسخ الأرواح، وتعدد الآلهة، وتعدد مصادر النشأة الإنسانية والمصير، وما اشتق منها من المفاهيم العرقية والطبقية، وما ابتدعه الخيالات من أوهام عن الكون ومكوناته وأحواله.

ونحن نلاحظ أن حرمان الحضارة الغربية الحديثة من "الأصول" التي توجه إليها "آيات الكتاب" الصحيح قد حرمها من "تأصيل المعرفة" وأقامها على "مسلمات وفرضيات ظنية" لم تستطع إثبات نفسها كالقول: بمادية الوجود والتطور الدارويني Evolutionism وتباين السلالات البشرية Racism والقول بجموانية الإنسان، ونظرية الصراع والبقاء للأصلح الذي فسر بأنه الأقوى. وجميع هذه المسلمات الظنية ساهمت في تطوير "غايات" مادية - استهلاكية للحياة، وتنكرت لنظرية - الخلق الإلهي Crearionism ورفعة الإنسان، وقابليته للصلاح، واستهلكت "علوم وسائل الحياة" في الحضارة الحديثة في حروب عالمية، وصراعات اجتماعية واقتصادية، وانهيارات أخلاقية وعقدية، عانى منها الإنسان المعاصر - وما زال يعاني - ويعلن اليوم علماء الاجتماع والتربية والنفس الذين نشأوا في أحضان "الأصول الظنية" للحضارة المعاصرة عجزهم عن معالجة الأزمة الاجتماعية القائمة، كما أن الكثير من علماء العلوم الطبيعية المعاصرين أعلنوا خطأ الكثير من المسلمات المتعلقة بنشأة الكون والحياة وانتهوا إلى الدعوة إلى البحث في "عالم حي" لا "عالم مادي جامد" كما مر في صفحات سابقة.



والأهمية الثانية هي أن -ميدان تلاوة الآيات- يقدم للمتعلم المسلم خريطة معرفية شاملة لا نقص فيها، ودقيقة لا فجوات فيها، ومستمرة لا يعترئها التوقف. والسبب أن القرآن -الذي يتضمن آيات الكتاب- هو الوعي المطابق للبناء الكوني وحركته وسننه وقوانينه. وهو ما يشير إليه قوله تعالى: { أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } (فصلت: 53). والشهيد هو الذي يشهد ظاهر الشيء وباطنه وبدايته ومساره ومآله. وبذلك يتوجه العقل والحواس إلى ميادين حقيقية لا وهم فيها ولا خرافة، ويقوم الإنسان بالنظر والبحث في هذه الميادين دون يبدد قدراته العقلية والسمعية والبصرية في تجارب مجردة من الصواب مغرقة في الخطأ.

وتبدو عظمة هذه الأهمية حين نتذكر أن اقتراح فرضيات العلم وميادينه، ثم تفسير نتائجها كلها عمليات تعتمد إلى درجة كبيرة على سعة وعمق الخبرة التي تضيق بضيق العلم وتتسع بسعته وتعمق بعمقه. ولما كانت الخبرة الإلهية خبرة مطلقة محيطية بخلق الكون راسخة بتفاصيله فإن اقتراح ميادين العلم وفرضياته في ضوء بصائر الشرعة التي يوجه إليها اتقان تلاوة آيات الكتاب، ثم تفسير نتائج العلم في ضوء الآيات المذكورة سوف تكون أكثر إسهاماً في التقدم العلمي وتطبيقاته العملية، وأكثر نفعاً في رقي النوع الإنساني والحفاظ عليه.

والأهمية الثالثة: إن هذه (الآيات) ترشد إلى كيفية الانتفاع بثمرات المعرفة انتفاعاً عقلياً ونفسياً وجسدياً على المستويين الفردي والجماعي وبذلك تسهم المعرفة في بناء الحياة ونموها في المسارات المؤدية إلى بقاء النوع الإنساني ورفقه خلال النشأة والحياة والآخرة. غير أن هذه الأهمية الثلاث لا تفعل فعلها في واقع الحياة إلا إذا توفر لها شرطان: الأول؛ إحكام التكامل بين الآيات التي يوجه إليها هذا المنهاج وبين العقل الإنساني وحواسه<sup>(1)</sup>. والثاني؛ اختيار الأذكياء- أو أولي الأبواب- وإحسان تنشئتهم وتربيتهم للقيام بهذا الإحكام المطلوب.

ولتحقيق الشرط الأول كانت الأوامر الإلهية والتوجيهات النبوية التي تحض على دوام "تلاوة القرآن" و "تدبر" مدلولاته في الآفاق والأنفس، و"التفكير" بها جميعها، وهي أوامر وتوجيهات تهدف إلى أن يصبح منهج المعرفة القرآني الذي يتكامل فيه الوحي والعقل والحواس، سلوكاً مستمراً واتجهاً مؤصلاً عند المسلم ابتداء من شؤون المعيشية اليومية حتى النظر العلمي في شؤون الخلق المتجددة المتتالية، فالمسلم يحتاج أن يواجه هذه المشكلات والمعارف المتجددة

(1) للوقوف على هذا التكامل راجع باب "نظرية المعرفة" في كتاب فلسفة التربية الإسلامية.

بفهم صائب وحلول صحيحة، وهو ما تزود به "بصائر" الوحي التي تنير الطريق للعقل والحواس وهما يعدان العدة لمواجهة المشكلات وتلبية الحاجات. وأي انفصام بين "بصائر" الوحي المشار إليها من ناحية وبين العقل والحواس من ناحية أخرى، فإنه يفتح أبواباً خطيرة من سوء الفهم وسوء التطبيق. ولذلك كان قوله صلى الله عليه وسلم: "عرضت علي أجور أمي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت علي ذنوب أمي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيتها رجل ثم نسيها"<sup>(1)</sup>.

أما عن الشرط الثاني وهو قيام الأذكياء بإحكام "تلاوة آيات المنهاج" فلأن الاستنارة ببصائر الوحي لا تصل مداها المؤثر المطلوب إلا إذا أحكمت التربية الإسلامية تنمية القدرات العقلية وانتدبت لهذه المهمة من بلغت قدراته العقلية درجة النضج وأحسن استعمال قدراته السمعية والبصرية<sup>(2)</sup>. وهذا ما يوجه إليه أمثال قوله تعالى.

- (الرعد:4) (النحل: 12)

- { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } (الروم: 28).

- { قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ } (الأنعام: 126).

- { إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } (الرعد: 19).

ولعل من مقتضيات "التوبة" الفكرية النصوح أن نقول: إن الغفلة عن الشرطين السابقين أدت إلى إفراز ما نسميه "الفقه اللغوي-العربي" أي الفقه الذي بني أصوله من محتويات المفردات اللغوية لإعرابي ما قبل الإسلام، ومحتويات الأعراف والتقاليد القبلية العربية وأن هذه الغفلة قد حالت دون ظهور ما نسميه "الفقه القرآن-السني" أي الفقه الذي يبني أصوله من محتويات المفردات اللغوية القرآنية المتجددة، ومحتويات السنن والقوانين التي يهيب القرآن بالسمع والبصر والفؤاد أن يكشفوا عنها في الآفاق والأنفس. ولعل الظروف تسمح بالبحث في تفاصيل أصول هذا الفقه السني الذي نتطلع إليه.

والواقع أن بروز-الفقه اللغوي-العربي قد أدى إلى ظهور الاعتقاد بأن "آيات الكتاب" وحدها تقدم حلولاً مفصلة لكافة شؤون الاجتماع البشري، ومعارف دقيقة وعلوماً

(1) البيهقي، الجامع لشعب الإيمان، ج4، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد (بومباي: الدراسة السلفية، ط

1408-1988) رقم 1813، ص 542.

(2) راجع فصل، تنمية القدرات العقلية، في كتاب أهداف التربية الإسلامية، للمؤلف.

عن تفاصيل الكون القائم إلى الدرجة التي تعفي العقل الإنساني من البحث والنظر - كما يحلو للبعض أن ينسب ذلك إلى القرآن - مبالغة في تأويل قوله تعالى: { مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ } (الأنعام: 38)، الأمر الذي ينتهي بأصحاب هذا التأويل إلى تبرير الكسل العلمي وإضفاء طابع الشرعية عليه.

ولكن الفقه القرآني - السني الذي نتطلع إلى إظهاره، يتعامل مع القرآن الكريم باعتباره يقدم "الشرعة" أي المنطلقات الفكرية التي يشرع منها إنسان التربية الإسلامية في أحكامه العامة أو بحوثه العلمية. وفي ضوء بصائر هذه "الشرعة" التي تقابل المسلمات والفروض في الفلسفات الوضعية يتوجه كل من العقل والحواس إلى مسارات منهجية سليمة من الانحراف وميادين علمية حقيقية الوجود. ولذلك لم يؤول الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن ولم يترك تفسيراً مفصلاً له، وإنما كان القرآن أمانة تلقاها و"تلاها" على الناس مجرد تلاوة ثم وجههم ليستعلموا نعمة الله في العقل والحواس أو السمع أو البصر والفؤاد حسب تغيير القرآن للكشف عن آيات الله في الآفاق والأنفس في ضوء توجيهات آيات الله في الكتاب. والأداء القرآني واضح في ذلك كل الوضوح. فالكلمة "يتلو" ومشتقاتها تتكرر في القرآن (40) مرة عند أمثال قوله تعالى: { تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ } (البقرة: 252). والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "أنتم أعلم بأمر دنياكم"<sup>(1)</sup>. أي أنتم مسؤولون عن شهود السنن والقوانين التي تنظم شؤون دنياكم وتهيئ لكم تسخيرها ورؤية نعم الله وقدرته فيها. فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يبعث ليقوم بوظائف العقول والحواس الإنسانية كافة وإنما بلغ "آيات الكتاب" ليكون الناس مسؤولين عن حسن استعمال عقولهم وحواسهم في شهود "آيات الآفاق والأنفس". فلا داعي - إذن - لتأويل قوله تعالى: { مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ } تأويلاً يلغي دور العقل والحواس ويبرر العجز ويحلل المسلم من مسؤولياته في ميدان المعرفة والمعلم وتطبيقهما<sup>(2)</sup>.

### ثانياً: الأهداف العامة والخاصة لميدان تلاوة الآيات:

يكشف النظر في الآيات التي أوردت مصطلح "الآية" ومشتقاتها عن الأهداف العامة لـ"منهاج تلاوة الآيات" المشار إليه. وهذه الأهداف هي:

(1) صحيح مسلم، باب الفضائل.

(2) الذين أسندوا الرسول صلى الله عليه وسلم مهمة القيام بدور العقل والحواس الإنسانية كافة إنما أسقطوا على القرآن والحديث - بعض مفاهيم أعراف العصبية القبلية التي ترى في شيخ القبيلة معرفة كل شيء وتدير أموراً في كل شيء وأنه لا يسأل عن شيء، ولا يترك لأحد شيئاً.

## 1- تكوين "تصور" إسلامي ينطلق في فهم الوجود والتعامل معه

من خلال التفاعل الكلي بين إنسان التربية الإسلامية وبين آيات القرآن الكريم. وهذا ما يوجه إليه قوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} {190} الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ { (آل عمران: 190-191).

وأهمية هذا التصور أنه يقي الإنسان من مخاطر "فلسفات العلم" التي تنحرف بالعلوم والمعارف عن غاياتها. وتوجه إلى استعمالها في تطبيقات مدمرة مفسدة كما فعلت فلسفات الدارونية والرأسمالية والشيوعية وتطبيقاتها في ميادين الاجتماع والسياسة والعسكرية والاقتصاد والتربية وغيرها.

## 2- تنمية القدرة عند إنسان التربية الإسلامية على اكتشاف ميادين معرفية جديدة حقيقية

حتى لا يبدد طاقاته العقلية والنفسية والجسدية في البحث في قضايا ظنية، وهمية لا وجود لها.

والعمل لتحقيق هذا الهدف يؤدي إلى ظهور علوم جديدة متجددة، وإلى تحديد غايات هذه العلوم وأهدافها ومحتوياتها وأنشطتها وتقويمها في ضوء الحاجات والتحديات والمشكلات التي تتجدد في الحياة والكون فمثلاً حين يقول تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ} {17} وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ} {18} وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ} {19} وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ} { (الغاشية: 17-20).

فإنه من السذاجة المفرطة أن يقف فهم هذه الآيات عند مجرد النظر العادي بالعيون المجردة. فالآيات هنا توجه إلى البحث في علوم ثلاثة هي: علوم الأحياء، وعلم الفلك، وعلم الجيولوجيا. والحث على ارتياد هذه العلوم لتكون ثمارها وسيلة تقدم -البراهين- التي تعزز الإيمان وتقييمه على اليقين، وليكون التنعم بتطبيقات هذه العلوم تنعم "الشاكرين" أي الذين لا يعصون الله في نعمه هذه.

## 3- تنمية القدرة على تحليل نتائج البحث العلمي والنظر التجريبي في فروع العلوم -خاصة

العلوم الطبيعية والاجتماعية

ثم استخلاص البراهين والشواهد الإيمانية في ثمار هذه العلوم لدعم الإيمان - بما يوجه إليه القرآن خلال المسيرة الإنسانية عبر محطات النشأة والحياة والمصير. وهذا ما يوجه إليه قوله تعالى:

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } (النحل: 67).  
 { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } (الروم: 24)  
 { وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } (الأنفال: 2)

#### 4- تنمية التواضع للحق وتعشقه والبحث عنه دون استكبار أو نفور

وهذا ما يشدد القرآن عليه ويكرر التنديد بالاستكبار ويذكر بصراحة أنه من العوامل الرئيسة في النفور من الحق وعدم الاهتداء إليه. وأمثال هذا واضحة في مثل قوله تعالى:

{ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا } (الجنائفة: 8)  
 { وَإِذَا تُنَلَّىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَكَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا } (لقمان: 7)  
 { سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } (الأعراف: 146)  
 والصرف هنا صرف سني لا صرف انفعالي - تأديبي. أي من سنن الله في النفوس أن الذين يتكبرون يقودهم التكبر إلى الانصراف عن الحق.

{ بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ } (الزمر: 59).  
 { أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُنَلَّىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ } (الجنائفة: 31).

#### ثالثاً: محتويات - ميدان تلاوة الآيات - وتكاملها

من العرض الذي مر لمضامين كلمة "آية" يبدو واضحاً أن محتويات هذا المنهاج تنقسم إلى مجموعتين: الأولى؛ الآيات القرآنية. والثانية؛ ظواهر الكون الطبيعي، وظواهر الاجتماع الإنساني.

وتشير الصيغة القرآنية التي قدمت المجموعة الأولى من محتويات الميدان: { يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ } إلى أن دور الرسول صلى الله عليه وسلم هو مجرد تلاوة المجموعة الأولى من الآيات - أي آيات الكتاب - تمهيداً لقيام العلماء المختصين في مجتمع المؤمنين بالمهمة الثانية وهي إبراز المجموعة الثانية من هذه الآيات - أي آيات الآفاق والأنفس - التي تقدم البراهين والشواهد على صدق المجموعة الأولى. والمجموعة الثانية - كما هو واضح - قسمان: آيات الآفاق وثمرتها بناء العقائد اليقينية القائمة على البراهين الكونية الموصلة إلى الحق، الدامغة للباطل، وآيات الأنفس وثمارها بناء الأحكام الأخلاقية والعملية القائمة على جلب الصالح والنافع ودفع الضار والفساد،

وفي كلا القسمين يتبين أن للكون تكرر الحث في القسمين من الآيات على النظر والبحث في الأكوام للعلم والمعرفة بما فيها من الحكم والأسرار التي يرتقي بها العقل وتتسع بها المنافع للإنسان<sup>(1)</sup>.

والواقع أن النظر في البنية العضوية لآيات القرآن الكريم يكشف بوضوح عن الدور الذي تقدمه هذه الآيات فاسم "القرآن" يعني: نبع القراءة الصائبة. أي أن كل قراءة -أو معرفة- تبدأ من "شرعته" أي منطلقاته اليقينية؛ مثله مثل اسم "الرحمن" الذي يعني: نبع الرحمة، أي إن جميع أشكال الرحمة المنتشرة بين عوالم الأحياء إنما تنبع من -رحمة الله- المطلقة اللامتناهية. وصفات القرآن كلها تؤكد هذه الخاصة القرائية. فصفة "المهدي" تعني أن المعرفة التي يوجه إليها القرآن هي معرفة حق وصواب. وصفة "النور" تعني إن المعرفة المنهجية والسلوكية التي يوجه إليها القرآن هي منهجية منيرة، واضحة، مبنية. وصفة "الفرقان" تعني الذي يفرق بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، والحلال والحرام. ولقد فصل المختصون في علوم القرآن في أسمائه وصفاته وتفصيلات دقيقة تفيد في التعريف بالآثار المعرفية التي يمكن أن تفيد الباحث الذي يشرع من "شرعة" القرآن. ومثال ذلك ما أورده كل من الزركشي والسيوطي في كتابيهما الشهيرين.

وتلخص أسماء الكتب السماوية الرئيسة الثلاثة طبيعة التحدي الذي واجهته كل كتاب منها خلال الحقبة التاريخية التي زامنته. فـ "التوراة" بأصولها العربية تعني: الدفع، أي أنها أنزلت لوضع الباطل الذي عاصرته في موقف الدفاع بدل العريضة الهجومية التي كان يمارسها الفراعنة المتألمون وأندادهم المعاصرون. و"الإنجيل" بأصول العربية المشتقة من "نجل" أي قطع ومنها "المنجل" أي القاطع للزرع، يعني: المحدث. أي أنه أنزل ليحدث فكرة التأله التي عاصرها وكان من أمثالها تأله أباطرة الرومان والفرس الأحياء منهم والأموات<sup>(2)</sup>. والقرآن يعني -نبع القراءة أو المعرفة الصحيحة الصائبة لأنه جاء على رأس طور ينذر بتفجر المعرفة تفجراً يجعل الإنسان يؤمن في الصباح بما كفر به المساء، ويكفر في الصباح بما آمن به في المساء إذا لم "يشرع" معرفته من منطلقات يقينية سليمة من الظن والتسليم الذي لا سند له.

وهناك تفاصيل لآيات الآفاق هذه ومدلولاتها الكونية وفوائد البحث فيها دينياً ودنيوياً.

من ذلك الميادين الثمانية التي تشير إليها الآية 164 من سورة البقرة وهي:

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج1، تفسير الفاتحة (دار الفكر)، ص68.

(2) قال ابن تيمية. قرأته في الفتاوى ونسيت توثيقه.

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِيحِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }.

ويتكامل النوعان من الآيات: آيات الكتاب، وآيات الآفاق والأنفس بحيث لا يتم الانتفاع بأي منهما إلا إذا ركزت التربية على تحقيق التكامل بينهما، وتنظيم القرآن بالشكل الذي أوحاه الله يسهل هذا التكامل وييسره. وهذا ما أدركه الزركشي حيث قال:

((الحكمة من تقطيع السور آيات معدودات، لكل آية حد ومطلع، حتى تكون كل سورة بل كل آية فناً مستقلاً وقرآناً معتبراً))<sup>(1)</sup>.

والواقع إن للتكامل بين آيات الكتاب وآيات الآفاق والأنفس أهمية كبيرة تتمثل فيما

يلي:

- 1- توقظ آيات الكتاب عقل المتعلم وتضعه على ثغور المعرفة بدل الارتداد إلى معارف الماضين وتقديسها وإسباغ الكمال والعصمة عليها.
- 2- تصون آيات الكتاب عقل المتعلم من الانشطار - أي الانحراف - إلى الغيب الذي لا وجود له، وتوجهه إلى ميادين معرفية لها وجود حقيقي قابل للحس.
- 3- توفر آيات الكتاب أهداف الحياة وغاياتها مما يوجهه إلى اكتشاف الوسائل المناسبة في آيات الآفاق والأنفس وحسن الانتفاع بها عقدياً ونفسياً وجسمياً.
- 4- توجه آيات الآفاق والأنفس إلى عمق التفسير القرآني وتأويله بدل الاقتصار على التفاسير اللغوية وحدها.
- 5- يوفر التكامل بين النوعين من الآيات الشواهد والبراهين العلمية والاجتماعية التي تبرز صدق آيات الكتاب.

((والله تعالى يذكر في القرآن بآياته الدالة على قدرته وربوبيته، ويذكر بآياته التي فيها نعمة وإحسانه إلى عبادة. ويذكر بآياته المبنية لحكمته تعالى. وهي كلها متلازمة. فكل ما خلق فهو نعمة، ودليل على قدرته وعلى حكمته. لكن نعمة الرزق والانتفاع بالماكل والمشارب والمساكن والملابس ظاهر لكل أحد. فلهذا يستدل بها كما في سورة النحل. وتسمى سورة (النعم))<sup>(2)</sup>.

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، بيروت: دار المعرفة 1972/1391، ص264.

(2) ابن تيمية، الفتاوى، كتاب التفسير، ج1، مجلد14، ص308.



وفي العقود المتأخرة بدأ مفكرو الغرب الحديث يحسون بالخسارة التي أصابت التربية الحديثة نتيجة للانفصال العلوم الطبيعية عن "بصائر" الوحي. من ذلك ما ذكره "فرتز شوماخر- في كتابه- دليل الحائرين حيث قال:

((إن الخرائط المعرفية التي أنتجها العلم الحديث المادي تترك كل الأسئلة التي تهم الإنسان بدون إجابة. وما زال الوضع من سيء إلى أسوأ لأن التطبيق الصارم للطريقة العلمية على جميع الموضوعات دمر ما تبقى من حكمه القدماء على الأقل في الغرب نفسه))<sup>(1)</sup>.

ويناقش كل من -موريس وباي نفس الموضوع فيذكران أن للوجود طبقتان: طبقة الحقيقة، وطبقة المظهر، وأن الطبقة الأولى من اختصاص الوحي، أما الطبقة الثانية فهي من اختصاص العقل والحواس، وإن اجتماع الاثنين وتكاملهما أمر ضروري لحصول اليقين والإيمان. ولفهم الكيفية التي يشهد بها العقل والحواس طبقة "المظهر" يستشهد المؤلفان بالأرض التي تبدو للعين المجردة نوعاً من الوجود البسيط الصلب، بينما تبدو للعالم الكيميائي جسماً من الهيدور كاربونات التي تترابط بطريقة معينة وتخضع لأنواع من الظروف البيئية كالحرارة والبرودة والرطوبة والتأكسد. وتبدو لعالم الفيزياء مجموعة من الذرات والإلكترونات وأشكال أخرى من الطاقة الفيزيائية التي تصنع من الأرض فراشاً ساخناً دائم التحفز والحركة الذرية. ثم يتساءل المؤلفان: ترى أي نمط من أنماط الوجود الثلاثة يمثل حقيقة الأرض؟

ويقدم المؤلفان مثلاً آخر فيقولان: إننا حين ننظر في التقارير التي تكتب عن كارثة أو حادثة معينة، نجد أنفسنا أمام تقارير متعددة مختلفة، حيث يرى المراسل الصحفي العادي عدداً من الأشخاص والممارسات التي صدرت عنهم فأدت إلى وقوع الحادث. أما المؤرخ الاقتصادي فسيرى فيها مجموعة من المؤثرات الاقتصادية التي كانت تعمل قبل وقوع الحادث بالشكل الذي وقع. ومثل المؤرخ السياسي، أو عالم الاجتماع، أو عالم النفس، أو عالم التكنولوجيا الذي سيرى كل منهم مجموعة من المؤثرات التاريخية أو السياسية أو الاجتماعية أو النفسية أو التكنولوجية. وهكذا نجد أنفسنا أمام عشرات التقارير التي تجعل من الحادثة أو الكارثة التي وقعت عشرات الحوادث التي تشكلت طبقاً لعشرات المجاميع من المؤثرات، وسوف تفرز عشرات من مجاميع المؤثرات المستقبلية. وهذه كلها لا تعدو عن تقديم طبقات من ((ظواهر الحياة

<sup>(1)</sup> E. Fritz Schumacher, A Guide for the Perpleded, New York: Harper & Row Publishers 1977, pp 4-5.

الدنيا)). أما الحقيقة الآخرة التي تربط خيوط هذه الظواهر أو تجمعها في بؤرة واحدة "موحدة" وتحت سيطرة "واحد أحد" فهي مهمة الوحي الصادرة عن ((الواحد الأحد)).

ولا يمكن أن يتم إدراك -الحقيقة الكلية- التي يخبر عنها الوحي وتتوحد فيها "الظواهر" المختلفة المتنوعة إلا من خلال عمل العقل الناضج والحواس السليمة في هذه الظواهر. ذلك إن تعدد طبقات هذا ((الظاهر)) من الحياة الدنيا يكشف لنا عن العديد من مظاهر ((أفعال الخالق)) ومظاهر قدرته وتصبح هذه المظاهر كلها معبراً متدرجاً يوصل إلى الحقيقة الكبرى فتحصل المعرفة الحقيقية واليقين الراسخ.

والفصل بين الوحي من ناحية والعقل والحواس من ناحية أخرى يؤدي إلى ميتافيزيقا<sup>(1)</sup>. تعددية محيرة للمعارف تقود إلى الاعتقاد بالنسبة التي لا تفرز معياراً واحداً ولا قيماً موحدة فيتنبك الناس عن الصراط المستقيم وتتعدد بعد الطرق المؤدية إلى الانهيارات الاجتماعية والمهالك العقدية فيقع الإنسان في الحيرة والجمود ويتوقف عن النمو والمعرفة<sup>(2)</sup>.

ويقول -أوين بارفيلد- (( يجب أن يكون واضحاً للعقل الذي لم يصبه التلف أن القيم لا يمكن أن تكون نتائج يتوصل إليها العقل، وإنما هي مقدمات يبدأ العقل منها))<sup>(3)</sup>.

وهنا تبدو الحكمة من وصف الله تعالى للقرآن بأنه نور وهداية للناس. أي هو قيم ومصايح فكرية- أو بصائر حسب لغة القرآن نفسه- تنتصب على مسارات السلوك النفسي والعقلي والعملية وتتكامل مع العقل والحواس كما يتكامل نور المصايح أو نور الشمس مع إبصار العيون في الرؤية. وحين يقدم الفهم الخاطئ آيات الكتاب باعتبارها بديلاً للعقل والحواس فإن مثل هذا الفهم مثل الذي يقدم المصايح بديلاً عن العيون. أي أن في ذلك تعطيل لوظيفة هذه الآيات وتنفير خطير من وجودها بين الناس، وهذه إساءة بالغة لآيات الوحي يمارسها أصحاب العصبية الفكرية والكهانة الدينية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ((العقل)) الذي نتحدث عنه يختلف عن ((الذكاء)) الذي هو قدرة عقلية تستطيع الربط بين شيئين لتحقيق هدف عملي. ولذلك يوجد الذكاء في أنواع من الحيوانات مثل قدرة قردة الشمبانزي على الوصل بين عصاتين لإسقاط الموز. ومثلها قدرة

(1) Morris & Pai, Philosophy and the American School, pp 30-31.

(2) الميتافيزيقا: الغيب الذي لا وجود له ولا سبيل إلى معرفته.

(3) Owen Barfield Language Education of Consciousness and the Recovery of Human Meaning in Toward the Recovery of wholeness, p58.

التاجر على الربط بين الاحتكار وزيادة الربح، وقدرة العسكري على الربط بين فعالية السلاح وكسب المعركة القتالية وهكذا. فالذكاء إذن يربط بين الأشياء لتحقيق هدف عملي مباشر يساعد على استمرار الحياة لكنه لا يستطيع التنبؤ بالنتائج التي ستأتي بعد ذلك أنا -العقل- فهو قدرة على التنبؤ بما وراء الأعمال الظاهرة والتحقق من جوهر الحقائق والوقائع المحيطة تحقّقاً يفيد في السلامة المادية عبر سلسلة من الوقائع والأحداث المستقبلية. لكن العقل لا يكون فعالاً ناجحاً إلا إذا كان واعياً بحقيقة الإنسان ومكانته وامتثاته، فإذا فقد هذا الوعي عجز عن النفاذ إلى جوهر الأفكار والآراء وإدراك الحقيقة. وهذه هي صفة الإنسان المغترب أو عابد الأصنام، وهي أيضاً صفة العقل الآلي الذي يقوم بعمليات ذكية دون القيام بعمليات عاقلة، وهي أيضاً صفة -إنسان التربية الحديثة الذي يتصف بكثير من الذكاء وقليل من العقل لأنه يكشف قوانين الأشياء المادية، ويطبّقها في تكنولوجيا متقدمة ثم يستعملها استعمالاً يضر بسلامته وينال من سعادته، ولأنه يعاني من نقص كبير في فهم معنى الحياة والموت، والسعادة والشقاء، ولأنه حجب حقائق الوجود الإنساني كلها وأحل محلها صورة زائفة مزوقة بالحقيقة النفسية البعيدة عن الحقيقة الإنسانية<sup>(1)</sup>.

من ذلك كله يتبين لنا الحكمة الإلهية من وصفه تعالى للكافر والمنافق بعدم العقل: {وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ } (المائدة: 58) ويتبين لنا كذلك معنى الخبر الإلهي القائل بأن آيات القرآن إنما يهتدي إليها ويؤمن بها العقلاء: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } (الرعد: 4).

رابعاً: الأساليب والأنشطة في ((ميدان تلاوة الآيات)):

هناك مجموعة من الأساليب والأنشطة التي تصلح في "منهاج تلاوة الآيات" وهذه الأساليب هي:

**الأسلوب الأول:** دراسة علوم القرآن المعروفة والتي تدول حول التعريف بالقرآن نفسه، ومعرفة المكي والمدني منه، وأسباب التزل، وجمع القرآن وترتيبه وتدوينه، وغير ذلك مما فصل به المختصون. ولا يقتصر دور المشرفين على هذا الأسلوب على بذل الجهود للاستفادة مما تركه علماء القرآن خلال العصور المختلفة، وإنما يحتاجون إلى إعادة النظر في بعض المفاهيم التي تشيع في هذه المصادر مثل مفهوم النسخ والمنسوخ لأن الطريقة التي عرض بها هذا الموضوع لا تتفق مع استمرار صلاحية القرآن لكل زمان ومكان. فالنسخ الذي يستقيم مع هذه الصلاحية

(1) Erich Fromm, the sane society, pp 152-155.

هو ما سبقت الإشارة إليه في كتاب -أهداف التربية الإسلامية- وقرره ابن تيمية في -مقدمة التفسير- وخلاصة هذا الفهم أن النسخ لم يحدث ليغلي حكم آية بآية أخرى، وإنما هو إيقاف العمل بالآية بسبب تغير الظروف والمناسبات التي كان من أجلها نزول الآية، فإذا عادت ظروف ومراحل شبيهة بالظروف والمناسبات السابقة رفع النسخ واستؤنف العمل بتوجيهات الآية مع مراعاة محدودية النسخ في الآيات التي وقع فيها وعدم توسيعه إلى غيرها. وهكذا في بقية الموضوعات التي يكشف البحث الدقيق عن ضرورة تأصيلها وبلورتها.

**والأسلوب الثاني:** هو تحقيق التكامل بين ((آيات الكتاب)) والأحداث الجارية المتعلقة بحياة الإنسان أفراداً وجماعات، وهذا هو أسلوب الوحي المتدرج في التزول، والتصدي لمشكلات الحياة الجارية، وهو أيضاً جوهر الأساليب النبوي في التربية في صدر الإسلام الذي وصفه أكثر من واحد من الصحابة رضوان الله عليهم. من ذلك ما قاله جندب البجلي: ((كنا فتياناً حزاورة<sup>(1)</sup>). مع نبينا- صلى الله عليه وسلم- فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازدنا به إيماناً، وإنكم اليوم تعلمون القرآن قبل الإيمان<sup>(2)</sup>). ومثله ما رواه عبد الله بن عمر حين قال: ((لقد عشنا برهة من دهرنا وإن أهدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتترل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فيتعلم حلالها وحرامها، وما ينبغي أن يوقف عنده كما تعلمون أنتم القرآن)) ثم قال (( لقد رأيت رجلاً يؤتى أحدهم القرآن فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري وما أمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده، ينثره نثر الدقل))<sup>(3)</sup>.

ونتيجة لهذا التلازم بين تعليم آيات القرآن والتطبيقات العملية الحياتية الموازية كانت تطول فترة تعلم السورة الواحدة. ومثال ذلك ما حدث مع عبد الله بن عمر الذي مكث ثمان سنوات في تعلم سورة البقرة<sup>(4)</sup>. وكذلك والده عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي مكث اثنتي عشرة سنة يتعلم نفس السورة فلما ختمها نحر جزوراً<sup>(5)</sup>.

(1) حزاورة: جمع حزور وهو الذي قارب البلوغ- لسان العرب.

(2) البيهقي، الجامع لشعب الإيمان، ج1، ص193.

(3) الحاكم النيسابوري، المستدرک، ج1، كتاب الإيمان الإيمان، ص91.

الدقل: نوع رديء من التمر.

(4) البيهقي، الجامع لشعب الإيمان، ج4، ص511.

(5) البيهقي، الجامع لشعب الإيمان، ج4، ص512.

**والأسلوب الثالث:** هو أسلوب التكامل بين "آيات الكتاب" و "آيات الأفق والآنفس" وذلك من خلال تهيئة الأوضاع التعليمية ليتوازي تعليم آيات القرآن مع البحث والدراسة في مختبر الكون والاجتماع الإنساني في مختلف فروع العلوم ولتكون ثمار هذا التعليم إفران "براهين" متجددة بتجدد الأجيال فيحصل الإيمان ويثبت اليقين. ويوجه القرآن إلى تطوير مثل هذا الأسلوب عند أمثال قوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ} {5} {خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ} {6} {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} {7} {إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ} (الطارق: 5-8).

{ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } (يونس: 101).

{ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ } (الأنعام: 99).

ويعرف ابن تيمية النظر<sup>(1)</sup>. أما القرطبي فيذكر أنه نظر الاعتبار لا نظر الإبصار المجرد عن التفكير<sup>(2)</sup>. والواقع إن المنهج الذي يوجه إليه القرآن للقيام بالنظر المشار إليه هو منهج يقوم على استعمار السمع والبصر والفؤاد أي استعمال القدرات السمعية والبصرية والعقلية - في ضوء الخبر- الذي تنقله الآيات المتلوة في الكتاب والموجهة للبحث في موضوع النظر بهدف التعرف على مظاهر قدرة الله ونعمة في الأفق والآنفس. و((الخبر)) أو ((الإشارة)) اللذين تقدمهما الآية القرآنية هنا يقابل الفرضية أو المسلمة في البحث العلمي مع فرق جوهرية وهو أن الفرضية أو المسلمة هي مقولة ظنية قابلة للصواب والخطأ. أما الخبر القرآني فهو -خبر صادق- من خالق يشهد ما يخلق وإشارة إلى وجود محسوس قابل للاكتشاف والمعرفة بأدوات العقل والحواس لا اختبار صدق الخبر واكتشاف الوجود المغيب. وهذا الاختبار التجريبي منهج قرآني سلكه الأنبياء أنفسهم ولم ينكره الله عليهم. فهذا عزيز يمر على قرية هامدة فيود لو لريه الله كيف يحي هذه القرية بعد موتها، فأماته الله مائة عام ثم أحياه وأراه طعامه الذي لم يتسنه، وحماره وهو يبعث إلى الحياة من جديد.

وهذا إبراهيم عليه السلام يدعو الله أن يريه كيف يحي الموتى. فيسأله الله: أو لم تؤمن؟ فيجيب: بلى ولكن ليطمئن قلبي. فيوجهه الله إلى مختبر الحياة نفسها للقيام بتجربة حسية مادتها تشريح الطيور ثم النظر إليها كيف تدب الحياة فيها من جديد. ولقد تحدثت الآيات القرآنية عن هاتين التجربتين فقالت: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ

(1) ابن تيمية، الفتاوى، كتاب التفسير (الجزء الثالث)، ج16، ص 224.

(2) القرطبي، التفسير، ج7 (سورة الأنعام: 99)، ص 33.

بَلْ لَبِثَتْ مِثَّةَ عَامٍ فَنَظَرُ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِتَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ  
وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
قَدِيرٌ {259} وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُوْمِنُونَ قَالَ بَلَى  
وَلَكِن لِّيُطَمِّنَنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ  
جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {البقرة: 259-260}

ولقد علق الرسول - صلى الله عليه وسلم - على تجربة إبراهيم بقوله: ((نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: رب أرني كيفي تحيي الموتى؟ قال: أو لم تؤمن؟ قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي))<sup>(1)</sup>. أي أن المسلمين أولى بإجراء التجارب الحسية ورؤية سنن الله وقوانينه ومظاهر قدرته في الآفاق والأنفس.

ويؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المنهج العلمي - التجريبي في أحاديث كثيرة. من ذلك قوله: (( ليس الخبر كالمعاينة، إن الله أخبر موسى بما وضع قوه في العجل فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألغى الألواح فانكسرت ))<sup>(2)</sup>.

ومثله احتجاج الله سبحانه على قريش بمجادلتهم فيما رآه الرسول صلى الله عليه وسلم بعينه وذلك عند قوله تعالى: { أَفْتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ } {12} وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ } {13} عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ } {14} عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ } {15} إِذْ يَعْشَىٰ سِدْرَةً مَّا يَعْشَىٰ } {16} مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ } {17} لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ } {18} (النجم: 12-18).

وهكذا يظهر جلياً أن القيام بهذا النوع من الأنشطة العلمية - التعليمية هدفه تنمية اليقين عند إنسان التربية الإسلامية، والارتقاء في مدارج الكمال الإيماني وتكوين تصور صحيح لغايات الحياة والمصير الذي ستنتهي إليه، وفي إطار هذا التصور تتحدد اتجاهات النشاط الإنساني ومساراته في ميادين الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلاقات الاجتماعية والدولية.

(1) الطبري، التفسير، (سورة البقرة: 260)، ج3، ص 48-49.

ابن ماجه، السنن، باب الفتن، رقم 4026.

(2) السيوطي، صحيح الجامع الصغير، تحقيق الألباني، ج2، رقم 5374.

رواه أحمد في مسنده، والطبراني في الأوسط، والحاكم في المستدرک.

ونظم التربية التي تغفل الربط بين آيات الوحي في الكتاب وآيات الآفاق والأنفس في مختبرات العلم تخرج إنساناً يعمى عن رؤية براهين قدرة الله وشواهداها في الآفاق والأنفس رغم كثرتها وتتابعها. وإلى هذا العمى كانت الإشارة الإلهية: {وَكَايِّنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} {105} (يوسف: 105). وهذا العمى ظاهرة بارزة في التربية الحديثة التي تستمتع بتطبيقات العلوم الطبيعية وعلوم النفس والاجتماع والتاريخ دون أن تشهد تطابق ثمار هذه العلوم مع ما توجه إليه -آيات الوحي في القرآن الكريم- من البراهين الإيمانية والشواهد العلمية.

والواقع أن كل اكتشاف يتوصل إليه العلم يقدم تطبيقات جديدة لقوله تعالى: {سُنِّرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} (فصلت: 53).

فإذا كان ممن مضوا من استغرب كيف سيختتم الله على أفواه الناس لتكملة أيديهم وأرجلهم بما عملوا، فقد جاء اختراع شريط المسجل أو الفيديو آية آفاقية ليقدّم شريحة من الجلد الرقيق تخزن ما ينطلق به الإنسان وثبته. وإذا كان من الأقدمين من استغرب كيف أن الله سبحانه سوف يحشر الناس يوم القيامة ثم يناديهم بصور يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب<sup>(1)</sup>، فقد جاء التلفزيون ليقدّم مديعاً بشراً يجلس في مكان صغير ويسمع سكان القارات الخمس صوته ويريه صورته. وإذا كان هناك من يستغرب كيف يستطيع الله أن يراقب الناس كلهم ويسمعهم أينما كانوا فقد جاءت محطات المراقبة وأقمار الفضاء وأجهزة اللاسلكي لتمكن إنساناً يجلس في مكتبه ويراقب الطرق والمسارات البرية والفضائية وما يتحرك خلالها أو يسكن، ولتمكن مراقباً في غرب الأرض أو شرقها من مراقبة كل حركة يتحركها الناس في المعسكر المقابل وسماع كل همسة يهمسون بها.

وليسهل على إنسان ما بعد عصر الرسالة المحمدية إدراك كيف أن الله طبع وحيه على قلب رسوله في الأرض، فقد أرى الله هذا الإنسان آية من آيات الآفاق وهي التللكس والفاكس حيث يطبع جهاز كل منهما الصورة والكلمة من أقصى الغرب على صفحة جهاز آخر في أقصى الشرق. وليسهل على الإنسان إدراك الخبر القرآني الذي يخبرنا بأن الله يبصر ما يجول في

(1) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يحشر الناس يوم القيامة - أو قال العباد- عراة، غرلاً بما قال: قلنا: وما بما؟ قال: ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أن الديان! أنا المالك..." الحديث رواه الكاندهلوي في حياة الصحابة، ج1، ص49 نقلاً عن البخاري في الأدب المفرد، والحاكم في المستدرک.



خواطرنا فقد أراه الله جهاز التصوير بالأشعة الذي يكشف خفايا بواطن الإنسان في المستشفيات وخفايا الشنط والصناديق في المطارات. وليسهل على الإنسان إدراك صدق الخبر القرآني القائل بأن الله يسمع كل إنسان ويكلم من يشاء من رسله، فقد أراه الله آيات من آيات الآفاق وهي التلفون الذي يستطيع من خلال عدد من الأرقام الحسائية أن يكل كل فرد في الكرة الأرضية ويسمعه. وليسهل على الإنسان إدراك الخبر القرآني القائل بأن جهنم يجتمع فيها النار الحارقة والزمهيرير المجدد، فقد أراه الله آية الكهرباء التي تولد فيه الأشياء. وليسهل على الإنسان إدراك كيف أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، فقد أراه الله آية التصوير السينمائي والتلفزيوني والفيديو التي تعرض حركات وسكنات من ماتوا وصاروا تراباً وليسهل على الإنسان تصور الأخبار القرآنية التي تروي أهوال القيامة فقد أراه الله آية التدمير الذري والهيدروجيني والجيوفيزيائي. وليسهل على الإنسان إدراك الخبر الذي يخبرنا بأن الله ملائكة يسجلون ويحفظون حركات البشر وسكناتهم ليخرج الله لكل إنسان يوم القيامة كتاباً عما فعله من خير أو شر، فقد أراه الله آية الكمبيوتر الذي يقدم المثل الواضح لذلك ويقربه.

ومثله ما توصل -وما زال يتوصل- إليه العلم عن الجسد البشري والنفس الإنسانية والمجتمعات البشرية والذي يشكل سلسلة طويلة من المكتشفات في آيات الأنفس التي تتطابق مع آيات الله في الكتاب وتقرب فهمها وتشكل برهاناً لها. وأحدث آيات الأنفس -آية الاستنساخ- التي تقرب للعقل كيف أن الله سوف يستنسخ الناس يوم البعث والحشر. وهكذا يقدم العلم الحديث كل يوم آيات الله في الآفاق والأنفس ليجعل الناس يقفون على صدق آيات الله في الكتاب: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} {20} {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} (الذاريات: 20-21).

لقد عميت التربية الحديثة عن هذه الآيات الآفاقية والنفسية التي يقدمها العلم أدلة بينة على صدق آيات الله في الكتاب، لظروف تاريخية خارجة عن موضوع هذا البحث. والواقع أن استمرار هذا العمى وعدم الاستفادة من المعين القرآني سببه صفة معينة في العقل الغربي الذي ابتكر نظم التربية الحديثة وصدرها إلى العالم كله مع بقية صادراته. ولقد تحدث عن هذه الصفة -البروفسور ريتشارد هوفزتايدر- فذكر أن قبول الأفكار وتبينها في العقل الغربي لا يستند إلى

درجة الصدق والمنطق فيها، وإنما طبقاً لملاءمتها للحاجات وتلبيتها للرغبات، وأن هذه الصفة من أهم العقبات التي تقف أمام استراتيجيات التغيير التي تقوم على المنطق والعقل<sup>(1)</sup>. وبسبب هذه الصفة كان العقل الغربي دوماً يحرف الرسائل السماوية أو يؤولها ويسخر مؤسساتها - كما فعل ويفعل بالمسيحية - ليستثمرها في تحقيق الرغبات العامة والحاجات الثقافية - حسب تعبير هوفز تادر-. ويمكن أن نلاحظ التطبيقات العملية لهذه الصفة في الميادين السياسية والاقتصادية بوضوح. ففي ميدان السياسة تدرج الأديان والعقائد في قائمة ما يسمى بـ "روافع القوة Leberages of Power"، حيث تتحول العقائد والقيم إلى روافع ومخلات لزيادة فعالية هذه القوة وأدائها<sup>(2)</sup>. وهذا ما يفسر تشجيع الغرب للدين في فترة ما ومحاربتة في أخرى، وتأييد أصحاب الحركات الدينية في مكان ومحاربتها في آخر حسب إسهام هذه الحركات أو معارضتها لمصالح الغرب. ومثال ذلك أن الغرب الأوربي والأمريكي كان يدعمان الجهاد في أفغانستان عندما كان في هذا الدعم إضعاف لقوة الاتحاد السوفياتي، ولكنهما كانا يحاربان الإسلام نفسه في فلسطين والأقطار العربية لأن محاربتة وإبقاء أهله وحملته ضعفاء يزيد من نفوذ الغرب في المنطقة ويقلل من أخطار المقاومة. ومثله موقف الغرب من المسيحية نفسها حيث يحققها ويضيق عليها في مجتمعاته لأن في ذلك قوة للسياسة ومصالح الاقتصاد والتجارة، بينما يرسل البعثات التبشيرية خارج أوروبا وأمريكا لأن ذلك يخدم أغراضه في الاستعمار والاستثمار.

#### خامساً: التقويم في ((ميدان تلاوة الآيات)).

لا يزعم هذا البحث أنه يقدم تصوراً كافياً لمفهوم التقويم في -ميدان تلاوة الآيات-، وإنما يكتفي بالقول أن المحور الذي يدور حوله مفهوم التقويم في هذا الميدان هو التحقق من حصول "الفلاح" الذي تكررت الإشارة إليه في القرآن الكريم في (40) أربعين موضع وذلك عند أمثال قوله تعالى:

- { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } { 1 } الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ { (المؤمنون: 1-2).
- { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى } (الأعلى: 14).
- { فَاتَّبِعُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (الأنفال: 45).

(1) Richard Hifstadter, Social Darwinism in American Thought, (Boston: Beacon Press, 1955)p. 204.

(2) المحلات: مفردها مخل وهو الرافعة الحديدية التي يستعملها الحجاز لرحضة الصخور التي يكسرها.

- { وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (الحج: 77).

- { أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (المجادلة: 22)

والفلاح معناه: الظفر بالمطلوب. والمفلح هو الظافر بالمطلوب<sup>(1)</sup>. والنضج العقلي شرط رئيس في الفلاح لقوله صلى الله عليه وسلم: ((أفلح من رزق لباً))<sup>(2)</sup>.  
والفلاح قسمان: فلاح حسي، أي انتفاع حسي - عملي بثمرات التربية الإسلامية ومنهاج تلاوة الآيات. ويجسد هذا الانتفاع الحسي في عالم الواقع تطبيقات علوم الآفاق والأنفس في التكنولوجيا الصناعية والزراعية والطبية المحركة لشكر الله. وفلاح معنوي وهو ما يسميه القرآن الكريم باسم "اليقين" واليقين قناعة ورضى نتيجة التطابق بين ((خبر)) الوحي في آيات الكتاب وبين ((برهانه أو معجزته)) التي تكشف في الآفاق والأنفس. ويجسد هذا اليقين في عالم الواقع تطبيقات القيم والأخلاق الفاضلة، والثقافة الراقية، وشبكة العلاقات الاجتماعية الرفيعة. ولقد تكررت الإشارة إلى اليقين في (28) موضع من القرآن الكريم وذلك عند أمثال قوله تعالى:

- { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ } {2} (الرعد: 2).

- { وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ } (الذاريات: 20).

- { وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } (الجاثية: 4).

- { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ } (الأنعام: 75).

- { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } (السجدة: 24).

- { هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } (الجاثية: 20)

واليقين في القرآن الكريم درجات هي:

الأولى، علم اليقين، أي ما علمه الإنسان بالسمع والخبر والقياس والنظر.

(1) الرازي، التفسير، ج2، ص 34.

(2) الطبراني، المعجم الكبير، ج19، رقم70، ص 34.

والثانية، عين اليقين؛ أي ما شاهده الإنسان وعينه بالبصر.

والثالثة، حق اليقين، أي ما باشره وذاقه وعرفه بالاعتبار.

ويضرب ابن تيمية لهذه الدرجات الثلاث من اليقين مثلاً فيقول: إن من أخبر بالعشق أو النكاح ولم يره ولم يذقه كان له به ((علم يقيني)) فإن شاهده ولم يذقه كان له "معاناة يقينية" فإن ذاقه بنفسه وكان له خبرة به كان له ((حق يقين)) أي ذاق حقيقته<sup>(1)</sup>.

وتحقيق درجات اليقين كلها يؤدي إلى الإقبال الكامل على حمل الأمانة والمسؤولية وتقديم متطلباتها في التضحية والجهد والزهد والمصابرة والتخطيط، وكلها عناصر ضرورية لإحكام توفير بيئة النجاح اللازمة لتحقيق أهداف التربية الإسلامية في تربية الفرد المسلم وإخراج الأمة المسلمة وتنمية الأخوة الإيمانية بين بني الإنسان.

سادساً: الانشقاق بين "آيات الكتاب" و "آيات الآفاق والأنفس" في مؤسسات

التربية الإسلامية التقليدية ومؤسسات التربية الحديثة في الأقطار الإسلامية:

تعاني المؤسسات التربوية القائمة في الأقطار الإسلامية الحديثة من انشقاق عميق بين ((آيات الكتاب)) و ((آيات الآفاق والأنفس)). وهو انشقاق استوردته المؤسسات الحديثة من نظائرها في الغرب، وورثته المؤسسات التقليدية عن أسلافها الماضية عندما أصيبت مؤسسات التربية الإسلامية بالتفكير الجزئي الذي أدى إلى تجزئة ميادين التربية الإسلامية وضربها بالتعصب المذهبي وأشعل المعركة بين العاملين في ميدان الكتاب والعاملين في ميدان الحكمة، فأدى ذلك إلى القطيعة بين الطرفين وإلى مضي المؤسسات التربوية للعمل في ميدان تعليم الكتاب دون النظر في ميادين ((آيات الآفاق والأنفس)) ولقد نتج عن ذلك آثار خطيرة في مختلف ميادين العلم وفي مستقبل الفكر الإسلامي وتطبيقاته، وأبرز هذه الآثار ما يلي:

أ- الاقتصار على تدريس ((آيات الأحكام في الكتاب)) وحصر علوم القرآن في علوم نزول الوحي والتلاوة مع توقف البحث في علوم التدبر المؤدية إلى اكتشاف شواهد الحق في (الآيات المتشابهات) وبراهين إعجاز القرآن المتجدد في العلوم المختلفة والأجيال المتتابعة.

ولذلك انحصر إعجاز القرآن عند تلك المؤسسات في الإعجاز اللغوي، مع أن هذا الإعجاز مرحلي ومحلي أي أن تذوقه محدود بحدود الأجيال التي كانت تتكلم العربية الفصحى

(1) ابن تيمية، الفتاوى، كتاب السلوك، ج10، ص 645.

سليقة وداخل حدود اللسان العربي وحدها. والواقع إن هذه المشكلة بدأت منذ أن انصرف العالم المسلم عن قاموس الآفاق والأنفس واقتصر في فهم القرآن على القاموس اللفظي وحده - خاصة قاموس عربي ما قبل الإسلام- ظاناً أن الاكتفاء بمحتويات هذه الألفاظ هو السبيل الوحيد لفهم ما توجه إليه آيات الكتاب. ولذلك جاءت تفاسير القرآن تفاسير لغوية خالية من البراهين الكونية والمعجزات النفسية والاجتماعية، علماً بأن جيل الصحابة ونفراً من أئمة التابعين كانوا قد بدأوا الاستفادة من قاموس الآفاق والأنفس، حين كانوا يستشهدون بالظواهر الطبيعية وحصيلة العلوم المعاصرة وخلق الموجودات من الحيوان والجمادات. ولم تخل العصور التي تلت ممن أحس بأهمية هذا المنهج في فهم القرآن. فالرازي -مثلاً- يرى أن الربط بين آيات الكتاب وآيات الآفاق والأنفس هو منهج إبراهيم عليه السلام، وفي ذلك يقول:

((دلائل التوحيد محصورة في قسمين: دلائل الآفاق ودلائل الأنفس)).

ولا شك أن دلائل الآفاق أجل وأعظم كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ {57} (غافر: 75) (1). ويقول أيضاً:

((وهذه الطريقة أقرب الطرق إلى إفهام الخلق، وذلك محصور في أمرين: دلائل الأنفس، ودلائل الآفاق، والكتب الإلهية في الأكثر مشتملة على هذين البابين)).

ثم يستطرد الرازي لينقل عن كل من أبي حنيفة والشافعي وأحمد استدلالهم بهذا الأسلوب، فينقل عن أبي حنيفة استدلاله بالبحر وطبيعته، وعن الشافعي استدلاله على وجود الله بالنبات حيث اختار منه ورق التوت الذي تأكله دودة القز فيخرج منه الحرير، ويأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبقرة فيخرج منهما البعر والروث، وتأكله الطباء فيخرج منها المسك. وينقل عن الإمام أحمد استدلاله بالبيض وخروج الصوص منه (2).

وعن الرازي نقل ابن كثير من الشواهد والبراهين الكونية والنفسية.

كذلك طور الزركشي ما يمكن تسميته -فرضية علمية- حين قال عن تأويل قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ (الفرقان: 59) فقال: ((إن

(1) الرازي، التفسير، ج2، ص 97-99.

(2) الرازي، التفسير، ج9، ص 137.

الأيام الحقيقية لا توجد إلا بوجود السموات والأرض والشمس والقمر، وإنما الإشارة -هنا- إلى أيام تقديرية (أي مراحل) <sup>(1)</sup>.

ومع أن التاريخ الإسلامي - كما قلنا - لم يخل ممن أحس بأهمية الربط بين آيات الكتاب وآيات الآفاق والأنفس إلا أننا يجب أن لا نبالغ في تقدير هذه الظاهرة لأنها بقيت في إطار المحاولات الفردية وفي مستوى الإحساس ولم تتعداها إلى إطار العمل الجماعي في المؤسسات التربوية وفي مستوى الوعي والتطبيق. لذلك لم يتطور منهج علمي وأساليب علمية تربط بين ثمار النظر في آيات الكتاب، وثمار البحث في محتبرات الآفاق والأنفس الأمر الذي حرم المؤسسات التربوية الإسلامية من -علم تأويل- فعال كما يمكن أن يكون من ثماره استمرار تجديد البراهين والمعجزات وتحديد فهم الدين للأجيال المتعاقبة، ذلك أن البراهين والمعجزات التي يطورها جيل معين لا تلبث أن تفقد جدتها وتعمل فيها عوامل الآفة، وتشوق النفوس إلى شواهد ((أحسن)) منها.

**ب- لم تقتصر آثار الانشقاق بين ((آيات الكتاب)) و ((آيات الآفاق والأنفس)) على الحياة العلمية وإنما امتدت إلى الحياة الاجتماعية،**

فأقامت فواصل عقلية ونفسية بين المظهر الشعائري للعبادة وبين المظهر الاجتماعي مما مهد للفصل بين الدين والسياسة منذ عصر مبكر. ولقد عبر عن هذا الانفصال -عقيل بن أبي طالب- أخ الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين برر سبب تأييده معاوية فقال:

"إن صلاتي مع علي أقوم لديني، وطعامي مع معاوية أقوم لحياتي" <sup>(2)</sup>.

**ج- إفراز ((العصبية الدينية) بدل "الإيمان اليقيني)).**

ذلك إن الفصل بين آيات الكتاب وآيات الآفاق والأنفس في المؤسسات التربوية الإسلامية أدى إلى عدم تراوج النوعين من الآيات في نفس -إنسان التربية الإسلامية- واقتصر الأمر على تلقين إفهام معينة لـ ((آيات الكتاب)) دون براهين ومعجزات ((آيات الآفاق والأنفس)) الأمر الذي أوقف ولادة ((الإيمان اليقيني)) وصار يفرز ظواهر ((العصبية المذهبية والطائفية والدينية)).

(( واليقين المكتسب من هذا الأسلوب يؤدي الى اليقين او الى حق اليقين او الى عين اليقين - مثال - رجل لم يذهب الى امريكا ولكن لديه ادلة اليقين التي تجعله يؤمن بوجودها

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج4، ص 123-124.

(2) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 122 نقلا عن -شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد.

فهذا الإيمان يسمى اليقين فاذا ذهب الى امريكا ونزل في مطارها وشاهد ابنتها فان هذا الحال يسمى عين اليقين. واذا بدا التعرف على مجالات حياتها وانشطتها فذاك يسما حق اليقين (( والفرق بين ((الإيمان اليقيني)) وبين ((العصبية الدينية)) القائمة على التلقين والفرق بين الاعتقاد والحمية فرق كبير يتمثل فيما يلي:

1- يقوم الإيمان اليقيني على الدرايين والشواهد التي تقدمها الآفاق والأنفس بتوجيه آيات الكتاب. أما العصبية الدينية فهي كالعصبية القبلية حمية وتناصر انفعالي أو تصارع عاطفي يقومان على وراثة الكتاب وتقليد فهم الآباء دون شواهد ولا براهين.

2- الإيمان اليقيني يفرز التركيز على العلم والعمل. أما والعصبية الدينية فتفرز التركيز على التقليد والأشكال.

3- الإيمان اليقيني يفرز الطمأنينة والشجاعة أمام الأقوياء والشفقة والتواضع مع الضعفاء، ويوجه للاشتغال بمشكلات الحاضر وتحديات المستقبل. أما العصبية الدينية فتفرز التوتر والجنون أمام الأقوياء والاشتغال بتصيد أخطاء الضحايا والضعفاء، وافتعال معارك الفخر والهجاء حول الأسلاف ومنجزات الماضي.

4- الإيمان اليقيني يفرز روح الدين ورسالته الإصلاحية بين الناس كلهم، أما العصبية الدينية فتفرز تديناً مصنوعاً انتهازياً يناصر البغي ويرفع مصحف صفيين ويفتعل المعارك مع المخلصين.

5- الإيمان اليقيني يرتقي بالفكر ويعمق الثقة بالنفس ويدفع للتفاعل مع الآخرين والانفتاح على خبراتهم أنى كانت. أما العصبية الدينية فتفرز الجمود والانغلاق وتشيع الريبة والشك وتنشر التقليد والأمية الفكرية.

6- الإيمان اليقيني يقود إلى -الصواب والإخلاص- والحكمة. أما العصبية الدينية فتفرز الحماسة وتنتهي بأصحابها إلى الخطأ والفشل.

7- الإيمان اليقيني يدفع المؤمن للمرابطة على ثغور المعرفة بغية توسيع "دار العلم الإسلامي" أما العصبية الدينية فتغلق باب الاجتهاد وترتد إلى تراث الماضي لتقييم لأعلامه نصباً فكرية وتمثيل شعرية وتمائم مديح تملأ الملخصات.

د- إن الانشقاق بين "آيات الكتاب" و "آيات الآفاق والأنفس" أدى إلى تأويل آيات الكتاب التي توجه إلى البحث في الآفاق والأنفس تأويلاً أسطورياً من خلال اللجوء إلى الأسرائيليات وأمثالها.



وتزخر كتب التفسير بأنماط من هذا التفسير التي ما كان المفسرون مضطرين لاقتباسها لو تضافروا مع علماء الحكمة- العاملين في العلوم الطبيعية والطبية وعلوم النفس والاجتماع التي يشير إليها القرآن باسم آيات الآفاق والأنفس. ومثال هذه الاقتباسات ما يرويه الطبري عن تفسير قوله تعالى:

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} {29} (البقرة: 29).

فلقد نقل الطبري عن أسماهم المفسرين الأوائل أنهم قالوا: إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ثم أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء وسما عليه فسماه سماء. ثم أيس الماء فجعله أرضاً، ثم خلق الأرض على حوت، والحوت هو الذي ذكره القرآن في (ن. والقلم). والحوت في الماء، والماء على صفاة، والصفاة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة في المديح. وهي الصخرة التي ذكر لقمان ليست في السماء وفي الأرض، فتحرك الحوت فاضطرت، فتزلزلت الأرض، فأرسي عليها الجبال فقرت، فالجبال تفخر على الأرض<sup>(1)</sup>.

ومثله ما رواه عن معنى قوله تعالى: {إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ} حيث قال إن الرجل من الجبارين كان يلتقط الرجال ممن بعثهم موسى عليه السلام فيجعلهم في كفه مع الفاكهة، وإن العصابة من بني إسرائيل كانوا يجتمعون على عنق الرجل من أولئك الجبارين يضربونها لا يقطعونها، وإن عوج رئيس العماليق الجبارين، وثب موسى عشرة أذرع في الهواء حتى أصاب كعبه فقتله<sup>(2)</sup>.

وفي تفسير للآيات التي تتحدث عن ملكه سبأ وعلاقتها مع سليمان عليه السلام نقل الطبري عن قتادة قوله: إن بلقيس هي ابنة شراحيل، وإن أحد أبويها من الجن، وإن مؤخر أحد قدميها كانت كحافر الدابة. ونقل عن مجاهد قوله إن بلقيس ملكه سبأ كانت شعراء قدمها كحافر الحمار وكانت أمها جنية<sup>(3)</sup>.

وفي تفسيره للآيات التي تتحدث عن آدم ذكر إنه كان رجلاً طويلاً رأسه في السماء ورجلاه في الأرض ثم نقص إلى ستين ذراعاً<sup>(4)</sup>.

(1) الطبري، التفسير (البقرة: 29) ج1، ص 194.

(2) الطبري، التفسير، ج6، ص 185.

(3) الطبري، التفسير (سورة النمل: 29-31) ج15، ص 152-169.

(4) الطبري، التفسير، ج1، ص 547.

وفي تفسيره لدعاء إبراهيم { وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ } قال: إن إبراهيم لما سأل ربه ذلك نقل الله الطائف من فلسطين<sup>(1)</sup>.

وفي تفسير ((آيات الآفاق والأنفس)) ضيق المفسرون - كما نقل عنهم الطبري - معنى ((الآفاق)) حتى قالوا بأنها نواحي مكة وأطرافها، وأن معنى "وفي أنفسهم" هو فتح مكة، وآخرون فسروا الآفاق بـ"آفاق السماء" وفي ((وفي أنفسهم)) بأنها سبيل الغائط والبول<sup>(2)</sup>.

وفي تفسير القرطبي للآيات التي تتحدث عن فرعون ذلك له أسماء عربية عديدة، فذكر أن اسمه قابوس في قول أهل الكتاب، وأن وهب قال اسمه الوليد بن مصعب بن الريان، ويكنى أبو مرة، وأن من بني عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح. وأن هناك من قال إنه كان فارسياً من أهل اضطرخ<sup>(3)</sup>. وتكرر نفس التفسير عند كل من الرازي<sup>(4)</sup>، والشوكاني<sup>(5)</sup>.

وفي تفسير القرطبي للمطر والسحاب نقل عن كعب الأحرار أن السحاب غربال المطر ولولا السحاب حين يتزل الماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض<sup>(6)</sup>.

وفي تفسير الرازي لقوله تعالى: { الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا } ذكر أن الأرض ساكنة غير متحركة وأظن في ذكر الأسباب التي رآها<sup>(7)</sup>. ومثله ما ذكره عن الكواكب من تفسيرات أسطورية غير واقعية<sup>(8)</sup>.

ولا يكاد يخلو تفسير من التفاسير المشهورة من مثل هذه الأساطير التي لا يكفي أن نصفها بأنها مجرد إسرائيلييات، لأنها - في الحقيقة - تشير إلى خطورة الفصل الذي حدث بين علوم (آيات الكتاب) وعلوم (الآفاق والأنفس). ولو تطور في مؤسسات التربية الإسلامية علماء بـ((آيات الآفاق والأنفس)) فهموا الأوامر الإلهية للسير في الأرض والنظر في عاقبة المكذابين، والنظر في كيفية بدء الخلق، والنظر في السموات والأرض، والنظر في النفس فهماً أدى إفراز علم آثار إسلامي، وعلم فيزياء إسلامي، وعلم فلك إسلامي، وعلم اجتماع

(1) الطبري، التفسير، ج1، ص 544.

(2) الطبري، التفسير، ج5، ص 4-5.

(3) القرطبي، التفسير (سورة البقرة: 49)، ج1، ص 261.

(4) الرازي، التفسير، ج3، ص 67.

(5) الشوكاني، فتح القدير، ج1، ص 82.

(6) القرطبي، التفسير (البقرة: 164) ج2، ص 135.

(7) الرازي، التفسير، ج2، ص 102-104.

(8) الرازي، التفسير، ج2، ص 156.

إسلامي وعلم نفس إسلامي، ما كانوا ليقعوا في هذه التفسيرات الأسطورية والتأويلات الخرافية.

والحقيقة أن العصبية المذهبية التي وجهت الصراعات التي دارت بين المذاهب الفقهية ثم بينها وبين الفلاسفة الإسلاميين أسهمت إلى حد كبير في عدم نمو ونضوج -منهاج تلاوة الآيات- بالشكل الذي نعالجه في هذا البحث. إذ أن العصبية المذهبية عصفت بالتفكير التجديدي وعززت عدم التفكير والتسليم بكل ما يورثه الآباء للأبناء، ورفض كل شيء عند الخصوم. ولذلك حين حارب فقهاء المذاهب الفلاسفة لم يميزوا بين ضلالات الفلسفة اليونانية وبين العلوم. كذلك لم يميزوا بين الفلسفة كمنظومة من المعتقدات والأفكار وبين الفلسفة كطريقة تفكير<sup>(1)</sup>. إذ الفلسفة كمعتقدات تشتمل على الصواب والخطأ، أما الفلسفة كطريقة تفكير تركز على خطوات التفكير العلمي والحوار الجدلي الدائم مع ظواهر الوجود، لا تعارض الأصول الإسلامية في القرآن والسنة لأنها تقابل -التفكير في خلق السموات والأرض الذي يحض الله عليه أولي الألباب قياماً وعوداً وعلى جنوبهم. لقد أدى غياب هذا اللون من التفكير منذ عصور العصبية المذهبية والتقليد إلى الجمود الذي عانت منه المؤسسات التربوية الإسلامية ودفعت ثمنه الفادح الأجيال التي تلت في العصور الحديثة.

سابعاً: افتقار التربية الحديثة إلى مناهج تربوية تجمع بين النظر في "آيات الكتاب" وفي "آيات الآفاق والأنفس".

كان لحرمان أصول التربية الحديثة من ((آيات كتاب إلهي)) صحيح آثار سلبية خطيرة تمثلت في حياة الإنسان فصار العصر الذي فرز هذا المنهاج عصر اضطراب التصور الإنساني للكون والنشأة والحياة والمصير. ولذلك لم ينتفع إنسان التربية الحديثة بثمار النظر العلمي والبحث التحريبي إلا في الاستهلاك المادي. وبدل أن يقوده هذا البحث إلى رؤية آيات الله في الآفاق والأنفس فقد وقع تحت سيطرة التكنولوجيا وتطبيقاتها المادية واستعبده عقلياً ونفسياً واجتماعياً وحينما بدأت آثار هذا الاستبعاد واضحة جلية في ميادين الحياة المختلفة -خاصة في القرن العشرين- بدأ فلاسفة التربية المعاصرون في تلمس المناهج المعرفية والتربوية التي تحقق التكامل بين (آيات الوحي) و (آيات الآفاق والأنفس) بغية التعرف على مقاصد الحياة وغاياتها ولذلك بدأوا الحديث في ما أسموه: بـ "الكون الحي Libing uniberse" و"الرؤيا النبوية

(1) Brend Almond, the Philosophical Kueat, (London: Penguin Books Ltd 1988). P12.

## Prophetic Bision و "الروحانية الفيزيائية Theologucal Physucs و "عوالم الدماغ The Three Worlds".

ومن أوائل المفكرين الذين انتقدوا هذا الاتجاه الفيلسوف الإسباني

1 \_ نقد -جوسيه أورتيجا جاسيه- الذي انتقد قيام النهضة الأوروبية الحديثة تحت إشراف الإنسان المعروف باسم-الرجل البرجوازي- الذي تجاهل الجوانب التأملية الباحثة عن حقيقة الحياة، وجعل غايته هي الاستمتاع في هذا العالم الدنيوي والتكيف مع بيئته من أجل الرفاهية والراحة والمتعة. ولقد عزز هذا لاتجاه انتصار التصنيع وازدهار -العلوم التي تفيد في الرفاهية المادية كالتب والافتصاد والإدارة. ويضيف -أورتيجا- إنه في هذه العلوم المادية تنتصر لأنها نوع متفوق في المعرفة وإنما لثمارها المادية وأثرها في تقديم الطب وصناعة الآلات. ولذلك يمكن القول أن الحياة العلمية في أوروبا وأمريكا تعاني منذ مئات السنين من "إرهاب المختبرات" الذي أدى إلى إحساس الفيلسوف الغربي بالحنج لأنه ليس فيزيائياً ولا طبيياً وراح يعيد تشكيل المعرفة لتخدم الفيزياء المادية كما فعل فلاسفة البرجماتية الأمريكية والفيلسوف الألماني كانت Kant ولما كان الأوروبيون ومنهم المفكرون والمثقفون المعاصرون- قد ولدوا في هذا العصر وشاركوا في هذا النمط من الإحساس فقد بدأ لهم أنه من الطبيعي أن تعطي الأولوية إلى المعرفة التي تؤمن السيطرة على المادة. ثم تبين لهم فيما بعد أن هذا النوع من الهيمنة يجعل المنفعة العملية تبدو كشكل من أشكال الحقيقة التي تقف شاهداً ضد هذا التوجه في المعرفة، وبدأوا يدركون أن المهارة في السيطرة على المادة وجعلها ملائمة لرغبات الإنسان الأوروبي، والحماس للمتعة المادية كلها أمور مثيرة للتساؤل، وبدأ لهم أيضاً أن طلب المتعة هو ميل ذاتي لا يكشف عن رقي في الشخصية الإنسانية وإنما هو شهوات ونزوات تمارسها الشعوب الغربية منذ قرنين من الزمان (1).

## 2 \_ ابراهام ماسلو.

ومن المفكرين الذين انتقدوا التربية الحديثة أبراهام ماسلو الذي ناقش في كتبه وأبحاثه المختلفة مناهج التربية الحديثة التي اقتصرت على علوم المادة وأهملت ما أسماه بـ "خبرات القمة" كالذين وأفرزت علماً يشوه روعة كل جميل، ويهدم كل ما يوحى بالخشية والقدسية، ويفرض على الحياة عنجھية زائفة، في الوقت الذي يجعلها كئيبة رتيبة لا لون لها ولا متعة فيها. وضرب

(1) Gasset, Jose Ortega Y. What is Philosophy, C New York: Norton Co. Inc. 1960, pp 40-46.

لذلك مثلاً من خبراته الشخصية فقال إنه ما زال يذكر أول عملية جراحية حضرها خلال دراسته الطبية حيث تم استئصال ثدي امرأه بالمبضع الكهربائي وكأن الثدي مجرد قطعة لحم مشوي، وكيف ألقى الجراح- في مسحه من الزهو والتبجح- القطعة المبتورة وكأنها مجرد كيس من الدهن دون اعتبار لإنسانية الإنسان وأضاف-ماسلو- مثلاً آخر من سلوك طلبة الطب وكيف أنهم كانوا يجلسون على جثث الموتى في قاعة التشريح ويأكلون الساندويش ويلتقطون الصور الفوتوغرافية ويتبادلون النكات-خلال وجبات الطعام- عن المناطق الحساسة في الجثث التي يشرحونها. ثم يذكر أن الاتجاه العام في تدريس الطب هو تدريب الطلبة والباحثين على القسوة والاستهانة بقدسية الإنسان وعدم احترامه والتنكر لما قد ينبعث عن هذا الاحترام من مشاعر الخشية والمضاعفات الشعورية المتعلقة بالموت والحياة بدعوى أن هذه كلها تعيق الموضوعية وتضعف القدرة على البحث.

ويقدم-ماسلو- أمثلة أخرى من ميدان البحث الكيماوي والفيزيائي والفلكي وغيرها وكيف تحاول جميعها تجريد ظواهر الخلق من قدسيته وجمالها وما تبعته في النفوس من مشاعر الجمال والخشية والتدين، وبالتالي تجريد الحياة نفسها من القيم العليا<sup>(1)</sup>.

ثم يطرح-ماسلو- الأسئلة التالية:

هل في الطبيعة الحقيقية للعلم أو المعرفة أن تنتزع القدسية من موضوعاته وتجرده من الجمال؟

أليس من الممكن أن يدخل العلم في ميدان الغيب الموحى بالخشية؟ وما يهز الوجدان ومشاعر الجمال والتقديس؟ وإذا سلمنا بوجود هذه القضايا فما السبيل للحصول عليها؟.

ويجيب-ماسلو- عن هذه الأسئلة فيقول إن الرجال العاديين يخطئون حين يشعرون أن الضرورة العلمية تفرض على العالم أن يتزع القدسية عن موضوعات العلم والحياة لأن العالم الممتاز يقترب من عمله بحب وتكريس وإنكار للذات وكأنه يدخل قدس الأقداس، وإنه لينسى نفسه وينتقل إلى عالم الملاء الأعلى وتصبح أخلاقه وإذعانه للحقائق سمة دينية، كذلك تنتابه مشاعر الخشية والإحساس بالصغار أمام الأسرار العظيمة التي يتعامل معها وينتقل إلى عالم شعوري مقدس. صحيح إن هذا لا يحدث دائماً ولكنه يحدث في حالات يصعب على الرجل العادي رؤية حدوثها.

<sup>(1)</sup> Abraham H. Maslow. The psychology of science: A Reconnaian Bent, Indiana: Gateway Edition, Ltd 1966. pp 138-142.

ويمض -ماسلو- في نقد المناهج التربوية الحديثة ويصفها بأنها تقدم تعريفات العلم كعمليات جامدة هدفها "تنمية كومة من المعلومات" أو "نظام من المفاهيم المعرفة وظيفياً" وهذا هدف لا يستحق الجهود التي تبذل من أجله لأنه يتجاهل مشاعر الإنسان وعواطفه والجوانب الدينية والفلسفية والفنية في حياته<sup>(1)</sup>.

### 3 \_ نقد إرنست بيكر.

ومن الذين ناقشوا افتقار مناهج التربية الحديثة إلى توجيهات الدين أو (آيات الكتاب) عالم الاجتماع الأمريكي -إرنست بيكر- الذي ذكر أن التربية الحديثة، في القرن التاسع عشر، أبعدت من مناهجها كلاً من الدين والفلسفة وادعت بكثير من الغطرسة والتبجح أن الخبرات الدينية خيرات خيالية لا تدخل في ميدان العلم. وفي الوقت الحاضر صار الكثير من العلماء فريسة الشك والمقت لهذه الدعاوى بعد أن ثبت أن النظام الاجتماعي لا يقوم ولا يستمر بدون الدين، لأن الدين يعالج الكثير من الأزمات الميؤوس منها في المجتمع الإلحادي، ويحقق للإنسان عزة أكبر وإبداعاً طبيعياً أكبر، وحرية أكبر. لأن المفهوم الحقيقي للحرية يقوم على أساس المرابطة عند ثغور الغيب وحدوده للتعرف على مجاهله لا في حرية الجري وراء الإنتاج والاستهلاك، وهذا المفهوم لا يوحد إلا في الميادين المعرفية والأسئلة التي يطرحها الدين. هذا هو التحدي الذي تواجهه التربية الحديثة بهد أن قدم الدين أكثر القواعد العقلية تأكيداً على ضرورة إدخاله في التربية باعتباره أسمى بعد في الخبرات البشرية، وبعد أن ثبت بالتجربة العملية أن المجتمع الإلحادي لا يمكن أن يكون نموذج المجتمع الذي نتطلع إليه.

ويضيف إرنست بيكر أن المسيحية حاولت أن تلي هذا النداء التاريخي الإنساني ولكنها فشلت في هذه المهمة حيث تحالفت مع المجتمع التجاري الصناعي وشكلت عقائدها لتبرير ممارسات الذين يهيمنون على هذا المجتمع، الأمر الذي أدى إلى اصطدامها بسلسلة المفكرين الاجتماعيين منذ القرن الثامن عشر حتى الوقت الحاضر. ولكن رغم الأخطاء التي ارتكبتها الكنيسة المسيحية فإن الدين يبقى المصدر الحقيقي لنموذج الحرية المطلوب. وإذا كانت المسيحية قد فقدت فاعليتها فإن الحاجة قائمة في الوقت الحاضر لبروز تصور ديني نقى يحرر الإنسان من صنمية الموجودات ويخرجه إلى فضاء الحرية التي يوفرها له -الإله- الذي ليس كمثلته شيء<sup>(2)</sup>.

(1) Ibid, pp 142-152.

(2) Ernest Becker, OP. Cit, pp 211-221.

((يمكن أن نفهم من استعراضنا ((متنوعات)) التاريخ أن كل المحاولات التي بدأت (في التاريخ الغربي) من العصور الوسطى حتى وقتنا الحاضر لم تنجح في تسخير الكون والنفس بطرق تؤدي إلى قيام مجتمع الحرية الحقيقية. ولن يكون هذا ممكناً إلا حين يقوم نظام تربية يجمع بين التصور العلمي والتصور الديني للوجود))<sup>(1)</sup>.

وفي حزيران عام 1980 عقدت ندوة تربية في مدينة -وود ستوك Wood Stock بولاية فيرمونت الأمريكية للبحث فيما أسموه "المعرفة والتربية والقيم الإنسانية: نحو استعادة التكامل الكلي".

### Knowledge, Education, and Human Balues: Toward the Recobery of Wholeness.

ولقد حضر الندوة حوالي خمسين شخصية بارزة ممن يتمتعون بخلفية معرفية واسعة في مختلف العلوم بما فيها علم وظائف الأعصاب، والطب، والفيزياء الكمية، وعلم أحياء الخلايا، وعلم الكمبيوتر، إلى جانب عدد من الفلاسفة وعلماء الاجتماع والتربية والأنثروبولوجيا (علم الإنسان) وعلم النفس، ورجال الأعمال ومثلي المؤسسات ومسؤولي الحكومة. ولقد تركز البحث حول قضيتين أساسيتين:

**القضية الأولى:** قضية العلاقة بين التربية بمعناها الواسع وبين أبعاد الخبرة التي تعطي الحياة الإنسانية قيمتها ومعناها وغاياتها. وهي قضية يشيع الاهتمام بها بين المختصين في مختلف المؤسسات التربوية والعلمية من خلال مناقشة موضوعات القيم والتربية الأخلاقية، ومحاولات الجمع بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية في المناهج بغية مواجهة مشكلات الحياة الحديثة التي تهدد مستقبل الكرة الأرضية ومواجهة الأخطار القائمة التي تهدد السلام والنظام.

**والقضية الثانية:** هي مناقشة مفاهيم المعرفة وطرقها من أجل إعادة النظر في هذه المفاهيم وإعادة المكانة المناسبة للقيم الإنسانية في عملية التربية، لأن التربية الحديثة حصرت المعرفة وطرقها في وسائل القياس والوزن المحسوس دون اعتبار لأدوات الشعور والإرادة والبصيرة، وبينت مناهجها على أساس العلوم التي توصلت إليها وسائل القياس والوزن المشار إليها دون اعتبار للغايات والمعاني والعقل والقيم التي تعطي الحياة قيمتها ومعناها. وخلال مناقشات الندوة توصل المتنافسون إلى بعض الأفكار الهامة ومنها ما يلي:

(1) Ibid, p221.



1. إمكانية قيام البصيرة بدور تحقيق التكامل بين مكونات المنهاج الحديث الذي يجمع المختصون على أنه منهاج مفكك، وإمكانية تحقيق الوحدة بين البصيرة العلمية والبصيرة الأخلاقية والبصيرة الفنية.
2. حينما يتحقق تكامل طرق المعرفة كلها فسوف يسهل إعادة تعريف المنهاج بشكل يتسع لموضوعات الفلسفة والدين والفنون التي تتعامل مع موضوعات القيم وتعطي للحياة معناها، وبذلك تتحقق الوحدة بين الموضوعات العلمية والفلسفية والدينية والعملية، وتتحقق الوحدة بين الخيال والعقل والحواس وموضوعات النوع والكم والكيف.
3. إن الاعتراف بدور البصيرة والإرادة والمشاعر إلى جانب العقل على مستوى الممارسات الصفية وأساليب التعليم، سوف يثير عدداً من الأسئلة عن الآثار السلبية التي تسبب بتحطيم شخصية الناشئ الذي يسجنه المنهاج الحديث في عالم التكنولوجيا والعلوم الطبيعية في تصور مميت عن العالم يقتصر على الجمادات ولا يعطي الفرصة لقوى النفس والبصيرة والخيال لأن تنمو وتتفاعل مع ميادين حياتية تتعدى التصور المادي للكون أما على المستوى الإيجابي فإن إطلاق قوى النفس والخيال والبصيرة والذوق والجمالي والمبادئ الأخلاقية سوف يثري حياة المتعلم ويجعلها ذات معنى إذا ما أعيد تنظيم المنهاج ليشمل هذه القوى مجتمعه إلى جانب قوة العقل.
4. إن تغيير المسلمات المعرفية الحاضرة يتطلب شجاعة قوية لإعادة النظر في الأسس التي قوم عليها المنهاج والكتب المدرسية والأساليب والأنشطة وأشكال التقويم في الوقت الحاضر. فنحن نحتاج أن نضع حدوداً واضحة بين العلم الطبيعي كوسائل إنسانية عظيمة وبين وجهة النظر الخاطئة التي تجعل العلم ضد الدين وتدعي أن العلم يحل محل الدين.
5. لا بد من إعادة طرح صورة جديدة عن وظيفة المعلم في المنهاج التربوي المنشود بحيث لا تقتصر هذه الوظيفة على تدريب الناشئة على مهارات محسوسة واتجاهات محدودة بحدود العمل الصناعي، وإنما تتسع وظيفة المعلم لتشمل رعاية العقل والبصيرة والأخلاق والدين والعواطف والمشاعر.
6. إن تغيير المسلمات التي تقوم عليها طرق المعرفة الحاضرة سوف يعطي للتربية المنشودة أبعاداً اجتماعية أكثر عمقاً وأكثر فاعلية فهي -أولاً- سوف تنمي في الإنسان جميع قوى الإبداع والمنطق والتفكير والعاطفة وجميع القدرات الإنسانية المميزة. وهي -ثانياً- سوف تعيد الجانب المعنوي إلى البيئة والاقتصاد والبناء الاجتماعي. وهي -ثالثاً- سوف تعيد

القيم المتماسكة والحياة الاجتماعية المتعاونة وسوف تحقق التكامل بين مؤسسات الإعلام والأسرة وأماكن العبادة والإدارات السياسية، وإدارات الأعمال وغيرها من المؤسسات العاملة في المجتمع<sup>(1)</sup>.

وخلال الندوة التربوية المشار إليها فيما مر تم تقديم عدد من الأبحاث نستعرض منها ما

يلي:

1- البحث الذي قدمه ديفيد بوهم تحت عنوان ((البصيرة والمعرفة والعلم والقيم الإنسانية)) ولقد جاء فيه أن المناهج الحاضرة فصلت المعرفة العلمية عن القيم إلى الحد الذي أثار الاضطراب في معنى التربية ومقاصدها. وأكثر ما يقوم هذا الانفصال في ميدان العلوم الطبيعية بسبب المفهوم الذي يفترض ضرورة تحرر المعرفة من القيم (ما عدا قيمة الحقيقة الموضوعية نفسها). ولا يقتصر هذا المفهوم الخطير للمعرفة على ميدان العلم وحده، وإنما يتعداه إلى الحياة التي أفقدها معناها وغاياتها، وإلى الكون الذي يصوره العلم الحديث كفضاء واسع مليء بالمادة الميتة التي تتحرك بشكل تلقائي، وإلى الإنسان الذي يعرضه العلم الحديث كمخلوق دقيق يقوم على بقعة تراب تسبح في الفضاء الواسع ويحاول يائساً أن يجعل حياته تبدو ذات معنى من خلال إسقاط غاياته وأهدافه التعسفية التافهة.

وهذه كلها تصورات خاطئة أفرزها التصور الخاطئ الذي فكك المعرفة وجزأ وحدتها.

وما المنهاج القائم في العلم الحديث إلا حالة خاصة من حالات التفكك والتجزئة<sup>(2)</sup>.

ويمضي ديفيد بوهم ليعرف البصيرة والقيم التي يريد منها أن تسهم في بناء المناهج التربوية المنشودة فيذكر أنها القدرة على فهم الظواهر الجديد التي لا تدخل ضمن المعرفة المألوفة والتي من ثمارها التحرر من الموروثات الثقافية والاجتماعية السابقة، والانطلاق إلى فهم حب واسع لا يوجد في ميدان المعرفة السابقة، والقدرة على استعمال أشكال جديدة من التفكير لأن "القيمة" هي قوة معينة تجعلنا نعمل الشيء المرغوب أو المفيد<sup>(3)</sup>. ولكن الخطر أن "نقيم" كل شيء برغباتنا ودوافعنا النفسية وأهوائنا غير الموضوعية. ولذلك فنحن نحتاج إلى نظام قيم لا تتحكم به الرغبات والأهواء القاصرة، وينسجم مع قوانين الكون والحياة. وتحقيق ذلك يحتاج إلى منهاج معرفة قادرة على تقديم نظام القيم المنشودة وتبسيط هذا النظام في منهاج تربوية

(1) Douglas Sloan (ed) Introduction in Toward

(2) Dabid Bohm

(3) Ibid, PP 10-15.

شاملة صائبة. فالمعرفة والقيم عنصران متكاملان في عملية واحدة غير قابلة للتجزئة، وحينما يحاول أحد أن ينجز ما يعتبره معرفة متحررة من القيم فإن هذا يعني انه يقبل القيم الجارية في المجتمع الذي يعيش فيه، أو يقبل القيم المتضمنة في خيالاته الذاتية دون تمحيص<sup>(1)</sup>.

2- كذلك شاركت كاثلين رين الفيلسوفة البريطانية ببحث يحمل عنوان "نحو كون حي" ولقد بدأته بالقول أن لكل حضارة مقدمات فكرية، وأن ولادة هذه المقدمات أو انتهاء مفعولها هو الذي يحدد فترات التاريخ ومنعطفاته الرئيسة. وانطلاقاً من هذا المبدأ فإن حضارة العلم التي نعيشها بدأت بمقدمة خلاصتها تركيز ((الاهتمام بالوجود المادي الذي يدخل المختبر وإهمال ما عداه)) واليوم يصل البحث المادي بالعلماء إلى مرحلة تحول المادة إلى وجود غير مادي، وهذا مؤشر لانتهاء فترة البحث العلمي ونزع صفة المادية عن المادة نفسها. ولذلك يحتاج عصرنا إلى البدء بمقدمات فكرية جديدة والعودة إلى القبية القائلة: ((لا تشكل المادة أصل الكون وأن وجود الكون ليس وجوداً آلياً مادياً وإنما هو وجود مبارك حي)).

وتمضي كاثلين رين لتقول أن القول بأن الكون مادي الوجود ولا مكان فيه للعقل أو الروح والنفس كان له نتائج مدمرة، وإن هذه -المنظرة المادية السطحية للكون شكلت الدين الجديد لجماهير العالم المعاصر والحضارة المعاصرة. وتضيف أن الغرب بحاجة إلى بدء عصر جديدة تبدأ مقدمات فكرية جديدة تستعيد شمول المعرفة وكرليتها التي استبعدها العلم المادي بحيث يضاف إلى معرفة العالم المادي معرفة عوالم الإنسان الداخلية وعوالم التصور غير المادي التي تدور الآن في الشرق وتتخذ الروح والعقل أساساً للمعرفة<sup>(2)</sup>.

3- كذلك شارك البروفسور روبرت بله ببحث يحمل عنوان "التصور الثقافي والمستقبل الإنسانية" ولقد ذكر في بحثه هذا أن شيئاً شديداً الانحراف يكمن في الثقافة الغربية الحديثة، وأن المشكلات الثقافية والاجتماعية والسياسية المعاصرة هي نتيجة هذه الحقيقة، وإن الثقافات غير الغربية التي سبقت العصر الحديث يمكن أن تسهم بدرجة هامة بإخراج الغرب من هذه المشكلات لأن الرؤيا لها دور كبير في المستقبل الإنساني<sup>(3)</sup>.

(1) Ibid, P 22.

(2) Kathkeen Raine Toward a Libing uniberse in Toward the Recobery of wholeness, pp 86-87.

(3) Robert N Bellah Cultural Bision and the Humanist Future in Toward the Recobery of whilesness, p 125.

وتستمر بقية الأبحاث على نفس الأسلوب في تحليل الأزمة التي تعاني منها التربية الحديثة ومناهجها المعرفية إلى أن تنتهي إلى خلاصة معينة وهي أن العقل الغربي هيمن عليه التفسير المادي للوجود وصار يعتبر كل ما ينقصه الوجود المادي لا وجود له. ولكن العلم الذي أغوى هذا العقل بهذا التصور الجزئي للعالم يتخلى الآن عن هذا التعريف، ففي كل نقله علمية يتحول المادي إلى أثير غير مادي ويقدم الدليل تلو الدليل على أن العالم أوسع مما يتصوره العقل الغربي وأن مناهج المعرفة أوسع من المنهج التجريبي الذي ظن الغربي أنه المنهج الوحيد الموصل إلى الحقيقة، وأن ليس للغرب إلا البحث في ثقافات الأمم الأخرى قبل أن تقع الكارثة فيه.

## ثامناً: الآياتيون

## 1\_ من هم الآياتيون ؟

الآياتيون - ومفردها آياتي - مصطلح نشقته من "منهاج تلاوة الآيات" الذي مر استعراضه. والتفكير هو الصفة المميزة لـ "الآياتي". أي هو دائم الحضور بالعقل والحواس مع ما يسميه القرآن - "عالم الغيب وعالم الشهادة". والغيب عند الآياتي عالم موجود ولكنه غائب عن الحواس<sup>(1)</sup>. ومهمة الآياتي أن يربط عند الثغور الفاصلة بين عالم الشهادة وعالم الغيب ثم يضع الخطط والخرائط المعرفية لتمكين الباحثين والعلماء من عبور عالم المعرفة المغيبة وتحويل قسم منه إلى عالم المعرفة المشهود، تماماً كما يربط المجاهد العسكري المسلم عند ثغور دار الإسلام ويعمل على العبور إلى دار الكفر لإضافة أراض جديدة وجماعات جديدة إلى دين الإسلام وثقافته.

ويرسم القرآن الكريم الخطوط الرئيسة لشخصية الآياتي في أكثر من سورة، من ذلك

قوله تعالى:

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: 190-191].

ولقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما نزلت هذه الآية على النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لي: يا عائشة! هل لك أن تأذني لي هذه الليلة في عبادة ربي؟ ثم قام إلى قربة ماء فتوضأ، ثم قام يصلي، فقرأ من القرآن وجعل يبكي، ثم رفع يديه فجعل يبكي. فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي. فقال له: أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر! فقال: يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً! ثم قال: مالي لا أبكي وقد أنزل الله علي في هذه الليلة: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ}. ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها. وروي: ويل لمن لا كها بين فكيه ولم يتأمل فيها. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان إذا قام الليل يتسوك ثم ينظر إلى السماء ويقول: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...} الخ<sup>(1)</sup>.

(1) الرازي، التفسير الكبير (البقرة: 3)، ج2، ص27.

(1) الرازي، التفسير، (آل عمران: 190)، ج9، ص133-134.

القرطبي، التفسير (آل عمران: 190)، ج4، ص196-197.

واستمر التفكير سمة مميزة لفقهاء الصحابة والتابعين الذين حضوا عليه وفضلوه على قيام الليل والعبادة. فقد سئلت أم الدرداء: ما كان أفضل عمل أبي الدرداء؟ قالت: التفكير والاعتبار. ومن أقوال أبي الدرداء هذا: تفكر ساعة خير من قيام ليلة<sup>(2)</sup>.

والتفكير الذي يحض عليه القرآن ويجعله من سمات ((الآياتيين)) سلوك محدد الأهداف، محدد الموضوعات. وهو يقابل ما يسمى بـ ((الديالكتيك)) أو بالحوار الجدلي - المستمر مع الوجود. أما أهدافه فهي تحقيق ((اليقين)) وشهود الحقيقة وشهود إحكام الصنع في مخلوقات الله الكونية والنفسية والاجتماعية، وبسبب روعة هذا الشهود كان دعاء الاياتي الملتهب: ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقنا عذاب النار، أي سبحانه لم تخلق هذا الخلق عبثاً وهزلاً، بل خلقتة دليلاً على قدرتك وحكمتك، فقنا عذاب الجهل بهذه القدرة، ومضاعفات هذا الجهل في خلل العبادة والسلوك<sup>(3)</sup>.

أما موضوعات هذا التفكير فهي آيات الله في الكتاب وآياته في الآفاق والأنفس، واليهما كانت الإشارة عند أمثال قوله تعالى: {كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [يونس:24]. كذلك تتضمن موضوعات التفكير دراسة مجرى التاريخ واكتشاف سننه وقوانينه بقصد التحقق مما توجه إليه آيات الكتاب وهو أن الإيمان بالله وطاعته ثمهما الانسجام مع هذه السنن والقوانين الأزملية، وفلاح الإنسان في الحياة ولا مصير، وإن الكفر يؤدي إلى الاصطدام بهذه السنن والقوانين وينتهي بالإنسان إلى الخسران في الدنيا والآخرة.

لذلك لا يقف الآياتي عند النظر في العوامل التي تؤدي إلى قيام الحضارات أو عوامل قوة الأمم أو تطوير التكنولوجيا المتقدمة فحسب وإنما يتعداها إلى غاياتها النهائية خلال مراحل الحياة والمصير. فالآياتي يؤمن أن الوقوف عند تقدم الحضارات وقوة الأمم فلسفة تستمد مفهومها من تصورات جزئية محدودة بحدود مرحلة الحياة مبتورة عن مراحل النشأة والمصير، وهي إفرزات تصورات صنمية قائمة على حاجات نفسية مرضية. لذلك تتطور العلوم التي تبرز في ظل تفكير الاياتي في هذا الاتجاه: اتجاه بلورة الآيات - أي الشواهد والبراهين - الداعمة للمبدأ الإسلامي القائل إن التاريخ والاجتماع الإنساني يتطوران بتوجيه سنن الله وقوانينه العاملة على رقي الإنسان وانتصار الحق على الباطل والخير على الشر. واعتماد مثل هذا المبدأ يمد - الاياتي - الباحث في آيات الأنفس بالبصائر التي تكشف له عن المنهج الذي يستعمله في زحمة

(2) أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ج1، ص208، 209.

(3) القرطبي، التفسير، ج4، ص201.

الوقائع التاريخية وخليط التيارات الاجتماعية التي يختلط فيها الصواب والخطأ، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والمثالية والمادية، وجميع أشكال الصراع القائم في عالم القيم وتطبيقاتها الحياتية خلال مسيرة الإنسان عبر المستقبل للكشف عن حكمة النشأة والحياة والمصير.

وهذا التفكير يحرر الآياتي الذي يمارسه من قيود المفاهيم السائدة حوله ويجعله في مراجعة دائمة لها، وفي حملات فكرية متتابعة عبر مسالك مخفية وصعبة إلى مواقع فكرية خفية لم تكتشفها العقول بعد، حيث يجد نفسه بين أفكار جديدة غير مألوقة وأمام معجزات وبراهين إيمانية جديدة تجعله يهتف عالياً: { رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } [آل عمران: 191]. فالآياتي هو خليفة النبي - صلى الله عليه وسلم - في تقديم معجزات الرسالة وبراهينها، مع فارق هو أن النبي - صلى الله عليه وسلم - شهد فصول الحياة والمصير وقدم معجزاته وبراهينه من خلال التلقي المباشر عن الله سبحانه وتعالى، أما الآيات فيشهد معجزات عصره فقط من خلال النظر - بعقله وحواسه - في الآفاق والأنفس في ضوء آيات الكتاب.

## 2 \_ منهجية الآياتي:

الأساس الذي يقوم عليه - منهجية الآياتي - هو اعتبار التفكير أحد مظاهر الحاجات العقلية للإنسان. والحاجات العقلية نوعان: نوع هادئ مطمئن يحدث في ظروف صحية سليمة ويكون باعته حب الاستطلاع والشجاعة والمحبة والرغبة في التعرف على حقائق النشأة والحياة والمصير. ونوع مضطرب مبعثه القلق أو الخوف، وهو يحدث لتسكين الخوف الناتج عن الجهول. وكلا النوعين من التفكير يحدثان في حياة الإنسان من خلال الحاجة للفهم والمعرفة، والحاجة للدين والقيم. والحاجة للعلم بالكونيات، والحاجة لتكوين نظام معرفي ينتظم جميع هذه التفاصيل وأمثالها. ويتفرع عن هذه الحاجات مستوى آخر من الحاجات كالحاجة للتنظيم والبناء، والحاجة للتنظير، والحاجة لتبسيط خليط الحقائق المضطرب المعقد.

وفي أغلب الحالات يكون التفكير المنبعث عن الخوف أو القلق متعلقاً بأمر شخصية، ويدور حول حقيقة واحدة أو مجموعة واحدة من الحقائق، بينما يكون التفكير المنبعث عن حب الاستطلاع والرغبة في التعرف على حقائق الكون متعلقاً بالعالم كله ويدور حول الحقائق المكونة للعالم خلال مسيرة النشأة والحياة والمصير. وحين يسود هذا النوع من التفكير المتحرر من الخوف فإن العلم الناتج عنه يؤدي إلى نمو إنساني أكثر وتقدم أرقى نحو تحقيق الذات



الإنسانية. ويكون أغنى إنسانية وأكثر تعبيراً عن الحقيقة، وبعيداً عن الأنانية. بينما التفكير المرتبط بالقلق أو الخوف ينطفئ عند زوال كل من القلق والخوف<sup>(1)</sup>.

وتفكر الآياتي هو من النوع المتحرر من الخوف، المحب للاستطلاع، الراغب في معرفة أسرار خلق السموات والأرض وما فيهما، بسبب توجيهات آيات الكتاب وتشجيعها وترغيبها. وذلك فالآياتي إنسان مطمئن النفس، مؤمن بربه، واثق بمساره المعرفي، يتعامل مع قضايا الكون لاكتشاف أسرارها وسننها، ويتصدى للمشكلات لحل مغاليقها، ولتحقيق النمو والسير نحو الكمال الانساني.

أما العلماء الذين يعملون في بيئة مقفرة من الإيمان بالله، والذين يغلب عليهم الخوف من المجهول، والخوف من الفقر والأذى والمهانة، فإن علمهم يكون ضيق الأفق ويكون أقل إسهاماً في الحضارة والتطور، وأقل أصالة وإبداعاً، وأقل إسهاماً في تحقيق النمو الإنساني وبلورة الذات الإنسانية.

والآياتي إنسان يغلب عليه الحمال لجلاء الحقيقة وتمكينها في حياة الإنسان، ويكون علمه راسخ الأصول، واسع الآفاق، ويسهم في تطوير الحضارة والمجتمعات وفي تحقيق الذات الانسانية وترقيتها وسيرها نحو الكمال. وهذا النوع من - المفكرين - هم مادة الحكماء يجب أن تركز التربية الإسلامية على إخراجهم في - منهاج تلاوة الآيات -، وهذا النوع هم - أيضاً - خميرة النهضات الذين يجب ا، تركز نظم التربية الإسلامية على إعدادهم لتكون منهم الطليعة التي توجه سفينة الأمة وتقود ميادين النشاط المختلفة. وغالباً ما يخرج هذا النوع من صفوف الأذكياء أصحاب القدرات العقلية العليا، وأصحاب النفوس المزكاة من أمراض الأنانية والعصبية القبلية والعرقية، وإيهم كانت الإشارات القرآنية المتكررة بـ "أولي الألباب" الذين خصهم الوحي بالذكر والتذكير.

والآياتي يقترب من الكون بنية احتضانه والانسجام مع سننه وقوانينه أكثر من الرغبة في السيطرة عليه، وهو يهدف إلى التعلم منه أكثر من استخدامه، وهو يعتبر الكون أكبر مما تدركه حواسه. والذي يجعل الآياتي يتصف بهذه الصفات هو استرشاده بـ "بصائر" آيات الكتاب الذي هو الوعي الكامل للكون ولمسيرة النشأة والحياة والمصير.

وهذه الصفات التي نقترحها للآياتي الذي نتطلع لإخراجه هي ما يفتقر إليه علماء العلم الحديث الذين شبههم هيوستن سميث بالطفل الذي ينفخ فقاعات ويطيرها للتلذذ برؤيتها وهي

(1) Abraham H. Maslow, The Psychology of Science, PP. 20-21.

محمولة على الهواء وتعكس ضوء الشمس وتطير ما بين السماء والأرض. ويضيف - سميث - أن ما يعرفه هؤلاء العلماء عن عالمنا وأرضنا وعن الشمس والقمر والنجوم هو شبيه بواحدة من هذه الفقاعات التي يطيرها الطفل المذكور. والذين يعيشون داخل هذه الفقاعة يرون الأرض بطرق مختلفة: فأصحاب البصر الأعمى ينكرون وجود شيء وراء جدار هذه الفقاعة. وأصحاب البصر الضعيف أو غير المدربين على النظر يظنون وجودها ويؤمنون بما يخبر به الذين يرون بشكل أقوى. وآخرون سوف يدركون، وهم داخل الفقاعة، ما هو خارجها ويستيقنون أن كل شيء داخلها هو انعكاس لما هو خارجها وليس له وجود حقيقي. وفريق رابع، ببصيرتهم المعجزة، وشفافيتهم الحقيقية يدركون الغشاء الرقيق الذي يبدو كثيفاً ويتخطون الإيمان إلى رؤية ما يجب رؤيته<sup>(1)</sup>.

ويضيف - هيوستن سميث - أن فلاسفة الحضارة الحديثة وعلماءها يفهمون شيئاً عن أعمال الدماغ، ومثله عن عمل العقد من خلال علم النفس. ولكن حينما يأتي إلى غرس الدوافع والمعنى في العقل، فإن العقل الغربي يقف عاجزاً عن ذلك ويتهم من يزعم بالدجل والشعوذة. ولذلك يعاني الغرب من (( الخواء الروحي )) وهو في تقدمه التكنولوجي يعاني من الضعف الاجتماعي وينحدر إلى الوهن، وليس له مسار محدد في تطوره ونمائه. وهذا يعني أ، هناك ضعفاً خطيراً في الأصول التي قامت عليها المجتمعات الغربية الحديثة. ويشرح - هيوستن سميث - هذا الضعف فيقول:

((وأبرز مظاهر هذا الضعف أن - العقل الغربي الحديث - يمارس استقلالاً ذاتياً ولا يعترف بقوى علوية أقوى منه. وهو يفترض أن هذه القوى - إن وجدت - فسوف تقوم بدور ظالم، ولذلك فإن غيابها يعني التحرر من هذا الظلم. ولا يبدو، حسب التصور الغربي، أن هذه القوى ربما تعمل على زيادة قوة الإنسان - كما في الدين الذي عرضه القرآن باسم الإسلام - والاسم يعني الخضوع. ولكن رغم هذا الخضوع لقوة عليا - هي قوة الله - فإن دخول الإسلام في التاريخ شاهد أكبر انتصار وتوسع عرفهما العالم. وحين تذكر هذه الحقيقة فإنها تقدم فينا بشكل تلقائي الخوف من التعصب. وهذه حالة دفاعية تعكس - حيرتنا - أمام

<sup>(1)</sup> Hoston Smith, "Beyond the Modern Western Mind Set" in Toward the Recobery of Wholeness, PP. 77-73.

إمكانية التصور بأن يكون هناك ما هو أحسن مما نحن فيه، وأنه يمكن أن يمدنا بالخير والقوة سواء إذا ما فتحنا أنفسنا لتقبله ((1)

### 3\_ وظيفة الآيات:

وخلال المرابطة في ثغور المعرفة، ينظر الآيات في سفرين اثنين: الأول؛ آيات الكتاب. والثاني؛ آيات الآفاق والأنفس بغية تحقيق الأهداف التالية:

1- التعرف على مظاهر (( الخلق الجديد )) (2) في العصر الذي تتأهب الأجيال الجديدة لعبوره.

2- بلورة التطبيقات الجديدة للقمي التي توجه إليها آيات الكتاب. أي بلورة ((علوم غايات)) العصر الجديد.

3- الإرشاد إلى (( علوم الوسائل )) - أي النظم والأدوات والقوانين والمؤسسات - التي تساعد على استخراج (( نعم الله )) اللازمة لتلبية الحاجات الجديدة وحل المشكلات الجديدة ومجابهة التحديات الجديدة التي يفرزها العصر الجديد.

4- النظر في ما تم انجازه من المعرفة وثمارها في آيات الآفاق والأنفس - أو العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية - ثم تصنيف ثمار هذه المعرفة في ضوء آيات الكتاب إلى (( معجزات وبراهين )) تجدد اليقين في نفوس أبناء العصر بأهمية الاستجابة للغايات والقيم التي توجه إليها آيات الكتاب. والواقع أن (( المعجزات )) المشار إليها هي موجودة قائمة في ظواهر الكون والاجتماع البشري ولكن غالب الناس لا يرونها ويحتاجون إلى من يفتح أبصارهم عليها والى هذا السلوك يشير قوله تعالى: { وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ }

والآياتي هو الذي يفتح أبصار الجليل على هذه الآيات ويوقظ مشاعرهم بها ويملأ نفوسهم بروعتها ووضوح اليقين فيها. والذي يمكن الآياتي من القيام بهذا الدور هو رسوخه وإحاطته بـ ((الآيتين)) المتقابلتين في كل من ((الكتاب)) و ((الآفاق والأنفس)). وبدون هذا الرسوخ وهذه الإحاطة فسوف يمر الآياتي نفسه على "آية" الآفاق أو الأنفس وهو معرض

(1) Ibid, PP. 66-68.

(2) الخلق الجديد اصطلاح يستعمل في البحث ليقابل ما تسميه التربية الحديثة - التطور -.

أعمى عن المعجزة أو البرهان فيها. وسوف يقرأ الناس مكتشفات العلم دون أن يروا في أي منها معنى قوله تعالى: {إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ} ولعل موقف المخترع الغربي والفيلسوف الغربي والجماهير الغربية يقدم لنا أوضح مثال لذلك. فهم يكتشفون الحقيقة الكونية أو الاجتماعية ويفلسفونها دون أن يروا في أي منهما المعجزة أو البرهان الإلهي، وبالتالي لا يستخدمون ثمار العلم للوصول إلى غايات بيئية نافعة، وإنما يلجأون إلى تيه الفروض الظنية وصحاريها المحيرة. ولو أن نيوتن - مثلاً - حين اكتشف الجاذبية كان يحيط بمكان قوله تعالى: {الله الذي رفع السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} [الرعد:2] لأفرز اكتشافه هذا إعجازاً يربط بين ((الجاذبية)) وبين ((العمد غير المرئية)) ولنح هذا الإعجاز جماهير الغرب "يقيناً" يجعلهم يقبلون على توجيهات آيات الكتاب الذي وجهت "بصائره" إلى شهود "المعجزة اليقينية" الجديدة، ولاستجابوا لشبكة العلاقات الاجتماعية التي توجه إليها "آيات" هذا الكتاب فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها.

والنظر في ((آيات الكتاب)) و ((آيات الآفاق والأنفس)) ثم استخلاص المعجزات والبراهين وظيفية مستمرة يقوم بها - الآياتي - في كل زمان ومكان دون أن يعتمد جيل ما على معجزات وبراهين دون الجيل الذي سبقه. ويزيد في استمرارية هذا الوظيفة وتجدد المعجزات والبراهين التي تكشف، أن الحقائق الإلهية مستمرة باستمرار تجدد الخلق، وأنها مطلقة لا حد لها ولا نهاية، وأنها مهما استمرت الحياة على الأرض ومهما نشط البحث العلمي والكشف العلمية فلن يؤثر ذلك في وفرة هذه الحقائق وتدققها وغزارتها. ويضرب القرآن مثلاً للنسبة القائمة بين ما يكشف عنه البحث العلمي من معارف وبين مخزون العلم والحقائق الإلهية عند أمثال قوله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا}. [الكهف: 109] ومثله قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}. [لقمان: 27]

والتعايش مع هذه الحقيقة يتطلب من - الآياتي - الذي نشده أن يكون دائم التجدد، وأن يعي أن كل لحظة من لحظات التاريخ تحتوي على ثلاثة أجيال من الإنسانية: جيل الناشئين، وجيل البالغين، وجيل المسنين. وهذا يعني أن كل لحظة زمنية تتضمن ثلاث حقائق تاريخية وثلاث أزمان. والناس العاديون يتوزعون على الأزمان الثلاثة فهم معاصرون لبعض

ولكن غير متماثلين تاريخياً أو عمراً، وفي ذلك فائدة كبيرة إذ لو تماثلوا تاريخياً وثقافة لوقف التاريخ وجمدت الحياة<sup>(1)</sup>.

كذلك يوجد في كل لحظة ثلاثة أطوار: طور النشأة، وطور الحياة، وطور المصير. ويوجد في كل لحظة ثلاثة عصور: عصر الماضي، وعصر الحاضر، وعصر المستقبل. والآيات يعيش هذه الأطوار الثلاثة والعصور الثلاثة والأجيال الثلاثة ويرشد كل جيل إلى استشراق "غايات" المرحلة و "وسائل" تحقيقها بسلام. وفي جميع هذه الأنشطة التي يمارسها - الآياتي - لا يطور مادة دراسية معينة كما يطور المربون الآخرون وإنما يساعدهم جميعاً على تطوير "المادة الدراسية" في جميع الاختصاصات من خلال إرشادهم إلى شق طريقهم في المحيط الكوني وتحديد "غايات" السير على هذا الطريق وتطوير "الوسائل" التي تساعد على استقامة السير عليه.

وقيام الآياتي بهذه الوظيفة يجعل النشاطات التربوية والعلمية تتصف بصفتين رئيسيتين: الأولى، تكتسب التأثيرات النفسية والعقلية للآيات القرآنية قابلية التجدد، ويمنع تحول الطاعات والممارسات التي توجه إليها إلى تقاليد تراثية يرثها الأبناء عن الآباء ويمارسونها بعامل الألفة دونما فقه أو تفكير، وهذا ما ندد به القرآن عند قوله تعالى " { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ } . [الأعراف:169].

والصفة الثانية؛ أن الآياتيين سوف يتواجدون في كل ميدان من ميادين التربية والعلم والثقافة والنشاط. فهم في ميدان علم النيات - مثلاً - يكتشفون الإبداع والجمال الذي شاهده المختصون في أسرار الشجرة ووظائفها. ومثله في عالم الأنسجة وعالم الطب وفي جميع ميادين العلم والمعرفة حيث يجد الآياتيون دقة صنع الله وروعة تركيب المخلوقات ووظائفها. وإذا سارت التربية وسار العلم هذا المسار فسوف يشبع الآياتيون البراهين والأدلة الإيمانية في علوم الدين، وخبرات التاريخ والأدب، والفيزياء، والكيمياء، والطلب، والجيولوجيا والنبات، والجغرافيا، وعلم الآثار، وبذلك يصبح الدين الإسلامي: دين العبادة، وأدب الأدباء، وفن الفنانين، وسياسة السياسيين، وعلم العلماء، وجندية العسكريين، وعلاقة الرجل بالمرأة، وعادات الشعب، وثقافة المثقفين، ونشاطات الإعلاميين إلى غير ذلك من ميادين المعرفة والسلوك والأنشطة الحياتية المختلفة.

(1) Jose Oriega Gasset, What is Philosophy, PP.33-34.

ولتبيان أهمية - وكيفية الآياتي - المنشودة لا بد من النظر في منهجية العلم الحديث الذي بدأ مساره وما زال محروماً من ((آيات الكتاب)) الصحيح. لقد بدأ هذا العلم بمقدمات معرفية فرضية تمحورت حول الاهتمام بالوجود المادي وحده. أما غير المادي فقد اتخذ العلماء منه موقفين: إما إنكاره وإما إهماله طالما لا يمكن إدخاله مختبر التجارب المحسوسة. ومضى العلم في مسيرته حتى تفجير الذرة وبلوغ النظرية النسبية وتحول المادة إلى طاقة - أي تحول الوجود المادي إلى وجود غير مادي- هنا وقف العلم والعلماء وما زالوا يقفون مشدوهين مختارين. فلقد ظلوا واثقين بفرضياتهم المادية طالما ظلوا يبحثون في - ظاهر الحياة الدنيا - فلما بلغوا نهاية الظاهر المحسوس - لما يعلموا شيئاً، وانطبق عليهم قوله تعالى: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} . [ الروم: 7].

واليوم يعقد العلماء الفيزيائيون والطبيعيون المؤتمرات والندوات ليتحدثوا عن ثغور العلم وما وراءها من - الكون المغيب - و- لاهوت الفيزياء - و - الفيزياء الغيبية<sup>(1)</sup> - و ((مواجهة الغيب الذي لا يمكن معرفته)) و ((ما وراء المحدود))<sup>(2)</sup>. ومثلهم علماء التشريح الذين صاروا يتحدثون عن ((النفس وجسدها)) و ((النفس ومخها))، وأن الجسد والمخ مملوكان من قبل وجود نفسي غير مادي، يقوم باسترجاع الماضي وتخطيط المستقبل وبرمجته وتنفيذ كل ذلك من خلال الجسد<sup>(1)</sup>. وأمام هذه الميادين المعرفية الغيبية يتواصى المختصون - المؤتمرون بضرورة البحث عن منهج جديد للبحث العلمي، ويطرحون آراءً تتحدث عن ((البصيرة)) (والكون الحي)) وكل ما يوصي به ((الوحي)) القرآني. ولكنهم ما زالوا مترددين من الاقتراب من منهج - الاياتي - التي نستخلصه من توجيهات القرآن اللهم إلا ما كان من أمثال - هيوستن سميث - الذي تساءل بصراحة عما يمكن أن يقدمه الإسلام وتحسر لعدم قابلية العقل الغربي أن يستفيد منه كما ذكرنا ذلك في صفحات سابقة.

ولقد برر - هيوستن سميث - حسرته بالقول إن "البصيرة" التي ينشدها لولوج عالم اللاحدود الذي يقف على ثغوره لا توجد في منهجية نيوتن ولا أنشتاين لأن بصائرهم هي بصائر "كمية" ميدانها عالم المادة ويعبر عنها بـ "الوزن" و "الرقم". ولكن البصيرة الجديدة

(1)

(2) Paul Dabis, The Edge of Infinity, (New york: Torchstone Book, 1982).

(1) Sir Hohn C.Eceles " The Self-Conscious Mind and the Meaning and the Mystry of Personal Ediftence" in Toward the Recobery of Wholeness, PP. 31-35.

المنشودة هي بصيرة "نوعية"، ويعبر عنها بـ "الكلمة" و "الفكرة". وهذه من اختصاص الوحي والرسالة، أو هي مضمون " آيات الكتاب" بينما بصيرة الكم والوزن والرقم هي من اختصاص العقل(2).

ومن قبل - هيوستن سميث - أطلق الفيلسوف الاسباني - جوسيه اورتيجا - تحذيره حين ذكر إن القرن الماضي (19) حاول أن يقيد العقل وأن يمسك به في الحدود التي تقررها - الدقة العلمية - . وسمي هذا العدوان المتكرر للقضايا الكبرى - مذهب اللا أدري agnosticism. ولقد فند - اورتيجا - هذه المسلمة بالقول أنها مسلمة لا مبرر لها ولا معقولة، لأن عدم قدرة العلم التجريبي على الإجابة عن الأسئلة بطريقته ليست سبباً لأن يتصرف العلم تصرف الثعلب إزاء العنب الذي لم يستطع الوصول إليه، فيدعو هذه القضايا الكبرى بـ " الأساطير" ويدعونا إلى هجرانها. ثم أضاف كيف نستطيع العيش صماً بكمماً إزاء الأسئلة المصيرية النهائية؟ ومن أين نشأ العالم وإلى أين هو ماضٍ؟ ما هي القوة الفاعلة في الوجود؟ ما المعنى الرئيس في الحياة؟ لقد حصرنا العلم التجريبي في موضوعات ثانوية أولية تعيقنا عن التنفس، ونحن بحاجة إلى معطيات لها مقدمات وخلفيات كاملة، وليس الاقتصار على قطاع جزئي مبتور..

ويضيف - أورتيجا - أن لا مهرب لنا من الأسئلة الكبرى الكلية. وسواء رغبتنا بها أم لا فهي تعيش فينا بشكل أو بآخر. صحيح إن - الحقيقة العلمية - دقيقة ولكنها ناقصة ومتعلقة بالحياة الحاضرة ولا تعالج المصير، وهي بحكم الحاجة متضمنة في نوع آخر من الحقيقة الكاملة والنهائية(1).

#### رابعاً: مقارنة بين الآياتي والفيلسوف:

يتشابه الآياتي والفيلسوف في أمور ويختلفان في أمور أخرى. فهما يتشابهان في العمل في ميدان واحد هو ميدان - الخارطة المعرفية - ولكنهما يختلفان في المنهاج والأدوات والغايات. إذ أن جميع المناقشات الفلسفية تتعامل أساساً مع ثلاثة أسئلة كبرى دون مقدمات..... وهذه الأسئلة هي:

السؤال الأول: ما هو الحقيقي؟ Ontology

والسؤال الثاني: ما هو الصحيح؟ Epistemology

(2) Huston Smith, OP.Cit, PP. 72-73.

(1) Hose Ortega Gasset, **What is Philosophy**, PP. 66-67.



والسؤال الثالث: ما هو الخير؟ Axiology

ويتفرع عن السؤال الأخير سؤالان: الأول: ما هي الأخلاق Ethics، والثاني: ما هو

الجمال Asthetic<sup>(2)</sup>.

أما - الآياتي - فهو يتعامل مع ثلاثة أسئلة تستند إلى مقدمات يقينية هي مضامين -  
الخبر الصادق - الذي جاء به الوحي. وهذه الأسئلة هي:

السؤال الأول: ما هي (( غايات )) الحق والخير اللذين يوجه إليهما الوحي؟

والسؤال الثاني: ما هي المعجزات والبراهين الكامنة في الآفاق والأنفس والدالة على

صدق الحق والخير اللذين يرشد إليهما الوحي؟

والسؤال الثالث: ما هي (( وسائل )) التعرف على معجزات وشواهد الحق اللذين

يرشد إليهما الوحي؟

فالآياتي رائد معرفة دائم البحث عن (( ميادين معرفية جديدة )) يفرز الباحثون فيها  
علوم جديدة ومعارف جديدة تصلح لتنظيم (( العلاقات الجديدة )) التي أفرزتها (( وسائل  
الحياة الجديدة )) التي طرحها الله سبحانه في لحظة معينة. وحين يقوم الآيات بعمله هذا فهو  
يستعمل منهجاً معرفياً يتكامل فيه كل من: الوحي، والعقل والحواس<sup>(3)</sup>. ثم يتحرك ضمن عوالم  
الإنسان والحيوان والنبات والجماد ليتبين (( الوسائل )) الصائبة لتحقيق (( الغايات )) التي  
استخلصها خلال النظر في (( آيات الكتاب ))، ولتتبين (( المعجزات والبراهين )) التي تقنع  
الجيل الذي يقوم له بدور - الرائد - بأن يقبل معرفته ويقفوا أثره.

أما - الفيلسوف - فهو أيضاً مسافر في عالم الأفكار هدفه العودة بأخبار من عالم  
الغيب<sup>(1)</sup>. ولكنه يستعمل منهجاً معرفياً يقتصر فيه على العقل، أو العقل والحواس. وهو يتحرك  
لرسم الخاطرة المعرفية وتطوير نظام قيم أو تصور للحياة انطلاقاً من تأويلات محتملة لغايات  
الحياة والمصير، وطبقاً (( لفروض ظنية )) يضعها هو نفسه دون الاعتماد على قوة أعلى منه<sup>(2)</sup>.  
فالفرق - إذن - بين الآياتي والفيلسوف هو أن الآياتي يبحث في عالم الغيب لمعرفة  
الجديد ضمن توجيهات الوحي - أو الآيات المتشابهات - تماماً كما يبحث الربان المكتشف في

<sup>(2)</sup> Morris & Pai, **Philosophy and the American School**, P.20.

<sup>(3)</sup> راجع باب - نظرية المعرفة في كتاب - فلسفة التربية الإسلامية - للمؤلف.

<sup>(1)</sup> Jose Ortega Y. Gasset. **What is Philosophy**, P. 16-18.

<sup>(2)</sup> Keith Thompson, **Education and Philosophy**. P.1.

المحيطات المجهولة بإرشاد البوصلة والخرائط وأدوات قياس المسافات. أما الفيلسوف فهو يبحر في عباب الغيب بدون بوصلة ولا خرائط، ولذلك فقد يبحر للإجابة عن أسئلة لا تتعلق بوجوده، كالسؤال الذي يطرحه الفيلسوف البريطاني - براتراند راسل - حين قال: قد يكون السؤال: هل هناك إبريق شاي صيني بين كوكب الأرض وكوكب المريخ<sup>(3)</sup>؟ وقد يبحر للإجابة عن أسئلة تتعلق بوجوده ولكنه لا يملك المقدمات المعرفية والأداة الصحيحة، ولذلك قد يعود بجواب صحيح أو جواب خاطئ. ولقد عانت الفلسفة طويلاً من الإجابات الخاطئة التي عاد بها فلاسفة وأشاروا بتحويلها إلى تطبيقات حياتية في عالم الواقع، ودفعت البشرية أثمناً باهظة بسبب خطأ تلك التطبيقات الأمر الذي حدا بأجيال لاحقة من الفلاسفة إلى إعادة النظر في وظيفة الفلسفة. من ذلك ما فعله جون ديوي الذي دعا إلى عمل الفيلسوف في الكون المادي وترك ما وراءهما مع أن الوجود المحسوس أوسع من هذا الكون. والسبب الذي دفع ديوي وأمثاله للانحسار داخل الحياة المادية بعيداً عن قضايا النشأة والمصير هو أن بقايا الوحي المخلوط المشوه في الكتاب المقدس الذي كان ديوي وفياً له في شبابه لم تمده بالبصائر المرشدة إلى ((الحقائق القابلة للبرهان)) المبينة لقضايا النشأة والمصير، فاختار ديوي أن يهملها ويكتفي بالحياة وحدها<sup>(4)</sup>.

ومضى الفيلسوف الغربي التجريبي في القرن العشرين على رأس قافلة العلوم الطبيعية فأسهم في إرشادها إلى الكثير من مكتشفاتها الهائلة ولكنه لم يسهم في كيفية استعمال هذه المكتشفات استعمالاً يحقق الأمن والسعادة في الاجتماع الإنساني. أي هو حقق نجاحات هائلة في ميدان آيات الآفاق ولكنه يتخبط في ميدان آيات الأنفس تحبطاً يدمر النجاحات ويفسد آثار المنجزات. والفيلسوف الغربي معذور في عزوفه عن مخلوطة الكتاب المقدس التي تقدمها له المسيحية واليهودية لأن عمليات - التطوير والتغيير - التي تعرض لها وما زال يتعرض - كل من الإنجيل والتوراة - قد طمست البصائر في هذين الكتابين. ولكن الفيلسوف الغربي غير معذور ما دام لم يحاول حتى الآن كسر (( الختم )) الذي وضعه على سمعه وبصره ومنهج تفكيره فسجن نفسه في "عقلانيته" التي منعت من الانفتاح على مصادر الوحي خارج المسيحية

<sup>(3)</sup> Harry Schofield, **The Philosophy of Education**, P.3.

<sup>(4)</sup> John Dewey, **Esperience and Nature** (New York: Dober Publication Inc. 1958).

John Dewey, **Reconstruction in Philosophy**, (Boston: Beacon Press. 1957).

واليهودية حيث لا يتعارض العقل مع النقل، ويلتقي صحيح المنقول مع صريح المعقول - كما يقول ابن تيمية -.

واليوم - وفي نهايات القرن العشرين الميلادي، وعلى مشارف القرن الواحد والعشرين - يقف علماء الفيزياء والعلوم الطبيعية الأخرى أمام أسئلة علمية يعجز الفيلسوف الغربي عجزاً كاملاً عن تقديم الإجابات لها، ولذلك تتوالى الاقتراحات الداعية إلى البحث عن بديل للمنهج المعرفي الذي تطرحه التربية الحديثة وتوظفه منذ نشأتها. من ذلك ما يقترحه - هيوستن سميث - الذي يدعو بصراحة إلى البحث عن بديل للعقل الغربي الحديث لعل ذلك يخرج من الأسر إلى الحرية مع إن ذلك أصعب مهمة يتصورها العاقل. وهو يدعو الآخرين للتظافر لهذه المهمة لعلها تزحج العقل الغربي الحديث وتزده لاقتلاعه. وفي ذلك يقول:

(( رأينا أن دفاع السيطرة على الطبيعة قد افرز نظرية المعرفة التي كونت العقل الغربي الحديث. ولذلك فإن النظر إلى العالم بدافع آخر يختلف عن دافع السيطرة على الطبيعة سوف يكشف لنا عن نموذج آخر من المعرفة ويكون لنا تفكيراً مختلفاً. ولنقل إن البديل عن دافع السيطرة هو الرغبة في مشاركة الطبيعة... فمثل هذا البديل سوف يولد سلسلة جديدة تقابل سلسلة العقل الأوروبي الحديث كما يلي:

	<u>العقل الغربي الحديث</u>	<u>البديل المنطقي</u>
تحقيق الذات	لاغتراب	حالة الإنسان
التسامي الطبيعة	نظرية الوجود	
الإدراك الحدسي	المنهج التجريبي	نظرية المعرفة
المشاركة	السيطرة	الدافع

ويضيف - هيوستن سميث -: (( إن العقل الغربي الحديث ليس هو الوسيلة الوحيدة للنظر إلى العالم، وإن تغيير ما بالأنفس والارتقاء بها لم يكن من اهتمامات الأسلاف المؤسسين للفكر الغربي الحديث. فمقولة - يكون - المأثورة: ((المعرفة قوة)) لم تستهدف قوة الارتقاء بالنفس. كما أن العقل الغربي الحديث لم يقدم كيف يمكن تحطيم أنانيتنا وتمحور وجودنا حول هذه الأنانية، ثم الارتباط الودود مع العالم الكبير... وهذا ما لاحظناه في دوائر علم النفس الجامعية ابتداءً من علم النفس التجريبي وعلم النفس العقلي ومروراً بعلم النفس الكلينيكي ثم علم النفس الإنساني ثم علم النفس العامل عبر الإنسان. وحين يتخذ علم النفس مظهره الكامل

كما في - السلوك الحتمي - عند ب.ف.سكنر، فإن احتمال تغيير النفس أمر لا يعترف به.. وهذا ينتج لنا تناقضات عديدة. فنحن من ناحية نهيى بالأفراد لأن يمارسوا حرياتهم ويتحملوا مسؤولياتهم. ولكن من ناحية أخرى نضع هذه المقولات في مأزق لا يمكن اجتيازها. فالنموذج الذي يقدمه - سكنر - للإنسان لا يمكن أن يكون حراً قط. ومثله آراء هايسنبرج والعلوم الاجتماعية عامة. فجميعها تقدم سلوك الإنسان كمثير واستجابة ( وهنا نحتاج أن نقرر هل الضحية هو الرجل المقتول أو القاتل، لأن القاتل هو أيضاً ضحية المجتمع...).

وحيث نعيش في ظل حضارة تفاخر باستعمالها كل شيء كالنفايات، سواء أكان استعمالها لمصادرها أم اختراعاتها أم أجزاء المعلومات التي تفرزها كمبيوتراتها، فإنه ليس من الخطأ أن نتساءل عن عدم استعمالنا لأكثر مصادرنا قيمة وهي قدرات الإنسان لمعرفة أنفسنا كبشر ذوي مسؤولية: أنفس تتساءل عن عالم لا يمدنا فقط بالأشياء، وإنما يمدنا بنسيج متكامل من التطور الأخلاقي والروحي يمكن من خلاله أن تتسامى نفوسنا وترقى. هناك معرفة فعالة لمثل هذا النوع من التطور ولكن العقل الغربي الحديث ينظر لها كمعرفة منبوذة<sup>(1)</sup>.

والخلاصة إن أزمة الفيلسوف الغربي لا تكمن في الميدان الذي يعمل فيه وإنما في بحثه في ميدان ((لآفاق والأفنى)) دون ((آيات كتاب)) ترشده للأهداف التي يتوجه إليها وللوسائل المعرفية التي يستعملها. وهذا هو الخطأ الذي ارتكبه فلاسفة الحضارة الإسلامية حين أعرضوا عن آيات الكتاب إلى مقولات الفلاسفة اليونانية. ومن أجل هذا الخطأ شن عليهم الفقهاء الحرب واستعدوا عليهم السلاطي والحكام دون حوار معهم يصوب أخطاءهم، ودون أن يتبينوا أن الأخطاء التي ارتكبتها الفلاسفة الذين أبحروا في محيطات الغيب دون الاستعانة بـ ((بوصلة الوحي وخرائطه وارشاداته)) لا تبرر التنكر لميدان ((التفكر)) المعرفي الذي ولجوه ولا تبرر محاربة الذين يحاولون أن يلجوه. والذين تنكروا لهذا الميدان من المعرفة تسببوا في أن يدفع العقل المسلم الثمن فادحاً. فلقد وقع هذا العقل ضحية الجمود وتوقفت المعرفة عن النمو والتجدد، وتوقف العالم المسلم عن الإحساس بأقسام الزمن الثلاث: أقسام الماضي والحاضر والمستقبل، بل صار الزمن عنده قسماً واحداً هو ((الحاضر)) الذي بدأ منذ عهد الآباء وظل ((حضاراً)) لا يتحول إلى ((ماض)) ولا يحل محله ((مستقبل)). وتوقف الإحساس باختلاف المكان، بل صارت الأمكنة عنده مكاناً واحداً هو المكان الذي بدأ فيه مجتمع الآباء. ونتيجة لذلك صار ((فقه)) الآباء هو العلم الذي لا يتبدل ولا يتغير وما على الأجيال إلا توارثه وتعهده بالحفظ

<sup>(1)</sup> Huston Smith, OP, Cit, PP. 70-72.

والاستظهار، فهيمت ((العصبية المذهبية)) وجمدت الحضارة الإسلامية وآلت إلى الانحطاط والانهيار.

ولذلك أصبح من مسؤوليات - الآياتي - الذي يتطلع هذا البحث إلى إخراجها أن يسهم في إعادة ((التفكير)) والتجدد للفكر الإسلامي فيسترشد بـ((آيات الوحي)) ثم يبصر عبر الغيب الموجود لينظر في ((الآفاق والأنفس)) لشهود آياتها، واكتشاف معالم العصر الذي يعيشه كل جيل، ويسهم في تحديد ((غايات)) هذا العصر وتطوير ((الوسائل)) اللازمة لعبوره.

## الفصل الخامس

### ميدان التزكية

أولاً: معنى التزكية:

تعرف التزكية -لغويًا- بأنها الإصلاح والتطهير والتنمية يقال: يزكي من يشاء أي يصلح وتزكيتهم بها: أي تطهرهم وزكاة المال: تطهيره وتثمينه وإثماؤه والركاء: الطهارة والنماء والبركة (1).

أما اصطلاحاً فقد عرف المفسرون والعلماء الأوائل مصطلح التزكية طبقاً لمستويات المعرفة والتطبيقات التي خبروها في أزمنتهم وأمكنتهم فهي عند الطبري مثلاً تعني: تطهير الناس من الشرك وعبادة الأوثان وتنميتهم وتكثيرهم بطاعة الله (2). وعند ابن تيمية هي تربية القلب وتنميته بالكمال والصلاح وذلك بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره. وتزكية النفس بالصلاحات وترك السيئات، أو هي إزالة الشر وزيادة الخير (3). ولقد استمر بقية المفسرين والباحثين في موضوعات التربية النفسية والأخلاقية يكررون هذه التعريفات ويتناقلونها جيلاً عن جيل العصور الإسلامية الحديثة.

ويلاحظ على تعريفات الأسلاف الماضين ومقلديهم من الحاضرين أنها ركزت في هذا الميدان على الأحشاء والمشاعر النفسية دون الثقافة الخارجية التي تشكل البيئة العامة التي توجه إنجازات الأمة وتلون نشاطاتها، وعلى المظهر الشعائري للعبادة دون المظهر الكوني، في الوقت الذي قلصت المظهر الاجتماعي وحصرته في أخلاق الفرد بعيداً عن شبكة العلاقات الاجتماعية وعلاقات الحاكم بالمحكوم وما يتفرع عنها من علاقات في ميادين الحكم والإدارة والسياسة والاقتصاد وغيرها.

غير أن التوجيهات التي رسمت الإطار العام لميدان التزكية في القرآن الكريم والحديث الشريف تشير إلى أن التزكية عملية شاملة تشمل الحياة نفسها. وأنها في ضوء هذه التوجيهات

(1) ابن منظور، لسان العرب، مجلد 14 (بيروت: دار صادر 1968/1388) ص 58.

(2) الطبري، التفسير، ج 1 (البقرة 129) ص 558.

(3) ابن تيمية، الفتاوى، كتاب السلوك، ج 10، ص 96.

ابن تيمية، الفتاوى، كتاب التفسير (الجزء الثالث)، ج 16، ص 189.

يمكن أن نعرف التزكية بأنها: عملية تطهير وتنمية شاملين هدفها استبعاد العناصر الموهنة لإنسانية الإنسان وما ينتج عن هذا الوهن من فساد وتخلف وخسران، وتنمية كاملة للعناصر المحققة لإنسانية الإنسان وما ينتج عن هذه التنمية من صلاح وتقدم وفلاح في حياة الأفراد والجماعات.

والتزكية حسب هذا التعريف نوعان: تزكية معنوية ميدانها المعارف والقيم والثقافة، وتزكية مادية مادتها النظم والتطبيقات في ميادين الحياة المختلفة

### ثانياً: أهداف ميدان التزكية:

في ضوء التعريف الذي قدمناه نتحدد أهداف ميدان التزكية فيما يلي:

**الهدف الأول:** تزكية -إنسان التربية الإسلامية- من مرضي ((الطغيان)) و ((الاستضعاف)) وتنمية حالة ((الوسطية)) التي تمثل العافية والصحة النفسية والسلوكية. والطغيان مرض نفسي يصيب النخبة القوية فتطغى وتتجاوز رتبها الإنسانية إلى منزلة التأله أي ادعاء ملكية ((الأشياء)) والتصرف بمصائر ((الأشخاص)) أما الاستضعاف فهو أيضاً مرض نفسي يصيب الأكثرية فيفقدونها إنسانيتها ويحيلها إلى قطعان بشرية مدججة لا تملك شيئاً ولا تشارط في تقرير مستقبلها ومصيرها. وأما ((الوسطية)) فهي العودة بكل من الطغاة والمستضعفين إلى حالة العافية التي تجسدها طاعة الطرفين لله وإفراده بالملكية والطاعة والتصريف في مظاهر الحياة الدينية والاجتماعية والكونية، ومحور هذه الوسطية هو الاسترشاد بقيم - العدل- وما يتفرع عنه من قيم تشيع الحرية والصلاح والتقدم.

ويشير القرآن إلى حالة الطغيان عند أمثال قوله تعالى: { اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ } {17} { قُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ } {18} { (النازعات: 17-18) } وقوله: { إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ } {17} { لِيَطْغَىٰ } {6} { أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْتَىٰ } {7} { (العلق: 6-7) } وإلى حالة الاستضعاف عند أمثال قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا } { (النساء: 97) } وإلى حالة الوسطية عند أمثال قوله تعالى: { قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ أَنِّي لَبِّيْتُ مُوسَىٰ لَأَكْتُبُ لَكُم مِّنْ دُونِ الذِّكْرِ الْقَلَمَ } { (القلم: 28) } وأوسطهم تعني أعدلهم أي أصحهم من مرض الطغيان ومثلها قوله تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ } { (البقرة: 143) } أي زكيناكم حتى صرتم أمة عادلة معافاة من مرض الطغيان في قياداتكم ومرض الاستضعاف في جماهيركم الأمر الذي أهلككم للدعوة إلى المعرفة والنهي عن



المنكر وشهود مدى تطبيق الناس لذلك. ويستنتج من ذلك أنه لا يجوز لأمة أن تدعي الدعوة للإسلام ما لم تحقق العدل في حياتها وتشيعه في علاقاتها.

وأهمية -الوسطية- أنها توفر أمرين اثنين: الأول؛ وعي الإنسان بإنسانيته وعدم السماح بتدجينه وتحويله إلى شيء من الأشياء المملوكة والثانية؛ أنها توفر له انتماء إليها يحقق له المساواة مع الآخرين في تقرير مستقبله ومصيره. ويتحدث العالم النفسي إريك فروم -عن هذين الأمرين فيذكر إن إحساس بإنسانيته وانتمائه يوجدان فيه الضمير الذي يجعله يرى في نفسه محور الكائنات المخلوقة، ويحفظه من مجازاة أهواء الآخرين ويمنحه القدرة قول ((لا)) حيث يجب أن تقال، في الوقت الذي تقول الأكثرية: نعم والضمير يوجد في الفرد الذي يحس بمكانته كإنسان وليس مجرد شيء أو سلعة تسوقهما الأهواء والشهوات<sup>(1)</sup>.

**والهدف الثاني:** هو تزكية ثقافة الأمة الإسلامية من مظاهر الطغيان والاستضعاف التي تفرز التطبيقات الموهنة في النظم والإدارات والأفكار الجالبة للتخلف والضعف ثم استبدالها بمظاهر العدل -أو الوسطية- التي تمنح الأمة العافية والمنعة وتؤهلها للقيام بمسئلياتها المتجددة بتجدد الخلق في الزمان والمكان. وهذا ما يوجه إليه قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } (الرعد: 11).

ولنجاح هذا الهدف لا بد من الوعي التام بعناصر الثقافة والقدرة على مراجعة هذه العناصر للوقوف على تلك التي فقدت فاعليتها، أو تلك التي أصابها الفساد وصارت تشكل بيئة لإفراز الطغيان والاستضعاف ومفهوم الثقافة هنا يستعمل بمعناه الحديث، أي هو: الأفكار والقيم والنظم والعادات والتقاليد والأعراف وشبكة العلاقات الاجتماعية بتطبيقاتها المختلفة التي تنتجها الأمة خلال ماضيها وحاضرها. والعلاقة بين الإنسان والثقافة كالعلاقة بين الجسد البشري والبيئة الطبيعية المحيطة، أي أن في البيئة الثقافية عوامل الصحة والمرض للنفس الإنسانية، طبقاً لدرجة نقاء هذه البيئة أو تلوثها. ولذلك فشلت جميع محاولات التزكية الفردية التي عملت على تزكية الفرد دون تزكية البيئة الثقافية المحيطة

**والهدف الثالث:** هو تنمية قيم الأخوة الإنسانية التي جاءت بها الرسالة الإسلامية على أبواب العالمية وعصر قرية الكرة الأرضية بغية صهر الولاءات الأسرية والقومية والإقليمية والعرقية في

(1) Erich Fromm, The sane Sociert, PP 155-157.

بوتقة الولاء الإيماني الذي يضع "أشياء" الأقاليم و"أشخاص" الأقوام في خدمة "أفكار الرسالة الإسلامية في الإصلاح والإصلاح.

ثالثاً: محتوى ميدان التزكية:

المحتوى الذي يوجه إليه ميدان التزكية يتألف من المكونات الرئيسية التالية:

#### أ- تزكية النفس:

النفس الإنسانية هي المجال الواسع للتزكية التي يوجه إليها القرآن الكريم. والنجاح في هذه التزكية نجات للإنسان نفسه ووقاية لجهوده العلمية والعمرائية من الفشل في الدنيا والحسرة في الآخرة:

{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا {7} فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا {8} قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا {9} وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا {10} (الشمس: 7-10).

ولقد تردد ذكر النفس في مئات المواضع من القرآن الكريم والحديث الشريف. ويستخلص من الاستعمالات المتكررة فيهما أن النفس هي الوجود الحي للإنسان كله، وأن وجود النفس هذا ينقسم إلى قسمين: قسم معنوي يشار إليه باسم القلب، وقسم مادي هو الجسم. والإشارات التي ذكرت كلاً من النفس والقلب لم تنطرق إلى التعريف بماهية أي منهما، وإنما وجهت الوعي إلى أفعالهما المحسوسة في واقع الحياة لتنمية الصالح منها وتطهير السيء. ويتجسد عمل القلب في نوعين من القدرات هما القدرات العقلية والقدرات الإرادية أما عمل الجسم فتجسده الممارسات المادية المحسوسة والتركيز على هذه الأنواع الثلاثة من أعمال القلب والجسم هو مدار تزكية النفس في التربية الإسلامية.

#### 1- تزكية القدرات العقلية:

العقل في القرآن وظيفة من وظائف القلب وليس وجوداً مستقلاً كما يظن البعض ويبلغ إنسان التربية الإسلامية درجة النضج العقلي -أو الرشد- حين يعقل ما هو خير وصواب، وما هو شو وخطأ ثم يسلك طبقاً لهذا العقل. وهذا ما فهمه الصحابة الذين زكاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالحسن بن علي رضي الله عنهما عرف العقل فقال: العقل حفظ القلب كل ما استوعبته<sup>(1)</sup>. وقال ابن عباس: فلا يسمى عاقلاً إلا من عرف الخير فطلبه، والشر فتركه ولهذا قال الله عن أصحاب النار: { لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي

(1) المتقي الهندي، كثر العمال، ج 16/ ص 216.

أَصْحَابِ السَّعِيرِ { وقال عن المنافقين: { تَحْسَبُهُمْ حَمِيْعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ } (1).

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لست بخب ولا يخدعني الخب. ولقد علق ابن تيمية على هذا القول العمري بقوله: فالعقل الكامل هو الذي يعرف الخير ولا يريد الشر، وكمال ذلك بأن يعرف الخير والشر، فأما من لا يعرف الشر فذلك نقص فيه لا يمدح به (2).

وتتعرض القدرات العقلية للحالات التي تتعرض لها القدرات الجسدية من العافية والمرض والموت: فهي تصح بالعلم والعمل، وتمرض بالوهم والخرافة، وتموت بالجهل المطبق. وهذا ما يوجه إليه القرآن الكريم حين يذكر أن القلب الذي هو موطن القدرات العقلية يعي ويغفل، ويطمئن وينكر، ويؤمن ويكفر، ثم يرسل هذه الأعمال القلبية إلى الجسم ليترجمها إلى ممارسات حسية. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: ((إن الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)) (3).

لكل هذه الأحوال الصحية والمرضية احتاجت القدرات العقلية إلى تزكية دائمة، ولذلك ندد الله تعالى بالمشركين الذين يتركون معقولاتهم حبيسة الأغلال والآصار الثقافية والموروثات الاجتماعية دون أن يزكوها بالعلم والمراجعة المؤديين إلى الإيمان والتوحيد. وهذا هو معنى قوله تعالى: { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ } {6} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } {7} (فصلت: 6-7) (4).

وتتحقق تزكية القدرات العقلية من خلال أمور ثلاثة: الأول تزكية مسار الفكر. والثاني تزكية أشكال التفكير. والثالث تزكية أساليب التفكير.

أما عن تزكية مسار الفكر فإنها تتم من خلال تنمية القدرات العقلية على التوجه للأهداف التي خلقت من أجلها، وهي تدير شؤون الإنسان وتنظيم علاقاته بالخالق والكون والإنسان والحياة والآخرة بالصورة التي شرحناها في كتاب فلسفة التربية الإسلامية وحي تحسن القدرات العقلية التوجه نحو هذه الأهداف فإنها تسمى -حكمة- ويسمى صاحبها حكيماً. وإلى ذلك يشير قوله تعالى:

(1) ابن تيمية، الفتاوى، كتاب الإيمان، ج 7، ص 31.

(2) ابن تيمية، الفتاوى، كتاب السلوك، ج 10، ص 302.

(3) البخاري، الصحيح، كتاب الإيمان.

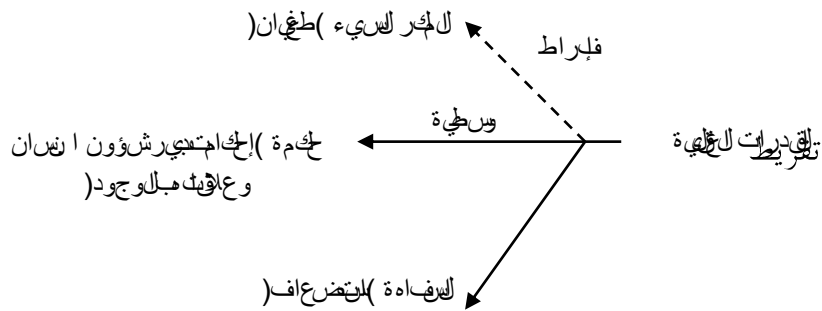
(4) ابن تيمية، الفتاوى، كتاب السلوك، ج 10، ص 97.

{ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا } (البقرة: 269)

أما إذا انشطنت أي انحرفت عن قصد وعمد عن التوجه لهذه الأهداف فإنها تنقلب مكرراً سيئاً وإلى ذلك يشير قوله تعالى: { وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ } (فاطر: 43).

وأما إذا عجزت القدرات العقلية وضعفت عن العمل فإنها تنقلب سفاهة وحمقاً وإلى ذلك يشير قوله تعالى: { وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ } (البقرة: 130)

وفي كلتا الحالتين الأخيرتين فإن الضرر يلحق بالإنسان في حياته الدنيوية ومصيره الأخروي ويمكن أن نوضح المسارات الثلاثة لعمل القدرات العقلية بالشكل التالي:



وكل مسار من مسارات القدرات العقلية الثلاثة ينتهي بالإنسان إلى حالة معينة. فالمسار المعاقب أو مسار الوساطية ينتهي إلى حالة (الحكمة) ومسار الإفراط ينتهي به إلى حالة (الطغيان) ومسار التفريط ينتهي به إلى تسفيه إنسانيته أي انتقاصها أو حالة (الاستضعاف).

أما عن المظهر الثاني لتزكية القدرات العقلية وهي -تزكية أشكال التفكير- فإن منهاج التزكية في التربية الإسلامية يحتاج أن يركز خلال مسار الفكر نفسه على التطهير من أشكال التفكير الخاطئة، وأن يتصف بأشكال التفكير السليمة. ويتم ذلك من خلال تربية إنسان التربية الإسلامية على ما يلي<sup>(1)</sup>:

### 1- تدريب إنسان التربية الإسلامية على النقد الذاتي بدل التفكير التبريري:

والمقصود بالنقد الذاتي نمط التفكير الذي يحمل صاحبه المسؤولية في النقص الذي يحدث والخطأ الذي يقترف ولا يبحث عن مبررات خارجية. ويندد القرآن الكريم بأصحاب التفكير التبريري في مختلف المواقف والممارسات من ذلك تنديده بالتفكير الفرعوني وهو ينسب الإنجازات والأعمال النافعة لآل فرعون ونظام فرعون بينما ينفي مسؤولية المصاعب والمشكلات

(1) للتوسع في معرفة أشكال التفكير راجع كتاب -أهداف التربية الإسلامية، للمؤلف.

عن فرعون نفسه وعن نظام الحكم الفرعوني ويحملها لـ "التطرف الديني" الذي ينسبه إلى موسى عليه السلام واتباعه:

{وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ} {130} فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} {131} { (الأعراف: 130-131).

والرسول صلى الله عليه وسلم يمدح العقل الناقد المتحرر حين يقول: ((إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ويجب العقل الكامل عند حلول الشهوات)) (1). وكان أعلام الصحابة يعتبرون النقد الذاتي دلالة النمو والحياة. من ذلك قول الحسن بن علي: (( من لم يتفقد النقصان عن نفسه فهو في نقصان، ومن كان في نقصان فالموت خير له)) (2).

## 2- تدريب إنسان التربية الإسلامية على التجديد بدل التقليد:

والتقليد الذي عناه القرآن الكريم هو عدم الاستفادة من القدرات العقلية واللجوء إلى محاكاة ما تفرزه القدرات العقلية عند الآخرين سواء أكانوا من السلف الماضين أو الأقرباء والغرباء المعاصرين. لهذا ينعى القرآن الكريم على المقلدين الذين يقلدون الآباء ويقولون: { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ } (الزخرف: 23)، أو يقلدون المنشطين من الغرباء الذين يغروهم ببلاغة الكلمة وزخارف الفكر: { شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنَّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا } (الأنعام: 112).

لذلك فهم قادة الفكر الإسلامي عن التقليد ودموه. من ذلك ما قاله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ((ألا لا يقلدن رجل رجلاً دينه فإن آمن آمن، وإن كفر كفر)) (3). ومثله ما قاله أبو داود حيث قال: قلت لأحمد (بن حنبل): الأوازعي هو أتبع أم مالك؟ قال: ((لا تقلد دينك أحداً من هؤلاء ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فخذ به، ثم التابعي بعد الرجل مخير)). ومن وصايا ابن حنبل كذلك: ((لا تقلدني ولا تقلد مالكاً ولا الثوري ولا الأوزاعي وخذ من حيث أخذوا" وقال أيضاً: من قلة فقه الرجل أن يقلد في دينه الرجال)) (4).

(1) ابن تيمية، الفتاوى، أصول الفقه (الجزء الثاني)، ج20، ص 58.

(2) ابن تيمية، كثر العمال، ج16، ص 214.

(3) البيهقي، السنن الكبرى، ج10، ص 116.

(4) ابن القيم، إعلام الموقعين، ج2، ص 200-201.

ولا تقف التوجيهات القرآنية عند التحذير من التقليد ومضاعفاته في الجمود وإنما تبرز النتائج المدمرة التي تترتب عليه. فمن ليس عنده قدرات: الفقه، والعقل، والتفكير، لا "يفقه" مصدر القوة الحقيقي: {لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ} (الحشر: 13). ولا "يعقل" عوامل الوحدة الحقيقية:

{ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ } (الحشر: 14)

### 3- تدريب إنسان التربية الإسلامية على التفكير العلمي بدل الظن والهوى:

والتوجيهات القرآنية في هذا الشأن كثيرة جداً، من ذلك قوله تعالى: { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } (الإسراء: 36). ويعنى القرآن الكريم على الذين يتبعون الظن والهوى: { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأُنْفُسُ } (النجم: 23) ويقول صلى الله عليه وسلم: "ياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث" (1).

واتباع الظن والهوى من أعظم مظاهر الصنمية في التفكير والاعتقاد وإلى هذا يشير قوله صلى الله عليه وسلم: ((وما تحت ظل سماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع)) ذلك أن الهوى يشوه الحقيقة ويفسد الواقع ومما قاله عبد الرحمن بن مهدي أحد أساتذة الشافعي وغيره: ((أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم)) (2).

### 4- تدريب إنسان التربية الإسلامية على التفكير الجماعي بدل التفكير الفردي:

يتضمن القرآن الكريم والسنة الشريفة توجيهات مفصلة عن ضرورة الانتباه إلى التأثيرات المتبادلة بين الأنشطة التي تنقلها شبكة العلاقات التراثية بين أجيال الحاضر والماضي أو شبكة العلاقات الاجتماعية بين عناصر الحاضر القائم. من ذلك قوله تعالى: { وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً } (سورة الأنفال: 25) والمسلم حين يقف في صلاته فإنما يدعو ويطلب العون والهداية باسم الجماعة كلها لا باسم نفسه وحده { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } {5} اهدئنا الصراط المستقيم { واعتماد هذا النوع من التفكير يفضي إلى اتخاذ الإصلاح نهجاً في الحياة بدل الاكتفاء بالصلاح الفردي وانتظار العدل الأخروي، ويفضي إلى الشورى نظاماً بدل الحكم المطلق والممارسات الفردية. ويفضي إلى

(1) البخاري، الصحيح، باب الأدب.

(2) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ص7.

الاهتمام بالقضايا العامة بدل الانحسار للاهتمام بالقضايا الجزئية الطارئة ولذلك يقرر صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور أن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ولذلك أيضاً قال: "أعظم الناس هما المؤمن، يهتم بأمر دنياه، وأمر آخرته" (1).

##### 5- تدريب إنسان التربية الإسلامية على التفكير الشامل بدل التفكير الجزئي:

ونعني بالتفكير الشامل ذلك الذي يتناول الموضوعات تناولاً شاملاً ويحقق الإحاطة التاريخية والرسوخ الحاضر بها. ولذلك عرض القرآن الكريم تاريخ العقائد وحاضرها وعرض تجارب الأمم السابقة وندد بأصحاب التفكير الجزئي والفهم الجزئي لما لهما من خطورة على وحدة الدين ووحدة التطبيق ثم وحدة الأمة:

- { إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } (الأنعام: 159).

- { وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } { 31 } { مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا } (الروم: 31-32).

- { أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } (الشورى: 13).

ويضرب ابن تيمية لهذه الجزئية المشار إليها في الآيات مثلاً من تاريخ الفقه الإسلامي فيذكر أن الله أمر بالطهارة الشاملة: أي طهارة القلب وطهارة البدن. وكلا الطهارتين من الدين الذين أمر الله به، ولكن شيوع التفكير الجزئي جعل كثيراً من الفقهاء والعباد يهتمون بطهارة البدن وحده ولا يفهمون من الطهارة إلا طهارة البدن. ويقابلهم كثير من المتصوفة الذين اهتموا بطهارة القلب ولا يفهمون من الطهارة إلا ذلك. وهكذا في كثير من الاعتقادات والقضايا. ولقد كان من نتائج شيوع هذا الفهم الجزئي نشوب الخلافات ووقوع العداوات بين الطائفتين (2).

وما وقع التفكير الجزئي المشيع للاختلافات والخلافات إلا أدى إلى ضعف أهل الحق وظهور أهل الباطل. وهذا ما حذر منه صلى الله عليه وسلم حيث قال: ((ما اختلفت أمه بعد نبيا إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها)) (3). ثم يتصاعد الخلاف إلى أن ينتهي بالأمم إلى الهلاك والبوار ولذلك كان من وسائل الطغاة المتسلطين في محاربة دعوات الإصلاح تشجيع ظهور الأحزاب والفرق التي تتراشق بالنصوص وبتهم الزندقة والفسوق والعصيان وتنسى

(1) كثر العمال، ج1، ص 144.

(2) ابن تيمية، الفتاوى، توحيد الألوهية، ج1، ص 15-16.

(3) كثر العمال، ج، ص 183.



رسالتها الأصلية في الدعوة للمعروفة والنهي عن المنكر. ولخطورة هذه الفرقة أمر الله بهدم ((مسجد الضرار)) الذي استهدف بناته شق الصف المسلم وتفريق المسلمين بين المساجد حتى لا يجتمعوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويقدم الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة في منهاج التفكير الشامل، فهو حين يمايز بين أمرين من أمور العبادة أو التشريع أو الاجتماع لا يقصد أن يحل أحدهما محل الآخر ويلغيه، وإنما يهدف إلى تحديد رتبته ودوره في سلم الأعمال والممارسات فمثلاً حين يفضل ذكر الله على الجهاد لا يقصد أن يتوجه الناس كليه إلى ذكر الله ويقعدوا عن الجهاد كما فهم بعض المتصوفة والمتزهدين في العصور المتأخرة وإنما معناه أن الذكر إذا لم يتوج الجهاد ويحدد أهدافه ويوجه ممارساته فسوف ينحرف الجهاد عن هذه الأهداف والمسارات ويصبح عدواناً وعصبية وهكذا في جميع المواقف والأعمال. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: ((إن دين الله تعالى لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه))<sup>(1)</sup>.

وفي العصر الحديث يكتشف علم النفس الإنساني خطورة التفكير الجزئي وآثاره في إفساد المنجزات العلمية والحضارية وفي سوء استعمالها من ذلك ما كتبه أبراهام ماسلو حين قال:

((لقد صرت أميل حديثاً إلى اعتبار أسلوب التفكير الذري أي الجزئي شكلاً من أشكال المرض النفسي القابل للعلاج، أو هو على الأقل مظهر لعدم النضج العقلي. وأن طريقة التفكير الشامل والنظر القائم على الوحدة أي وحدة الكون والحياة والمصير تبدو مصاحبة بشكل طبيعي وتلقائي للأشخاص الذين يتمتعون بصحة عقلية وتحقيق للذات. ويبدو أن هذا التفكير الشامل أمر صعب عند الناس الذين هم أقل تطوراً وأقل نضجاً وأقل صحة))<sup>(2)</sup>.

#### 6- تدريب إنسان التربية الإسلامية على التفكير السني بدل التفكير الخوارقي:

والمقصود بالتفكير السني ذلك النوع من التفكير الذي يتعامل مع مواقف الحياة وظواهر الكون ومكوناته وحركة التاريخ الإنساني على أساس أنها جميعها تحكمها سنن تنظم المقدمات والتفاعلات والنتائج طبقاً لقوانين محكمة دقيقة، صارمة، لا خلل فيها ولا وهو ولا محاباة ولا خصوصية ولا استثناء؛ وأن وظيفة إنسان التربية الإسلامية هي اكتشاف هذه السنن والقوانين ثم العمل على الانسجام معها والحذر من الاصطدام بها عند ممارستها وبناء مؤسساته

<sup>(1)</sup> المتقي الهندي، كثر العمال، ج10، ص 171.

<sup>(2)</sup> Abraham H. Maslow, Motivation and Personality, Pdf.

واختيار وسائله ونظم حياته. أما التفكير الخوارقي فهو الذي يجعل هذه السنن والقوانين ويلغي دور الإنسان في اكتشافها ويعفيه من تنظيم حياته طبقاً لها، ويقتصر على مشاهدة آثار عملها وانتظار خوارق ومعجزات إلهية تنعم عليه بآثارها النافعة ونتيجة من آثارها السيئة.

والذي يستهدفه منهاج التزكية هو تزكية تفكير إنسان التربية الإسلامية من التفكير الخوارقي ثم توجيهه لأهمية الوعي بعمل السنن الإلهية في حياة الأفراد والجماعات والكائنات الأخرى خلال مسيرة التاريخ الإنساني والكوني، وإلى البحث في الآثار العمرانية التي خلفتها المجتمعات التي اصطدمت بهذه السنن وخرجت من مسيرة التاريخ بغية الوقوف على كيفية عمل السنن المذكورة في انهيار هذه المجتمعات وهلاكها:

{ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِثَانِ اللَّهَ وَإِنَّكَ آمِنٌ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } { آل عمران: 137 }

{ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } { النساء: 26 }.

وفي إطار هذه السنن تتحدد مصائر الجماعات التي تنجو وتلك التي تهلك، وتتحدد العلاقات بين الأسباب والنتائج في ميادين الحياة المختلفة.

فالنظم السياسية الظالمة التي تضيق بالرسل والمصلحين وتنفيهم من الأرض لا بد وأن تقفر مجتمعاتها من مصادر قوتها البشرية وتغري المجتمعات الأخرى بغزوها وتقويضها ثم نفي رؤسها أو إزلالهم وقتلهم { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلاً } { 73 } { وَلَوْلَا أَنْ تَبَتَّنَا لَقَدْ كَدَّتْ تَرَكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً } { 74 } { إِذَا لَأَذْفُقَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً } { 75 } { وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً } { 76 } { سِنَّةٌ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً } { (الإسراء: 76-77) }.

والمجتمعات التي تمارس النقد الذاتي وتمارس التغيير الإيجابي تتجنب تكرار مضاعفات الأخطاء والمعاصي. أما المجتمعات التي لا تمارس هذا النقد وترفضه وتحاربه فإن المضاعفات السيئة تتكرر في حياتهم وتأتي على عمرانهم:

{ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ } { 38 } { (الأنفال: 38) }.

والاستغراق في السياسات الظالمة والممارسات الإجرامية يفضي إلى شيوع ثقافة الطغيان وفلسفات الاستكبار، ويمنع القدرات العقلية من شهود الحق، ويقيد الإرادات من التوجه إليه والرغبة به:

{ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } {11} كَذَلِكَ نَسُلكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ

{ 12 } لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ { 13 } { (الحجر: 11-13).

والذين يقيمون سياساتهم على الشر والرذيلة لا بد وأن تترد عليهم آثارها ويصطلون بنتائجها.

{ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا } { (فاطر: 43).

ومثله في النشاطات الاقتصادية والإنجازات الحضارية المختلفة. فمن قدم الأسباب حصد النتائج، أما من قعد عن تقديم الأسباب بانتظار الخوارق والمعجزات فلن يحصد إلا رؤى الأحلام والتمنيات. ولذلك قسم الله تعالى جميع الأعمال بينه وبين العباد مهما علت منزلتهم عنده. فطلب مثلاً إلى موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه الحجر ليفجر له الماء وإلى مريم أن تهمز النخلة ليسقط عليها الرطب، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم أن يجاهد الكفار والمنافقين ليمنحه النصر، وإلى العباد أن يسعوا في مناكب الأرض ليرزقهم<sup>(1)</sup>. وإلى الحراث أن يحرثوا الأرض لينبت لهم الزرع، وإلى الرجال أن ينكحوا النساء ليرزقهم الأولاد وهكذا.

ومن طريق ما رواه القرطبي في تفسير قوله تعالى: {مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ } { 117 } { (آل عمران: 117) قال: إنهم ظلموا أنفسهم بأن زرعوا في غير وقت الزراعة أو في غير موضعها، فأدبهم الله تعالى بوضعهم الشيء في غير موضعه. فالظلم هنا هو مخالفة السنن والقوانين الطبيعية المتعلقة بالزراعة. وهكذا في جميع السياسات والإدارات والممارسات في ميادين الحياة المختلفة.

ولا يفهم من ذلك أننا ننكر المعجزات والخوارق الإلية؛ فهي ظواهر تاريخية رافقت رسالات متعددة مثل: الطوفان زمن نوح، وانشقاق البحر وإغراق فرعون وجنوده زمن

(1) مناكب الأرض: مراكز الثقل الاقتصادي التي تحمل مسؤوليات التنمية الاقتصادية كما تحمل مناكب الجسم غذاءه وحاجاته.

موسى، والحسب زمن لوط عليهم السلام، ومثله إرسال طير الأبايل على حملة أبرهة الحبشي الذي استهدف هدم الكعبة. ولكن حدوث هذه المعجزات الخارقة للعادة ليس هو القاعدة التي توجه بعض السنن الإلهية أو نسميها السنن القمم النادرة الحدوث الحادثة لتصحيح مسار التاريخ عندما تتعرض السنن التاريخية لحرق الكامل تماماً كما يحدث الانفجار في الآله أو المركبة حين يخرق راكبوها قوانين استخدامها ولذلك هي نادرة الحدوث ولا يجوز أن يعول عليها في إدارة قوانين البناء والصراع في المجتمعات والنشاطات الإنسانية. ودليلنا على ذلك أن إرسال طير الأبايل لم يكن القاعدة المتكررة في الدفاع الإلهي عن الكعبة. فلقد تكرر غزو الكعبة بعد حملة أبرهة الحبشي على يد أمثال القرامطة والحجاج بن يوسف الثقفي وتعرضت للهدم والضرب بالمنجنيق وأخذ الحجر الأسود لعشرات السنين، ومع هذا لم تتكرر إرسال طير الأبايل لأن السنة التاريخية أو القانون الاجتماعي هي ابتلاء أي امتحان المؤمنين بالدفاع عن الكعبة بجهودهم البشرية ومصادرهم المتيسرة أما المعجزة الخارقة فهي سنة قمة أرادت إظهار أهمية ميلاد صاحب الرسالة الإلهية الأخيرة ودوره في تعديل مسار التاريخ الإنساني كله. يضاف إلى ذلك أن المعجزات والخوارق هي أمور جرت في عهود الطفولة البشرية أما حين عاشت البشرية خبرات مربية طويلة الأمد وشارفت على النضج العقلي ووقفت على أبواب حقبة التفجر المعرفي فقد أوكلت إلى عقول البشرية نفسها شهود السنن الإلهية وتطبيقاتها ولذلك حين طلبت قريش من الرسول صلى الله عليه وسلم معجزات كمعجزات موسى وعيسى جاءهم الرد الإلهي: { وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ } {50} أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } {51} (العنكبوت: 50-51).

7- تدريب إنسان التربية الإسلامية على الانفتاح على الخبرات الصحيحة بدل الانغلاق على الخبرات التقليدية والجمود عليها:

فإنه سبحانه وتعالى يقول: { تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } (يوسف: 76) والرسول صلى الله عليه وسلم يقرر أن الحكمة ضالة المؤمن فأني وجدها فهو أحق الناس بها<sup>(1)</sup>. ويندد القرآن بالذين ينغلقون على مفاهيم معينة ومعتقدات وأفكار محددة، ويجعل ذلك سمة رئيسة من سمات الكافرين، وذلك عند أمثال قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ

(1) الترمذي، السنن، ج7، ص 329. وابن ماجه، السنن، كتابا الزهد، باب الحكمة.

أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ {6} خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ {7} { (البقرة: 6-7). والختم هنا عملية سننية قدم الكافرون أسبابه وخلق الله نتائجه وعمله. وأصل الختم: الطبع والخاتم هو الطابع والختم على القلوب كالختم الذي يطبع على الظروف والأغلفة فلا يستخرج منها شيء ولا يضاف إليه شيء. وكذلك قلوب الكافرين تغلق وتختم على ما أودعت من أفكار وعلوم، ومرادات واتجاهات ثم يرفضون مراجعتها أو النظر فيما عداها<sup>(1)</sup>. وهذه هي حال الثقافات الأرضية ونظم التربية التي تحمل هذه الثقافات عبر الأجيال، فإنها مهما ادعت صفات الانفتاح ومجاعة التطور والتفاعل مع ثقافات الآخرين، فإنها في الحقيقة تغلق نفسها ومعتقداتها وعلومها ومناهج التفكير عندها بغلاف ثقافي خاص بها ثم تختتم أي تغلق عليه. وهذه هذه حال الثقافة الغربية المعاصرة التي انغلقت على نفسها ابتداء من أيام اليونان حتى الحضارة القائمة، فهي تحدد مصطلحاتها وقيمها ومعتقداتها ومناهجها في البحث بحدود التصور العرقي الدنيوي المادي الذي صبت نفسها في أغلفته ثم أغلقتة وختمت عليه، وإذا اضطرت للنظر إلى خارجه أو في الجديد الذي تصطدم به فإنها تراه من خلال التكوين الثقافي أو الغشاوة الثقافية تعبير القرآن الذي يحدث تراثها الذي انغلقت وجمدت عليه وختمت ظروف العقول والقيم والمؤسسات التي تحتويه.

ومثل الثقافة الغربية ثقافة العصبية القبلية في الأقطار العربية والإسلامية التي استعصت على جميع محاولات التجديد إلا ما كان تلوينها الثقافي بالأفكار الإسلامية وغيرها من الأفكار حيث حافظ على جوهرها وروحها خلال حقب التاريخ وفي ميادين الحياة المختلفة ولكنها كانت تطلي نفسها بطلاء الأفكار والمبادئ الجديدة.

ومثل هذه الثقافات الجامدة لا ينفع في معالجتها إلا هزات وزلازل ثقافية اجتماعية تحطم الختم الثقافي وتشر ما فيه، وإليها تشير الآية بـ((العذاب العظيم)).

وأما عن المظهر الثالث لتزكية القدرات العقلية وهو -تزكية أساليب التفكير- فإن منهاج التزكية في التربية الإسلامية يحتاج أن يركز علماً وممارسة على تدريب انسان التربية الإسلامية على خطوات التفكير العلمي التي تبدأ بالإحساس بالمشكلة ثم الانتقال إلى تحديدها ثم الوعي بتفاصيلها ثم جمع المعلومات المتعلقة بها، ثم تحليل هذه المعلومات وتدبرها ثم الانتقال إلى اكتشاف الحكمة الكامنة وراءها ووضع الحلول اللازمة لها. وخلال هذه التزكية لا بد من

(1) الطبري، التفسير، ج1، ص 112.

تطهير تفكير إنسان التربية الإسلامية من آثار التفكير الشعري الذي يقفز من خطوة الشعور بالمشكلة إلى طرح الحلول لها انطلاقاً من الظنون والأهواء التي تملئها حمية العصبية الجاهلة والتمنيات والرغبات المسبقة.

ولا بد لمنهاج التربية الإسلامية في جميع مظاهر تركية القدرات العقلية أن يعمل على تنمية عادة التفكير الدائم عند إنسان التربية الإسلامية، أي أن يبقى في حوار دائم مع ظواهر الوجود من حوله، وأن يستمر في طرح أسئلة: كيف؟ ولماذا؟ إزاء أية ملاحظة تنقلها حواسه الخارجية إلى مركز التفكير في داخله، وأن تحسن تدريبه على استعمال هذه الحواس في جميع المدركات ونقلها إلى مركز الوعي والإدراك، وعلى استعمال القدرات العقلية-ليلاً ونهاراً- وقياماً وعوداً وعلى جنبه للتفكر في خلق النفس وآفاق السموات ومحتويات الكون واكتشاف مكوناتها وقوانين عملها وحسن تسخيرها والتعرف على الحكمة فيها. وهذا نوع من التفكير رفع الله من شأنه وأكرم أهله أيما إكرام:

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ }  
{ 190 } الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ { 191 } { آل عمران: 190-191 }.

فالسَّمع والبصر أدوات تتلقى العلم والمعرفة ثم ترسلها إلى القوى العقلية لتقوم بفهمها ووعيتها، فإذا كانت القوى العقلية معطلة بأغلال الهوى مثقله بآصار التقليد والجمود فإنه لا فائدة مما يرد إليها عبر السَّمع والبصر وهذا ما يشير إليه القرآن عند أمثال قوله تعالى:

{ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ } { 21 } { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ } { 22 } { (الأنفال: 21-22) }

{ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } { (الحج: 46) }.

ويشدد القرآن على مسؤولية الإنسان عن استعمال قدراته العقلية والسمعية والبصرية في التفكير المفضي إلى الإعلان عالياً بأفكار الحق والتسبيح والوقاية من عذاب الجهل في الدنيا وعذاب النار في الآخرة:

{ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } { (الإسراء: 36) }

ويقدم الرسول صلى الله عليه وسلم أمثله لهذه المسؤولية من ذلك قوله:

((إن الله تعالى يحمد على الكيس، ويلوم على العجز، فإذا غلبك الشيء فقل حسبي الله ونعم الوكيل)).

ويقول أيضاً:

((إن الله عز وجل يلوم على العجز، فأئل من نفسك الجهد، فإن غلبت فقل: توكلت على الله، أو حسبي الله ونعم الوكيل))<sup>(1)</sup>.

---

<sup>(1)</sup> أبو داود، السنن، باب الأفضية، ومثله الطبراني في الكبير.

كتر العمال، ج 3، ص 86.

ابن تيمية، الفتاوى، كتاب السلوك، ج 10، ص 31 نقلاً عن سنن أبي داود.

العجز: هو التفريط بما يؤمر فعله،



## 8- تدريب المتعلم على الوعي بتفكير ((الغير)) بدل إسقاط تفكير ((الأنا)) عليه:

والمقصود بتفكير ((الغير)) الطريقة التي يفكر بها الآخرون ويصدرون أحكامهم في الصواب والخطأ، والفضيلة والرذيلة، والخير والشر انطلاقاً من مرجعياتهم العقدية أو تراثهم وقيمهم الاجتماعية.

أما تفكي ((الأنا)) فهو التفكير الذي أمارسه ((أنا)) نفسي وأحكم به وأقرر الصواب من الخطأ، والفضيلة من الرذيلة، والخير من الشر انطلاقاً من القيم التي أو من بها والمرجعيات العقدية والثقافية والاجتماعية التي نشأت عليها وترتبت في مؤسساتها.

وفي الغالب يكون الطرفان مختلفين في أنماط التفكير، ومع ذلك فإن أكثرية الناس يظنون أن الآخرين يفكرون كما يفكرون هم أنفسهم الأمر الذي يجعلهم يحكمون على أعمال الآخرين ومواقفهم طبقاً للمعايير التي تحكم سلوكهم هم أنفسهم، ولذلك يكونون عرضة للوقوع في الأحكام الخاطئة والسياسات الفاشلة، ويفاجأون بما لم يحتسبوا وما لم يتوقعوا، وينتهون إلى اليأس والنقوطة، والخسران المبين.

ولتجنب مثل هذا الفشل ومضاعفته تلجأ الدول الكبرى التي لها علاقات ومصالح خارجية أو أطماع عدوانية إلى إقامة مراكز البحوث والدراسات التي تدرس، فيما تدرسه، تراث الشعوب المستهدفة بغية الوقوف على أنماط تفكيرها والمعايير التي تحكم بها على الأفعال والمواقف خيراً أو شراً ثم تتعامل معها طبقاً لمعرفتها بهذا كله.

والوقوف على أنماط التفكير عند -الغير- أمر هام لأنه يجنبنا كثيراً من مواقف الخلاف معهم، ويسهل التفاهم والتواصل إن كانت أهدافنا حسنة ومقاصدنا خيرة وهذا ما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم حينما أرشدنا إلى مخاطبة الناس على قدر عقولهم.

وفي المقابل فإن الإحاطة بتفكير الغير والوعي به يمكننا من خداعهم واستغفالهم واستدراجهم لفعل ما نريد إن كانت أهدافنا سيئة ومقاصدنا شريرة وهذا ما تمارسه الدول الاستعمارية بوسائل مختلفة منها إقامة مراكز الدراسات المختصة بالأقطار والحضارات وتشجيع الدارسين والمبعوثين من تلك الأقطار على كتابة طروحاتهم العلمية في موضوعات تتعلق بمجتمعاتهم وقيمهم وثقافتهم التي وفدوا منها.

والدول التي تعي هذه اللعبة الاستعمارية التربوية تلجأ إلى النقيض من ذلك ما تفعله الصين التي تتجهد في فهم أمريكا وأوروبا وتحول ما استطاعت دون تمكينهم من الإحاطة بتفكيرها السياسي والاقتصادي والثقافي والاستراتيجي، ولذلك تطلب إلى طلبتها الذين تبعثهم

للدراسة في أمريكا وأوروبا عدم كتابة رسائلهم وطروحاتهم في موضوعات تتعلق ببلدهم، وتشجعهم أن يختاروا موضوعات عن أمريكا وأوروبا نفسيهما.

ويمكن أن نقدم مثلاً آخر لخطورة القصور في فهم تفكير (الغير) وإسقاط تفكيرنا ((الأنا)) من أنماط التفكير العربي التي يتعاملون بها مع الأوروبيين عامة والإسرائيليين خاصة.

عندما بدأت انتفاضة القدس عام 2002م وكان من فصولها اجتياح الجيش الإسرائيلي لمدن جنين ونابلس ومخيمات اللاجئين، كانت الحكومات والشعوب العربية تنسب مسؤولية المجازر التي ارتكبتها الإسرائيليون إلى شخص واحد هو ((شارون)) أو ((حكومة شارون)) وفي هذا الحكم إسقاط لأساليب التفكير ((الأنا)) العربية التي تمنح الفرصة كاملة وتعطي الصلاحيات المطلقة لرئيس الدولة أن ينفرد بكل سياسة أو عمل دون أن يعرف أحد دوافع هذه الممارسات ودون أن يناقشوا صوابها أو خطأها، ودون أن يجدوا بدايتها أو نهايتها.

وهذا -إسقاط- أوقع العرب في الكثير من ردود الفعل الخاطئة لأن شارون جاء إلى الحكم بعد أن قدم برنامجه الدموي الذي أسماه أمن إسرائيل إلى الشعب الإسرائيلي ونجح على أساسه واستمراره في الحكم مرهون بالتزام تطبيقه لذلك فالشعب كله مارس المجازر وهو جميعه مسؤول عن هذه المجازر ومثل إسرائيل قرارات كل من أمريكا وبريطانيا وفرنسا وغيرها من دول العالم الأول.

والجهل بهذه الاختلافات والفروق بين نمطي التفكير جعل وما زال يجعل زعماء العرب يتعاملون مع قيادات هذه الدول بشكل فردي لأهم يحسبون أنهم مثلهم يتصرفون بمصائر أوطانهم ومستقبلها وينفردون في سياستهم دون اطلاع من شعوبهم أو مساءلة ولذلك يركزون في حل مشكلاتهم على محاولة استمالة هؤلاء الزعماء وكسبهم إلى جانب العرب بوسائل ومعايير عربية مثل: إكرام الرئيس الزائر، والمبالغة في الحفاوة به، وتقديم الهدايا له ولمرافقيه، ويقبلون منه ((وعد الشرف)) و ((كلام الرجال))، و ((حيان العين ما دام امتأ الفم))، ظانين أن هذه القيم العربية هي أيضاً قيم أمريكية وبريطانية وفرنسية وربما إسرائيلية، فإذا لم تجد نفعاً هذه الأساليب راح العرب يتألمون ويعللون "الأنا" بقرب سقوط حكومة شارون أو رئاسة (جون) وأن أزمته ستحل بسقوطه ومجيء رئيس يستجيب لأمانتهم ويحقق توقعاتهم.

ولو أن العرب اتبعوا المناهج السليمة في التفكير ودرسوا تفكير ((الغير)) الإسرائيلي أو الأمريكي أو البريطاني لوصلوا إلى النتيجة التي تقرر أن سياسة العدوان والقتل والتوسع الاستراتيجية الإسرائيلية لم تتغير في عهد ابن غوريون، ورايين، وبيرز، وتنتياهو، وباراك،

وشارون، وأن دعم أمريكا وبريطانيا وفرنسا لها دعم ثابت مستمر ولن ينفع في إيقاف أخطارها إلا تفكير جماعي يعبئ كل الطاقات الجماعية، ولاستيقنوا من سنة الله التي تلقي في أسماهم صباح مساء أن اعتصموا بجبل الله جميعاً ولا تفرقوا ولوضعوا خطط المواجهة على اعتبار أنهما مع الشعب الإسرائيلي والمجتمعات الصهيونية أنى كانت وفي أي زمن وجدت.

ومثل القادة كتاب صفحة السياسة في الصحف العربية الذين يعرضون الأحداث ويحللون الوقائع، ويستنتجون النتائج باعتبار ان المتصرف بالأمور ((شارون)) أو ((بوش)) وأن الأمور مرهونة ببقاء أي منهما أو ذهابه.

وكذلك يفعل المشاركون في الندوات والفضائيات وخطباء المساجد والذين يلقون المحاضرات والدروس، وكتابة التاريخ تكتب وكأن التاريخ يصنعه الأفراد ولذلك تراث الأجيال نفس النمط من التفكير وتواجه نفس المصير.

## 2- تركية القدرات الإرادية:

الإرادة هي القوة الثانية للقلب. وتعرف بأنها قوة المشيئة والاختيار، وهي قوة خلقها الله في الإنسان لتحركه نحو إنجاز الأهداف التي تشهدها القدرات العقلية. والإنسان فيه عدد كبير من القدرات أو الدوافع الإرادية تتوازي مع حاجاته المادية والمعنوية مثل: دوافع الشهوات، ودوافع الحب، ودوافع الخوف، ودوافع الغضب، وهي كلها ضرورية ومهمة إذا توجهت نحو أهدافها توجهاً سليماً والذي يستهدفه منهاج التزكية هو تنظيم عمل هذه الدوافع بحيث تتوجه نحو أهدافها التي خلقت من أجلها، كأن تتحرك شهوة الجنس إلى أهدافها في الحفاظ على النوع الإنساني. وحين تتوجه هذه الشهوات نحو أهدافها الصحيحة ولا تنحرف إلى سواها فإنها تسمى -عفه- أما إذا أصابها المرض فإنها إما أن ((تطغى)) وتنحرف عن مسارها الموصل إلى هذه الأهداف وفي هذه الحالة تسمى - فاحشة - وإما أن ((تضعف)) وتعجز عن العمل وفي هذه الحالة تسمى - عجز - وفي الحالتين الأخيرتين يتعرض الإنسان لضعف الجسد أو هلاكه، وللتوقف عن الذرية والعبث بمادتها.

وكذلك - القدرات الغضبية - هي دوافع فطرية هدفها دفع العدوان والأذى عن الجسد البشري والنوع الإنساني وحين تزكى وتلتزم بالهدف الذي خلقت من أجله تسمى - شجاعة - ويكون من نتيجتها دفع ((الضرر)) والحفاظ على الجسد البشري والنوع الإنساني أما حين ((تطغى)) فتسمى عدوان ويكون من نتيجتها قهر الآخرين أو قتلهم والتسلط عليهم،

وأما حين ((تضعف)) فتسمى - وهن - ويكون من نتيحتها الهوان والاستضعاف وفي الحالتين الأخيرتين تكون النتيجة إلحاق الضرر أو الهلاك بالجسد البشري والنوع الإنساني. ومثله -دافع الخوف- الذي خلق لهدف معين هو التحذير من الأخطار التي تهدد الجسد والنوع. وحين يتوجه إلى هدفه الذي خلق من أجله وبالقدر المناسب يسمى - حذر - وإليه كان التوجيه الإلهي ((خذوا حذرکم)) أما حين يصيبه المرض فإنه إما أن يشتط ويجنح إلى الإفراط وفي هذه الحالة يسمى جبن وهلع وإما أن يضعف أو يتوقف وفي هذه الحالة يسمى قهور وكلتا الحالتين تلحقان الضرر بالإنسان ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ((لا يمنع أحدكم مخافة الناس أن يتكلم بحق إذا علمه)) وعلق أبو سعيد الخدري على هذا الحديث بقوله: ((وذاك الذي حملني على أن رحلت إلى معاوية فمألت مسامعه ثم رجعت)) ومثله قوله صلى الله عليه وسلم:

((لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمراً لله عليه فيه مقال لا يقوم به فيلقى الله فيقول: ما منعك أن تقول يوم كذا وكذا؟ قال يا رب: إني خشيت الناس. قال: إياي أحق أن تخشى))<sup>(1)</sup>. وهكذا في جميع الدوافع التي تدرج تحت القدرات الإرادية في الإنسان. ويمكن أن تمثل هذه الأمثلة التي قدمناه بالأشكال التالية:

(1) البيهقي، السنن الكبرى، ج10، ص 90-91.



ويتفرع عن - الجبن - رذائل النفاق والحسد والغيبة والمداهنة، والمراوغة، وغير ذلك. وهكذا في بقية الدوافع الإرادية.

والتزام - القدرات الإرادية - بالأهداف التي خلقت لها واتصافها بصفة العافية يؤدي إلى تحقيق صفة ((الوسطية)) التي تتجسد في التزام -العدل- في القول والعمل والمعاملة مما يفرز في حياة الأفراد والجماعات منهج حياة أشير إليه في القرآن الكريم باسم ((الصراط المستقيم)) أما انحراف هذه الدوافع عن أهدافها واتصافها بحالة المرض، أو الإفراط والتفريط فإنه ينتهي بأصحابها إلى حالي ((الطغيان)) و ((الاستضعاف)) وكلاهما يجسد في الحياة الاجتماعية العصيان لله والخروج على تعاليمه والوقوع في نواحيه ويفرز في حياة الجماعات والأفراد منهج حياة وأنماط سلوك أشير إليه في القرآن الكريم بـ((صراط المغضوب عليهم)) و صراط ((الضالين)).

لذلك أشادت الأصول الإسلامية لميدان التزكية بارتباط قوى الإرادة بأهدافها فالقرآن يشيد بالذين يغضبون ويهبون لدفع العدوان والأذى والظلم إذا تعرضوا له: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ {39} { (الشورى: 39) والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الله ليبغض الرجل يدخل عليه في بيته فلا يقاتل))<sup>(1)</sup>. ومن الطبيعي أن ينسحب هذا البغض الإلهي على الأمة التي تعزى في عقر دارها فتستعمر وتنهب ثرواتها وتستباح حرماؤها وتبقى ذليلة مدعنة للأمر الواقع. كذلك تدرج أصول التربية الإسلامية إتيان الشهوات طبقاً لأهدافها المحدودة لها في قائمة الحسنات الموصلة إلى رضا الله وأجره: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ {6} { (المؤمنون: 6) } ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ {30} { (المعارج: 29-30) وفي الحديث: ((وفي بضع أحدكم صدقة قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون عليه أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيما وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر))<sup>(2)</sup>.

### 3- تزكية القدرات السمعية والبصرية:

السمع والبصر أدوات تتلقى العلم والمعرفة ثم ترسلها إلى القوى العلية لتقوم بفهمها ووعيتها. ولكن الإنسان لا يحسن استعمال هذه الأدوات إلا إذا تزكى من المشتتات وتدريب

(1) كثر العمال، ج3، ص 387.

(2) مسلم، الصحيح، كتاب الزكاة.

على مهارات الاستماع والإبصار وهذه إحدى مسؤوليات منهاج التزكية في التربية الإسلامية وهو ما يوجه إلى قوله تعالى:

{ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } (الإسراء: 36)..

ويتكرر التنديد في القرآن الكريم بالذين لا يحسنون استعمال قدراتهم السمعية والبصرية، لأن العجز عن هاتين المهارتين يقود الكثير إلى الكفر المفضي إلى عذاب جهنم:

{ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا } {100} { الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا } {101} { (الكهف: 100-101)

وفي آية أخرى:

{ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } {179} { (الأعراف: 179).

والسؤال الذي نطرحه هنا: ما هو الغطاء الذي يحجب الكافرين عن حسن الاستماع وحسن الإبصار؟

في علم النفس يتم التعلم طبقاً لخطوات ثلاث: الإحساس، ثم الانتباه، ثم الإدراك والإحساس هو الشعور بالشيء، أما الانتباه فهو تركيز الشعور النفسي الفكري في شيء ما، وأما الإدراك فهو معرفة ذلك الشيء.

ولكن قد تكون معوقات للانتباه تحول دون الانتفاع بالإحساس وتمنع مرحلة الإدراك وهذه المعوقات للانتباه تتمثل في عوامل نفسية انفعالية، وعوامل اجتماعية، وعوامل مادية<sup>(1)</sup>.

ولقد أطنب علماء الزهد في الحضارة الإسلامية في مناقشة العوامل النفسية الانفعالية وناقشوا تحتها موضوعات مثل: الرياء، والعجب، والكبر، والحسد، والغضب، وشهوات المال والجاه والنساء، ومن أشهر من توسع في هذه الموضوعات أبو الحارث المحاسبي<sup>(2)</sup>. وأبو حامد الغزالي<sup>(3)</sup>. وابن قيم الجوزية.

(1) دكتور عبد الحميد محمد الهاشمي؛ أصول علم النفس العام، (جدة: دار الشروق: 1404هـ-1984م) ص 192-225.

(2) دكتور ماجد عرسان الكيلاني، تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، ص 120-125.

(3) المصدر نفسه، ص 155-176.



ويلاحظ على أبحاثهم المشار إليها أنها تركزت حول أثر هذه الانفعالات النفسية في ميدان المظهر الديني للعبادة، وفي حياة الفرد، ولكنهم لم يتوسعوا في مناقشة مظاهرها في شبكة العلاقات الاجتماعية وفي ثقافات الأمم وتطوير أنماط الفقه واتجاهات المعرفة في ميادين المظهر الاجتماعي والمظهر الكوني للعبادة.

أما المشتقات الاجتماعية للانتباه فأبرزها هي: العصبية للذات، أو للأسرة، أو للقبيلة، للقوم، أو للعرق وما تفرزه هذه العصبيات من مضاعفات الكبر والحسد المانعة لتركيز الأسماع الموصل إلى الوعي والإدراك.

وهذه الموانع النفسية - الاجتماعية كانت وراء مواقف كفار قريش الذي نازعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاندوه لأمرين هما: الكبر والحسد. فالكبر منعهم من الاستماع والوعي والانقياد، وأما الحسد فلأنهم كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة والدرجة العالية. وهذان المانعان الكبر والحسد هنا اللذان دفعاً إبليس إلى الخروج من الإيمان والدخول في الكفر، وهذه بلية قديمة ومحنة مستمرة للخلق<sup>(1)</sup>. وإيها كان الإشارة عند قوله تعالى: {يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرُهُ بِعَدَابِ اللَّهِ أَلِيمٍ} {8} (الجاثية: 8) ومن جلها كان قوله صلى الله عليه وسلم "ما ذئبان عاديان وفي رواية ضاريا أصابا غنما أضاعها ربما بأفسد لها من حب المرء المال والشرف لدينه"<sup>(2)</sup>.

فالمشتتات النفسية والاجتماعية والمادية تشكل غطاء تمنع رؤية "الذكر" الذي يذكر بالحق ووقراً يثقل الأسماع بحيث لا يستطيع أسرى هذه المشتتات تركيز البصر والسمع الموصل إلى اليقظة والانتباه والإدراك ولقد ناقش هذه الحالة الفيلسوف الإسباني الشهير جوسيه أوريتجا جاسيه حيث كتب يقول:

((إياك أن تسقط في السطحية التي أوقفت مسيرة الفكر خلال الأعوام الثمانين التي مضت. فلا تفسر ما قيل عن النسبية بأن الحقيقة هي نسبة وأنها صائبة عند شخص معين وخطأ عند شخص آخر. فالصواب أن الحقيقة موجودة ومطلقة ولكن شخصاً واحداً أو اثنين أو فترة معينة، استطاع شهود هذه الحقيقة فالنسبية هي في تفكير الإنسان وليست في الحقائق وتفكير الإنسان هو الذي يرى الحقيقة صائبة في يوم ثم يراها خاطئة في يوم آخر. فالحقيقة لا

(1) الرازي، التفسير، ج21، ص2.

(2) الطراني، المعجم الكبير، ج17، ص174، ص459.

تتغير وإنما الإنسان هو الذي يتغير، فهو تارة يرى سلسلة من الحقائق وتارة يعمي عنها كلها أو عن بعضها فالاختلاف إذن - في شخص الإنسان - لا في الحقيقة والإنسان يتنوع بين الرسل والمفكرين وبين الإنسان المتوحش والمتخلف الذي لا يكاد يرى شيئاً من الحقائق<sup>(1)</sup>.

ويضرب -أورتيجا- مثلاً لما قدمه بـ (( قانون الجاذبية)) الذي كان موجوداً دائماً وصحيحاً. ومع ذلك فقد ظل مجهولاً آلاف السنين حتى استطاع رؤيته رجل من الجزر البريطانية في يوم مشمس من أيام القرن السابع عشر هو نيوتن ومع اكتشافه فما زال ملايين الناس يعيشون بعد نيوتن في الوقت الذي ينسون هذا القانون ولا يرونه حتى الوقت الحاضر. وهذه المهشاشة السمعية والبصرية تعطي الحقائق حالة مزدوجة: فهي من ناحية تجعلها دائمة الوجود في الكون، ولكنها من ناحية أخرى تحضر في الذهن البشري وتغيب عنه طبقاً لدرجة حضور أسماعهم وأبصارهم وأجهزة الوعي والإدراك فيهم<sup>(2)</sup>. وفي السنوات الأخيرة توصل علماء تشريح الدماغ إلى اكتشاف بعض آيات الله المتعلقة بقدرات السمع والبصر وأثرها في إدراك الحقائق أو الغياب عنها. من ذلك ما ذكره البروفسور ريتشارد م. رستاك الذي قال إن العمل يبدأ بـ ((اليقظة)) وأنه بدون اليقظة لا يمكن ممارسة العمل. لذلك لا يكون هناك عمل في حالة النوم سوى الأحلام واليقظة مكانها في قاعدة الدماغ التكويني الشبكي Reticular Formation وهذه مصممة لتنتشر الإثارة خلال الدماغ كله، وخلاياه مترابطة بعمليات قصيرة، وقد تم اكتشاف عمل التكويني الشبكي من خلال التجارب التي أجريت على الحيوانات ثم تبعها الملاحظات التي توصل اليها العلماء إليها من خلال الإصابات الإنسانية لقاعدة الدماغ، كالحوادث ونقط الدم المتخثرة المعروفة باسم "الجلطة" وجميعها تؤدي إلى غيبوبة لا تتوقف إلا بإزالة المؤثر عن قاعدة الدماغ.

وخلاصة عمل -التكويني الشبكي- أنها تهيئ الإنسان وتبعث اليقظة فيه أما العوامل المؤثرة فيها فتنتقل إليها من خلايا الدماغ المتعلقة بوظيفتي البصر والسمع التي تتأثر بما تنقله إليها كل من العين والأذان.

(1) Jose Ortega Gasset, what is Philosophy (New York: Norton Co Inc: 1960) PP 25-26.

(2) Ibid, PP 20-21.

ثم تبدأ الوظيفة الثانية المسماة - تنظيم المعلومات - وهذه لا تنحصر في جزء من الدماغ وإنما يشترك فيها أكثر من جانب. فالجانب الأيمن يقوم بالتحريد، والجانب الأيسر يقوم بالكلام، وجميع خلايا هذه المواقع من الدماغ تنقل تأثيراتها إلى جزء الدماغ المسمى **Mator Corted** الذي يحتوي على خلايا عصبية ضخمة تمتد عبر العصب الشوكي في الظهر وتنتشر في جميع عضلات الجسم لتبدأ العملية الثالثة وهي (( العمل المراد ))<sup>(1)</sup>.

وفي ضوء هذا التشخيص العلمي - التحريبي لأثر السمع والبصر في عملية اليقظة والإدراك لا بد من نظافة ما تراه العين وما تسمعه الأذن حتى تحدث - اليقظة - وتكون موضوع التفكير - وهنا تبدو حكمة تزكية البيئة من المرئيات والمسموعات الفاحشة أو الشريرة أو الضارة التي يشدد عليها منهاج التزكية إذ إن اكتظاظ البيئة بهذه المسموعات والمرئيات يؤول إلى إفراز عناصر بشرية ينطبق عليها وصف القرآن القائل: { صُمُّكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرَجِعُونَ } {18} (البقرة: 18) أي هم صم لا يستفيدون مما يسمعون، وهم بكم فاقدون للقدرة على البيان والتعبير، وهذه نتيجة لأزمة للمرض الأول، فمن لا يعي ما يسمع لا يحسن التعبير عنه، وهم عمي لأنهم مشتتو البصر لا يستفيدون مما يبصرون ولذلك كله لا يرجعون عن ضلالهم وفسادهم، وييقون جامدين على موروثاتهم الأبائية التي اختزنوها في قيمهم ومشاعرهم وتصوراتهم فلا يستطيعون لها مراجعة ولا تقويماً حتى تنتهي بهم إلى الدمار العظيم وهذا معنى قوله تعالى: { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } (البقرة: 7).

#### 4- تزكية الجسم:

تتكامل ممارسات الجسم الخارجية مع القدرات العقلية والقدرات الإرادية وإلى هذا التكامل يشير قوله تعالى: { كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } {14} (المطففين: 14) باعتبار إن للقلب قدرتين: قدرة العقل، وقدرة الإرادة.

وتشير أصول التربية الإسلامية إلى أن الإنسان يولد مزوداً بدافع شهوة الطعام والشراب التي تتطور لتتبلور في شهوة التملك وشهوة الخلود. وحين يصل الإنسان مرحلة البلوغ تنمو في شهوة ثالثة هي شهوة النكاح والحكمة من الشهوة الأولى هي الحفاظ على الجسد البشري ولذلك تبدأ بالولادة أما الثانية فهدفها المحافظة على النوع البشري ولذلك تبدأ حين يتهيأ

(1) Richard M. Restak the Brain: the Last Frontier, (New York: Warner Books the 1979) P35.

الإنسان لمسؤولية الحفاظ المذكور وتعرض هذه الشهوات إلى حالات ثلاث: حالة الطغيان أو الإفراط، وحالة الضعف أو التفريط، وحالة الوسطية أو الاعتدال والاتصاف بالحالتين الأولى والثانية يعرض الجسد للأخطار والنوع البشري للانقطاع أما الحالة الثانية فهي التي تحقق المحافظة على الجسد وبقاء النوع.

وتدل المكتشفات علم النفس الإنساني ودراسة بيولوجيا الحيوان على أن الحيوان تأكل من الطعام الأنواع التي لا تضرها، وبالقدر الذي يسد حاجات الجوع لديها، وفي الوقت الذي تشعر بالحاجة إلى الطعام. وهي كذلك تتحرك للنكاح في أوقات محددة تتوازى مع الحاجة لبقاء النوع بالقدر الذي يمكنها من أداء وظيفتها في البيئة الطبيعية. أما الإنسان الذي ابتلاه الله بحرية الاختيار والتفكير فإن سلوكه مرتبط بتوازن أداتي الاختيار والتفكير: أي الإرادة والعقل. ولذلك حين يصيب الاضطراب هاتين الأداتين فإن الإنسان يأكل أكثر من الكمية التي يحتاجها وفي أوقات لا يحس بالجوع وقد يأكل ويشرب ما يضره، وينكح لا لبقاء النوع واستمراره الذرية، وبوسائل وأشكال تتسبب في تدمير النوع وعقم منابعه؛ أي أنه قد يتزل عن مستوى السلوك الحيواني وينطبق عليه الوصف الإلهي القائل: {أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ} (الأعراف: 179).

لذلك أحتاج الجسم الإنساني إلى تنظيم حاجاته وتركيتها بغية تحقيق هدفين اثنين: الأول؛ إباحة كل ما أحله الله للإنسان، والذي أحله الله هو الطيب النافع الذي يتفق مع قوانين الخلق ويوفر النمو والعافية للجسم وللنوع البشري الاستمرار ويمكن الإنسان من القيام بوظائفه التي خلق من أجلها. والثاني منع كل ما حرمه الله على الإنسان والذي حرمه الله هو الخبيث الضار الذي يصطدم بقوانين الخلق ويهدد نمو الجسم وعافيته ويتسبب بالأخطار التي تهدد بقاء النوع البشري، ويقعد الإنسان عن القيام بمسؤولياته.

{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ} (المائدة: 4)

{وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ} (الأعراف: 157)

والقاعدة الإسلامية في هذا المجال هي التزود للرحلة الإنسانية خلال مراحل النشأة والحياة والمصير دون إضرار بالنفس أو الآخرين. وإلى هذا يشير الرسول صلى الله عليه وسلم: ((خيركم من لم يترك آخرته لديناه، ولا دنياه لآخرته، ولم يكن كلا على الناس))<sup>(1)</sup>.

(1) المتقي الهندي، كثر العمال، ج3، ص 238 نقلاً عن الحاكم في المستدرک.

والتوجيهات النبوية في ميدان تزكية الجسم راعت ظروف الفاقة والمشقة والمرض والأزمات التي تستوجب الرخصة في هذه التوجيهات من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (( من لم يقبل رخصة الله عز وجل كان عليه من الذنوب مثل جبل عرفه)). وقال أيضاً:

(( إن الله يحب أن تؤتى رخصة كما يكره أن تؤتى معصيته)).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر فتره عنه ناس من الناس. فبلغ ذلك النبي فغضب حتى بأن الغضب في وجهه ثم قال: "ما بال أقوام يرغبون عما رخص لي فيه؟ فوالله لأنا أعلمهم بالله عز وجل وأشدهم له خشية"<sup>(1)</sup>.

كذلك راعت التوجيهات النبوية حاجة الجسم إلى اللهو والترويح البريئين لإعطاء الجسم قسطاً من الاسترخاء والراحة وعدم قضاء الوقت كله في الصرامة والتوتر. من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (( كل شيء ليس من ذكر الله هو ولعب، إلا أن يكون أربعة: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه، ومشى الرجل بين الفرضين، وتعليم الرجل السباحة ))<sup>(2)</sup>.

وقوله: (( اللهو في ثلاث: تأديب، فرسك، ورميك القوس، وملاعبتك أهلك)).

وقوله أيضاً: (( الهوا والعبوا فإني أكره أن يرى في دينكم غلظة ))<sup>(3)</sup>.

والمقياس في براءة الله هو أن لا يتعدى اللهو سرور اللاهي ليلحق الأذى أو الضرر بنفسه أو بالآخرين من الناس ومن المخلوقات الأخرى. ولذلك منع الله التنابز بالألقاب والسخرية اللذين يسران فريقاً ويتسببان بالأذى لفريق آخر. كذلك راعت التوجيهات القرآنية والتطبيقات النبوية حاجات الذوق الجمالي عند إنسان التربية الإسلامية شريطة أن يوجهها المبدأ الأخلاقي. من ذلك قوله تعالى:

{ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } {31} قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } {32} { (الأعراف: 31-32).

(1) مسند أحمد (تصنيف الساعاتي) ج19، ص17.

(2) المتقي الهندي، نفس المصدر، والجزء، ص211-212.

(3) المتقي الهندي، كثر العمال، ج3، ص238 نقلاً عن الحاكم في المستدرک

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (( لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. فقال رجل: إن الرجل يحب أن ثوبه حسناً ونعله حسناً، قل: إن الله جميل يحب الجمال الكبير بطر الحق وغمط الناس))<sup>(1)</sup>. أي احتقارهم وازداد رؤؤهم. وفي رواية أخرى.

عن سواد بن عمرو الأنصاري قال: قلت يا رسول الله إني رجل حبيب إلي الجمال وأعطيته منه ما ترى، فما أحب أحداً أن يفوقني في شسع نعلي أو قال شراك نعلي أفمن الكبير ذاك؟ قال: ((لا)) قلت: ما الكفر يا رسول الله؟ قال: ((من سفه الحق وغمط الناس))<sup>(2)</sup>. أي انتقص الحق واحتقر الناس.

ويدخل في هذه التوجيهات الجمالية التنفير من القذارة والريثاء وشعث الهيئة واللباس والأثاث واصطناع الزهد والخشوع في الأشكال دون الأحوال من ذلك قول عمر بن الخطاب حين نظر إلى شاب قد نكس رأسه: يا هذا، ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب:

ولقد علق القرطبي على هذه الحادثة بقوله: ( فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في بطنه فإنما أظهر نفاقاً على نفاق). ثم دعم تعليقه هذا بقول إبراهيم النخعي: ( ليس الخشوع بأكل الخشن وليس الخشن وتطأطؤ الرأس، لكن الخشوع أن ترى الشريف والديء في الحق سواء وتخشع لله في كل فرض افترض عليك)<sup>(3)</sup>.

واعتماد هذه المبادئ التربوية كلها يوجه إلى الموقف الذي يجب أن يتخذه منهاج التربية الإسلامية من برامج الرياضة المعاصرة مثل مصارعة الثيران أو المصارعة البشريو وعيرهما من أشكال الرياضة المؤذية العنيفة التي لا هدف إنساني وراءها والموقف الذي يجب اتخاذه من أشكال الفن والأرياء ووسائل الترفيه ويوجب على المتخصصين في جميع هذه الميادين أن يملؤوا الفراغ القائم في المجتمعات الإسلامية بألوان الرياضة الإسلامية والفنون الإسلامية وأشكال الترفيه الإسلامي التي يجب أن يتوازن فيها المبدأ الأخلاقي مع الذوق الجمالي حتى لا تبقى هذه

(1) مسلم (المنذري) مختصر صحيح مسلم، ج1، ص 20.

(2) الطبراني، المعجم الكبير، ج7، ص 113، رقم 6477.

(3) القرطبي، التفسير (البقرة: 46) ج1، ص 255.

المجتمعات في معاناة خطيرة مدمرة في ميزان المدفوعات التربوية والفكرية والفنية والرياضية وغيرها<sup>(1)</sup>.

---

<sup>(1)</sup> للإطلاع على تفاصيل توازن المبدأ الأخلاقي مع الذوق الجمالي راجع كتاب اتجاهات معاصرة في التربية الأخلاقية، للمؤلف.



## ب- تزكية البيئة العامة

تزكية البيئة العامة هي الميدان الثاني من ميادين \_ ميدان التزكية \_ والمقصود بالبيئة العامة معناها الشامل: أي البيئة الطبيعية وما يجري فيها من نشاطات إنسانية تحتوي على مجموعة الاعتقادات والأعراف والتقاليد والعادات والنظم والسياسات، وشبكة العلاقات الاجتماعية والمؤسسات التي تفرزها حضارة ما وترعاها عبر الزمان والمكان.

وأهمية هذه التزكية تتمثل في الأسباب التالية:

**السبب الأول:** أثر البيئة العامة في صلاح سلوك الأفراد أو فساده. ذلك أن السلوك هو ثمرة التفاعل بين الإنسان والبيئة العامة المحيطة في لحظة معينة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (( ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ))<sup>(1)</sup>. والحديث ركز على الأبوين لأن اتجاهات السلوك ومساراته المستقبلية غالباً ما تتشكل في مرحلة الطفولة عندما يكون تأثير البيئة الأسرية أقوى المؤثرات الموجودة في البيئة المحيطة.

**والسبب الثاني:** هو ضعف النفس الإنسانية بشكل عام أمام مؤثرات البيئة المحيطة، لأن النفس فيها ميل للراحة والتناقل عن مواجهة المشكلات والتردد إزاء التحديات وهي طبيعة إلى درجة تمكن مؤثرات البيئة والتربية السلبية أن تطمسها وتضعف عوامل الفطرة الخيرة فيها حتى تحويلها إلى خلية سرطانية تشيع الفساد وتنشر الفتنة<sup>(2)</sup>. وإلى هذا الضعف يشير قوله تعالى: { وَخَلِقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا } (النساء: 28) وقوله كذلك: { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } {72} (الأحزاب: 72).

**والسبب الثالث:** أن الإنسان يتوجه إلى البيئة المحيطة لإشباع سلم حاجاته المختلفة. فهو يتوجه إلى البيئة الطبيعية للحصول على حاجاته الأساسية في الغذاء والكساء والمأوى، ويتوجه إلى البيئة الاجتماعية للحصول على حاجاته في الأمن والانتماء والحب والاحترام، ويتوجه إلى البيئة الدينية للحصول على إجابات أسئلته المتعلقة بالنشأة والحياة والمصير، ويتوجه إلى البيئة الثقافية لتحقيق حاجاته في الإنجاز والإبداع المؤدية إلى تحقيق الذات. وهكذا في سلم الحاجات

(1) البخاري، الصحيح، كتاب الجنائز، وكتاب التفسير.

مسلم، الصحيح، كتاب القدر.

(2) Abraham H. Maslow, Motivation and Personality, PP 6ii-d6iii.

الكامنة في خلق الإنسان وتكوينه لذلك لا تكون تزكية الفرد فاعلة إلا إذا تكاملت مع تزكية البيئة العامة. أما تفاصيل هذه التزكية فهي كما يلي:

### 1- تزكية البيئة الدينية:

المحور الرئيس في تزكية البيئة الدينية هو تنمية "التوحيد" وتطبيقاته في ميادين الحياة المختلفة ثم تطهيرها من مظاهر "الصنمية" التي انحدرت من الجيل السابق أو الأجيال السالفة. وإلى هذه التزكية يشير قوله تعالى: { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ } (فصلت: 6-7) ولقد ذكر ابن تيمية أن الزكاة المقصودة هنا هي تزكية العقل والإرادة من التوجه لغير الله في الاعتقاد والطاعة، وأن هذه هي حقيقة لا إله إلا الله<sup>(1)</sup>.

والتوحيد في حقيقته يعني توحيد الله بالخضوع والولاء. ويتجسد الخضوع -في التطبيقات العملية- من خلال تربية الناشئة وتشكيل تقاليد اليافعة ونظم حياتها وفنونها ونشاطاتها وشبكة العلاقات الاجتماعية فيما على عدم الإذعان والانقياد لغير الله. فكل إنسان -عدا الله- يسمع من قوله ويرد، وتناقش أوامره فتقبل وترفض، وتنتقد أفعاله فيعترف بالصائب وينكر الخاطئ أي أن التوحيد هو القطب الإيجابي المقابل لثقافات التبعية السلبية العمياء التي تفرزها العصبية المختلفة وتعمل من خلالها لترويض اتباعها على الصمت والطاعة المطلقة، وتوفير التصرف المطلق المتحرر من المسائلة والمحاسبة لشيوعها وكهاتها وملوكها ورؤسائها. وأما الولاء فيجسده محبة الله وحمده دون سواه، وقيام دوائر الانتماء الإنساني طبقاً للروابط التي حددها، وتفضيل هذه الروابط على روابط العصبية المختلفة.

أما - الصنمية - فأساسها ثلاثة أصول: الأول، (( دع )) الأقوياء للضعفاء: أي سلبهم حرياتهم وقهرهم والتسلط عليهم. والثاني سلبهم ممتلكاتهم والاستئثار بمصادر العيش دونهم والثالث، تشكيل عقولهم وإراداتهم ليصبح الدع والسلب المشار إليهما جزءاً من معتقداتهم وقيمهم ونظم حياتهم. وإلى الأصلين الأول والثاني يشير قوله تعالى: { أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ {1} فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ {2} وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ {3} } (الماعون: 1-3) ولقد عرف عبد الله بن عباس "اليتيم" في رسالة أجاب بها عن أسئلة وجهت إليه فقالت: ((... وكتبت تسألني متى ينقضي يتم اليتيم؟ لعمرى إن الرجل تبنت لحيته، وإنه لضعيف الأخذ لنفسه، ضعيف العطاء منها، فإذا أخذ لنفسه من صالح ما يأخذ الناس فقد ذهب عنه اليتيم)). وعلق النووي على ذلك بقوله: (( إن حكم اليتيم لا ينقضي بمجرد البلوغ ولا

(1) ابن تيمية، الفتاوى، كتاب السلوك، ج10، ص 97.

بعلو السن))<sup>(1)</sup>. وبذلك تكون الجماهير المستضعفة أيتاماً. فمن سلبهم حرياتهم وتسلب عليهم واستولى على مقدراتهم فهو مكذب بالدين. أما الأصل الثالث فيشير إليه قوله تعالى: { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ } ولقد فسر ابن عباس هذه الآية بقوله: (( المراد بالأنداد الرؤساء المتبعون يطيعونهم في معاصي الله ))<sup>(2)</sup>. فإذا رضيت الجماهير بالاستلاب المشار إليه في الأصلين الأول والثاني وآمنت بشرعيته ودانت بالولاء له وقدمت الجنود الذين يحمونه فقد اقترفت أيضاً التكذيب بالدين.

وبذلك تكون \_ الصنمية \_ هي تخلي الأفراد والجماعات عن حرياتهم في التفكير والتعبير والاختيار، وعن ممتلكاتهم التي رزقهم الله إياهم من أجل مخلوق آخر ثم التوسل إليه ليرد بعضاً منها إليهم.

ويطلق القرآن على الأقوياء الذي يغتصبون الحريات والممتلكات اسم "الطغاة" وذلك عند أمثال قوله تعالى: { أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } (طه: 43) { فَأَمَّا مَن طَغَى } {37} و{ وَآثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } {38} فَإِنَّ الْحَجِيمَ هِيَ الْمَأْوَى } {39} (النازعات: 37-39) ويتكرر مصطلح الطغيان ومشتقاته في (39) موضع في القرآن.

ويطلق القرآن على الضعفاء الذين يذعنون لهذا الاغتصاب اسم (( المستضعفين )) وذلك عند أمثال قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ } (النساء: 97) وقوله: { وَكَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ } (سبأ: 31) وواضح من الآيتين أن القرآن يصم كلاً من الطغاة والمستضعفين بالظلم، لأن الطغاة يظلمون غيرهم، والمستضعفين يظلمون أنفسهم.

ولتصبح علاقة - الطغيان والاستضعاف - علاقة مبررة نفسياً واجتماعياً، تفرز الثقافات والقيم التي تقوم على هذه العلاقة رموزاً وشعارات وقوانين (( يكفر )) - أي يخفي - الطغاة من خلالها سلطاتهم (( ويكفر )) المستضعفون بواسطتها استضعافهم كذلك تنصب هذه الثقافات (( سدنة يكفرون )) علاقة الصنمية بالشرعية والتقديس ليستمتع بها الطغاة وليستمرئها المستضعفون ولتحترمها الناشئة، ولتحافظ عليها الأجيال.

(1) مسلم، الصحيح (شرح النووي) باب النساء الغازيات، ج12، ص 191.

(2) القرطبي، التفسير (البقرة: 165) ج2، ص 137.

ويطلق القرآن الكريم على الطغاة الذين يجري التنازل لهم عن الحريات والممتلكات اسم -الآلهة- وعلى الرموز والشعارات التي يجسد الآلهة الطغاة من خلالها ألوهيتهم وسلطانهم اسم -الأصنام- وعلى السدنة الذين يسبغون الشرعية والتقديس على علاقة الصنمية اسم - السحرة - وعلى الأكثرية المستضعفة التي تستمرى الاستضعاف أسم (( المشركين )).

واستحكام علاقة الصنمية له مضاعفات مدمرة: فهي تفسد فطرة الإنسان وتنتقص إنسانيته وتؤدي إلى سقوطه من منزلته بين المخلوقات، وتفسد أخلاقه وعقله وذوقه. وقد تتصاعد مضاعفات الصنمية والشرك فتتحول إلى نوع من مرض السادية حيث يتلذذ الطغاة بانتهاك إنسانية المستضعفين، ويستمرى المستضعفون اغتصاب حرياتهم وسلب ممتلكاتهم وتدمير إنسانيتهم ويحيلون هذا الاستمراء إلى آداب من المدح والنحيب، وأغاني الإطراء والشكوى، وفنون الحزن والمآسي، ويسجن بعضهم بعضاً، ويتجسس بعضهم على بعض في الوقت الذي يستمرون في التلوي تحت مظالم الآلهة الأنداد، والتوسل إليهم لتلبية الحد الأدنى من حاجاتهم الجسدية وممارسة الصبر اللامتناهي على الانتهاكات التي تنزل بهم. وبسبب هذا المصير المأساوي كانت الحملة الشديدة في القرآن على الصنمية ومضاعفاتها، من ذلك قوله تعالى: { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } (الحج: 31) وقوله: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا } (النساء: 48) وبسببه أيضاً كان دعاء إبراهيم عليه السلام:

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ }

{35} { (إبراهيم: 35) ومن هنا -أيضاً- كانت السخرية الإلهية من المستضعفين الصنميين الذين يتخلون عن حرياتهم وممتلكاتهم للآلهة الأنداد طمعاً في نصرتهم ونوالهم مع أنهم هم جندهم الذين يجرسونهم، وبقوتهم يعزون ويدلون، ويحيون ويميتون، ويصنعون وينجزون، ثم يدعون ذلك لأنفسهم: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ} {74} لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ } {75} { (يس: 74-75).

ولقد ناقش عالم النفس الشهير -إيرك فروم- خطورة هذه الصنمية التي أطلق عليها

اسم الاغتراب \_ Alienation \_ فذكر أن الاغتراب هو اغتراب الإنسان عن نفسه وإنسانيته بحيث تصبح أفعاله التي يقوم بها هي سيدة الذي يطيعه أو ربما يعبده... وذكر أن الاغتراب بهذا المعنى ورد على لسان أنبياء التوحيد الذين لم يقتصروا على شجب عبادة الأصنام وتعدد الآلهة فحسب، وإنما شجبوا اغتراب النفس حيث يصرف الإنسان طاقاته الفنية في نحت

صنم ثم يرتد ليعبد ما عملت يدها. وأضاف أن هذه ظاهرة المحكومين ودعمهم وقوتهم ثم يتحول إلى صنم يأمل المحكمون الذين منحوه القوة والدعم أن يعيد لهم بعض ما منحوه من خلال الخضوع له والتسبيح بحمده<sup>(1)</sup>.

ولقد تطور الأصنام - أو الرموز الشعارات المجسدة لعلاقات الصنمية- بتطور الوعي البشري ومظاهر الحياة الإنسانية. ففي طور ما كانت الأصنام ظواهر طبيعية وجمادات كالشمس والقمر والكواكب والأقمار والحجارة والنصب المنحوتة لعلاقتها بالزراعة والمناخ ومواسم السنة والبناء. وفي طور آخر كانت الأصنام حيوانات وطيوراً وزواحف، وفي طور ثالث كانت الأصنام بشراً متوفين كالقيصرة والفراعنة والأباطرة والأكاسرة والأبطال العسكريين والرياضيين وأجداد القبيلة، والرجال الصالحين والنساء الجميلات. وجميع هذه الأشكال هي التي جاهد صدها الرسل والأنبياء من قبل وحين جاء رسول الإسلام قام بدورين اثنين: الأول إبطال فاعلية الأصنام القائمة المنحدرة من الماضي. والثاني: التحذير من أشكال الأصنام المستقبلية. وأولها ما أطلق عليه القرآن اسم -الأنداد- وذلك عند أمثال قوله تعالى: { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } (البقرة: 22) ولقد فسر عبد الله بن مسعود هذه الآية بقوله: (( أي لا تجعلوا لله أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله ))<sup>(2)</sup>. وفسر قوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أُنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا }، أن الأنداد في هذا الموضع هم سادتهم الذين يطيعونهم في معصية الله، ويطيعونهم كما يطيعون الله، إذا أمرهم أطاعوهم دون مناقشة أو استفسار<sup>(3)</sup>. وفسر قوله تعالى { إِذِ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } { 166 } أن المعنى هنا: تبرأ القادة من الأتباع<sup>(4)</sup>.

<sup>(1)</sup> Erich Fromm, th sane society, PP 112-113

<sup>(2)</sup> الشوكاني، التفسير(البقرة: 22) ج1، ص 50.

<sup>(3)</sup> الطبري، التفسير (البقرة: 165) ج2، ص 66.

<sup>(4)</sup> الطبري، التفسير (البقرة: 165) ج2، ص 70.

وفي الحديث أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ما شاء الله وشئت! فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم: (( جعلتني لله ندا؟ ما شاء الله وحده ))<sup>(1)</sup>.

**وثاني الأصنام ما أطلق عليه القرآن اسم -الأرباب-** أي الذين يربون الناشئة ويوجهون اليافعة إلى معتقدات وممارسات مخالفة للأصول والمبادئ التي يوجه إليها الوحي الإلهي. وإلى هذا النوع من الصنمية يشير أمثال قوله تعالى: { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ } (التوبة: 31) وعن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فسمعتة يقول: (( اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله! )) قال: قلت: يا رسول الله إنهم لم يكونوا يعبدونهم. قال: (( أجل، ولكن يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه، ويحرمونه عليهم ما أحل الله فيحرمونه فتلك عبادتهم لهم ))<sup>(2)</sup>.

**ومن الأصنام التي حذر منها الرسول صلى الله عليه وسلم المال والجاه وزينة الأثاث واللباس والانغماس بثقافة الإنتاج والاستهلاك.** من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (( لعن عبد الدينار، لعن عبد الدرهم ))<sup>(3)</sup>. وقوله: (( تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطي منهما رضي، وإن منع سخط ))<sup>(4)</sup>.

وقياساً على ما تقدم يمكن القول أن رموز الأصنام والصنمة تتجسد في الوقت الحاضر في القيادات الدكتاورية والأنظمة المطلقة، والأعلام الوطنية، وشعارات الصالح العام، والشرعة الدولية، وغيرها من الشعارات والمؤسسات التي تبرر من خلالها (( الأقليات الحاكمة المتسلطة )) (( تدجين )) (( الأكثريات )) العالمية وسوقها في جيوش ضخمة تتقابل وتموت في حروب طاحنة من أجل الهيمنة السياسية والاحتكارات الاقتصادية، وحشد هذه الأكثريات في أيام السلم في المصانع ودوائر العمل خدمة لمصالح الأقليات المتسلطة المشار إليها.

**ولما كان الأصل في الصنم أنه رمز الهوى الذي يتعصب له صاحبه ويعصب سماعه وبصره وعقله عن شهود النقص والضلال فيه**<sup>(5)</sup>، فقد وضع الله سبحانه وتعالى - الهوى - في

(1) البخاري، الأدب المفرد. والنسائي في السنن، وأحمد في المسند.

(2) البيهقي، السنن الكبرى، ج10، ص116.

(3) الترمذي، السنن. والسيوطي، الجامع الصغير، ج2، ص409، رقم7284.

(4) البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد، وكتاب الرقاق.

(5) الطبري، التفسير، ج2، ص119.

رأس قائمة الآلهة التي تنصبها الصنميات وندد الابتاع الهوى في ثلاثين موضع من القرآن. ومن ذلك قوله تعالى: { أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ } (الجاثية: 23) وفي الحديث: (( ما تحت ظل سماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع ))<sup>(1)</sup>.

كذلك أصاب التطور - السحر والسحرة - الذين يصوغون علاقات الصنمية ويسوقون عبادة الأصنام. ففي طور معين كان السحرة كهنة يدعون الاتصال بعالم الآلهة وبياركون الطغاة ويعظمونهم ويبررون سياستهم ويخرون مواكبهم وأحفاهم. وفي طور آخر صار السحرة مخترقين يدعون القدرة على إتيان المعجزات ويسحرون عيون الناس بسحرهم الحسي ويدجنونهم لخدمة الفراعنة المتأهلين المتعاليين. وفي طور ثالث صار السحرة قسماً وأساقفة رسميين يسبغون البركات على القياصرة والأباطرة والإقطاعيين ويمنحون صكوك الغفران لمن وإلى سياستهم ونفذ أوامره وفي طور رابع صار السحرة شعراء وخطباء يسحرون الناس بسحر البيان وبلاغة الكلمة ومدح الآلهة الأنداد والأرباب وتمجيدهم وهجاء خصومهم وفي طور خامس صار السحرة فقهاء سلطة يسحرون العقول والإرادات بفتاويهم التي تحل سياسات الظالمين وتحرم مقاومتهم على المظلومين المستضعفين وفي العصر الحاضر صار السحرة جمعيات وروابط من رجال القانون وعلماء النفس والاجتماع ومستشاري السياسة وخبراء التاريخ والتربية ورجال الإعلام والفن والثقافة الذين يتظافرون لاستثمار قوانين العلم لإمضاء علاقات الصنمية وتطبيقاتها في الطغيان والاستضعاف والعدوان ويسوقون هذه العلاقة ويسبغون الصفة العلمية على سياسات رجال القوة والنفوذ، ويحملون ممارساتهم وينسبون الصواب المطلق إلى إداراتهم.

والعصبيات هي المحاضن التي تولد الصنميات فيها وتنمو وتشتد، لأن (( المثل الأعلى الذي توجه إليه العصبيات يقوم على أمرى: هيمنة (( أقلية طاغية )) تحتكر صناعة القرار المتعلق بالحياة والمستقبل والمصير، وتستولي على موارد العيش والحياة. والثاني، وجود (( أكثرية مستضعفة )) تتخلى عن حرياتهما وممتلكاتهما، ثم تتحول إلى قطعان مدججة، تؤمر فتطيع، وتظلم فتصمت، وتضغط عليها "دوافع الحاجة" الجسدية فتتوسل إلى الأقلية المتسلطة لترد إليها بعضاً مما تنازلت لها عنه.

(1) المتقي الهندي، كثر العمال، ج3، ص 547، ص 547 نقلاً عن الطبراني.



ولقد أصاب التطور أشكال العصبيات المولدة للصنمية وحاضنتها. ففي طور ما كانت العصبيات أسرية، وفي طور ثاني صارت العصبيات قبلية، وفي طور ثالث صارت إقليمية، وفي طور رابع صارت عصبية عرقية أو قارية وهكذا كذلك تنوعت العصبيات بتنوع الميراث الثقافي. فهي عند الرومان وأحفادهم الغربيين المعاصرين تتجسد في (( عصبية الرجل الأبيض )) الذي يجبر الأعراق الأخرى للتنازل عن حرياتهما وممتلكاتهما ثم تتوسل إلى عواصم الغرب لتستعيد جزءاً مما تنازلت عنه تحت اسم (( المعونات )) و (( المساعدات )) وهي تتجسد عند الهنود بالعصبية الطبقية، وعند العرب والأفارقة ونظائرهم بالعصبية القبلية وتوائمها من العصبيات الطائفية والمذهبية والحزبية.

وفي العادة تتغلب العصبيات الأكثر اتساعاً على العصبيات الأضيق ولاءً، ولكن كلما كانت دائرة العصبية أكثر اتساعاً كانت آثارها في الطغيان والاستضعاف وإشاعة الصنمية أكبر حجماً وأكثر خطورة.

## 2- تزكية البيئة المعرفية:

الإنسان مخلوق يعيش ويناضل من أجل اكتشاف معانٍ جديدة، ولذلك يكون المحور الرئيس في تزكية البيئة المعرفية هو تنمية الحرية الفكرية التي تمكن الإنسان من المرابطة عند أطراف الكون المشهود والاجتماع القائم للاجتهد والتعرف على مجاهيل الكون المغيب والاجتماع المتجدد. ولكن المأساة هي أن الإنسان لا يشعر أن من حقه توليد المعاني الجديدة بعيداً عن موافقة قطع البشر، مع أن هذه المعاني لا تتولد إلا من الأعماق المبدعة في داخل الفرد. وفي العادة يقف المجتمع من الفرد موقفين متناقضين الأول، الطلب إلى الفرد إنتاج مفاهيم جديدة تبلور معنى الحق والصواب والخير والجمال لمواجهة التحديات والمشكلات التي يواجهها المجتمع. والثاني، مقاومة الأفكار الجديدة خوفاً من زعزعة مألوفاتهم وحياتهم المستقرة<sup>(1)</sup>. ولذلك لا يوفر نموذج الحرية الذي يطرحه البشر للفرد الفرصة الكاملة لاكتشاف

(1) أكثر ما يبدو هذا التناقض المأساوي في أقطار العالم الثالث ذات المجتمعات التي تنقسم إلى " نخبة متسلطة" و" أكثرية محكومة مدججة". فهي تقيم المعاهد والجامعات وترسل البعثات الدراسية لإعداد المختصين والخبراء ليولدوا لها أفكاراً جديدة تساعدها على تلبية البعثات الدراسية لإعداد المختصين والخبراء ليولدوا لها أفكاراً جديدة تساعدها على تلبية حاجاتها ومواجهة مشكلاتها، ويحقق لها التقدم والنمو. ولكنها - في نفس الوقت - تكبت الحريات، وتقيم

المعاني الجديدة وتوليدها. أي أن النموذج البشري في الحرية والمعرفة هو نموذج غير ملائم للتقدم والرسوخ في فهم المعاني والقيم الجديدة ولورتها.

ولذلك تكون المشكلة التي يواجهها - ميدان التزكية - في التربية المعرفية هي ما يلي:

تحرير الفرد من تبعية القطيع وتغلبه على ترغيبهم وترهيبهم. ولا يتم ذلك إلا من خلال تحرر الإنسان من استعباد المعاني والأفكار والقيم والعادات والتقاليد الشائعة بين الآخرين. وحين ينفصل الإنسان الحر عن القطيع البشري فإنه يحتاج إلى من يدعمه ويؤيده دون أن يقيده أو يمسكه في حدود الكون المخلوق. ولذلك يجد الإنسان نفسه وحيداً في هذا الوجود. وهذه هي حال - الوجودي - التي عبر عنها الفيلسوف سارتر وغيره من فلاسفة الوجودية والتوحيد الإسلامي هو الوحيد الذي يحرر الإنسان من التبعية للمخلوقات ويساعده على الاستمرار في هذا التحرر وصعود أعلى درجاته لأن الإنسان في سعيه للحصول على الدعم المشار إليه إما أن يلجأ إلى الله أو إلى الصنم وليس هناك حالة ثالثة.

السؤال الذي نطرحه: لماذا كان - الله - هو الوحيد الذي لا يقيد حرية الإنسان التي يحتاجها خلال سيره للبحث عن المعاني دون قيد وبدون قوة مضادة كما هي عادة البشر الذين يخافون من الأفكار الجديدة؟ الجواب هو أن الله هو الوحيد الذي ليس له وجود مادي ملموس لأنه ليس كمثلته شيء، ولأن زيادة علم الإنسان تزيد من محبته لله، ولأن علم الله علم مطلق لا يمكن الإحاطة به، ولذلك فالإحاطة بالله يقي الإنسان في سفر دائم نحو المعاني. وهذا ما يجعل التصور الإسلامي للوجود أكثر دعماً للحرية المثالية المنشودة. والتطبيق العملي لهذه الحرية هو الحض على التفكير والاجتهاد والثواب عليه سواء أصاب المجتهد أم أخطأ، ومحاربة التقليد والجمود والآبائية ولو كانت في الدين والعبادة.

ولكن الذي يحدث في واقع الحياة العملية أن فئات ممن ينتسبون إلى الدين ويتعلمون الكتاب دون تزكية من قيم العصبية القبلية والعرقية والطائفية يطلون هذه العصبية بطلاء إسلامي ويتعصبون للآباء - كما كان القبليون الجاهليون يتعصبون للأجداد - وينسبون إليهم العصمة ويرفعون "فهمهم" للكتاب والسنة إلى مستوى الكتاب والسنة وينسبون إلى هذا الفهم الصلاحية لكل زمان ومكان ويشيرون تطبيقات هذه العصبية الدينية في الحياة العلمية والتربوية والاجتماعية ويتسببون في بروز العصبية المذهبية وما يصاحبها من مضاعفات الجمود

مراكز الرصد وتبث العيون لمراقبة الأفكار الجديدة ومنعها من الظهور والانتشار والإسهام في تغيير الأوضاع القائمة التي تتركس الجمود والتخلف والضعف.

والتخلف والفرقة والضعف. ولذلك يجد منهاج التزكية - نفسه أمام مسؤوليتين اثنتين: الأولى تطهير عقول المتعلمين من هذه المعوقات والمشوشات المعرفية. والثانية تنقية البيئة المحيطة من مضاعفات هذه العوائق، لأن هذه التزكية هي التي توفر لإنسان التربية الإسلامية التحرر والاعتناق من أغلال الماضي وآصار الحاضر. وبدون هذه الحرية يقع الإنسان ضحية الاسترقاق والانحراف والفساد وتنحرف مناهج المعرفة لتسجن نفسها في الجري وراء الإنتاج والاستهلاك. وهذا هو ما حدث في التربية الحديثة التي اتجهت في تطبيقات الحرية إلى خدمة المجتمع الصناعي - التجاري الذي انتهى بالإنسان إلى الاسترقاق الذي يشرف عليه العلم وتوجهه تطبيقات التكنولوجيا.

### 3- تزكية البيئة السياسية:

للبيئة السياسية دور هام في سلوك الأفراد وعلاقات الجماعات وتشكيل اتجاهاتهم النفسية وأخلاقهم الاجتماعية. فإذا اتصفت هذه البيئة بالصلاح والحكمة استقامت الممارسات وصفت الاتجاهات وحسنت العلاقات.

وأول عناصر البيئة السياسية الصالحة التي يركز عليها ميدان التزكية هو - العدل - لأن العدل هدف رئيس في الرسائل الإلهية، ومن أجله انزل الله كتبه وأرشد إلى الميزان ليكون الأداة التنفيذية للعدل في الحياة العملية، وخلق الحديد ليصنع من السلاح الذي يحرس العدل، ولتقام منه الصناعات التي ترتقي بحياة الناس في مجتمعات العدل.

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحديد: 25]

ولأهمية العدل قرن الله تعالى بين جريمة الذين يكفرون بالله ويقتلون الأنبياء وبين جريمة الذين يقتلون دعاة العدل وتوعد الطرفين من القتل بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (21) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (22) } [آل عمران 21-22].

ولقد عرف ابن تيمية العدل بأنه وضع الشيء في موضعه، وأن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه. ولذلك كان العدل جماع الحسنات وكان الظلم جماع السيئات (1).  
وتتكرر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تأمر بالعدل وتشيد به وتبشر العادلين باحتلال المرتبة الأولى في الدنيا والآخرة. ففي القرآن الكريم يتكرر ذكر العدل في (27) موضع من ذلك قوله تعالى:

{ إِنَّ اللَّهَ يُأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ } [النحل: 90].

{ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } [النساء: 58].

ومثل العدل مرادفه - القسط - الذي تكرر ذكره في (25) موضع منها قوله تعالى:

{ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [المائدة: 42].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ } [النساء: 135].

أما في الحديث النبوي فان الدعوة إلى العدل والإشادة به والتبشير بمنافعه تفوق الحصر.

من ذلك قوله \_ صلى الله عليه وسلم \_:

(( الْمُقْسِطُونَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَلَى يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكَلْنَا يَدَيْهِ

يَمِينٍ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَكَلْنَا )) (1)

((سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة

الله..))الحديث (2)

((إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم مجلساً إمام عادل. وأبغض الناس إلى الله

يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر)) (3)

((ما من أمير عشيرة إلا وهو يؤتى به يوم القيامة مغلولاً حتى يفكه العدل أو يوبقه

الجور)) (4)

((ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على

الغمام وتفتح لها أبواب السماء ويقول الرب: وعزتي لأنصرك ولو بعد حين)).

(1) ابن تيمية، الفتاوى، توحيد الألوهية، ج1، ص 86.

(2) البيهقي، السنن الكبرى، ج10، ص 87-88 نقلاً عن صحيح مسلم.

(3) البخاري، الصحيح، باب الأذان، باب الزكاة.

(4) البيهقي، السنن الكبرى، ج 10، ص 96.

ولذلك كان التحذير الشديد من إسناد الأمور إلى من تقصر نفوسهم أو قدراتهم أو اتجاهاتهم عن إمضاء العدل وتحقيقه. من ذلك قوله \_ صلى الله عليه وسلم \_:

- (( من استعمل عاملاً من المسلمين وهو يعلم أن فيهم أولى بذلك منه، وأعلم بكتاب الله وسنة نبيه فقد خان الله ورسوله وجميع المسلمين ))<sup>(1)</sup>

- (( ويل للأمرء وويل للعرفاء وويل للأمناء ليتمنين أقوام يوم القيامة أن نواصيهم معلقة بالثريا يتخلخلون بين السماء والأرض وأنهم لم يلوا عملاً ))

والأمرء هم ولاة السياسة والحكام. أما العرفاء فهم قادة الجيوش والعسكر. وأما الأمناء فهم الإداريون كولاة المال ووزراء الاقتصاد<sup>(2)</sup>.

كذلك لا يجوز إعطاء الحكم أو الولاية لمن حرص عليهما واجتهد لنيلهما. لقوله \_ صلى الله عليه وسلم \_:

(( إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً سألته ولا أحداً حرص عليه ))<sup>(3)</sup>

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقول: لأن اقضي يوماً وأوافق فيه الحق والعدل أحب إلي من غزو سنة أو قال مائة يوم.

وكانت وصية الخليفة عمر بن الخطاب للمسلمين عند طعنه قوله لهم:

" يا معشر المسلمين إني لا أحاف الناس عليكم. إنما أخافكم على الناس. إني قد تركت فيكم اثنتين لن تبرحوا بخير ما لزمتموها: العدل في الحكم، والعدل في القسم. وإني تركتكم على مثل مخرفة النعم إلا أن يعوج قوم فيعوج بهم "

وقال الطبري في تفسير قوله تعالى:

{ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [ البقرة: 247 ].

قال: إن القوم اعترضوا على ملك طالوت لأنه لا يتحقق فيه شرطان: الأول، النسب. أي أنه من أسرة ليس فيها ملك ولا نبوة. والثاني، عدم الثراء. فجاءهم الرد الإلهي أن مقياس

(1) البيهقي، السنن الكبرى، ج10، 118.

(2) المصدر نفسه، الصفحات 97-100-89-134. بالترتيب.

(3) (4) (5) المصدر نفسه، الصفحات 97-100-89-134 بالترتيب

الله ثلاثة أمور: الأول، التقوى. وهو ما يشير إليه اصطفاء الله لطالوت. والثاني، وفرة العلم بالقيادة ومتطلباتها. والثالث، وفرة القوة الجسمية التي تمكنه من القيام بمسؤولياته<sup>(6)</sup>.

ومثلما يحتاج ميدان التزكية إلى تعميق الإيمان بالعدل فإنه يحتاج إلى تعميق النور من الظلم وتطهير البيئات السياسية والاجتماعية من الولاء للظالمين، لأن المجتمعات التي تقترف الظلم في مؤسساتها السياسية والإدارية وتعلم الإيمان في مؤسساتها التربوية والإعلامية تتعطل فيها فاعلية الإيمان ولا تجني ثماره في الأمن والهداية: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام: 82].

ويتكرر النهي عن الظلم في مئات المواضع من القرآن الكريم والحديث الشريف. وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى:

- (( يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا )) (1)  
ويقول \_ صلى الله عليه وسلم \_:

- (( من أعان ظالماً ليدحض بباطله حقاً فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله )) (2)

- (( من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام )) (3)

- (( إن الله لا يقدر أمة لا يأخذ الضعيف حقه من القوي وهو غير متعنع ))، وفي رواية: (( إن الله لا يترحم على أمة لا يأخذ الضعيف فيهم حقه غير متعنع )) (4)

ومن أمثال هذه الأحاديث اشتق أبو حامد الغزالي بحثاً كاملاً في كتابه - إحياء علوم الدين - أمساه (( أعوان الظلمة )) حرم فيه الوظائف في دولة أو أنظمة حكومية تتصف بالظلم سواء أكانت وظائف دينية أو مدنية أو عسكرية. كما حرم استعمال أدوات الظلمة، والتجارة في أسواقهم والصلاة في المساجد التي يبينها الظلمة.

وانطلاقاً مما مر يبدو واضحاً أن التوجيهات الإلهية والنبوية المتعلقة بإحقاق العدل وتجنب الظلم تضع على التربية الإسلامية - وميدان التزكية - فيها مسؤولية كبرى في إفراز

(6) الطبري، التفسير (البقرة: 247)، ج2، ص601.

(1) صحيح مسلم، كتاب البر

(2) السيوطي.....

(3) الطبراني، المعجم الكبير، ج1، ص224.

(4) البيهقي، السنن الكبرى، ج10، ص93-94.

التعنتة: الحركة العنيفة. ومعنى: غير متعنع، أي من غير أن يصيبه أذى يقلقه أو تعسير يزعجه.

علوم سياسية وإدارية واجتماعية تحدد موقف الإسلام والأمة مما انحدر في التاريخ الإسلامي وما زال قائماً من قضايا تتعلق بتولي المناصب والوظائف وتحدد شروط التقوى والمهارات والقدرات العقلية والنفسية والجسدية اللازمة لكل من يلي منصباً ابتداءً من مختار القرية أو رئيس البلدية حتى رئاسة الدولة، وبلورة مواصفات المؤسسات اللازمة لكل عمل. فهذه كلها قضايا تمزق الأمة وتشيع الفتنة - إن جرت - حسب عصبيات المولد ومقاييس النفوذ والجاه. وفي تفسير قوله تعالى: { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ } قال الطبري: بغياً أي تعدياً بعضهم على بعض وطلب الرياسات والملك والسلطان(1).

**والواقع أن أول اتصال حديث بين الإسلام وأهالي البلاد المفتوحة كان مظهره - الاتصال بالعدل الإسلامي الكامل - الذي ميز سياسة الفاتحين من جيل الصحابة. وحين رأى سكان البلاد المفتوحة هذا العدل ونعموا بثماره راحوا يبحثون عن محتويات القرآن فتعلموا اللغة العربية وفسروه وفقهوه، والحديث فجمعوه وأفرزوا غالب الفكر والتشريع والثقافة المنبثقة عنهما. وهذا هو الفارق الرئيس بين عصر الراشدين وبين العصور التي تلت رغم أن عدد نسخ المصحف ومجلدات الحديث والفقهاء والأخلاق والوعظ كانت في العصور المتأخرة أكثر بكثير من نظائرها في عصر الراشدين. وحين توارى العدل وحل محله الظلم الذي صاحب العصبية الأسرية والقبلية والعرقية تحت قيادات ما بعد عصر الراشدين انحسرت اللغة العربية والثقافة وكثير من القيم الإسلامية وارتدت الشعوب إلى نظائرها في تراث ما قبل الإسلام الذي تخلى عنه أسلافها باختيارهم.**

ولا بد لميدان التزكية وهو يعمل على تحلية البيئة السياسية بقيم العدل وتطهيرها من قيم الظلم أن يبدأ بتطهير نفوس المظلومين من آثار الظلم وتزيينها بآثار العدل. والسبب أن المظلومين - خلال فترات الظلم - قد تم تدمير إنسانيتهم بدقة بغية تحويلهم إلى (( أشياء )) يملكها الظالمون. فإذا نهض المظلومون لاسترجاع إنسانيتهم قبل التطهير من آثار الظلم فسوق يكونون عاجزين عن قيادة حركة استرجاع العدل الإنساني، لأن تفكيرهم ومشاعرهم وقيمهم قد تشكلت في بيئة الظلم التي نشأوا فيها. ولذلك يكون شخص الظالم الذي يعاني من ظلمه هو نموذج الإنسان الجديد الذي يؤديون إحلاله محل الظالم القائم. وحين يحكم المظلومون

(1) الطبري، التفسير (آل عمران:19)، ج3، ص 212.



يتقمصون شخصية ظالمهم ويخافون من العدل والحرية كما كان ظالمهم يخافون منهما ويطاردون المطالبين بما فيسجنونهم بالشبهة ويعدمونهم دون محاكمة. والأمثلة لذلك كثيرة نجدها في سلوك رجال الثورات والأنظمة الثورية التي قامت في أقطار العالم الشيوعي والعالم الثالث على أنقاض الأنظمة البرجوازية والإقطاعية التي سبقتها. ونجد في سلوك الإسرائيليين الذين حكموا سكان المناطق المحتلة في فلسطين بقسوة تشبه قسوة مجتمعات القيصرية والنازية وأمثالها التي وفد اليهود من تحت مظالمها<sup>(1)</sup>، ونجد في سلوك المماليك الذين حكموا العالم الإسلامي بعد اعتناقهم من بيئات الرق والظلم التي نشأوا فيها. ونجد في النزعة العنصرية والتعصب الإقليمي ضد الأجانب عند سكان الأقطار التي تحكمها أنظمة حكم مطلقة غير ديمقراطية.

لذلك يحتاج - ميدان التزكية - أن يعرف المظلومين ببشاعة الظلم حتى درجة الوعي وأن يدرهم على مقتته حتى درجة التقزز والنفور، وأن يوجد لهم أوضاعاً جديدة وممارسات وأنشطة تساعدهم على التخلص من آثار الظلم النفسية والعقلية حتى درجة العافية والنضج الإنساني وتوجيه جهادهم نحو تحرير المظلومين والظالمين من مرض - انتقاص الإنسانية - الذي أصابهم جميعاً، وفي المقابل يحتاج ميدان التزكية أن يعرف المظلومين والظالمين حتى درجة الوعي واليقين - بأهمية العدل والحرية - وأن يدرهم على التطهر من عقدة الخوف منهما، وعلى التخلص من حالة الفصام النفسي والقلق والضياع التي أصابتهم على أيدي ظالمهم، وأن يوجد لهم أوضاعاً وممارسات وأنشطة تهيئ لهم تذوق جمال العدل والحرية حتى يكون هدفهم النهائي هو إخراج إنسان جديد متحرر من نزعات الغضب والسيادة، ومن نزعات الخنوع والتبعية، ومن نزعات الظلم والعصبية وهذا ما طبقه الرسول - صلى الله عليه وسلم - من خلال أمور ثلاثة: الأول؛ منع المسلمين خلال الجهاد مع الجاهليين في الجزيرة العربية من عمليات الانتقام، ومنعهم - خلال فتح مكة والجزيرة- من البطش بقيادة المشركين أو اعتقالهم أو محاكمتهم. والثاني؛ أسلوب الخطاب الدعوي الذي وصف الظالمين بأنهم ضحايا مرض (( الطغيان )) ودعوتهم إلى التزكي منه، وأن الأمر ليس صراعاً طبقياً بين الأقوياء والضعفاء. والثالث؛ المعاملة الإنسانية لـ (( طلقاء مكة وثقيف )) وعدم استرجاع ما اغتصبوه أو نهبوه هم وأمثالهم من أعراب الجزيرة خلال فترات المجاهمة وضعف المسلمين.

(1) Paulo Freire, The pedagogy of the Oppressed. (New York: the seabury press, 1970.

وثاني عناصر البيئة السياسية التي يجب تركيز ميدان التزكية عليه هو - الولاء -  
[والأساس في التربية الإسلامية أن تكون الموالاتة لله ثم لرسوله والمؤمنين. بمعنى أن يكون  
الانتماء والجهاد والإيواء والنصرة وتغيير المواقف وتحديدتها موجهة لما يأمر به الله ورسوله  
ولما فيه مصالح المؤمنين وشؤونهم]<sup>(1)</sup>. ومن هذه الموالاتة تتفرع موالاتة النظم الدائرة في فلك  
الرسالة الإسلامية وهذه الموالاتة تأتي في قمة الايمان وتطبيقاته. ولقد وجه إليها القرآن بصيغ  
مختلفة أهمها أن يكون الحب - الذي هو قمة الولاء - لله ورسوله. ومن ذلك قوله تعالى:  
{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا  
لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ} [البقرة:  
165] ولقد مر معنا أن معنى " الأنداد " هم الرؤساء والزعماء، وأصحاب العصبية يجنون  
رؤوس العصبية حباً يزيد عن حبهم الله.

وفي الحديث أن رسول الله \_ صلى الله عليه وسلم \_ قال:

(( أتدرون أي عرى الإيمان أوثق؟ ))

قالوا: الصلاة

فقال: (( إن الصلاة لحسنة وما هي بما ))

فقالوا: الجهاد.

فقال: (( إن الجهاد لحسن وما هو به )).

فقالوا: الحج.

فقال: (( حسن وليس به )).

فقالوا: الصيام.

فقال: (( الصيام لحسن وليس به ))

ثم قال: (( أوثق عرى الإيمان أن تحب الله وتبغض الله ))<sup>(2)</sup>

وفي رواية: (( من أعطى الله، ومنع الله، وأحب الله، وأبغض الله، وأنكح الله فقد

استكمل إيمانه ))<sup>(3)</sup>.

(1) للتعرف على محتويات الانتماء والجهاد والإيواء والنصرة، راجع كتاب - أهداف التربية الإسلامية - للمؤلف.

(2) البيهقي، الجامع لشعب الإيمان، ج1 (بومباي، الهند: الدار السلفية، 1406هـ/1986) ص 125.

(3) المصدر نفسه، ص128.

وهذه هي الفطرة التي اشار اليها صلى الله عليه وسلم بقوله: (( ما من مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه أو يعجمانه )).

ولكن الولاء يتعرض إلى التغير ويرتد من الدوران في فلك الرسالة الإسلامية ومراد الله إلى الدوران في فلك العصبية الأسرية والقبلية والقومية والعرقية أو الدوران في فلك المصالح الاقتصادية والمادية. ولذلك كان من وظائف ميدان التزكية أن يتضمن مقررات ونشاطات لتطهير الثقافة السائدة والبيئة السياسية المحيطة من الولاء للعصبية والمصالح المادية بمختلف مظاهرها وتطبيقاتها الإدارية أو التربوية أو الاجتماعية أو الثقافية أو الفنية. وهذا التطهير كان ركناً أساسياً في تربية صدر الإسلام ونجد شواهد عن أمثال قوله تعالى:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [ التوبة: 23-24 ].

ومثله قوله \_ صلى الله عليه وسلم \_ : (( فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه )) (1).

وحين بعث رسول الله \_ صلى الله عليه وسلم \_ عمرو بن حزم إلى بني الحارث بن كعب ليعلمهم الإسلام كتب له كتاباً فصل فيه المبادئ التي يهتدي بها. ومما جاء فيه:

(( وينهى إذا كان بين الناس هيج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر وليكن دعواهم إلى الله عز وجل وحده لا شريك له، فمن لم يدع إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فليقطفوا بالسيف حتى تكون دعواهم إلى الله وحده لا شريك له )) (2)

ومن أقواله \_ صلى الله عليه وسلم \_ : (( ستة يعذبهم الله بذنوبهم يوم القيامة: الأمراء بالجرور والعلماء بالحسد، والعرب بالعصية.. )) الخ.

وفي رواية أخرى: (( ستة يدخلون النار بغير حساب.. )) إلى آخر الحديث (3).

(1) ابن هشام، السيرة، ج2، ص 595.

(2) المصدر نفسه.

(3) كثر العمال، ج16، ص 87 رقم 44030، 44031.

وثاني عناصر البيئة السياسية التي يجب أن يركز ميدان التزكية عليها هو تنمية الوعي بأهمية التخطيط والإعداد والنظام في مقابل تطهير البيئة من مظاهر الارتجال والفوضى. ويتفرع عن هذه القيم قيم فرعية لا حصر لها، وهي قيم تشكل أبرز مقومات عصر العالمية والعلم الذي جاء الإسلام على أبوابه لترشيد الإنسانية لعبوره. فمثلاً في عصور القبلية والمجتمعات المحلية كان التعامل قائماً على الثقة الشخصية وعدم كتابة المواثيق والاتفاقات. وحينما جاء الإسلام جعل هذه الكتابة أساساً في قيم العالمية الجديدة ذلك عند أمثال قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ } . ولقد علق الصحاب كعب على هذه الآية فقال يوماً لأصحابه: هل تعلمون مظلوماً دعا ربه فلم يستجب له؟ قالوا: وكيف يكون ذلك؟ قال: رجل باع شيئاً فلم يكتب ولم يُشهد فلما حل ماله جحده صاحبه فدعا ربه فلم يستجب له لأنه عصا ربه<sup>(1)</sup>.

ومثله قيمة الارتجال في الفكر والعمل التي كانت شارة البراعة والعبقرية في عصور العصبية القبلية والمجتمعات المحلية وما زال هذا الارتجال شارة البراعة في الخطب والكلام، فلما جاء الإسلام استبدله بقيم الإعداد والتخطيط عند أمثال قوله تعالى: { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِّن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ } [الأنفال:60]. وقياساً على تعليق الصحاب كعب فإننا نضيف - هنا - أننا رأينا ملايين المظلومين من المسلمين الذين يتعرضون للاحتلال والغزو والذبح والإبادة العرقية والاعتقال وتدمير الممتلكات والمقدسات وهتك الحرمات، يدعون الله فلا يستجاب لهم لأنهم عصوا الله بعدم الوحدة والإصرار على الفرقة وعدم الإعداد والاستعداد وعدم الاسترشاد - سياسياً وعسكرياً - بأمثال قوله تعالى: { كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وِلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ } [التوبة: 8]. ولقد رأينا عقوداً من حبوط المشروعات وفشل السياسات في ما يسمى بالأقطار الإسلامية بسبب اعتماد الارتجال وعدم التخطيط والدراسة العلمية وعدم تطبيق التوجيهات الإسلامية التي تقرر أن يد الله مع الجماعة وتشترك الاعتصام بحبل الله وعدم الفرقة، ومثله... ومثله آلاف القيم والتوجيهات في ميادين السياسة والعسكرية والاجتماع والعلم والإنتاج وغير ذلك.

(1) الطبري، التفسير، (البقرة: 282)، ج3، ص 117.

## 4- تزكية البيئة الاجتماعية:

للبيئة الاجتماعية دور رئيس في تشكيل السلوك الإنساني. وعناصر هذه البيئة متنوعة متقلبة بعضها خير يتفق مع أهداف التربية الإسلامية وبعضها يتعارض مع هذه الأهداف. وحين يولد الطفل يكون لديه الاستعداد للتعليم في أية بيئة وأن يصبح عضواً في أي مجتمع، ولكن النماذج الاجتماعية والثقافية وعمليات التطبيع الاجتماعي تمده بالاعتقادات والاتجاهات وأشكال السلوك التي تهيئه للدور الاجتماعي الذي يلعبه وقيم المجتمع الذي ينشأ فيه<sup>(1)</sup>. وانطلاقاً من هذه الأهمية التي تتصف بها البيئة الاجتماعية إزاء سلوك الإنسان واتجاهاته احتلت تزكية البيئة المذكورة مكانة هامة في منهاج التزكية في التربية الإسلامية.

والحور الذي تدور حوله تزكية البيئة الاجتماعية هو صيانة (( إنسانية )) الإنسان من (( السفه )) أي الانتقاص، والحفاظ على (( كرامته )) التي خصه الله سبحانه بها وأشار إليها عند قوله تعالى: { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا } [الإسراء: 70].

ومن أجل هذا الهدف يركز - منهاج التزكية - على تطهير البيئة الاجتماعية من جميع الممارسات والثقافات والنظم وشبكة العلاقات الاجتماعية التي (( تسفه )) أي تنتقص إنسانية الإنسان وتنال من كرامته واستبدالها بتلك التي تصون هذه الإنسانية والكرامة تحت أي ظرف من ظروف الفقر أو الغنى، والضعف أو القوة، والغضب أو الرضى، والحب أو الكره، والصواب أو الخطأ، والصالح أو الانحراف، والسلم أو الحرب، والحياة أو الموت.

وأول عناصر البيئة الاجتماعية التي يركز عليها - منهاج التزكية - هي (( الأخلاق العامة )) وشبكة العلاقات الاجتماعية. ويحتاج القائمون على منهاج التزكية أن يعوا عدة أمور:

**الأمر الأول:** إن السلوك هو محصلة التفاعل بين الإنسان والبيئة المحيطة في لحظة معينة. وهذا يعني أن الخير أو الشر، والصالح أو الفساد ليست أفكاراً مستقلة موجودة خارج الإنسان وانه يتم توصيلها إليه من خلال الوعظ أو الإغواء، وإنما هي مولود اجتماعي يولد من تزاوج البيئة المحيطة مع استعداد الإنسان طبقاً لدرجة نضجه العقلي والإرادي وحرية النفس في اختيار بدائل السلوك المتوفرة من حوله، وطبقاً لدرجة إشباع حاجاته الأساسية والعليا أو حرمانه منها.

(1) George M. Foster, Traditional Societies and Technological Change. 2<sup>nd</sup>. Ed.(New (1) York: Harper & Row Publishers, 1973). P.13

والأمر الثاني، أن القيم الإسلامية ثابتة المبادئ مختلفة التطبيقات باختلاف الأزمنة والأمكنة. وهذه هي حكمة الناسخ والمنسوخ في آيات الأحكام القرآنية. فـ (( الحشمة )) - مثلاً - تتجسد في الجزيرة العربية عملياً في ارتداء الأثواب والسراويل الفضفاضة للرجال، والعباءات السوداء للنساء. ولكن مثل هذا اللباس يستحيل استعماله في المناطق الباردة والمعتدلة، وفي طور الصناعة والتكنولوجيا الذي نعيشه. لذلك يراعى الثبات في مبدأ (( الحشمة )) والتغير في الأزياء طبقاً لاختلاف الزمان والمكان. وهكذا في جميع الممارسات والتطبيقات.

والأمر الثالث، أن - معصية الله - وركوب الشر لا يقتصران على ممارسة الفحشاء وتعمد الاثم. وإنما هما أيضاً في المبالغة في ممارسة الخير والفضائل والخروج عن حد ((الوسطية)) المانعة من تداخل الأعراف والتقاليد والذهاب بتطبيقات الخير عن محتويات الشرع بحيث تؤدي ممارسة الخير إلى إيذاء الإنسان وضرره وشقائه بدلاً من نفعه وسلامته وسعادته، كمن لا يكتب الذين ويترك السداد لذمة المدين - خوفاً من زعل المدين وكلام الناس - ثم ينتهي الأمر بإنكار الثاني وضياح حق الأول وندمه على فعل الخير، ومثله ما قرأته عن رجل توفي وأوصى بتقسيم الميراث بين ولده وابنته. ولكن زوج الابنة - خوفاً من زعل الصهر وكلام الناس طلب اليها ترك الأمر لشهامة الأخ رغم معرفة الأخت بشره أخيها وحرصها على المسارعة في رفع الأمر إلى المحكمة لتقوم بحصر الإرث وإعطاء كل ذي حقه حقه. واستجابت الزوجة لطلب زوجها فأجلت الذهاب إلى الشرع وتركت الأمر لأريحية الأخ الذي ضعف أمام طمعه ووساوس زوجته فأخفى الثروة وخطط لحرمان أخته. وأمثال هذه الممارسات المبالغة في تصور الخير والفضيلة يبرز الكثير منها يومياً - تحت ضغط الأعراف والتقاليد ومخافة ما يقوله الناس - وينتهي بمقتربها إلى الشرور والخصومات المدمرة والمعاصر المهلكة.

والأمر الرابع، هو الانتباه إلى - الدافع الأخلاقي - الكامن وراء ممارسة الأخلاق. ففي البيئات التي لا تتركى من ثقافة العصبية القبلية - مثلاً - يكون (( ما يقوله الناس )) هو الدافع الكامن وراء ممارسة الأخلاق الحسنة. فإذا (( غاب الناس )) انطفأ الدافع الأخلاقي واختلف السلوك. ولذلك تتصف شخصية إنسان هذه البيئات بالازدواجية فتكون له أخلاق وفضائل يعامل بها الناس، وأخلاق مختلفة توجهه في خلواته وحياته الخاصة. أما الأخلاق الإسلامية المزكاة من قيم العصبية فان رضاء الله هو الدافع الباعث للسلوك الأخلاقي، ولذلك تتشابه أخلاق من هذه صفته في حياته الخاصة والعامية.

والأمر الخامس، هو الوعي بالفرق بين (( سلم الفضائل )) كما ترتبه الأصول الإسلامية في القرآن والسنة وبين اسلم الذي يرتبه " فقه " إنسان العصبية للكتاب والسنة. فـ(( العدل )) - مثلاً - يحتل في درجات السلم القرآني - النبوي موقعاً أعلى من (( اللباس والهيئة )) في حين أن الفقه المتأثر بقيم العصبية القبلية يضع اللباس والهيئة في أعلى درجات السلم الأخلاقي، ومثله الفرق بين (( سلم الرذائل )) كما ترتبه الأصول القرآنية - النبوية وبين نظيره الذي أفرزه (( فقه )) إنسان العصبية القبلية. فـ(( الظلم )) مثلاً يحتل موقعاً أعلى من (( الزنا )) في سلم الرذائل التي تحذر منها التوجيهات القرآنية - النبوية في حين أن الظلم لا يكاد ينال انتباهاً في قيم الفقه المتأثر بالعصبية القبلية ولم تبرز له حدود وعقوبات. وهكذا في فضائل الحرية والمساواة وتكافؤ الفرص وما يقابلها من التسلط والطبقية والتمييز الأسري والإقليمي والربا وغير ذلك من مفردات الفضائل والرذائل المختلفة.

والأمر السادس، هو الانتباه الى الفرق بين مظهر الفضيلة من ثقافة إلى ثقافة. فالثقافات العصبية - خاصة ثقافة العصبية القبلية - يتخذ (( الكرم )) فيها مظهراً فردياً ويمارس في دوائر الأسرة الخاصة سعياً وراء الجاه والمدح وقضاء المصالح وتأمين الوساطات. أما إذا دعي الإنسان للبذل في سبيل الصالح العام - حيث لا يتحدد فرد معين يجري إكرامه وتكسب مودته - فان إنسان العصبية القبلية يقدم القليل أو ربما لا يقدم شيئاً، في حين أن عصر الصحابة كانوا يقدمون لزمائرهم وأضيافهم - بما فيهم النبي نفسه - ما تيسر من الطعام، وإذا دعوا للتبرع للصالح العام جهزوا الجيش وسلحوا الجماعات. وهذا لون من الكرم يمارسه (( الغربي )) المعاصر الذي يتجنب الإسراف والتكلف ويقدم للزوار والأضياف ما يتسر ولكنه حين يدعى للتبرع في سبيل الصالح العام فانه يبيني المستشفيات والجامعات وقيم المؤسسات.

والأمر السابع، هو الانتباه إلى سعة دائرة تطبيق الفضيلة الأخلاقية بحيث تتطابق مع دائرة الولاء التي تحددها التوجيهات الإسلامية. ففي عصر المجتمعات القبلية - مثلاً - كان تطبيق الفضائل والأخلاق الحسنة يقتصر على دائرة العلاقات الدموية وحدها، أما من هم خارج دائرة القربى فكانوا يعتبر (( أجنب )) لا حق لهم في هذا التطبيق. واستمرار هذا الشكل من التطبيق يعد عصر الأخوة الإيمانية - الإنسانية يشوه قيم المساواة والأخوة ويسيء إلى وحدة الأمة وتماسكها.

والأمر الثامن، هو شمول التطبيق الأخلاقي بحيث تمتد شبكة الأخلاق لتوجه علاقات الأفراد والجماعات في جميع المواقع والمؤسسات كالأسرة وأماكن العمل وفي الأسواق، وهذا ما



تفتقر اليه التربية الحديثة التي نقلت الأخلاق من الأسرة والمجتمع وحصرتها في أماكن العمل وحدها.

وثاني عناصر البيئة الاجتماعية التي يركز عليها منهاج التزكية هو تطهير المقررات الدراسية والبرامج الإعلامية من - مثيرات الميل للترف والإسراف - والتوجيهات الإلهية في ذلك صريحة وحازمة. فالمترفون كانوا دائماً قادة المقاومة للرسالات الإلهية وحركات الإصلاح: { قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمْ أَلِكِبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ } [سبأ: 34]. والسبب أن المترفين يعملون دائماً للمحافظة على الأوضاع القائمة التي توفر لهم الجاه والتملك. ولذلك كان ردهم على رسول الله موسى عليه السلام: { قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمْ أَلِكِبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ } [يونس: 78].

والقرآن يجعل الترف صفة مميزة للكفر والكافرين: { وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [المؤمنون: 33]، واقتران الكفر بالترف نتيجة لازمة لأن الترف دليل الرغبة في الدنيا والإعراض عن الآخرة، ولذلك يندفع أهله لاستهلاك أكبر كمية من نعيم الدنيا، ويستعملون لذلك أقصى حد من قدراتهم العقلية والنفسية والجسدية لأنهم لا يتوقعون نعيماً بعد نعيم الدنيا وقد ينتشر الترف في مجتمع لا يعلن الكفر والتكذيب بالآخرة ولكن الاهتمام فيه يؤدي إلى جفاف الإيمان والعجز عن القيام بتكليفه ثم ينتهي إلى رفع شعارات الكفر ومقولاته.

والترف يفسد الأخلاق ويأتي على الفضائل. وفي قصة يوسف مع امرأة عزيز مصر جانب من أخلاق المترفين الفاسدة التي ضربت رجالهم ونساءهم سواء. فالنساء لا يخلجن أن يحدث بعضهن بعضاً عن مغامراتهن مع العاملين في خدمة بيوتهن. وامرأة العزيز التي راودت يوسف لا تتردد - لتبرير فعلتها - عن إحضار يوسف إليهن لتفعل بهن الشهوات ما فعلت حتى قطعن أيديهن اعجاباً بوسامته ونصرة شبابه.

أما عزيز مصر وحاشيته فهم أيضاً لا يكثرثون بالكرامة والعفة والشرف حينما انكشف لهم الدليل على فعلة امرأة العزيز وبراءة يوسف، وإنما حملوا يوسف المسؤولية واستجابوا لطلبها في سجنه ومعاقبته: { ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجْنَهُ حَتَّىٰ حِينٍ } [يوسف: 35].

ووصول المترفين إلى مركز القيادة يؤدي إلى انهيار المجتمعات لأن مرض الترف يدفعهم إلى استغلال السلطة لمنافعهم الخاصة، وتتفشى في ظل قيادتهم أمراض القسوة والنهب والسرقة والرشوة والظلم واستغلال النفوذ وانتفاء المسؤولية وبذلك ينتهي المجتمع إلى الإفلاس والانهيار. وهذا بعض ما يرشد إليه قوله تعالى: { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا } [الإسراء: 16].

على أن أخطر مضاعفات الترف هو شيوخ - الإسراف - في الاستهلاك مما يلحق الضرر بالإنسان والحياة سواء. أما على مستوى الإنسان فان للإسراف مضاعفات نفسية واجتماعية خطيرة. ويجسد المضاعفات النفسية أمراض كثيرة كالشح والشره والميل للفاحشة وعدم التفريق بين الحلال والحرام، وفقدان التمتع بالأشياء والملل منها، ويجسد المضاعفات الاجتماعية شيوخ ثقافة الاستعلاء والطبقية وأمراض الحسد المفضي إلى الجريمة والثورة والفتنة. والإسراف له آثار صحية مرضية حتى إنه يمكن القول ان الأمراض التي تصيب الجسم في الحضارة المعاصرة تتشعب في الغالب عن الإسراف.

والترف والإسراف سبب في اضطراب التصور الإنساني لرحلة النشأة والحياة والمصير والإفناء إلى نسيان حقائق النشأة والمصير والاقتصار على الاستغراق بحب الدنيا. وحب الدنيا باب تدخل من خلاله كل ألوان الشرور والآثام. فحب الدنيا باب للكفر: { زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا } (البقرة: 212).

وحب الدنيا سبب كبير من اسباب الغفلة عن دين الله: { الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرْتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } [الأنعام: 70].

وحب الدنيا سبب في إنكار الآخرة: { إِنْ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا } (الأنعام: 70)

وحب الدنيا سبب في تعطل عمل العقل والإرادة: { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ، أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ } [النحل: 107-108].

وحب الدنيا سبب في الفساد الأخلاقي: { وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لَتَبْتُّنَّ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [النور: 33].

وحب الدنيا باب للجشع والشره: { قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ } [القصص: 79].

وحب الدنيا سبب في ضيق المعرفة وضحالة التفكير: { يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } [الروم: 7].

وحب الدنيا سبب في الطغيان: { فَأَمَّا مَن طَعَىٰ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } [النازعات: 37-38].

ولعل هذه الآثار مجتمعة تكشف لنا عن الحكمة التي جعلت أصول التربية الإسلامية تضع المسرفين المبذرين في مرتبة الشياطين، مثل قوله تعالى: { إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ } [الإسراء: 27].

ولذلك كله تقدم أصول التربية الإسلامية في القرآن والسنة تفصيلات واسعة وأمثلة كثيرة في ميدان النهي عن الإسراف. من ذلك الدعوة للابتعاد عن الإسراف في الطعام، قال تعالى: { كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } [الأنعام: 141].

وقال أيضاً: { وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا } [الأعراف: 31]

ويقول \_ صلى الله عليه وسلم \_ : (( ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه ))<sup>(1)</sup>.

ونهى عن الإسراف في الأثاث والزينة من ذلك قوله \_ صلى الله عليه وسلم \_ : (( فراش للرجل، وفراش لامرأته، والثالث للضيف، والرابع للشيطان ))<sup>(2)</sup>.

ونهى عن الإسراف في وسائل المواصلات، واستعمال الأشياء في غير مقاصدها المشروعة. من ذلك قوله \_ صلى الله عليه وسلم \_ : (( الخيل ثلاثة: ففرس للرحمن، وفرس للإنسان، وفرس للشيطان. فأما فرس الرحمن فما اتخذ في سبيل الله وقتل عليه أعداء الله. وأما فرس العانسان فما استبطن وتحمل عليه، وأما فرس الشيطان فما روهن وقومر عليه ))<sup>(3)</sup>.

ونهى سبحانه وتعالى عن الإسراف في الصدقة:

(1) كثر العمال، ج15، ص259 نقلاً عن احمد والترمذي.

(2) صحيح مسلم، ج14، ص59.

(3) H.M.Did, Environmental Pollution.( Chichester & New York: Johny Wiley & Sons, 1981).

{وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا} [الإسراء: 26]

وإذا كنا قدمنا هذا الحشد من (( آيات الكتاب )) وأحاديث الرسول التي توجه الى خطورة الترف والإسراف فان الشواهد والبراهين التي كشفت عنها (( آيات الآفاق والأنفس )) تصدق هذه الأخبار وتكشف عن بعض المعجزات الإلهية فيها. فالنظر في (( آيات الآفاق )) قدم الكثير من الشواهد والأدلة التي كشفت عن خطورة الإسراف والترف اللذين يميزان الاقتصاد الحديث. وتتمثل هذه الخطورة في استنزاف الثروات الطبيعية والتلوث البيئي والجفاف الذي ضرب مناطق واسعة في العالم، وإبادة أجناس كثيرة من المخلوقات من أجل فرائها وجلودها وأسنانها ولحومها. ومثله الإخلال بتوازن مكونات الطبيعة وعواملها من الماء والهواء والحرارة وغير ذلك<sup>(2)</sup>.

كذلك كشف البحث في (( آيات الأنفس )) على أن ثقافة الاستهلاك التي تميز المجتمعات الحديثة والتي تحدد قيمة الفرد الاجتماعية بمقدار ونوع ما تستهلكه في ميادين البناء والأثاث والطعام، قد أفرزت تيارات خطيرة من (( ثقافة الحقد )) الطبقي المتنامي المتسارع على من بيدهم مصادر المتعة المادية. ولقد تصاعد هذا الحقد حتى أفرز الاتجاهات الثورية المتطرفة وجماعات المعارضة وجماعات الجريمة التي قضت على الأمن الفردي والدولي والقاري، وأشاع العداء والتآمر في العلاقات الدولية وأدى إلى قيام الحروب الباردة والساخنة وأحال الأرض الى غابة يأكل القوي فيها الضعيف على مستوى الأفراد والأمم. ويقدم علم النفس الشواهد والبراهين على مضاعفات الترف والإسراف في النفس الإنسانية، وأن الجميع، سواء القوي والضعيف، والمنتصر والمهزوم، قد فقد السعادة ووقع ضحية الأمراض النفسية من ذلك ما كتبه عالم النفس الشهير - أبراهام ماسلو - الذي كتب يقول:

(( لقد علمتنا الحياة في السنوات القريبة شيئاً عن المرض النفسي الناتج عن الشراء المادي ووفرة الحاجات المادية. ومن أمثلة هذا المرض السامة، والأنانية، والشعور بالتميز عن الآخرين، واستحقاق التفوق، والجمود عند درجة دنيا من عدم النضج، وتدمير الأخوة. ومن الواضح أن اقتصار العيش على الحياة المادية وتلبية الحاجات الدنيا لا يكفي تطلعات الإنسان لأية مدة زمنية مهما قصرت. ولكننا الآن نواجه احتمال قيام مرض جديد ناتج عن الشراء النفسي؛ أي المعاناة من نتائج المحبة والرعاية الزائدة، ومن الهيام الزائد، والمدح الزائد، والإنصات

(2) كتر العمال، ج4، 333 نقلاً عن الطراني في المعجم الكبير.

دون اعتبار لنفس المنصت، وإعطاء الأهمية لمسرح الحياة (دون المصير)، والحصول على خدم مخلصين، والحصول على الرغبات في كل زمان ومكان، والتحول الى موضوع تقدم من أجله التضحيات ونكران الذات...

والمرض الناتج عن إشباع الحاجات قد ينقلب ليصبح ما يمكن تسميته (( غياب القيم )) و (( غياب معنى الحياة )) وتحقيقها. ويعتقد كثير من علماء النفس المختصين بالشخصية الإنسانية - رغم عدم توفر المعلومات الكافية - أن إشباع الحاجات الأساسية لا يحل مشكلات الحاجة للهوية والقيم ودواعي الحياة ومعناها. فهذه عند بعض الناس، خاصة الناشئة، ضرورات منفصلة عن إشباع الحاجات الأساسية.

وأخيراً، أذكر مرة أخرى الحقائق الموجزة، وهي أن أفراد الجنس البشري يبدو أنهم لا يمكن أن يكونوا قانعين بشكل دائم، وأهم دائماً تحكمهم القاعدة التالية: (( نميل للتعود على النعم ونسيانها والتسليم بوجودها والتوقف عن تقدير قيمتها )) . وعند كثير من الناس الذين لا نعرف عددهم، قد تصبح أعلى مستويات المتعة أموراً تافهة مبتذلة لا جدوة فيها. ويمكن فقط - أن تصبح مرة ثانية ذات قيمة من خلال تذويهم للحرمان والإحباط وعدم الأمن والمآسي. فأمثال هؤلاء الناس من الضروري أن يتذوقوا فقدان النعم وأن يعيشوا مرارة الحرمان حتى يستطيعوا أن يقدروا قيمتها مرة ثانية ((1)).

## 5- تركية البيئة الاقتصادية:

للبيئة الاقتصادية أثر رئيس في توفير الطمأنينة للإنسان وفي استقراره واستقامته أو إثارة الاضطراب والقلق في حياته والتسبب في انحرافه فكرياً واجتماعياً ونفسياً. وبسبب هذه الأهمية كان دعاء إبراهيم عليه السلام إلى الله أن يرزق ذريته التي أسكنها في جوار البيت الحرام من الثمرات وأن يوفر لهم المحبة من الآخرين ليتمكنوا من عبادته وشكره: { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } [ إبراهيم: 37 ]

والواقع ان المعالجات الاقتصادية تحتل في القرآن والحديث مساحة كبيرة لأن اتباع الحاجات البسيطة لإن إشباع الحاجات الجسدية هو (( الماعون )) الذي يعين الإنسان على التفرغ للعبادة والتفكير الموصل الى اليقين.

(1) Abraham H. Maslow, Motivation and Personality, PP.17-72.

وأول مظاهر تزكية البيئة الاقتصادية هي تطهير المقررات الدراسية والبرامج الإعلامية والقيم الاجتماعية من - صنمية المال - إذ يلاحظ أن التحذير من الصنمية تركز في القرآن والحديث على التحذير من حب المال حباً يلغي الاستجابة لتوجيهات الله ورسوله. ولقد تكرر هذا التحذير في مئات المواضع بينما تميز الحديث عن صنمية الجماد والحيوان بالرواية عمن وقعوا في هذه الصنمية. والسبب أن المال كان صنم الماضي وهو صنم الحاضر والمستقبل الذي يهدد توحيد المؤمنين، وهو ما ذكره الرسول - صلى الله عليه وسلم - بصراحة ووضوح. من ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم -: (( إن لكل أمة فتنة وفتنة أمي المال ))<sup>(1)</sup>.

وقوله: (( إنما أهلك من كان قبلكم هذا الدينار والدرهم وهما مهلكاكم ))<sup>(2)</sup>.

وفي صحيح البخاري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال:

(( تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القטיפفة، تعس عبد الخميصة،

تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطي رضي، وإن منع سخط ))<sup>(3)</sup>.

ولقد قال ابن تيمية في شرح هذا الحديث: (( جعله عبد ما يرضيه وجوده ويسخطه فقده، وحتى يكون عبد الدرهم، وعبد ما وصف في هذا الحديث. والقטיפفة هي التي يجلس عليها، والخميصة هي اللباس الذي يرتديه، وإنما أضافها الرسول هنا إلى صنمية المال لأنها محبوبات لا يتوصل إليها عابدها إلا بتوفير بعضها لبعض فهي أرباب متفرقون وشرفاء متشاكسون ))<sup>(4)</sup>.

وفي صحيح مسلم أنه - صلى الله عليه وسلم - قال: (( فوا الله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم ))<sup>(5)</sup>.

وكان أبو الدرداء يقول:

اللهم إني أعوذ بك من تفرقة القلب. قيل: وما تفرقة القلب؟ قال: أن يوضح لي في كل

واد مال<sup>(6)</sup>.

(1) الطبراني، المعجم الكبير، ج19، ص179، رقم404

(2) أبو نعيم الاصبهاني، حلية الأولياء، ج10، ص261 نقلاً عن أبي داود.

(3) البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد، وكتاب الرقاق.

(4) ابن تيمية، الفتاوى، كتاب السلوك، ج10، ص597.

(5) مسلم، الصحيح، كتاب الزهد، ج18، ص95.

ويرى - إيرك فروم - عالم النفس الشهير أن الثقافة الحديثة هي دين جديد أهته الآلات، وعقيدته فكرة الكفاءة الإنتاجية، ومعنى الحياة فيه هي الحركة الدائمة للوصول إلى أعلى مستوى في المعيشة. أما الدين الحقيقي الذي جاء به الرسل فقد تحول إلى سلعة في معركة الصراع القائم من أجل المال والحياة التي يوفرها المال. وإذا كانت الأكثرية تؤمن بالله وتسلم بوجوده، بينما هناك أقلية تنكر هذا الوجود، فإن الجميع يتشابهون في عدم إعطاء اهتمام كبير لقضية الإيمان بالله والأديان المرسله من عنده. فالفرد الذي يؤمن بالله وذلك الذي لا يؤمن لا يختلفان في الشعور الديني، إذ كلاهما بارد الشعور عديم الاهتمام بالعلاقة مع الإله منصرف لشؤون حياته. والإنسان يتوقع أن يشكل الأساقفة والقسس والكهنة رؤوس حراب في مجابة مظالم الرأسمالية الحديثة، ولكنهم من الناحية العملية وضعوا أنفسهم في خدمة هذه المظالم وتبريرها والإسهام في السكوت والإسكات عن آثاها. وهذا النوع من التدين ينحدر بالأديان الموحدة إلى شكل من أشكال الصنمية<sup>(1)</sup>.

**وكما ضربت - عبادة المال - الأديان الموحدة فإنها كذلك ضربت الديمقراطيات المتحررة وأحالتها إلى هياكل لا لب لها ولا محتوى. والسبب أن الذين يملكون حق الانتخاب في المجتمعات الحديثة ليس لديهم حرية الاختيار ولا إرادة الإحساس بالذات الإنسانية ولا الرأي المستقل، وإنما هم في انتخابهم يصدرن - بفعل آلات التوجيه والإعلام الضخمة والمصالح المادية التي تهيمن على الأغنياء - عن نفس الاتجاه الذي يختارونه من خلاله " سلعهم الإنتاجية" من الأسواق الكبيرة. أي أنهم ينصتون لطبول الدعاية الضخمة ولا ينتبهون إلى " الحقائق"، وبذلك ينتخبون كما تريد لهم " رغبات " المالكين لموارد الحياة وأدوات الإعلام<sup>(2)</sup>.**

ولا يقف الأمر عندما ذكره - فروم - عن الآثار الخطيرة التي تسببت بها عبادة المال بالنسبة لحرية الاختيار عند الإنسان، وإنما امتدت هذه الآثار إلى القيم الإنسانية الرفيعة كالأخلاق والنظافة والأمانة والإخلاص. فجميعها انتقلت - في المجتمعات الحديثة - إلى إمكانية العمل ومؤسساته ودوائره وهجرت البيت والمجتمع. ومثلها - القوامة والسلطة - حيث حل رئيس العمل أو الدائرة محل الزوج والوالد في التوجيه وإصدار الأوامر والتحكم بسلوك العاملين والعاملات.

<sup>(6)</sup> أبو نعيم الاصبهاني، حلية الأولياء، ج19، ص 249.

<sup>(1)</sup> Erich Fromm, The Sane Society, PP.157-158.

<sup>(2)</sup> Ibid, PP.17-72.



وثاني عناصر البيئة الاقتصادية التي يجب أن يركز ميدان التزكية على ترسيخها

وتصويب محتواها هو مفهوم - الزهد - ذلك أن الغلط قد يقع في الزهد من وجوه هي:

**الغلط الأول؛** أن يزهد الناس فيما ينفع ولا يضر، كالزهد في الزواج وأكل الطيبات من الحلال. وفي هذا النوع من الغلط في الزهد قال - صلى الله عليه وسلم -: (( لكني أصوم وأفطر، وأتزوج النساء، وأكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني ))<sup>(1)</sup>.

**والغلط الثاني؛** أن يزهد الناس زهداً يوقعهم في فعل المحذور، كالزهد في العمل إلى أن ينتهي الزاهد إلى الفقر ويضطر إلى التسول وأخذ الصدقات والمعونات المشروطة بمدر الدين والكرامة. ولقد كان أناس يخرجون إلى الحج بدون زاد قائلين: نحن متكفون على الله، أنحج بيت الله ولا يطعمنا؟ فجاءهم الرد الإلهي: أن تزودوا من أقواتكم ولا تعتمدوا على ما لدى الناس من أقوات فإن الزهد الذي يريده الله هو التقوى باتباع أوامره واجتناب نواهيه: (( وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ))<sup>(2)</sup>.

**والغلط الثالث؛** أن يجنح أناس إلى الكسل والبطالة والراحة بحجة الانقطاع إلى الآخرة أو القناعة بالقليل. فمثل هذا الزهد قال - صلى الله عليه وسلم - عنه لأصحابه: (( أهل الناس خمسة )) فذكر منهم: (( الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبع لا يبتغون أهلاً ولا مالاً ))<sup>(3)</sup>.

وفي مثلهم قال عبد الله بن مسعود: " إني لأكره أن أرى الرجل بطالاً ليس في أمر الدنيا ولا في الآخرة. وفي مثلهم كذلك ضرب الخليفة عمر بعصاه المتنسك المنقطع في المسجد قائلاً له: قم لا تمت علينا ديننا أماتك الله (4)!".

**والغلط الرابع؛** أن يعتبر الزهد صفة ملازمة للفقراء دون الأغنياء بحيث يصبح الزهد ذريعة يجتال بها المحتكرون للاستئثار دون غيرهم بالمال ونعيم الدنيا. فالزهد في الأصل مطلوب ممن أسماهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - (( المكثرين )) أي الذين تتركز اهتماماتهم وقدراتهم العقلية والعملية على جمع المال وتكثيره. فعن أبي ذر عن النبي - صلى الله عليه وسلم

(1) البخاري، الصحيح، كتاب النكاح.

(2) الطبري، التفسير (البقرة: 197)، ج2، ص279-281.

(3) مسلم، الصحيح، كتاب الجنة. لا زبر له: لا عقل له بينها ويأمره.

(4) ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز

— قال: (( إن الكثيرين هم المقلون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيراً فنفخ فيه يميناً وشمالاً وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيراً )) (5).

**أي أن حقيقة الزهد تتسم بأمرين: السمة الأولى؛** أنه صفة مميزة للقيادات في المجتمع الإسلامي بغية توفير الأمن المعيشي لجماهر الأمة. وهذا هو منهج الرسول القائد الذي التزمه القيادات الراشدة من بعده. فلقد مات — صلى الله عليه وسلم — وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين، وما شبع أهله ثلاثة أيام تبعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا. وكان يمر عليه اليوم يلتوي من الجوع ما يجد دقلاً يملأ بطنه. والدقل هو الرديء من التمر (1). ووصف عطاء الخراساني غرف أزواجه — صلى الله عليه وسلم — فقال: أدركت حجر أزواج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود. فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يقرأ بإدخال حجر أزواج النبي — صلى الله عليه وسلم — في مسجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم —، فما رأيت يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم. قال عطاء: فسمعت سعيد بن المسيب يقول يومئذ: والله لو ددت أنهم تركوها على حالها. ينشأ ناشيء من أهل المدينة، ويقدم القادم من الأفق فيرى ما اكتفى به رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في حياته فيكون ذلك مما يزهده الناس في التكاثر والتفاخر فيها، يعني الدنيا (2).

وحين تولى أبو بكر الخلافة التزم الزهد لنفسه ولأسرته. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لبست مرة درعاً لي جديداً، فجعلت أنظر إليه وأعجبت به. فقال أبو بكر: ما تنظرين؟ إن الله ليس بناظر اليك! قلت ومم ذلك؟ قال: أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقتته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة؟ قال: فترعته فتصدقت به. فقال أبو بكر: عسى ذلك أن يكفر عنك (3).

وحين ولي الخلافة عمر بن الخطاب شدد على نفسه في التزام الزهد، وألزم بذلك عماله في الولايات، ووفر رغد العيش لجماهير الأمة (4).

(5) التاج الجامع للأصول، ج5، ص 171 نقلاً عن البخاري.

(1) مسلم، الصحيح، باب الزهد، ج18، ص 107-109.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج8، ص 167.

(3) أبو نعيم، حلية الأولياء، ج1، ص 37.

(4) البيهقي، السنن الكبرى، ج10، ص 128، أبو نعيم، حلية الأولياء، ج1، ص 101-102، الطبري، التفسير،

ج26، ص 71.

ومثل عمر كان الخليفة عثمان الذي كان يطعم الناس طعام الإمارة ثم يدخل بيته فيأكل الخل والزيت. وكان يُلبس الناس بينما يرتد إزاراً قدر بأربعة دراهم(5).

ومثلهم الخليفة علي بن أبي طالب الذي كان خير لباسه قטיפه مرقعة يرتحف تحتها من البرد. وحينما سئل عن سبب لبسها؟ أجاب: والله ما أرزأكم من مالكم شيئاً وأنها لقطيفتي التي خرجت بها من المدينة. وحينما سئل لم ترقع قميصك؟ أجاب: يخشع القلب، ويقتدي به المؤمن(1).

وهكذا كان بقية طليعة العهد الراشدي من أمثال الزبير وطلحة وكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار. وهذا ما اقتدى به عمر بن عبد العزيز حين ولي الخلافة وقد كان قبلها يتمتع نفسه بالطيبات من الملبس والمطعم وغيره(2). وهو أيضاً ما فعله نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي حينما ولي كل منهما بعد الآخر مسؤولية الأمة وإعدادها لمواجهة الخطر الصليبي(3).

والسمة الثانية؛ للزهد أنه مطلوب في الأعمال وليس في الهيئة والأقوال. فقد رأت الشفاء بنت عبد الله - وكان عمر قد عينها محتسباً للمدينة - فتیاناً يقصدون في المشي ويتكلمون رويداً. فقال: ما هذا؟ فقالوا: نساك! فقالت: كان والله عمر إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو الناسك حقاً! وعن سالم مولى حذيفة قال: كان عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر لا يعرف منهما البر حتى يقولوا أو يفعلوا! فسأله الزهري: يا أبا بكر ما تعني بذلك؟ قال: لم يكونا مؤنثين ولا متماوتين(4).

ولقد علق القرطبي على قول عمر بن الخطاب لشاب ينكس رأسه: (( يا هذا ارفع رأسك فان الخشوع لا يزيد على ما في القلب! فقال: فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في بطنه فإنما أظهر نفاقاً على نفاق(5)).

(5) أبو نعيم، حلية الأولياء، ج1، ص....

(1) أبو نعيم، حلية الأولياء، ج1، ص82-83.

(2) ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز

(3) راجع كتاب - هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - للمؤلف.

(4) ابن سعد، الطبقات، ج3، ص290-291.

(5) القرطبي، التفسير (البقرة: 46)، ج1، ص255.

وسمع عبد الله بن مسعود رجلاً يقول: أين الزاهدون في الدنيا الراغبون في الآخرة؟ فقال عبد الله: أولئك أصحاب الجابية ( أي معركة اليرموك) اشترك خمسمائة من المسلمين أن لا يرجعوا حتى يقتلوا. فحلقوا رؤوسهم ولقوا العدو فقتلوا إلا مخبر عنهم<sup>(1)</sup>. ولذلك قال - صلى الله عليه وسلم -: (( رهبانية أمتي الجهاد ))<sup>(2)</sup>.

**والغلط الخامس؛** أن يظن أن الزهد هو صفة ملازمة للفقراء من العلماء. والحقيقة أن الزهد الذي طالب به الإسلام العالم هو أن يزهد بما عند الحاكم ترفعاً بعلمه واستعلاءً بمكانته. ولكنه في مقابل ذلك يجتهد في جمع المال عن طريق الكسب الحلال حتى لا تضطره الحاجة الى الإذعان لإرادات المترفين وأصحاب السلطان والنفوذ، وهذا النوع من الفهم هو الذي جعل سلمان الفارسي يقول: إن النفس إذا أحرزت رزقها اطمأنت وتفرغت للعبادة<sup>(3)</sup>. ومثله سفيان الثوري الذي كان يقول لتلامذته: إذا أردت أن تتعبد فانظر فان كان في البيت بر - أي قمح - فتعبد، وإلا فاطلب البر أولاً ثم تعبد<sup>(4)</sup>. وحين حضرته الوفاة نظر الى ما خلفه من مال وقال: لولاك لتمندلوا بي - أي جعلوني كالمنديل يمسخون به أوساخهم<sup>(5)</sup>.

ومن طريف ما ذكره القرطبي عند تفسير قوله تعالى: {عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} قال: (( سوى الله تعالى في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال للنفقة على أنفسهم وعيالهم والإحسان والإفضال. فكان هذا دليلاً على أن كسب المال بمتزلة الجهاد، لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله. ولذلك قال عبد الله بن مسعود: أيما رجل جلب شيئاً الى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً، فباعه بسعر يومه كان له متزلة الشهداء ))<sup>(6)</sup>.

**وسادس المغالطات الشائعة** هي الطلب للفقير أن يزهد بقوت حياته وما يحفظ له كرامته وانسانيته، وأن يرضى بفقره ثم القول له: ارض بما قسم الله لك! هذا هو رزقك! ولتوضيح هذه

(1).....

(2) ابو نعيم، حلية الأولياء، ج1، ص135.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص207.

(4) البيهقي، الجامع لشعب الايمان، ج3، ص458

(5) ابن الجوزي، صيد الخاطر، (الرياض: دار القبلة، 1993/1413)، ص، 29 رقم 149.

(6) القرطبي، التفسير ( المزمّل: 20)، ج19، ص37.

المغالطة نقول أن هناك فرقاً بين " رزق الله " و (( كسب العباد )) أي اقتسامهم لهذا الرزق. فرزق الله هو ما خص به أقطار السماء والأرض من خزائن أشار إليها بقوله: { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ } [الحجر: 21]، وقوله { قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا } [الإسراء: 100]. حيث خص أقطاراً بمناجم الذهب والمعادن، وخص أخرى بمناجم الفحم، وخص ثلاثة بخزائن البترول، وخص رابعة بالخصب ووفرة الزرع، وخص خامسة بالثروات البحرية، وخص سادسة بغزارة الأمطار والثلوج، وخص سابعة بالغابات والحيوانات والماشية، وخص ثامنة بوفرة الأثمار. وغير ذلك من خزائن مضافة إلى خزائن يكشف عنها العلم مثل خزائن الجاذبية والكهرباء والطاقة الحرارية وغيرها مما كشف عنه ومما لم يكشف عنه بعد.

وهذه الخزائن الإلهية وافرة تمام الوفرة لا يعلم عددها الا الله؛ أما (( اقتسام )) ما يكشف ويستخرج من هذه الخزائن الى (( حصص )) تتضخم عند البعض حتى تعز على الإحصاء، وتندر عند البعض الآخر حتى تقصر عند أقوال يومهم، فهذا من علم البشر وليس من رزق الله، ولا يجوز بحال أن ينسب هذا التخصيص الظالم الى الله، أو أن يقال: هذا ما قسم الله. فالله خلق الرزق وامتحن العباد باقتسامه. فالمغالطة الكبرى - هنا - هي نسبة جور العباد وتضييقهم على أنفسهم، واستغلال بعضهم بعضاً إلى الله تغييراً للفقراء والمحرومين المستغلين ليرضوا بـ (( قسم العباد )) الظالمة الجائرة. والله لا يغفر أبداً للغني أن يحتكر (( رزق الله )) ويجعل احتكاره هذا مراد الله وقسمته، ولا يغفر للفقير أن يستسلم لهذا الخداع خوفاً أو جهلاً لأن كلاً من الغني والفقير مبتلى - أي ممتحن - بالآخر. ومثل هذه المغالطة المتكررة هي ما ندد به الله عند قوله: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } [يس: 47].

ويستخلص من استعراضنا للتركيب الاقتصادية بمظاهرها المختلفة أن التربية الإسلامية لا تسمح بتكوين الثروات الكبيرة ويطلق على هذا التكوين اسم (( الكثر )) الذين يكتزون الذهب والفضة وينذكر من يقترفه بالعذاب.

## 6- تركية البيئة الأدبية والفنية:

البيئة الأدبية والفنية كالبيئة الاجتماعية تحتاج دائماً إلى التزكية وإعادة النظر في محتوياتها من جيل إلى جيل لتظل مستقيمة مع الأهداف العامة لمنهاج التزكية في التربية الإسلامية ولتطهيرها من مظاهر الانحراف التي تتسرب إليها وتنمية مظاهر الاستقامة المباحة فيها.

وأول عناصر البيئة الأدبية والفنية هو - الشعر - فالشعر شأنه شأن كل "وسائل الحياة يحتاج الى "غاية" نبيلة يستعمل من أجلها. فإذا لم يرتبط بأمثال هذه الغاية تحول إلى وسيلة لخدمة الأهواء والشهوات، وإلى هذه الصفة يشير قوله تعالى: { وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ } [الشعراء: 224-227]

وواضح من تفسيرات الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتطبيقات الشعر في زمانه أن المقصود بالذين آمنوا من الشعراء هم الذين يضعون وسيلة الشعر في خدمة الرسالة فإن لم يرتبط الشعر بالرسالة تحول إلى أداة غواية. لذلك يحتاج - منهاج التزكية - أن نفوس المتعلمين من آثار موروثات الشعر الغاوي وأساليبه في قلب الحقائق والتعمية والتضليل. وبسبب هذا الدور الذي يلعبه الشعر في تشويه الحقائق نفى الله سبحانه صفة الشعر عن كتابه وذلك عند قوله: { وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ } (الحاقة: 41) ونفاها عن رسوله: { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ } (يس: 69)

ففي حين يدور الشعر في تهيئات الأودية الشعرية وضباب الخيال فإن القرآن منبع حقائق الوجود ووصفها المبين. كذلك ميز الله كتابه عن كل صفة اتصف بها الشعر. من ذلك ما انتبه إليه الجاحظ حين قال:

(( سمى الله آياته أسماء مخالفة لما سمى به العرب كلامهم على الجملة والتفصيل. فسمى جملتها - قرآناً - كما سموا - ديواناً -، وسمى فصوله الرئيسة - سورة - كما سموا - قصيدة -، وسمى وحدة السورة - آية - كما سموا - بيتاً -، وجعل آخر الآية فاصلة كما جعلوا آخر البيت قافية ))<sup>(1)</sup>.

والرسول - صلى الله عليه وسلم - ميز بين البيان وبين سحر البيان الذي يستعمل للخداع والتمويه كما يتضح من إعراضه عن شرع بمدحه، فطلب إليه أن يقول كلاماً عادياً مما يقوله الناس ثم علق عليه قائلاً: (( ان من البيان لسحراً ))<sup>(1)</sup>.

كذلك حرص الرسول - صلى الله عليه وسلم - على تزكية عقول المسلمين ومشاعرهم من الآثار السلبية للشعر ومن الاشتغال به. من ذلك قوله:

(1) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ج1، ص.....

(1) مسند أحمد (تصنيف الساعاتي)، ج19، ص272، 300.

- (( لأن يمتلي جوف رجل قيحاً حتى يريه خيراً له من أن يمتلي شعراً ))(2).
- (( ما من راكب يخلو في مسيره بالله وذكره إلا ردفه ملك، ولا يخلو بشعر ونحوه إلا كان ردفه شيطان ))(3)

وقد يحتج البعض بقوله \_ صلى الله عليه وسلم \_ : (( إن من الشعر لحكمة )) والواقع أن قول الرسول \_ صلى الله عليه وسلم \_ هذا يشير الى ذلك النوع من الشعر الذي يعمق الإحساس بجمال الحكمة الإلهية في مسارات الحياة وغاياتها. ولا أعرف في تاريخ الشعر الإسلامي \_ بما فيه الشعر العربي \_ من جاء بمثل هذا الشعر إلا نفر من أمثال جلال الدين الرومي، والشاعر الباكستاني محمد إقبال. وهذا شعر يخلو من " التهويمات الكاذبة " و " أهلام اليقظة " الذي لا وجود له وغير ذلك من الصفات التي يتصف بها الشعر الذي اغتال التفكير العربي في الماضي والحاضر.

لذلك لا غرابة إن رأينا شاعراً مثل \_ لبيد بن ربيعة \_ الذي كان من مشاهير شعراء الجاهلية يقلع عن الشعر حين أسلم وحسن إسلامه. وحين سأله عمر بن الخطاب في خلافته عن شعره واستنشدته، قرأ سورة البقرة. فقال عمر: إنما سألتك عن شعرك. فقال: ما كنت لأقول بيتاً من الشعر بعد إذ علمني الله البقرة وآل عمران. فأعجب عمر قوله هذا، وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة(4).

وحين ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز وفد عليه الشعراء من الحجاز والعراق. وكان فيمن حضر جرير والفرزدق والأعوص وكثير عزة، والحجاج القضاعي. فمكثوا شهراً لا يؤذن لهم بالدخول، فتوسل جرير بالفقيه عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود فدخل بصحبته على عمر بن عبد العزيز وراح ينشد قصيدة أوردتها \_ صاحب حلية الأولياء \_، فلما انتهى جرير من إنشاده قال له الخليفة عمر: أخبرني أمن المهاجرين أن يا جرير؟ قال: لا. قال: أبينك وبين الأنصار رحم أو قرابة أو صهر؟ قال: لا. قال: فلا أرى لك من شيء في هذا الفيء حقاً. قال: بلى والله لقد فرض الله لي فيه حقاً إن لم تدفعني عنه. قال: ويحك وما حقك؟ قال: ابن سبيل أتاك من شقة بعيدة فهو منقطع على بابك! قال: إذا أعطيك. فدعا بعشرين دينار فضلت من

(2) السيوطي، صحيح الجامع الصغير، (تحقيق الألباني)، رقم 5048) نقلاً عن البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجه واحمد).

(3) نفس المصدر، رقم 8706.

(4) القرطبي، التفسير، (مطلع سورة البقرة)، ج1، ص108.



عطائه وقال: هذه فضلت من عطائي وإنما يعطى ابن السبيل من مال الرجل، ولو فضل أكثر من هذا أعطيتك. فخذها فإن شئت فاحمد، وان شئت فذم. قال: بل أحمد يا أمير المؤمنين. فخرج جرير فجهشت اليه الشعراء وقالوا: ما وراءك يا جرير؟ قال: ليلحق الرجل منكم بمطيته فإني خرجت من عند رجل يعطي الفقراء ولا يعطي الشعراء<sup>(1)</sup>.

والسؤال الذي نطرحه: ما الحكمة من هذا الموقف الذي تتخذه الأصول الإسلامية

من الشعر؟ الجواب يتمثل في عدة أسباب هي:

**السبب الأول؛** يكمن في بنية الشعر نفسه التي تفرز عدة مضاعفات سلبية في النفس الإنسانية، ومن هذه المضاعفات ان تعلم الشعر وتذوقه يؤدي إلى تكوين ما نسميه: (( العقلية الشاعرية )) و (( القيم الشاعرية ))، وهما ينتهيان بالإنسان إلى الاتصاف بصفات أهمها: أولاً؛ القناعة ببلاغة الكلمة دون العمل. فالعقلية الشاعرية تعطي الكلام من القيمة أكثر مما يستحق. بل إنها لتجعل الكلام نهاية المطاف في الجهود التي تبذل لمواجهة المشكلات والأخطار. ولذلك كانت العقلية العربية التي نشأت في حضارة الشعر عقلية تقف عند حد الإعجاب بالكلام دون العمل. وهذا واضح - الآن - في الإعلام العربي الذي يقضي الأيام بالإشادة بكلمة أو خطبة يلقيها مسؤول لم يحقق إنجازاً وإنما أعطي وعوداً وأقوالاً. ولقد أدرك هذه الصفة العقلية المؤرخ البريطاني - جب Gibb - حين كتب في مقدمة كتابه - الاتجاهات الحديثة في العالم الإسلامي المعاصر - يقول: إن العربي تسحره بلاغة الكلمة حتى تعميه عن الواقع.

والواقع أنها ليست صفة في العربي وإنما هي جناية الشعر على التفكير العربي. ولذلك يمكن أن نفهم الاهتمام الشديد الذي أولته - وما زالت توليه - دوائر الاستشراق المصاحبة للاستعمار الحديث للشعر العربي، وللتشجيع الذي يقدمونه للشعر حتى أن طه حسين وجيله الذين أضاعوا أعمارهم في المعارك الشعرية لم يكونوا إلا أدوات مسخرة للإدارات الاستعمارية التي ألهمت العقل العربي بهذا التراث السليبي<sup>(1)</sup>.

**والمظهر الثاني لمضاعفات - التفكير الشاعري - هو عدم الواقعية.** فالتفكير الشاعري

لا يعي الواقع القائم ولا يعالجه بالوسائل الواقعية ولأن سحر الكلمة ينقله إلى واقع وردي أو قائم موهوم، مما يجعله يستل له وسائل غير واقعية ولا علمية، وما يسمى في الشعر بـ (( الخيال

(1) أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ج5، ص 327-328.

(1) قد يعز على البعث مثل هذه الإدانة للشعر الرعي خاصة وأنه أنجب أمثال: المتنبي والمعري وابن هانيء الأندلسي. ناسين أن هؤلاء كانوا أدوات إعلامية للإسماعيلية والفاطميين وأن نظائرهم كانوا أدوات إعلامية للعباسيين.

العذب (( هو مظهر من مظاهر (( أحلام اليقظة )) التي هي مرض نفسي مشئت للأذهان، مذهب للطاقت العقلية في خيالات لا وجود لها. ولعل هذا يجعلنا ندرك الحكمة من قوله تعالى: { أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ }

والمظهر الثالث لمضاعفات التفكير الشعري انه يقتل التفكير العلمي ويضع غشاوة الهوى على الأبصار مما يجرمها من (( الملاحظة العلمية )) التي هي أولى خطوات التفكير العلمي ثم يدفع التفكير فيما يشبه - السكر - حين يمضي في ابتكار الصور وعقد المقارنات المتخيلة. ولقد ظل الإنسان العربي هائماً مخموراً بالصور الشعرية وهو يذرع الأرض العربية جيئة وذهاباً آلاف السنين بينما ينسج الشعر على عينيه وعقله غشاوة منعتة من (( ملاحظة )) الثروات الهائلة في باطن الأرض وظاهرها.

والسبب الثاني الذي جعل الأصول الإسلامية تحرص على تزكية الثقافة من الشعر ومناهجه هو أن الشعر مخالف للتفكير العقلاني، ومن انتبه الى سلبية التفكير الشعري البروفسور - إيمت - الذي حذر مما أسماه بـ (( سحر اللغة )) فقال: (( نحتاج أن نتحقق من أن الكلمات يمكن أن تستعمل بعقلانية، ويمكن أن تستعمل بأسلوب عاطفي. واللغة العاطفية تقترن بالذاتية بينما اللغة العقلانية تقترن بالموضوعية. واللغة العقلانية نزيهة ومتجردة بينما تكشف اللغة العاطفية دائماً عن تحيز وأفكار مسبقة ))<sup>(1)</sup>.

ويرى مالك بن نبي أنه حين يصاب الإنسان بعدم التماسك ونقص الأفكار تعلق نبرات الصوت لكي يعرض النقص في الحجة والبرهان. وعندئذ تظهر البلاغة الثقيلة في الأدب ويكثر استعمال أدوات التفضيل في اللغة، والتشديق بالأوصاف مثل عبارة: (( الشعب البطل ))، (( عملاق الثورة ))، (( المارد الجبار )).. الخ. إنها حجة عاطفة والتفخيم فيقال مثلاً: (( الموقف خطير جداً )) بدلاً من أن تعطى فكرة دقيقة تصف الموقف في بساطة، إنها طريقة مخدرة في التفخيم أو التصغير فيقال: (( كل الدنيا تعلم ذلك )) عندما يراد تأكيد رأي، أو يقال: (( لا أحد يعتقد ذلك )) للانتقاص من قيمة رأي آخر. وباختصار أنه حشو الكلام حيث نجد الكلمة - بدل من أن توضح الموضوع - تقتصر على إلقاء ظل جديد يزيد في غموضه<sup>(2)</sup>.

<sup>(1)</sup> Harry Schifield, The Philosophy of Education, PP.13-14.

<sup>(2)</sup> مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 79.

ولعل الأسباب التي مرت مناقشتها تقدم سبباً يفسر انتشار البلاغة والمجاز والمحسنات البديعية في تراث الجاهلية حيث لم تكن هناك أفكار عقلانية ولا علوم تستحق الانتباه. وهو السبب نفسه في اتخاذ أساليب البيان زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - طابع الرزانة والجد والاكتفاء بتقديم التفاصيل والبعد عن الخيال والزخرفة اللغوية.

وثاني عناصر البيئة الأدبية والفنية التي يركز منهاج التركيبة على معالجتها هي الآداب والبرامج الإعلامية بغية تطهيرها مما يخالف أهداف التربية الإسلامية في التركيبة خاصة تلك الموضوعات التي تدور في فلك العصبية كالمدح والفخر والهجاء التي تنسب الكمال والعصمة لأننا العصبية والنقص والعيوب للخصوم. ولذلك كانت الحملة الشديدة على المدح والمداحين. من ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم -: (( إذا رأيت المداحين فاحثوا في وجوههم التراب ))(3).

وقوله: (( إذا قال الرجل للمنافق يا سيدي، فقد أغضب الله ))(1).

وعن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمر: يا أبا عبد الرحمن إنا ندخل على الأمراء فيقضي أحدهم بالقضاء جوراً. فيقول: وفقك الله أو ينظر الى الرجل منا فيثني عليه. فقال: أما نحن معشر أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكنا نعدّه نفاقاً، فما أدري ما تعدونه.

وفي رواية أخرى، قلت يا أبا عبد الرحمن: إنا نجلس الى الأمراء فيتكلمون بالكلام ونحن نعلم أن الحق غيره فنصدقهم ويقضون بالجور فنقويهم عليه ونحسنه لهم فكيف ترى في ذلك؟ فقال: يا ابن أخي كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نعد هذا من النفاق(2).

والحقيقة أن المدح - في حقيقته - هو ذكر الصنمية وتسيبها لأنه يتسبب للمدوح بتضخم مرض " الطغيان" ويؤدي الى استفحال مرض " الاستضعاف" بين المداحين والجماعات التي تستسيغ المدح وأساليبه.

وثالث عناصر البيئة الأدبية والفنية هي - الفنون - نفسها، حيث يحتاج منهاج التركيبة دائماً الى إعادة النظر في فلسفتها وتطبيقاتها من جيل إلى جيل لتظل مستقيمة مع

(3) السيوطي، صحيح الجامع الصغير، تحقيق الألباني، ج1، رقم 569 نقلاً عن البخاري في الأدب، ومسلم والترمذي وأبي داود وأحمد والطبراني في الكبير والبيهقي في شعب الإيمان.

(1) السيوطي، صحيح الجامع الصغير، ج1، رقم 711.

(2) الطبراني، المعجم الكبير، ج12، ص255 رقم 13264 و 13265 نقلاً عن البخاري وأحمد وابن ماجه.

الأهداف العامة للتربية الإسلامية، ولتطهيرها من مظاهر الانحراف التي تتسرب إليها وتنمية مظاهر الاستقامة المباحة فيها.

وتركية البيئة الفنية لا يعني التزام المغالاة في التدين والصرامة في الحياة، وإنما معناه أن تكون الفنون نابعة من فلسفة التربية الإسلامية مجسدة لها في عالم الواقع. وتوجيهات الرسول - صلى الله عليه وسلم - في هذا المجال كثيرة منها قوله: (( الهوا والعبوا فإنني أكره أن يرى في دينكم غلظة )).

وقوله: (( خير لهو المؤمن السباحة، وخير لهو المرأة الغزل ))<sup>(3)</sup>

ومن الطبيعي أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يحصر لهو الرجال في السباحة ولهو النساء في الغزل وإنما يوجهه الى أن القاعدة في اللهو أن تكون أدواته ذات منافع مثمرة في حياة الإنسان.

ومثلها أيضاً قوله: (( إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته )) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: رخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أمر فتنه عنه ناس من الناس فبلغ ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - فغضب حتى بان الغضب في وجهه ثم قال: (( ما بال قوم يرغبون عما رخص لي فيه؟ فو الله لأنا أعلمهم بالله عز وجل وأشدهم له خشية ))<sup>(1)</sup>.

ولكن رغم هذا التوازن الذي يوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - اليه في الحياة الفنية فإن التحايل عليه وتحميل الرخصة أكثر مما تحمله أمر لا يسمح به. فلقد روى أبو الحسين في كتاب الغرر عن صفوان بن أمية قال: كنا عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ جاءه عمرو بن قرّة فقال له: يا رسول الله إن الله كتب علي الشقوة فلا أرزق إلا من دني بكفي فأذن لي في الغناء من غير فاحشة. فقال عليه السلام: (( لا إذن لك ولا كرامة ولا نعمة كذبت! أي عدو الله لقد رزقك الله رزقاً طيباً فاخترت ما حرم الله عليك من رزقة مكان ما أحل الله لك من حلاله. أما أنك لو قلت بعد هذه المقدمة شيئاً ضربتك ضرباً وجيعاً ))<sup>(2)</sup>.

(3) كثر العمال، ج15، ص 211.

(1) مسند أحمد، (تصنيف الساعاتي) ج19، 17.

(2) الرازي، التفسير الكبير، ج2، ص 30.

## 7- تركية البيئة الطبيعية:

البيئة الطبيعية هي المحضن الواسع الذي يضم في داخله مختلف البيئات التي مر الحديث عنها. ولذلك كانت تركية هذا المحضن أمراً ضرورياً لنجاح التركيبة في البيئات المذكورة. وتقوم تركية البيئة الطبيعية على مبدئين اثنين: الأول؛ التعمير، والثاني؛ النظافة.

أما عن التعمير فإن من مسؤوليات مناهج التركيبة الإعداد لتدريب إنسان التربية الإسلامية على تعميم الأرض وتزيينها بمظاهر الانجازات الحضارية المختلفة. وأصول هذا المبدأ كامنة في أمثال قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ، لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (يس: 33-35)

{أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (سبأ: 11)

والتوجيهات القرآنية التي ترشد إلى إعمار الأرض والاستفادة من مواردها كثيرة ومتنوعة وشاملة. ومثلها الأحاديث النبوية الكثيرة التي تبلغ في حثها على العمل لتركية البيئة الطبيعية من عوامل الفقر والتخلف حداً تدعو إنسان التربية إلى الاستمرار في ذلك حتى إذا قامت القيامة ويبد الزارع فسيلة فليغرسها<sup>(1)</sup>. ولا شك أن الدلالة العميقة لحديث الفسيلة هي استمرار التعمير وعدم التوقف عن ذلك خلال فترات الاستقرار أو فترات الأزمات ولو تصاعدت هذه الأزمات حتى تبلغ قيام الساعة التي تبدل فيها الأرض غير الأرض، والسماوات غير السماوات.

أما عن المبدأ الثاني - أي مبدأ النظافة - فيتكامل مع مبدأ التعمير لتشكيل البيئة الطبيعية المزكاة الراقية. وأهمية هذه النظافة تتصاعد حتى تصبح جزءاً من الإيمان<sup>(2)</sup>.

والحقيقة أن النجاح في تركية البيئة الطبيعية هو نجاح في تحويل التوجيهات الإسلامية إلى إنجازات حضارية عملية. وبدون هذا النجاح تبقى التوجيهات المذكورة مجرد مثل عليا مخزونة في عالم الأفكار دون الأعمال.

لا بد من تكامل تركية البيئة الطبيعية مع تركية البيئات الأخرى التي مرت. وما لم يتم هذا التكامل فإن جميع الانجازات الحضارية سوف تتعرض لأخطار الانهيار والدمار. وهذا ما يوجه إليه أمثال قوله تعالى:

(1) مسند أحمد، ج3.

(2) سنن الرمذي، كتاب الأدب.

- {أَوْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [الروم: 9].

- {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [يونس: 24].

### 8- تزكية الثقافة والتراث:

المقصود بـ(( الثقافة )) - في هذا الحديث - مجموعة الاعتقادات والأفكار والعادات والأعراف والتقاليد والقيم والمؤسسات والنظم وسائر أشكال العلاقات والممارسات التي تحتوي عليها حضارة ما أو مجتمعات معينة.

ويلاحظ على مناهج التربية الإسلامية أنها تركز عملها على تزكية المجتمعات من (( ثقافة الطغيان والاستضعاف )) وإشاعة (( ثقافة العدل والقسط )) اللتين مر الحديث عنهما في فصول سابقة. وتتم التزكية المذكورة بطريقتين اثنتين: الأولى؛ تحليل الثقافة السائدة في حياة كل جيل. والثانية؛ تنقية هذه الثقافة من العناصر السلبية وتحليلتها بالبدائل الإيجابية. أما تفاصيل ذلك فهي كما يلي:

#### أولاً: تحليل الثقافة وتشخيصها:

ويتركز عمل هذا التحليل على اكتشاف الحساسيات المرضية التي يجسدها في واقع الحياة مفردات الثقافة التي فقدت فاعليتها أو بان ضررها لأن وجود هذه الحساسيات يجعل إنسان تلك الثقافة عرضة للإصابة بمرض (( الطغيان والاستضعاف )) ما لم يجر إكسابه المناعة المضادة لهذه الحساسية وتطعيمه بالمزكيات الواقية من مضاعفاتها.

ويكشف البحث في تاريخ الثقافات أنها تكونت نتيجة لتفاعل أربعة عناصر هي: البيئة الطبيعية، والتنشئة، والوراثة، والمثل الأعلى. فإذا أحسنت التربية تنمية هذه العناصر وحققت التكامل بينها برزت ثقافات صحيحة فاعلة، وحضارات راقية، ومجتمعات متوازنة. أما إذا أحفقت التربية في تنمية هذه العناصر وحدث الانشقاق بينها وتضخم أحدها على حساب الأخرى برزت ثقافات مريضة، ومجتمعات مضطربة، وحضارات متخلفة.

ولقد قامت (( البيئات الطبيعية )) بدور المحاضن الأولى للمجتمعات فزودتها بالحاجات الأساسية كالمأوى والطعام والشراب ثم استمرت تؤثر في نشاطاتها الجارية طبقاً لدرجة امدادها بالحاجات المشار إليها.

أما (( التنشئة )) فقد زودت انسان المجتمعات البشرية بالرعاية وأمدته بالخبرات والمهارات الأولية اللازمة للحصول على حاجاته الأساسية.

وأما عنصر (( الوراثة )) فقد أمد إنسان الجيل بخبرات الأجيال السابقة وأعطته خصائصهم البدنية والنفسية والعقلية. ولقد اختلفت فاعلية هذه الوراثة طبقاً لالتزام المجتمعات بالمواقف العلمية من محتويات الوراثة المذكورة.

وخلال مسيرة المجتمعات الإنسانية تطور في كل منها (( مثل أعلى )) بشري اشتقه مفكرون وفلاسفة، أو شعراء وحكماء من الأعراف والعادات والتقاليد والخبرات الخاصة التي منحوها صفات الصواب والخير والحسن. وجاء أنبياء ومسلون بـ (( مثل أعلى )) إلهي ليزود إنسان تلك المجتمعات بما يربيه وينظم تفاعله مع (( البيئة الطبيعية والاجتماعية )) طبقاً لسنن الخلق وقوانينه. ولقد أطلق القرآن الكريم على نماذج المثل الأعلى البشري التي اختلفت معه اسم (( المثل السوء )):

{لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [النحل: 60].

ولقد وجه كل من النموذجين من المثل الأعلى حياة المجتمعات طبقاً لتفوق نظم التربية وتطبيقاته الثقافية التي تتبنى أياً من النموذجين.

وانحدرت العوامل الأربعة - عوامل البيئة الطبيعية، والتنشئة، والوراثة. والمثل الأعلى - مع مسيرة المجتمعات الإنسانية منذ طور الحضارة الأولى للمجتمعات وعملت على تلبية حاجات الإنسان طبقاً لقوة الدوافع النفسية المحركة لكل حاجة، وانتظمت هذه الحاجات - في غالب أحوالها - في سلم معين يمكن تصنيفه إلى ما يلي:

أ - حاجات للحفاظ على جسد الإنسان، وهذه تشمل التالي:

- 1- الحاجات الجسدية ( الفسيولوجية ) كالحاجة الى الطعام والشراب والجنس.
- 2- حاجات السلامة، كالحاجة إلى اللباس والمأوى والأمن والسلامة من الخوف والقلق والاضطراب.
- 3- الحاجة للبقاء.



ب- حاجات للحفاظ على إنسانية الإنسان. وهذه تشمل ما يلي:

- 1- حاجة الانتماء: الحاجة للزواج , الولادة الشرعية
- 2- حاجة التقدير والحب.
- 3- الحاجة لتحقيق الذات، كحاجة الأم لأن تكون أمّاً مثالية، وحاجة السياسي للانجاز، وحاجة العسكري للانتصار، وحاجة الكاتب للإبداع.
- 4- الحاجة للمعرفة والعلم والدين والقيم.
- 5- الحاجات الجمالية مثل تعشق الجمال والنفور من القبح، وحب الخير وبغض الشر<sup>(1)</sup>.

6- الحاجة للتعرف للتعرف على وقائع النشأة ( اي ما قبل الحياة )

ومنذ طور المحاضن الأولى للمجتمعات البشرية توجه سكان هذه المحاضن إلى البيئة الطبيعية لإشباع القسم الأول (أ) من الحاجات: أي الحاجات الأساسية اللازمة للحفاظ على الجسد. وخلال ذلك التوجه (( تعارفوا )) على أنماط سلوك معينة لإشباع هذه الحاجات فتكون ما سمي بـ (( الأعراف )) . وحين انتشرت الأعراف انتشاراً عرضياً بين الآخرين واعتادوا عليها تكون ما سمي بـ (( العادات )) .

وحين تزلت العادات من جيل إلى جيل و (( قلد )) الخلف السلف تكون ما سمي بـ (( التقاليد )) . وحين طورت مجتمعات المحاضن مقاييس معينة للحكم إيجاباً وسلباً على أنماط الأعراف والعادات والتقاليد برز ما سمي بـ (( القيم )) . والالتزام بالقيم التي وصفت بالإيجابية ولد (( الفضائل )) ، أما تدني هذا الالتزام فقد ولد ما سمي بـ (( الرذائل )) . والمحصلة النهائية لعمل القيم والمؤسسات والنظم التي ترعاها وتمارسها، وشبكة العلاقات الاجتماعية التي تجسدها كونت ما يعرف بـ (( الثقافة )) .

ولما كان إشباع الحاجات المادية والمعنوية هو - المحور - الذي تشكلت حوله (( الثقافات )) فقد توازت فيها الحاجات المذكورة مع القيم التي يحكم من خلالها على إشباع هذه الحاجات:

أي توازت الحاجات الفسيولوجية مع القيم الفسيولوجية.

وتوازت حاجات الأمن مع قيم الأمن.

وتوازت حاجات الاحترام مع قيم الاحترام.

<sup>(1)</sup>Abraham H.Maslow, Motifation and Personality, PP.35-51.

وتوازت حاجات الانتماء مع قيم الانتماء.  
وتوازت حاجات تحقيق الذات مع قيم تحقيق الذات.  
وتوازت الحاجات العقلية مع القيم العقلية.  
وتوازت الحاجات الجمالية مع القيم الجمالية.  
ولكن المشكلة التي واجهتها المجتمعات البشرية - وما زالت تواجهها - هي أن الإنسان وهو يحاول إشباع حاجاته المادية والمعنوية ظل يعاني من أمرين:  
**الأول؛** أن الدوافع الإنسانية التي تتحرك نحو إشباع الحاجات لا تعمل على نسق واحد، وإنما تتفاوت في القوت والضعف، وتذبذب بين الإفراط والتفريط خلال لحظات التفاعل مع البيئة المحيطة.  
**والثاني؛** أن المجتمعات البشرية، في طور المحاضن الأولى، بدأت تفاعلاتها مع البيئة المحيطة في ظروف ثلاثة: قصور في وسائل إشباع الحاجات، ونقص في الخبرات الإنسانية اللازمة لتنظيم شبكة علاقات الجماعات، وجهل في قوانين تسخير البيئات.  
ولكن درجة وعي الإنسان بالحاجة لتحسين ما تشتمل عليه ثقافته المادية من وسائل وأدوات تشبع حاجاته الجسدية، كانت أعلى بكثير من درجة وعيه بالحاجة لتحسين ما تشتمل عليه (( ثقافته )) المعنوية من معتقدات وأعراف وعادات وتقاليد وقيم وعلاقات ونظم. بل إنه كثيراً ما يسبغ العصمة والكمال على ثقافته المعنوية ويربي ناشئته على تقديسها، ويقاوم أية محاولة لتزكيتها، الأمر الذي كان - وما زال - يؤدي الى الأزمات بالقدر الذي يتخلف فيه الإنسان عن تغيير ما بنفسه من مكونات الثقافة المذكورة.  
وعندما كانت الأزمات تتحول إلى إشكاليات مزمنة مستعصية تهدد النوع البشري كان الوحي الإلهي يتزل - (( مثل أعلى )) لترشيد تغيير ما بالأنفس من (( أغلال )) الثقافة النفسية و (( آصارها )) الاجتماعية، وليصبح الناس قادرين على تنظيم إشباع حاجاتهم الجسدية والمعنوية بما يتفق مع قوانين الخلق وسنن الحياة والنشأة والمصير. وحين يغيب - معامل الوحي - يتسرب الاضطراب الى دوافع إشباع الحاجات والى القيم التي توجهها وينشأ ما نسميه بـ "ثقافات الطغيان والاستضعاف"، حيث يسيطر الأقوياء على ما يشبع حاجاتهم ويقعون ضحية الاستضعاف والصنمية. والى المرض الأول يشير قوله تعالى: { كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ } والى الحالة الثانية يشير عند أمثال قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ } ( العلق: 6-7 )، والى الحالة الثالثة يشير عند أمثال قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ }

الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا { (النساء: 97).

ولتوضيح هذا اللون من الثقافات نستعرض مثالين منهما: الأولى؛ الثقافات العربية.

والثانية؛ الثقافة الأوروبية.

أما عن - الثقافة العربية - فقد بدأت محاضنها الأولى في شبه الجزيرة العربية التي اتسمت (( بيئتها الطبيعية )) بالجفاف وقسوة المناخ. ومن هذه البداية ربما اشتق اسم (( البادية )) و (( البدو )) . وفي (( محاضن الواحة الصحراوية )) ذات الرقعة الصغيرة والشحيحة الموارد والمحاطة ببحار الرمال المليئة بالأخطار احتلت (( البيئة الطبيعية )) مركز المحور وأخذت تدور في فلكها عوامل (( التنشئة )) و (( الوراثة )) . ولذلك غلب الاهتمام بحاجات الجسد التي توفرها البيئة المذكورة، وصارت عناصر (( التربية )) و (( الوراثة )) تتشكل ضمن الإطار الذي تمليه محددات البيئة الطبيعية القاسية.

وخلال العمل على توفير حاجات الجسد تعارف البدو المبتدئون على ممارسات ووسائل عرفت باسم (( الأعراف )) . وحين تكررت هذه الأعراف البدوية بين سكان الواحة واعتاد الناس عليها ورغبوا بها صارت (( عادات )) . وحين تنزلت العادات طولياً من جيل الى جيل صارت (( تقاليد )) . وفي إطار هذه المنظومة من الأعراف والعادات والتقاليد نشأت (( الثقافة العربية )) التقليدية واتسمت بما يلي:

1- في نظام القيم التي تشكلت في الواحة الصحراوية احتلت "القوة" التي توفر السلامة والعيش مكاناً أعلى من (( الفكرة )) التي تنظم وترتقي بها. ولذلك تسلم (( الأقوياء )) منزلة الهيمنة المطلقة، وأسلم (( الضعفاء )) أمورهم كاملة للأقوياء، واستمرت هذه العلاقة تتوسع حتى شكلت شبكة العلاقات الاجتماعية سواء أكانت بين الرؤساء والأتباع، أم الرجال والنساء، وبرزت (( ثقافة طغيان الأقوياء واستضعاف الضعفاء )) .

2- نشأ الشعر بدل الفكر لأن الشعر هو الأداة المناسبة لمداعبة طغيان الأقوياء وتملقهم. وهو الإدارة المناسبة كذلك للتعبير عن توتر مشاعر الضعفاء وتذبذبها بين الإحساس بالأمن أو الخطر، والفرح أو الحزن، والأم أو الإحباط، والرضى أو الغضب. وهذه الانفعالات وأمثالها هيمنت على إنسان الواحة المحاطة

بالأخطار، اشلححة المصادر، فمدح وهجا، وتفاخر وشكا بأساليب بيانية، وموازن شعرية.

3- لما كانت مساحة الواحة لا تتسع لأكثر من قبيلة واحدة، فقد انتهى ولاء انسان الواحة عند دائرة العصبية القبلية ولم يتعداها الى ما وراءها من عصبيات القوم أو العرق. كذلك برزت (( ثقافة الغزو والاقتتال)) بين قبائل الواحات المتعددة وجعلت العدا والتصارع على مصادر الحاجات الأساسية أسس العلاقات بينها.

4- أفرز جفاف البيئة الطبيعية اتجاه الاحجام عن العمل واستبطاء ثماره واستبداله \_ في حالات القوة \_ بالاقتصاب والاحتكار والغزو والاسترقاق، وفي حالات الضعف باستجداء (( الأشخاص )) الأقوياء وتملقهم والإذعان لإرادتهم.

وكان من ثمار هذه السمة السلبية مضاعفتين سلبيتين كذلك. الأولى؛ أن الإنسان في تلك البيئة الطبيعية القاسية صار يخشى - الأقوياء من نظائره -، وصار في سعي دائم عافهم وتدميرهم. الأمر الذي أقام العلاقات الاجتماعية في حالات القوة والسلم على أساس التنافس الفردي وانعدام التآلف والتعاون اللازمين لبناء المجتمعات وقيام الحضارات. والمضاعفة السلبية الثانية أن إنسان تلك (( البيئة الطبيعية )) صار لا يقدم مساعدته لأخيه الإنسان، إلا إذا تعرض الأخير لخطر المرض أو الضرر أو نزلت به المصائب، ولذلك برزت مفاهيم مساعدة الفقراء والمساكين والصدقات الفردية، ولم تبرز مفاهيم الضمان الاجتماعي والرفاهية الاجتماعية، وبرزت مفاهيم الرق والعبودية ولم تبرز مفاهيم الحرية، وبرزت مفاهيم (( المكرمات الملكية والرئاسية )) ولم تبرز مفاهيم الحقوق الاجتماعية. يضاف إلى ذلك أن الإحسان الى الضعفاء والمساكين والمهددين بالهلاك يشعر المحسن - في تلك البيئة - بمزيد من القوة والتفرد بالملكية والجاه والسلطان وولاء الأتباع، وهذه حالة نفسية مرتبطة بالحالة النفسية التي مرت في المضاعفة السلبية الأولى.

5- في بيئة الواحة الصحراوية حيث أثبتت الطبيعة القاسية الإنسان عند الدرجات الدنيا من سلم الحاجات الإنسانية المتمثلة في الحاجات الفسيولوجية والحاجة إلى الأمن، لم يتيسر لذلك الإنسان أن يرتقي إلى الدرجات العليا من هذا السلم

التمثلة في تحقيق الذات ومعادلاته في الإنجاز والإبداع. ولذلك حدث الانشقاق بين القول والعمل، فصار الإنسان يكافح كل وقته للحفاظ على حاجات الجسد ويستعمل (( الأفكار )) و (( المثل العليا )) و (( البلاغة اللغوية )) كعملات ونقود ينفقها لتأمين متطلبات البقاء الجسدي. ولذلك برزت ظواهر (( شعراء المديح )) و (( النفعية الدينية )) أو البراجماتية البدوية التي ندد بها القرآن الكريم ووصف أهلها بقوله تعالى: { الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } ( التوبة: 97).

ولذلك أيضاً قال \_ صلى الله عليه وسلم \_: (( من سكن البادية جفا )) و (( من بدا جفا ))<sup>(1)</sup>، وقال أيضاً: (( أسجع كسجع الأعراب ))<sup>(2)</sup>.

وما زالت تطبيقات هذه - البراجماتية البدوية - التي تمزج بين المادية والمثالية واضحة قوية في ثقافة العربي المعاصر. فهو إذاً أراد نفعاً خطط له مسبقاً بدعوة من عنده النفع الى (( عزومة )) أي وليمة طعام - الذي هو وسيلة إشباع حاجة فسيولوجية -، فإذا حضر المدعو وأكل طعام الداعي ذهب الأخير الى الأول بعد ذلك يطلب النفع المستهدف، فإن لم يجب طلبه هجاه وعييره بأنه لا يقدر الاحترام ولا يتذكر الإكرام.

6- تغلب الانفعال على العقلانية وشاع المزاج المتقلب الذي يقفز من خطوة الشعور بالمشكلة الى طرح الحل العشوائي أو إصدار الحكم المرتجل الذي يمليه الميل والرغبة والكره دون المرور بخطوات تحديد المشكلة وجمع المعلومات وتحليلها.

7- لما كانت (( الواحة )) خالية من متع الحياة ووفرة المياه وجمال الخضرة والمتنزه فان المتعة الوحيدة التي تذوق من خلالها (( إنسان )) الواحة طعم اللذة هي اللحظات التي يقضيها الرجل أو المرأة مع نظيره من الجنس الآخر. ولذلك ارتفعت درجة الاهتمام بعلاقات الجنسين وارتفعت درجة الغيرة بينهما، وظهر - من ناحية اخرى - شعر الغزل والتشبيب وقصص المحبين المجانين، وصار الأقوياء - الأغنياء ينوعون المحبوبات ويعددون الزوجات.

(1) الترمذي، السنن، باب الفتن.

(2) مسلم، الصحيح، باب حكم المحاربين، ج11، ص178-179.

ولقد تفاعلت هذه السمات والمؤثرات خلال التطور التاريخي لثقافة محاضن الواحة الصحراوية وأفرزت تراثاً ثقافياً واجتماعياً يعاني من سلبيات عديدة: منها بروز التزعة الصنمية حيث يتخلى الضعيف عن حرته وممتلكاته من أجل القوي ثم يتوسل اليه ليرد له بعضاً مما تخلى عنه. ومنها إعاقة نضج القدرات العقلية والنفسية. ومنها سوء توزيع الموارد البشرية والمادية ووضعها في غير أماكنها المناسبة؛ ومنها اضطراب شبكة العلاقات الاجتماعية وفقدان الحدود التي تحدد أدوار الأفراد والجماعات. ومنها تصنيف قاطني الواحة الواحدة الى سادة وعبيد وهو تصنيف تطور خلال التاريخ وظهر بأشكال العربي والمولى، والكفيل والمكفول. أو التصنيف الى عرب ومستعربين وهو تصنيف تطور خلال التاريخ الى حمس ومتحمسين، ومواطن وأجنبي، وأصيل ومتجنس.

وجميع هذه المضاعفات السلبية التي اتسم بها تراث العصبية القبلية شكلت (( أغلالاً )) قيدت الإنسان العربي عن التقدم والرفي، و (( آصاراً )) - حسب تعبير القرآن الكريم - أعاقته عن التجاوب السريع الفعال من دعوات الوحدة ورسالات الإصلاح.

ولم يتحرر من تأثير هذه السلبيات إلا حين أرسل الله تعالى رسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم - بـ (( مثل أعلى )) يوازن بين عناصر: البيئة الطبيعية، والتنشئة، والوراثة. ولقد أحكم عليه السلام تربية أصحابه على (( المثل الأعلى )) الذي جاء به، فكان من ثمرات هذا الإحكام إخراج جيل توازنت في نفوسهم منظومة القيم التي وجهت حياتهم ونظمت حاجاتهم وأنشطتهم في الداخل والخارج.

وحين انتهى جيل الصحابة هذا وضعف تأثير التربية النبوية عادت قيم تراث العصبية القبلية لتبعث الاضطراب وتقوض التوازن وتفتت التآلف في المجتمعات الإسلامية ولتستمر في إشعافها حتى انتهت بها إلى الجمود والسقوط الحضاري، وما زالت قيم العصبية المشار إليها تشكل اقوى التحديات وأصعب العقبات أمام محاولات الإصلاح التربوي والتخطيط الاجتماعي والتنظيم السياسي.

وأما عن - الثقافة الأوروبية - فقد بدأت محاضنها الأولى في مدن اليونان القديمة كأثينة وأسبارطة وهي (( بيئة طبيعية )) وفرت (( الأشياء )) اللازمة لإشباع الحاجات الأساسية اللازمة لبقاء جسد (( إنسان )) تلك المحاضن وحيث نقل الأخطار الطبيعية والمناخية والبشرية في البيئات المحيطة بهذه المحاضن عن نظائرها المحيطة بـ (( الواحة الصحراوية )) ولذلك أشبعت الحاجات الجسدية في نفوس (( أشخاص )) تلك المدن وانتقلت قوة الدافعية لديهم إلى البحث في إشباع الحاجات التي تحافظ على إنسانية الإنسان، فاحتل (( الفكر )) مكاناً مساوياً للقوة، وبدأ العمل لإشباع حاجات التقدير وتحقيق الذات التي جسدها الرغبة في الحرية وتكافؤ الفرص والديمقراطية، وتنظيم علاقة الحاكم بالمحكوم، وتحقيق الإنجازات وقيم التنظيم والتخطيط وحسن استثمار الموارد البشرية والطبيعية. ولما كانت المساحة الجغرافية للبيئات الطبيعية قابلة للتوسع والتمدد فقد اتسعت دائرة ولاء (( أشخاص )) تلك المحاضن لتشمل الإطار القومي والعرقي. غير أن غياب "المثل الأعلى" أصاب أولئك الأشخاص بما يسميهم - علم النفس الإنساني - مضاعفات تخمة إشباع الحاجات التي يشير إليها القرآن الكريم بقوله تعالى: { كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ } [العلق: 6-7].

وحيث تكررت تطبيقات هذه التخمة تحولت الى (( أعراف )) مقبولة، وحين انتشرت أفقياً صارت (( عادات )) وعندما تحدرت طويلاً عبر الأجيال صارت (( تقاليد )) وأفرزت قيماً ونظماً ومؤسسات وشبكة علاقات اجتماعية شكلت ما عرف بـ (( الثقافة الأوروبية )) وفي إطار هذه المنظومة من الأعراف والعادات والتقاليد والقيم اتسمت الثقافة الأوروبية بما يلي:

1- في الداخل أدى تكاثر متع الحياة لدى (( أشخاص )) تلك المحاضن إلى بروز ظاهرة الإسراف في اقتفاء متع الحياة بأشكالها المختلفة وإحلال الذوق الجمالي منزلة أعلى من المبدأ الأخلاقي.

أما في الخارج فقد أصيب (( إنسان )) تلك المحاضن بالخيلاء والأنفة والتفاخر بسلالته وثرواته على حساب السلالات الأخرى وتعامله معها على أساس ما يشير اليه القرآن الكريم عند قوله تعالى:

{ وَأَضْرَبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا، كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا، وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا،



وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً  
وَلَكِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا } [الكهف: 32-36].

وتكاد تكون جميع الفلسفات والسياسات الأوروبية والغربية نابعة من هذا التكوين  
النفسي المتضخم على حساب الثقافات الأخرى. والذي كان مضاعفاته التطلع الى  
مشبعات وأدوات متع جديدة عند سكان المناطق الأخرى، وبروز ظاهرة عنصرية  
الرجل الأبيض ونزعة استعمار الشعوب الأخرى التي اتسمت بها السياسات  
الخارجية منذ أيام اليونان والرومان حتى الوقت الحاضر.

2- بروز ثقافة التأله التي جسدها التحاق أبطال اليونان وأباطرة الرومان بالآلهة المتخيلة  
في الماضي، وظهور الفلسفات التي تضع الإنسان في المركز الأول في الوجود  
والتنكر لفكرة الخلق والخالق Creationism في الوقت الحاضر.

3- بروز فكرة السيطرة على الطبيعة وانتزاع خيراتها بدل فكرة تسخير الكون  
واستخراج نعم الله فيه كما هو في التربية الإسلامية.

وممن ناقش هذه التحمة المرضية ومضاعفاتها المذكورة أعلاه عالم النفس - أبراهام  
ماسلو-، ومما قاله في هذا المجال أن أهم النتائج المترتبة على الإسراف في إشباع  
الحاجة وإتخامها هو أن الحاجة تختفي وتظهر حاجة جديدة أعلى من السابقة.  
ويصاحب هذا التحول نتائج مرضية أخرى. منها الترفع عن المشبعات القديمة  
والتطلع إلى مشبعات وأدوات جديدة كانت تعتبر فوق المنال ولا تتحرك لها الإرادة  
إلا في القليل النادر. وهذا التبادل في المشبعات والأدوات يتضمن نتائج أخرى هي  
التغير في الاهتمامات حيث يقوى الاهتمام بظواهر جديدة ويتلوه ملل واشتمزاز من  
الظواهر القديمة، وينتج عن ذلك تغير في القيم الإنسانية التي تصبح كالتالي:

1- مبالغة في تقدير الكافيات التي تلبى الحاجة غير المشبعة.

2- تمهين الكافيات التي لا تشبع الحاجات غير المشبعة - بفتح الباء-.

3- الحط من قيمة كافيات الحاجات التي تم إشباعها من قبل.

وهذا التحول في القيم يتضمن تغيراً في التفكير وفلسفة المستقبل وتطلعاته وآماله. ويميل  
أصحاب هذا التغير إلى التقليل من قيمة النعم المشبعة والبعث بها وإساءة استعمالها. وهذا الفشل  
في تقدير نعمة إشباع الحاجات حالة مرضية لا يتم الشفاء منها - في معظم الحالات - إلا من

خلال المرور بخبرات الحرمان من النعمة وآلام الجوع والفقر والعزلة والأخطار والرفض وعدم العدل وفقدان الاستقلال وغير ذلك<sup>(1)</sup>.

وكان من نتيجة هذه التفاعلات المرضية أن برز في كل من الثقافتين ظاهرة ضعف تطورت الى أزمة مزمنة. ففي حين صارت ظاهرة الضعف في الثقافة العربية تبدأ في الحياة السياسية وتنتهي في الحياة الاجتماعية، فإن ظاهر الضعف في الثقافة الغربية تبدأ في الحياة الاجتماعية وتنتهي في الحياة السياسية. فالأزمتان وإن اختلفتا في البدء والمسار فإنهما يتساويان في الخطورة ويندران بمصيرين متشابهين ما لم يبرز (( مثل أعلى )) ديني يعالج المرض ويعيد العافية.

ثانياً: تحلية الثقافة بـ (( المعامل الديني )):

يقوم عمل التحلية المذكورة على أساس رد الثقافة السائدة إلى حالة (( الوسطية )) التي مر الحديث عنها في - منهاج التزكية - والتي تسير للإنسان الانسجام مع سنن الحياة وقوانين الاجتماع. وتتجسد ثقافة الوسطية في عالم الواقع من خلال أمرين اثنين:

الأمر الأول؛ (( الاعتدال )) في تناول مشبعات الحاجات. ويتحقق هذا الاعتدال من خلال إتباع التوجيهات الإسلامية في الإنتاج والاستهلاك والمعاملات الجارية، وتحليل ما تحله، وتحريم ما تحرمه.

والأمر الثاني؛ شيوع (( العدل )) في حياة الجماعات والدول، وذلك من خلال إشاعة النموذج الإسلامي في شبكة العلاقات الجارية. وهنا لا بد من مراعاة شرطين اثنين:

الشرط الأول؛ هو أن تطبيقات الثقافة الراقية هي صيرورة اجتماعية؛ أي هي ثمرة تطبيقات العدل وبيئته، وليست أفكاراً مستقلة خارج البيئة الإنسانية يتلقاها المتلقون بالوعظ والتوجيه ويعيشونها دونما أثر من البيئة المحيطة. وهذا يعني أن المؤسسات التربوية والإعلانية والوعظية لا تستطيع إشاعة أفكار الثقافة الراقية وقيمها ما لم تتضافر معها المؤسسات السياسية والإدارية والاجتماعية في إشاعة بيئة العدل وتطبيقاته في السلوك الفردي وفي شبكة العلاقات الاجتماعية.

(1) Abraham H.Maslow, **Motivation and Personality**, PP.60-61.

**والشرط الثاني؛** هو الانتباه إلى ثبات مبدأ العدل وتغير تطبيقاته ومعادلاته العملية بتغير الأزمنة والأمكنة. وهذا أيضاً يفرض على مؤسسات التربية الإسلامية ومناهجها والمربين العاملين فيها العمل باستمرار لبلورة تفاصيل المعادلات العملية لـ (( المعامل الديني )) الإسلامي وتفاصيل المعادلات العملية لعناصر الأمة المسلمة في (( الإيمان )) و (( الهجرة )) و (( الجهاد والرسالة )) و (( الإيواء )) و (( النصر )) و (( الولاية ))<sup>(1)</sup>، وهذه كلها لازمة وضرورية لتزكية ثقافات البيئات التي تعمل التربية الإسلامية بها والعصور التي تقوم خلالها.

ويلحق بتزكية الثقافة السائدة تركية - التراث السائد - من التناقضات التي خلطت بين أصول التربية الإسلامية وتطبيقات ثقافات العصبية القبلية والطائفية والعرقية خلال مسيرة التاريخ الإسلامي في عصوره المختلفة.

**والتراث يعني - لغوياً - ما يرثه الإنسان عن الماضي.** أما المعنى الاصطلاحي فهو ما يرثه الجيل عن الأجيال السابقة من المعارف والعقائد والنظم والعادات والتقاليد عن طريق التربية والمشاركة الاجتماعية<sup>(1)</sup>.

والمشكلة المزمنة في التراث هي أن عناصره الإيجابية تتعرض في الغالب للخفاء أو الاندثار لأنها تنتمي إلى ماضي الأزدهار البعيد، وتكون غالباً من العلوم المدونة في الكتب والمخطوطات التي تحتاج إلى عقول كبيرة وجهود عظيمة للتنقيب عنها وإعادة بعثها من جديد. أما العناصر السلبية من التراث فهي - في الغالب - تنتمي إلى ماضي الانحطاط القريب وتكون من القيم والعادات والتقاليد والممارسات والنظم التي تعيش في الحياة الحارية ويتعلمها الناس بالاحتلاط والتفاعلات اليومية دون أن يميزوا بينها وبين عناصر التراث الإيجابي. ولا تتمتع أمة بالعاية إلا إذا دربت مناهج التربية الناشئة على تحليل التراث وانتقاء ما يساعدهم على عبور المستقبل وطرح ما يعيقهم عن التقدم.

**والتراث الذي تسلمته الأجيال المسلمة الحاضرة ينقسم إلى أقسام هي:**

**قسم أُنحدر من الحضارات القديمة كالفينيقية والفرعونية والبابلية والفارسية واليمنية.** وهذا القسم فيه الكثير من الأفكار الميتة والقيم المنتهية زمانياً والسلبيات القاتلة والخرافات

(1) للوقوف على تفاصيل عناصر الأمة المسلمة راجع كتاب - الأمة المسلمة - للمؤلف.

(1) Ross Hoffman, Tradition and Progress (Milwaukee: the Bruce Publishing Co. 1938) P.1d.

المضلة. ولذلك عملت بعثات الآثار الأجنبية بتوجيه القوى الخارجية الطامعة والمستعمرة والمختلة على التنقيب عنه وإعادة الحياة اليه من خلال الثقافة والآداب والفنون والتراث الشعبي.

**وقسم تسلمناه** من جاهلية عرب ما قبل الإسلام التي تمركزت حول العصبية القبلية وأفرزت ثقافة حصرت ولاءاتها وأنشطتها في تقديس روابط الدم وتمجيد الآباء وما انحدر عنهم من عادات وتقاليد وقيم وأعراف.

**وقسم هو فهم الآباء** للكتاب والسنة. وهذا القسم لا يجوز إسباغ العصمة عليه بحيث يصبح بعض سنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول لأن فهم الآباء ليس وحيًا يوحى، وإنما هو نتاج عقولهم وملاحظات حواسهم في حدود خبرات أزمانهم وحاجات أمكنتهم، لأن الآباء بشر يصيبون ويخطئون وهم أنفسهم قالوا: لا تقلدونا وخذوا من حيث أخذنا.

والى جانب هذه الأقسام الثلاثة للتراث لدينا - القرآن والسنة - اللذان يدعونا الله لأن نتدبر - بثقة كاملة - براهين صدق محتوياتهما من خلال النظر في الآفاق والأنفس ويخبرنا أننا إذا أحسنا هذا النظر فسوف نجد فيهما البصائر والهدى لعقولنا وممارساتنا عبر الدنيا والآخرة.

ولكن المشكلة المزمنة هي استمرار تراث عصبية ما قبل الإسلام في الحياة الجارية وارتداء هذا التراث الزي الإسلامي وحلوله محل الكثير من محتويات المصطلحات رغم الحرب الشديدة التي شنّها الرسول - صلى الله عليه وسلم - على هذا التراث منذ بدء الدعوة حتى نهايتها<sup>(1)</sup>. وما زال هذا التراث الجاهلي يوجه الكثير من النشاطات اليومية في ميادين الحياة

(1) من ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم -: " ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية. [حديث حسن. رواه ابو داود وفي السيوطي، الجامع الصغير، ج2، ص409 رقم 7284]

ومثله ما رواه حذيفة عنه حيث قال - صلى الله عليه وسلم -:

" لن تفتن أمتي حتى يظهر فيها التمايز والتمايل والمقامع.

قلت: يا رسول الله، ما التمايز؟

قال: التمايز عصبية يحدثها الناس بعدي في الإسلام.

قلت: فلما التمايل؟

قال: تمايل القبيلة على القبيلة فتستحل حرماتها.

قلت: فما المقامع؟

المختلفة، ويفرز المضاعفات الموهنة المفرقة للأمة، المثيرة للفتن في كل قرية ومدينة وقطر في عصر الولاءات العالمية والتكتلات القارية<sup>(2)</sup>.

والسؤال الذي نطرحه هو: كيف استطاع تراث العصبية الجاهلي أن يحافظ على بقائه ومكانته في المجتمعات الإسلامية رغم التحذيرات القرآنية والنبوية التي تخرج دعاة العصبية من عضوية الأمة الإسلامية؟.

الجواب: حين تمت سيطرة الإسلام على شبه الجزيرة العربية أصبح المجتمع الإسلامي يتكون من فريقين: فريق المهاجرين والأنصار الذين اكتملت تربيتهم وجسدوا الإسلام في حياتهم، وفريق الطلقاء من أهل مكة والطائف والقبائل الأخرى الذين اعتنقوا الإسلام معتقدات وشعائر دينية، ولكنهم ظلوا يعيشون (( الثقافة )) القبلية بأعرافها وعاداتها وتقاليدها وقيمها وتطبيقاتها في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية وفي الآداب والفنون وغير ذلك من مظاهر الحياة المختلفة.

وعندما خرج المسلمون بالفتوحات الإسلامية قام الفريق الأول بدور القيادة خلال العهد الراشدي، بينما شكل الفريق الثاني جيوش الفتح وحملوا معهم عائلاتهم وقبائلهم ليستقروا في الأقطار المفتوحة ولينقلوا تأثيراتهم القبلية إلى جانب التعاليم الإسلامية. وبانقضاء العهد الراشد انقضى معه جيل المهاجرين والأنصار الذين تخرجوا من مدرسة النبوة، فتسلم الفريق الثاني - فريق الطلقاء - القيادة، وشارك كثير من رجالات الأعراب والقبائل في مناصب الولايات والإدارة والتوجيه، وصارت البلاد المفتوحة من الناحية الفعلية تتعرض لنوعين متناقضين من التأثيرات: تأثير التعاليم الإسلامية التي انحسرت لتوجه الحياة الدينية في المساجد ومواسم الشعائر، وتأثير الثقافة القبلية العربية التي توجهت الممارسات السياسية والإدارية والثقافية والاجتماعية، وأفرزت مئات الشعراء والخطباء والقاصين والرواة من أمثال جرير والفرزدق والأخطل، وبذرت بذور الازدواجية المتناقضة في حياة الأفراد بين الأفكار التي تقال، والأعمال التي تمارس.

وساعد في التمكين للثقافة القبلية أمران: الأول، أن تدوين العلوم الإسلامية والآداب العربية قد بدأ في عهد قيادة الطلقاء وأعاونهم من الأعراب ومثلي العصبية الأسرية

قال: سير الأمصار بعضها الى بعض تختلف أعناقهم في الحرب. [الحاكم، المستدرک، ج4، ص 965 رقم [305/8597].

(2) راجع كتاب - الصنمية والأصنام في ثقافات العصبية القبلية - للمؤلف.

والقبلية. فجاءت هذه العلوم متأثرة باتجاهات هذا العهد وأهدافه. ولذلك تم تدوين التاريخ الإسلامي كتاريخ وحضارة وحركة مجتمع. ومثله تاريخ الفقه الذي جرى تدوينه كإنجازات (( أشخاص )) المؤسسين والمقلين، وليس كتيارات (( فكر )) يعكس الحاجات ويواجه التحديات، الأمر الذي أدى إلى ظاهرة إسباغ العصمة على (( الأشخاص )) المؤسسين ونسبة الكمال إلى إنجازاتهم ومنع التجديد وتكريس الآبائية وظهور العصبية المذهبية الموازية للعصبية الأسرية والقبلية، إضافة إلى انحسار محتويات هذا الفقه في موضوعات الطهارة والعبادات ومعاملات الأسواق والعامه، وعدم التصديق لموضوعات الحكم وعلاقة الأمة بالسلطة، والحريات العامة، وشؤون التملك وأمثالها.

والأمر الثاني؛ هو التوسع في تطبيق القاعدة التي اعتمدها المفسرون والفقهاء وهي دراسة أشعار عرب ما قبل الإسلام وتراثهم الأدبي كأدوات مرجعية لإتقان اللغة العربية، وفهم المضامين القرآنية الأمر الذي أشاع اتجاهات هذا التراث القبلي وولاءاته في مختلف العلوم وميادين التربية.

والى جانب المصدر الإسلامي، ومصدر ثقافة القبيلة العربية احتفظت الأقطار المفتوحة بكثير من عناصر تراثها الاجتماعي السابق على الإسلام كما حدث في إيران ومصر والهند وغيرها.

ونتيجة لذلك كله أصبحت المجتمعات الإسلامية تحت تأثير ثقافات متنافرة متباينة، ومرت قرون لم تنتبه نظم التربية الى تركيتها بسبب آبائيتها وغفلتها عن عوامل التغيير في الزمان والمكان، ولعدم تمكنها من هذه التزكية بسبب قيود المؤسسات السياسية، ولذلك أصبح لزاماً على القائمين على تخطيط المناهج التربوية أن يعوا تمام الوعي هذه السلبيات ويتجنبوها فلا يجوز - مثلاً - أن تستمر المناهج في تقديم أشعار الجاهلية ومعلقاتها وخطبها الحاملة لجرائم العصبية وفيروسات الارتجال والفوضى، وتقديم امتدادات هذه الأشعار في العصور الإسلامية المتمثلة في شعر جرير والفرزدق والأحطل وأمثالهم تحت عناوين - الشعر الإسلامي وآدابه - لأن هذه الأشعار والآداب وإن ولدت - من الناحية الزمنية - في عصور ما بعد ظهور الإسلام، إلا أنها لا تجسد الأصول الأدبية في القرآن والسنة لأنها استمرت - بتشجيع المؤسسات السياسية - تعمل في موضوعات الشعر الجاهلي وآدابه التي تدور حول المديح والهجاء والفخر والغزل وما شابهها. والواقع أن استمرار هذه الألوان من الشعر والأدب في التاريخ الإسلامي قد حال دون ظهور الشعر الإسلامي والأدب الإسلامي الأصليين إلا ما كان من نماذج قليلة مسلمة برزت

خارج دائرة الثقافة العربية على أيدي أمثال جلال الدين الرومي والشاعر الباكستاني محمد إقبال. أما ما ذكرناه عن أمثال أشعار علي بن أبي طالب وعبد الله بن المبارك والشافعي فقد ظهر بعد التأمل والتدقيق أن هذه الأشعار تندرج في ميدان النظم وليس في ميدان الشعر.

كذلك لا يجوز الاستمرار في عرض تاريخ - أيام العرب في الجاهلية - على أنها تاريخ شعوب المنطقة كلها في فترة ما قبل الإسلام، ولا عرض التاريخ الإسلامي كتاريخ العصبية المتناحرة على حساب حركات الإصلاح ونشاطات الأمة الحضارية - خاصة في مراحل الدراسة المتوسطة والثانوية: مراحل تكوين الاتجاهات وأشكال التفكير عند الناشئة، وأن ينتقى لوضع مناهج هذه المراحل وكتبها من المختصين في التربية والعلوم.

وإذا كان لا بد من اتخاذ موقف علمي من تراث الجاهلية وامتداداته في العصور الإسلامية فليكن ميدانه إتاحة الفرصة للباحثين المختصين للتنقيب عن أصول السلبات التي تثور من آن لآخر، وتقديم نتائج البحث للدارسين في مراحل الدراسات الجامعية العليا بعد أن تتكون ميولهم واتجاهاتهم وتتضح قدراتهم العقلية والنفسية ويصبح لديهم الكفاءة لمناقشة هذا التراث باستقلالية ووضوح.

#### رابعاً: أساليب التزكية وأنشطتها:

تتوازي أساليب التزكية التي يوجه إليها ميدان التزكية مع ميادين هذا المنهاج، ولذلك تتنوع الأساليب المذكورة وتتحدد بتنوع الميادين المشار إليها وتحدددها. ويمكن القول بشكل عام أن هذه الأساليب قسمان: أساليب تزكية الميادين الاجتماعية والسياسية والعلمية، وأساليب تزكية الميادين الدينية مع مراعاة تكامل هذين القسمين وتفاعلهما.

أ- أساليب تزكية الميادين الاجتماعية والسياسية والعلمية، حيث تعمل هذه الأساليب دائماً على معالجة الفجوة التي تقوم بين - القيم والمؤسسات والوسائل القديمة - القائمة في الحياة وبين (( المؤسسات والوسائل والقيم الجديدة )) التي تتطلبها عملية التطور أو الخلق المتجدد - في مسيرة الاجتماع الإنساني.

والتزكية في هذا القسم من الأساليب هي بعض مظاهر (( التوبة )) التي تستهدف مراجعة الأخطاء أو فقدان الفاعلية في نظم الحياة ومؤسساتها ثم تقويمها وتعديلها في ضوء الحاجات والتحديات القائمة.

وأساليب هذا القسم من التزكية جعلها المنهاج المذكور من ابتكارات العقل والحواس ليعملا على بلوترها في ضوء بصائر الوحي والخبرات الإنسانية، ولذلك لا يجوز حصر هذه



الأساليب بموروثات سلفية وتطبيقات محلية، وإنما يجوز فيها الاستفادة من - حكمة - الآخرين وخبراتهم.

ب - أساليب تزكية الميادين الدينية، وهذه أساليب تتعلق بالعلوم التي تبحث في تطبيقات المظهر الشعائري للعبادة، ويراعى فيها النقاء الإسلامي وعدم خلطها بعبادات الآخرين وبدعهم، ولذلك فصلت بها "بصائر" القرآن وتوجيهات الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وأهم هذه الأساليب ما يلي:

### 1- الذكر:

يطلق مصطلح - الذكر - في القرآن والسنة ليدل على ثلاثة معانٍ هي:

الأول؛ القرآن وما يتضمنه من توجيهات ومعارف مثل قوله تعالى:

{ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [النحل: 44].

والثاني؛ التسبيح باسم الله مثل قوله تعالى: { إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ

وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ } [العنكبوت: 45]

والثالث؛ التذكير والتوعية والتعليم بشكل عام مثل قوله تعالى: { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ

لِلْعَالَمِينَ } [ص: 87].

والذكر من حيث الأداء ثلاثة أقسام يكمل بعضها بعضاً: ذكر اللسان، وذكر الفكر، وذكر العمل. والغاية من الذكر أن يبقى إنسان التربية الإسلامية على وعي ويقظة تامين بأهمية عبادة الله - أي طاعته دون سواه - والاسترشاد بهديه ودوام الصلة به. ولذلك أعطي - ذكر الله - المقام الأول في أساليب التزكية { ولذكر الله أكبر } (العنكبوت: 45) والرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول: (( ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: ذكر الله عز وجل ))<sup>(1)</sup>.

وفي صحيح البخاري: مثل الذي يذكر والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت.

وعنه - صلى الله عليه وسلم - قال: (( إن لله ملائكة فضلاً عن كتاب الناس،

يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا: هلموا إلى

حاجتكم. قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال: فيسألهم ربهم تعالى وهو أعلم بهم،

(1) رواه الترمذي، وابن ماجه، وأحمد، والحاكم، والبيهقي.

ما يقول عبادي: قال: يسبحونك ويكبرونك ويمجدونك. قال فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون لا والله ما رأوك. قال فيقول: كيف لو رأوني؟ قال: فيقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تحميداً وتمجيداً وأكثر تسبيحاً. قال: فيقول: ما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة. قال: يقول هل رأوها؟ قال: يقولون لا والله يا رب ما رأوها. قال: فيقول فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: فيقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة. فيقول: فمم يتعوذون؟ قال: يتعوذون من النار. قال: يقول وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها! قال: يقول فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافة. قال: يقول فأشهدكم أني قد غفرت لهم. فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة: قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم))<sup>(1)</sup>.

ويتخذ الذكر، في منهاج التزكية، شكلين اثنين: الأول؛ شكل المقررات والدراسات النظرية التي تدور حول - التوحيد - الذي يؤدي إلى معرفة الله، ومعرفة ملكيته المطلقة للنشأة والحياة والمصير، وإحكام الصلة به والانسجام مع سننه وقوانينه في الكون والحياة والإنسان، وأثر ذلك كله في صلاح الأفراد والمجتمعات وبقائها ورفيها. كذلك تتضمن المقررات المذكورة تعريفات مفضلة بأخطار القواطع الأربعة عن الذكر وهي: الشيطان، والشهوة، والدنيا، والهوى. والوعي بآثارها السلبية - إن هي طغت وهيمت - من حيث الإخلال بالعبودية، وتعطيل الأفهام واضطراب السلوك والأخلاق واضطراب شبكة العلاقات الاجتماعية والعلاقات الإنسانية حتى الانتهاء بالإنسان إلى الشقاء في الدنيا والآخرة.

أما الشكل الثاني للذكر فهو ممارسات عملية ونشاطات تعبدية يقوم بها الأفراد والجماعات. فهي عند الفرد تتمثل في تربية الذوق والوجدان وتنمية قوى الإرادة التي تتجسد عملياً في محبة الله وخشيته، ورجائه، لأن محبة الله تدفع الفرد إلى طاعة الله وحده وللسير في الطريق الذي يرضيه. وخشية الله تزجر الفرد عن المضي فيما يغضب الله، والرجاء من الله يمنحه القدرة على الاستمرار وعدم الملل أو الضعف أمام المصاعب والأزمات، والنجاح في هذه

(1) رواه البخاري ومسلم.

الإرادات الثلاث يؤدي إلى تحرير القلب من الخضوع لغير الله من الأشخاص والأشياء، وإلى الانسجام مع سننه وقوانينه في الوجود<sup>(2)</sup>.

ولا بد للتزكية أن تنمي هذه الاتجاهات الثلاثة لتكون عند الفرد الإرادة السليمة المتوازنة. أما الاقتصار على واحدة منها فإنه يميل بالإرادة إلى التطرف أو الإفراط وكلاهما يخرج بالإنسان عن الطريق الصحيح.

أما عن تطبيقات الذكر عند الجماعة فتتمثل في إقامة المؤسسات والأنشطة التي تيسر ممارسات الذكر الجماعية كالعيدين والعادات والاتجاهات والممارسات الاجتماعية والثقافية التي تجسد الذكر في واقع الحياة تجسيدا عمليا، مع مراعاة عدم فتح الباب للمؤسسات الإعلامية والثقافية والإدارية التي تشيع الانصراف عن القيم الإسلامية في الإدارة وشبكة العلاقات الاجتماعية.

والهدف الذي يحققه الذكر هو بقاء المسلم عند دائرة الولاء للأفكار الإسلامية وعدم انحسار هذا الولاء الى دوائر العصبية القومية والقبلية والأسرية وتطهير الأفكار والمشاعر من المفاهيم والاتجاهات والميول الصنمية التي تمنح محبتها وخوفها ورجاءها لآخرين من دون الله. واكتمال التزكية الوجدانية من هذه الصنميات يؤدي الى تحقيق صفة - الصلوات والحكمة - في الفكر، و - الإخلاص والإيمان - في الإرادة. وهذا معنى قوله تعالى: {وَأذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الجمعة: 10]. ومعنى قوله: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} [الأعلى: 14-15].

ولذلك كانت غفلة مناهج التربية عن الذكر بمعانيه الثلاثة سبباً لفتح الباب للأفكار الخاطئة الهادمة لـ ((الصواب والحكمة))، ولالاتجاهات المنحرفة المفسدة لـ ((الإخلاص)). كما أنها تفتح الباب للثقافات المنشطة - أي التي تنحرف عن قد وإصرار - لدفع الحياة في اتجاهات مخالفة لسنن الخلق وغاياته. ويسمى القرآن هذه الثقافات المنشطنة (( وعد الشيطان ))، ويصفها بالغرور - أي الزيف والخداع - وذلك عند قوله تعالى: {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} [النساء: 120]. وإذا كان السلف والآباء قد اقتصروا في تفسيراتهم لهذا ((الوعد الشيطاني)) على نسبته إلى شياطين الجن التي لا ترى، فإن القرآن

(2) في التربية الحديثة يحتل مكان - الذكر - ما يسمى بالنشيد القومي والشعارات التي تشتق منه وهو في المجتمعات الغربية حول التذكير بقيم الديمقراطية أو الاشتراكية وتطبيقها. أما في العالم الثالث فهو يتركز حول تمجيد شخصية الزعيم أو الحاكم، وإعلان الولاء المطلق والطاعة المطلقة له.

والحديث يحذران - أيضاً - من (( وعد )) شياطين الإنس الذين يرغبون بالباطل والإلحاد والفسوق في الفكر والعمل، وينفرون من الحق والإيمان والفضيلة وقيمون لذلك المؤسسات المتخصصة والإدارات المشرفة. ولقد خبرت أجيال القرن العشرين الميلادي ألواناً من الأفكار والفلسفات والثقافات المنشطنة التي دعا إليها شياطين من الفلاسفة والمؤرخين وعلماء النفس والأدباء والفنانين والسياسيين، وأقاموا لها مجتمعات ومعسكرات حذرت الجماهير من الدين والعبادة لأنها تعب لا طائل تحته، وأفيون للشعوب، وطرحت لها بدائل في السلوك المتحرر من الدين وتوجيهاته وقدمتها كبوابات للسرور واللذة والحياة السعيدة، والسلام العالمي وإقامة جنة الدنيا بدل جنة الآخرة، وأقامت لها الإدارات التي ترعاها والمؤسسات التي تديرها، ثم تكشففت التطبيقات وبرزت النتائج تنكشف عن (( الوعود )) المنشطنة ليست إلا (( غروراً )).. أي تزييف إعلامي وخداع تجاري، وأنها ليست إلا هروباً من الآلام، وإنها سريعة الذهاب ولا تحصيل إلا بمتاعب ومشاق عظيمة، ولا تورث إلا السقام والآلام والقلق والحسرة في حياة الأفراد، والتخلف والتمزق والانهيار في حياة الأمم.

وتبين أيضاً أن الإنسان حين يقع ضحية هذه الانشقاكات الشيطانية فإنه يغترب عن نفسه وفطرته وهويته الأصيلة، فيقع ضحية الخرافة والخوف والرذيلة، ويصبح هدفاً سهلاً للاستضعاف والاستعباد. وتتعطل فيه قوى العقل والإرادة. ولذلك تصبح تركيته من آثار هذا الاغتراب شرطاً أساسياً لنمو قدراته العقلية لقدر على التعلم، ولنمو إرادته العازمة ليقدر على الاختبار، ولنمو قدراته السمعية والبصرية ليقدر على حسن السمع والإبصار. ويلخص القرآن الكريم كل هذه المضاعفات والنتائج السلبية عند قوله تعالى: { وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِيسٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ } [ الزخرف: 36-37].

وقوله تعالى: { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } [ طه: 124].

وقوله أيضاً: { وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا } [الكهف: 28].

فحين يغفل الإنسان عن - ذكر الله - يعناه الشامل فإنه ينتقل تلقائياً إلى ذكر غير الله، وينتقل من التوحيد إلى الصنمية ونسبة الفاعلية والتأثير من الله وسننه إلى الأصنام التي يقيمها. وبذلك تضطرب معتقداته ويتمزق ولاؤه وتتناثر شخصيته، ولا ينقذه من هذا التمزق

والاضطراب إلا العودة إلى - ذكر الله - بالمفهوم الإسلامي، وهجر ما عداه. وبذلك تتوحد محبته، ويتوحد خوفه ورجاؤه، وتستقيم علاقته وأنشطته. ولذلك سمي الرسول - صلى الله عليه وسلم - أهل الذكر - (( المفردين )) أي الذي أفردوا الله بالهيمنة والعبادة. فعن أبي هريرة قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له جمدان فقال: سيروا هذا جمدان سبق المفردون. قيل: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات (1)

ولذلك كان الذكر مطلوباً في جميع المواقف والحالات وكان الأمر على الإكثار منه: والذكر مطلوب في شؤون الدين والدنيا: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا } ( الاحزاب: 41 ) والذكر مطلوب في الجهاد القتالي: ( فإذا قضيتم الصلوة فأذكروا الله قيمياً وقعوداً وعلى جنوبكم ) ( الانفال: 45 ) والذكر مطلوب في الحج: ( فإذا قضيتم مناسككم فأذكروا الله كذكركم أو اشد ذكراً ) ( البقرة: 200 )

واقتران الذكر بالآباء في هذا الموقف تذكير بما كان يفعله أهل العصبية القبلية في الحج وهم يخصصون باسم قبائلهم تلييات خاصة تشبه الأناشيد الوطنية في أيامنا. وهي تذكير لأجيال المستقبل أن لا تجعل شعارات العصبية القبلية والإقليمية والقومية والعرقية تعلو على شعارات الأخوة الإيمانية وأناشيدها. والذكر مطلب في كل مناسبة، فقد جعلت السنة النبوية أذكراً لكل حالة. أذكارة في النوم واليقظة، في اللباس والتعري، في الطعام والشراب، في الدخول والخروج، في الحركة والسكون، في الإقامة والسفر وهكذا.

ولقد وضعت الأحاديث الواردة في هذا المجال - الذكر - في أعلى سلم السلوك الإنساني لما فيه من تصحيح النوايا وتصويب الأهداف، وذكرت له أعظم الجوائز والمثوبات. لذلك كان الذكر مطلوباً في حالي العمل الصالح والعمل الخاطئ. أما الحالة الأولى حتى لا يسند الإنسان الفضل في نجاح العمل وصلاحه لنفسه أو لزعيمه أو لقومه وغيرهم من البشر. وأما في الحالة الثانية حتى لا ينسى الإنسان غضب الله وعقوبته فيتوقف عن الاستمرار في العمل الخاطئ

(1) صحيح مسلم.

ويقوم بعملية المراجعة والتقويم والى كلا الحالتين يشير قوله تعالى: ( إلا الذين امنوا وعملوا الصلحت وذكروا الله كثيراً ) ( الشعراء: 227 )

( والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا انفسهم ذكروا الله ) ( آل عمران: 135 )

والرسول \_ صلى الله عليه وسلم \_ يقول:

(( إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة ))(1).

فلا غرابة بعد ذلك كله إذا اعتبر رواد التربية الإسلامية ترك الذكر من أعظم المعاصي. من ذلك قول الأوزاعي عن حسان بن عطية: (( ما عادى عبد ربه بشيء أشد عليه من أن يكره ذكره أو من يذكره ))(2).

ويلحق بذكر الله، الصلاة على النبي \_ صلى الله عليه وسلم \_ التي أمر الله بها عند قوله: وحيث عليها \_ صلى الله عليه وسلم \_ في أحاديث كثيرة منها قوله (( صلوا علي فإنها زكاة لكم ))(1).

والحكمة من إدراج الصلاة على النبي \_ صلى الله عليه وسلم \_ في وسائل التزكية أنها حافظة للمسلم من آثار الاقتداء بغيره من أهل الضلال والفساد والمنكر. وهي تذكر للمثل الأعلى الذي اختطه النبي \_ صلى الله عليه وسلم \_ في أقواله وأفعاله وداعية للاستمرار على الاقتداء به.

## 2- الصلاة:

الصلاة صلة عامودية مع الله هدفها قطع بقية الصلوات الفوقية التي تفرزها حالات الضعف الإنساني وتقسّم البشر إلى طبقات يسود بعضها بعضاً، وثمرتها صيانة قوى النفس - أي قوى العقل والإرادة - من الإفراط والتفريط، وإبقاؤها في حالة - الوسطية - أي حالة العافية التي تتوجه بهذه القوى الى غاياتها التي خلقت لها. فالإنسان خلال التعامل اليومي مع البيئة المحيطة تتعرض قوى العقل والإرادة فيه لمضاعفات - الطغيان والاستضعاف - ويصبحان عرضة للتوجه بـ (( الحمد )) و (( الاستعانة )) و (( الطاعة )) لغير الله، فإذا أصابها قدر من ذلك جاءت الصلاة لتزكيتها مما علق بهما في الفترة الواقعة بين الصلاتين وأعادتها إلى حالة العافية التي يجسدها (( حمد )) الله و (( الاستعانة )) به والاستيقان بأنه (( المالك )) للنشأة والحياة

(1) مسند أحمد (تصنيف الساعاتي)، ج4، ص 211.

(2) ابن قيم الجوزية، الوابل الصيب، ص 93-94.

(1) مسند أحمد، ج3، ص 265.

والمصير. والانقطاع عن الصلاة يؤدي إلى ضعف المسلم أمام مؤثرات البيئة المحيطة ووقوعه ضحية الهوى والشهوة المفضيين إلى انحراف قوى العقل والإرادة وتوجهها بالحمد والاستعانة إلى غير الله، وإلى انحراف دوافع الغضب والشهوة والتدبير وتوجهها إلى غير مرادات الله. والقرآن الكريم يسمي انحراف هذه القوى انحرافاً كاملاً - عمى القلب -، لأن القلب حسب المفهوم القرآني هو موطن القوى المشار إليها: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: 46]. والسبب في هذا العمى هو ما (( ران )) - أي ترسب - على قدرات العقل والإرادة من آثار الكسب الخاطئ فحجب قوى العقل عن الرؤيا (( الصائبة ))، وحجب قوى الإرادة عن التوجه (( المخلص ))، وهذا الحجاب هو (( الكفر )) - أي تغطية الحق وستر الخير - . ولذلك قال - صلى الله عليه وسلم - (( العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها كفر ))<sup>(1)</sup> أي أن الكفر نتيجة حتمية لترك الصلاة كما يقال: إن العمى نتيجة ترك رعاية العينين.

وتحدد محتويات سورة الفاتحة مجموعة المتغيرات الفكرية والنفسية التي تنتاب الإنسان وتعمل الصلاة على ضبطها وتنظيمها لتبقى في أوضاعها ومساراتها السليمة خلال التعامل اليومي مع البيئة المحيطة بدائرتها القريبة والبعيدة. وهذه المتغيرات الفكرية والنفسية هي:

- 1- مفهوم المربي الحقيقي لعوالم الإنسان والحيوان والنبات والجماد وغيرها من العوالم غير المرئية.
- 2- مفهوم المالك للوجود والمتصرف بمصيره.
- 3- مفهوم العلاقة بين المالك الحقيقي والملاك المجازيين.
- 4- أهلية الحمد والاستعانة.
- 5- أهلية الطاعة والمحبة.
- 6- منهج السلوك ودرجة الصواب والإخلاص فيه.

فالإنسان في حياته اليومية وتعامله مع البيئة المحيطة يكون عرضة للريح والخسارة. وهو - في حالة الربح - يصبح عرضة للإصابة بمرض الطغيان وإسناد أسباب الربح لقدراته العلمية والمادية، وأنه - بناءً على ذلك - جدير بالحمد وجدير بأن يتوجه إليه الآخرون بالاستعانة وأن يقدموا له فروض الطاعة والتبعية، وأنه القادر على إدارة الحياة ومعاملة أهلها بالجيروت

(1) مسند أحمد ( تصنيف الساعدي )، ج2، ص 232 رقم 8.



والاستعلاء، وإلى هذه الحالات النفسية يشير قوله تعالى: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَيِّطٍ أَنْ رَأَهُ اسْتَعْنَى} [العلق: 6-7].

أما حين يجسر الإنسان في تعامله اليومي فإنه يصبح عرضة للإصابة بمرض (( الاستضعاف )) وانتقاص إنسانيته، والتوجه للراجين بالتوسل والحمد وطلب العون، ويتعامل معهم بالذل والهوان، ويسير على كل طريق منحرف في السلوك والاجتماع.

ولكن - المقيم للصلاة - تزوده الصلاة بالمناعة إزاء مرضي (( الطغيان )) و (( الاستضعاف )) المشار إليهما. وتبقى أحشائه النفسية في حالة توازن وتعادل، ويظل تفكيره متوجهاً إلى الله باعتباره رب العوالم المحسوسة والمغيبية، والمالك للنشأة والحياة والمصير، والجدير بالاستعانة الكاملة والطاعة الكاملة. ثم تكون محصلة هذا التوازن الفكري - الإرادي هي استمرار الإنسان على منهج مستقيم في السلوك الفردي والعلاقات الاجتماعية. ولهذا المناعة التي تزود الصلاة بها الإنسان يشير قوله تعالى: {أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: 6-7].

وفي الحديث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تناول غصنين وهزهما حتى تحات ورقهما ثم شبه ذلك بتحات الذنوب - أي عوامل المرض الفكري والنفسي - عند الصلاة<sup>(1)</sup>. ومن أقواله لأبي هريرة: قم فصل فإن في الصلاة شفاء<sup>(2)</sup>.

وبمقدار ما تكون الصلاة فاعلة ومؤثرة في إمداد الإنسان بالمناعة ضد مرضي (( الطغيان )) و (( الاستضعاف )) بمقدار ما تكون مقبولة ومعتبرة. ولذلك يميز القرآن الكريم بين (( مقيمي الصلاة )) الذين يقيمون معانيها في واقع الحياة، وبين (( المصلين )) {الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} أي ساهون عن إقامة معانيها في حياتهم.

فالذين يقيمون الصلاة يترجمون معانيها في تطبيقات ونظم وممارسات في واقع الحياة وفي شبكة العلاقات الاجتماعية. ولذلك يبقون في صلاة دائمة في حالات الربح والخسارة. وفي حالات النجاح والفشل، وفي حالات القوة والضعف، والنشاط والراحة. فهم في كل حالة من حالات الحياة المتقابلة تمدهم الصلاة بما يعالجون به المضاعفات السلبية ويدعمون به المنجزات الإيجابية، من خلال استرجاع ما عاهدوا الله عليه في الصلاة من قيام بعبادته - أي طاعته -،

(1) مسند أحمد (تصنيف الساعاتي)، ج2، ص4، رقم 1059.

(2) نفس المصدر والجزء، ص 205 رقم 21.

والاستعانة به والتوافق مع سننه النبوية وأقوال مفكري الصحابة. من ذلك قوله \_ صلى الله عليه وسلم \_ : (( قال الله عز وجل إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بما لعظمتي ولم يستطل بما على خلقي، ولم يبت مصراً على معصيتي، وقطع النهار في ذكري، ورحم المسكين، وابن السبيل والأرملة، ورحم المصاب، ذلك نوره كنور الشمس، أكلؤه بعزتي، واستحفظه ملائكتي، أجعل له في الظلمة نوراً، وفي الجهالة حلماً، ومثله في خلقي كمثله الفردوي في جنتي )) (3).

وحين نزلت آية: { فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون } قال رسول الله \_ صلى الله عليه وسلم \_ في الساهي: (( هو الذي لم يرج خير صلاته وإن تركها لم يخف ربه )) (1).

وفي معنى الآية قال عبد الله بن مسعود: ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة وإن كنت في السوق (2). وفي تفسيرها قال عبد الله بن عباس: الساهون هم المنافقون الذين يصلون في العلانية ولا يصلون في السر (3). وأضاف: ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها (4).

ولهذا الفرق بين (( مقيمي الصلاة )) و (( المصلين )) كان دعاء ابراهيم عليه السلام: { رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي } [ابراهيم:40]. وما مدح الله المصلين إلا وقرن أسماءهم بلفظ الإقامة. مثل قوله تعالى: { يقيمون الصلاة } و { أقاموا الصلاة } . وسئل ابن تيمية عن تفسير قوله تعالى: { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا } [ مريم:59]، وعن قوله: { فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ } فأجاب: المراد بهاتين الآيتين من أضاع الواجب في الصلاة لا مجرد تركها. هكذا فسرهما الصحابة والتابعون، وهو ظاهر الكلام. فانه قال: { فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ } فأثبت لهم صلاة وجعلهم ساهين عنها، فعلم أنهم كانوا يصلون مع السهو عنها (5).

(3) حديث قدسي.

(1) ابن كثير.....

(2) ابن تيمية، اقتضاء السراط المستقيم، ص20

(3) ابن كثير، التفسير، تفسير سورة الماعون.

(4) ابن تيمية، الفتاوى، كتاب الإيمان، ج7، ص31.

(5) ابن تيمية، الفتاوى، كتاب التفسير (الجزء الثاني)، ج15، ص234.

والنظر في سورة الماعون كاملة يبرز بوضوح أن السورة تقدم صفتين رئيسيتين للمكذبين بالدين الذين يلتبس أمرهم على المراقب لأنهم ينتقون من الدين الأقوال والأشكال ويتجاهلون التطبيقات والأعمال: الصفة الأولى؛ هي - دع اليتيم - . واليتيم كما فسر معناه ابن عباس والنووي هو الكبير أو الصغير الذي فقد النصر والقدرة على دفع الأذى والظلم. والدع هو القهر والتسلط. وبذلك تكون الصفة الأولى للمكذب بالدين هي - اغتصابه لحريات الإنسان وقهره - والتسلط عليه. أما الصفة الثانية؛ فهي السيطرة على موارد الحياة المادية وعدم رعاية المساكين وتحقيق التكافل الاجتماعي. ثم تخص السورة فئة من المكذبين بالدين هم - المصلون - الذين يؤدون حركات الصلاة ولا يقيمون معانيها في واقع الحياة. فهؤلاء - إضافة إلى الصفتين السابقتين - يتصفون بصفة - ثالثة - هي تأديتهم لحركات الصلاة مع الغفلة عن تطبيقاتها الاجتماعية، وصفة - رابعة - هي أنهم يؤدون الصلاة كدعاية إعلامية هدفها كسب التأييد والحصول على الشعبية وكسب ثقة البسطاء والعامّة، وصفة - خامسة - هي (( منع الماعون )) أي ما يعين الناس على إقامة دينهم ودنياهم في ميادين الحياة المختلفة، ويولي جميع حاجاتهم ثم يهيء لهم للتفرغ لإقامة معاني الدين وتعاليمه.

ويتكامل الوضوء مع إقامة الصلاة في منهاج التزكية. فحين أمر الله سبحانه المؤمنين بالوضوء إذا قاموا للصلاة ذكر الهدف فقال: { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [المائدة:6] والتطهير - كما مر - معنى من معاني التزكية. والرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول: (( ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطى إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط ))<sup>(1)</sup> ومع إيماننا بوجود بلورة علم نفس إسلامي يتتبع الآثار التطهيرية للصلاة والوضوء، فإننا نقول أن الملاحظات الأولية في معنى الوضوء تدل على أن المتوضىء إنما يقوم بطهارتين: طهارة مادية وطهارة نفسية. فهو يغسل يديه ويظهرهما مما أصابهما من تلوث مادي ومما اقترفنا من معاصي وأخطاء. ويغسل فمه من آثار الطعام والغبار ومما اقترفه بحق الآخرين من كلام أو حرام. ويغسل أنفه فيطهره مما علق به من غبار ومما اشتمه من حرام. ويغسل وجهه فيطهره من العراق والغبار ومما اقترفه من توجه أو نظر لغير الله. ويغسل ذراعيه فيطهرهما مما أصابهما من تلون ومما اقترفه من أدى أو حرام.

(1) المنذري، مختصر صحيح مسلم، ج1، ص44.

ويغسل أذنيه فيطهرهما مما علق بهما من أوساخ ومما اقترفتاه من سماع يغضب الله. ويمسح جبهة رأسه فيمسح ما اقترفته من سجود لغير الله ومن تفكير يناقض مراد الله في المعتقد والتدبير، ويغسل رجليه فيطهرهما مما علق بهما من أوساخ ومما اقترفتاه من سعي في معاصي الله. ثم هو بعد ذلك يهيئ أعضائه ونفسه للتحلي بالمزكيات المقابلة للنواقص التي تطهر منها.

وهناك علاقة وثيقة بين الحالة الجسدية والحالة النفسية في كل لحظة من لحظات الحياة الإنسانية. فالتاجر الذي يعمل في البيع والشراء يصنع الاشتغال بالمال والسلع التي يتعامل بها حالة جسدية ونفسية تتداخلان لتشكلا أفكاره ومشاعره وأنماط سلوكه. ومثله الموظف في مكتبه، والعسكري في معسكره، والزوج مع زوجته. فإذا حان وقت الصلاة احتاج إلى التخلص من حالته الفكرية والإرادية والجسدية المشار إليها ثم التهيؤ للدخول في عملية الصيانة الرادة إلى حالة العافية والتوازن التي توفرها الصلاة. أي أن الانتقال من حالة التفاعل مع مكونات الوجود المادي إلى حالة التحرر من هذا الوجود يقتضي تطهير الجسد من آثار الحالة الأولى نفسياً وعقلياً وجسدياً وتهيئته للدخول في الحالة الجديدة. والوضوء هو عملية تطهير النفس والجسد من آثار الحالة الأولى والتهيؤ للدخول في مرحلة الصلاة العقلية والإرادية والجسدية.

والأذان - أو النداء للصلاة - يتكامل كذلك مع وظائف الصلاة التي مرت. ففي كل وقت تحين به الصلاة يكون الناس غرقى في أعراض الدنيا. فمن غارق في المال، وآخر غارق في الجاه، وثالث في الشهوات، ورابع في الخوف من فقدان أي منها، وخامس.. وسادس... وسابع... إلى آخر التفاعلات البشرية مع مكونات البيئة المحيطة. وينطلق الأذان عالياً بـ (( الله أكبر )) ليقرع أذني كل غارق بأعراض الدنيا وليقول له: أالله أكبر مما أنت غارق فيه. وحين يقول المؤذن: (( أشهد أن لا اله إلا الله )) إنما يقرع مشاعر من توله بحب غير الله ويقول له: لا محبوب يستحق أن تتوله بحبه وطاعته إلا الله. وحين يقول المؤذن: (( أشهد أن محمداً رسول الله )) إنما ينبه الأذهان إلى وجوب التعامل مع أعراض الدنيا طبقاً للتعاليم التي أرسل الله محمداً بها بعد أن خلطت أهواء الناس وشهواتهم هذه التعاليم بغيرها. وحين يتوجه إلى اليمين وينادي: (( حي على الصلاة )) إنما يصيح بأهل اليمين - أي المسلمين - ليقول لهم: تعالوا وثقوا صلاتكم بالله قبل أن يوهن هذه الصلة حب الأشياء التي تشتغلون بها والأشخاص الذين تتعاملون معهم. وحين يتوجه المؤذن إلى اليسار وينادي: (( حي على الفلاح )) - أي الظفر بالمطلوب - بعد

أن ذهبت بكم طرق الخسران كل مذهب دون أن تظفروا بطلب. ثم يكرر النداء للجميع بأن (( الله أكبر )) مم هم مشتغلون به، متولهون بحبه، رزاحون تحت آصاره، مكبلين بأغلاله، وأن الله هو الإله الحقيقي الذي يستحق أن تتوله القلوب بحبه وتمتف الألسنة بحمده وتسعى الأجسام في مراداته.

وتوزيع أوقات الصلاة خلال اليوم يتكامل مع الصلاة نفسها لتحقيق الأهداف التي تعمل من أجلها وهي التزكية مما يتسببه احترام التعامل بالدينا، ومما يفرزه هذا الاحتراف من أسباب مرضي (( الطغيان و الاستضعاف ))؛ كالهوى والغفلة، والانقطاع عن الله، والانغماس في الشهوات، والوقوع في الشبهات أو اقتراف المحرمات أو الانجاس في الأعراف والتقاليد، والعادات والمألوفات. لذلك يبدأ المسلم نهاره بالصلاة ليبدأ احترامه بالدينا وتوجيهات الله حاضرة في مخيلته، قائمة في وجدانه.

فإذا نال هذا الاحتراف من فاعلية التوجيهات المذكورة وأضعف صلته بقدرات العقل والإرادة، عاد المسلم وقت الظهر ليجدد هذه الصلة وليجلى ما علق بعقله من الهوى وبارادته من الشهوات المحرمة. وكذلك يفعل وقت العصر والمغرب ثم يختم نهاره بصلاة العشاء ليزكي عمل قدراته العقلية فيتوب مما اعتراها من الهوا ومضاعفاته، ويزكي إرادته فيتوب مما توجهت إليه من الشهوات المحرمة ومضاعفاتها، فيستعيد استقامته وتطيب نفسه ويصفو نومه ويهنا جسده. والى هذا كله أشار \_ صلى الله عليه وسلم \_ عند قوله: (( تحترفون تحترفون! فإذا صليتم الفجر غسلتها. ثم تحترفون تحترفون! فإذا صليتم الظهر غسلتها. ثم تحترفون تحترفون! فإذا صليتم العصر غسلتها. ثم تحترفون تحترفون فإذا صليتم المغرب غسلتها. ثم تحترفون تحترفون! فإذا صليتم العشاء غسلتها. ثم تنامون فلا يكتب عليكم حتى تستيقظوا )) (1).

ولهذا قال \_ صلى الله عليه وسلم \_: (( أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها )) . ولقد علق الرازي على هذا الحديث بقوله:

(( واعلم أن هذا الخير تنبيه على ما هو السر العقلي في تعظيم المساجد، وبيانه أن الأمكنة والأزمنة إنما تتشرف بذكر الله. والسوق على الضد من ذلك لأنه موضع البيع والشراء والإقبال على الدنيا، وذلك مما يورث الغفلة عن الله، والإعراض عن التفكير في سبيل الله، حتى أن ذاكر الله إذا دخل السوق فإنه يصير غافلاً عن ذكر الله )) (2).

(1) علاء الدين المتقي، كترال العمال، ج7، ص 314.

(2) الرازي، التفسير، ج4، ص 12.

والصلاة هي إحدى الترجمات العملية لعلاقة العبودية. ذلك أن الإنسان المسلم يتعرض خلال احترافه في الدنيا بين كل صلاتين لمؤثرات وتفاعلات تضعف من علاقة العبودية في نفسه: فتارة يحسن للآخرين أو يحسنون إليه مما قد يجعله عرضة لرؤية الإحسان في نفسه أو نسبه للآخرين. وتارة ينصر الآخرين أو ينصرونه فيسند النصره لنفسه أو إليهم. وتارة يؤدي الآخريين أو يؤذونه، وتارة يهزمهم أو يهزمونهم فيدعي القوة أو يعزوها لغيره. وتارة يواجه من يجب أو يحبه هو نفسه وتارة يربح أو يخسر وهكذا. وفي جميع هذه المواقف والأحوال قد يتصور النفع والضرر، والقدرة والنصر والرزق والحياة والموت كلها أو بعضها بيد الخلق وينسى الخالق. ويتفرع عن هذا التصور شبكة من المشاعر والولاءات والمواقف والتصرفات اليت تناقض شبكة العلاقات التي حددها التربية الإسلامية بين إنسانها وبين كل من الخالق والكون والإنسان والحياة والآخرة: ولذلك احتاج هذا الإنسان إلى إعادة التوازن في شبكة العلاقات المذكورة في نفسه كلما تعرضت لعوامل الإضعاف أو التشويه<sup>(1)</sup>.

هكذا تعمل الصلاة على مزج الدين بالدنيا طوال اليوم وتصنع منهما نسيجاً متكامل فيه قوى النفس، وتتوازن متطلبات الحياة في الدارين، وتطهر شبكة العلاقات الاجتماعية مما يعلق بها من أدران، وتنمي في المجتمع أسباب المودة والتكامل وتمده بأسباب الاستمرارية والأمن والفلاح.

لهذا كله لا يستغني عن الصلاة الصغير والكبير، والصحيح والمريض، والمقيم والمسافر، والأمن والخائف، والمسلم والمجاهد. ولهذا تضاعفت مثوبتها حتى جعل السير إليها سيراً إلى الجنة، والمحافظة عليها نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، وجعل التفريط بها ظلمة وضلالاً وهلاكاً. وحشر مضيعها مع فرعون وقارون وهامان وأبي بن خلف<sup>(2)</sup>.

ولتحقق أهداف الصلاة في تزكية الأفراد والجماعات والبيئات ركز منهاج التزكية على الإطار الجماعي - الاجتماعي في أدائها، فلا يغرق الأفراد في بيئات اجتماعية وثقافية مادية موحلة، ولا تمهبط شبكة العلاقات في المجتمع إلى درك الصراع والتهاوش على حطام الدنيا وشهواتها فتشيع الجريمة وتشتعل الفتنة وينتشر الفساد. والتشديد على صلاة الجماعة يتردد في جميع مصادر السنة. ولم يرخص بصلاة الفرد في بيته إلا في الليالي الماطرة وفي وجود علة مانعة

(1) للوقوف على تفاصيل العلاقات الخمس المذكورة راجع كتاب - فلسفة التربية الإسلامية - للمؤلف.

(2) مسند أحمد (تصنيف الساعاتي، ج2، ص232 رقم 91- ج20، ص102.

كالعمى<sup>(3)</sup>. وحينما رخص للمسلمين أن يصلوا النافلة من رمضان في بيوتهم ورأى الخليفة عمر احتمال التقاعس عنها جعلها صلاة جماعة<sup>(4)</sup>. أما عدا ذلك فقد جعلت الصلاة المكتوبة جماعة في المساجد. وتوجيهات الرسول في هذا المجال كثيرة منها:

- (( ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة جماعة إلا قد استحوز عليهم الشيطان )).
  - (( عليكم بالجماعة فإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم ))<sup>(5)</sup>
  - (( لو يعلم الناس ما في النداء والصف الاول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه. ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه. ولا يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً ))<sup>(1)</sup>.
  - (( من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله ))<sup>(2)</sup>.
  - (( صلاة الجماعة تفضل على صلاة الرجل وحدة بسبع وعشرين درجة ))<sup>(3)</sup>.
  - (( لقد هممت أن أمر فتيتي أن يجمعوا حزم الحطب ثم أمر بالصلاة فتقام ثم أحرق على أقوام لا يشهدون الصلاة ))<sup>(4)</sup>.
- وفي رواية أبي داود: (( ثم أتى أقواماً يصلون في بيوتهم ليست بهم علة فأحرقها عليهم ))

وتتساعد أهمية صلاة الجماعة لتبلغ ذروتها في صلاة الجمعة التي اختصها القرآن بسورة شددت على أدائها ونوهت بأهميتها. ومما ورد في السورة المذكورة قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا

(3) البخاري (الصحيح)، كتاب الصلاة، ج 1.

(4) مسلم، الصحيح، باب الصلاة، ج 1، ص 291.

(5) ابن تيمية، الفتاوى، كتاب السلوك، ج.....، ص.....

(1) البخاري، الصحيح، باب الصلاة.

(2) مسلم، الصحيح، ج 5، ص 157.

(3) الترمذي، السنن، باب صلاة الجماعة، صحيح مسلم، ج 5.

(4) الترمذي، السنن، باب الصلاة. ومثله عند البخاري وسلم.



لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكَوْكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ  
اللَّهِوِّ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } [الجمعة: 9-11].

ومثله تشديد الرسول - صلى الله عليه وسلم - في أحاديث كثيرة منها قوله: (( من  
ترك الجمعة ثلاث مرات من غير ضرورة طبع الله على قلبه )) (5).

وبلغ اهتمام مجتمع النبوة بالصلاة - خاصة صلاة الجماعة - درجة لم يتخلف عنها إلا  
منافق علم نفاقه أو مريض أقعده مرضه، بل إن المريض كان يمشي بين رجلين حتى يأتي  
الصلاة (6).

ومن الطبيعي أن غايات الصلاة في التزكية لا تتحقق إلا إذا برز فقه شامل راسخ  
للصلاة. فقه يقوم على البحث العلمي في ميادين النفس والاجتماع انطلاقاً مما تخبر به آيات  
الكتاب" عن فوائد الصلاة ومضار التقاعس عن أدائها. فمثلاً حين تخبرنا الآيات السابقة أن  
السعي إلى صلاة الجمعة عند سماع النداء له آثار خيرة في حياة المجتمع وعلاقاته { ذلك خير  
لكم إن كنتم تعلمون } - فلا بد من البحث العلمي في آثار الصلاة في النفس والمجتمع لـ ((  
العلم )) بمظاهر (( الخير )) المشار اليه والاستيقان بنتائجه. وحين تخبر الآية التي تليها أن  
الانتشار في الأرض والعمل والاتجار بعد قضاء صلاة الجمعة ثمرته الخير القائل { لعلمكم  
تفعلون } - أي لعلمكم تظفرون بمطلوبكم - فلا بد كذلك من بحث علمي في ميادين النفس  
والاجتماع للتعرف على مظاهر (( الفلاح )) الذي تعد به الآية.

ان الجهل بهذا الفقه العلمي عن آثار الصلاة في ميادين النفس والمجتمع يبقي الصلاة مجرد  
حركات وتمتات لا حياة فيها، وقد يحولها الى عادات موروثة لا روح فيها ولا اثر لها. ومن  
المؤسف أن فقه الصلاة في الماضي قد تعرض للتجزئة والضيق على يد المذهبيين المتنازعين. فقد  
اقتصروا عند - الفقهاء التقليديين - على الأعمال الظاهرة المحسوسة المتعلقة بالوضوء المادي  
والحركات الجسدية، والقراءات الصوتية. وعند الصوفية أغرق في غيبات منقطعة عن الواقع  
الاجتماعي بعيدة عن رحلة الإنسان عبر الحياة والمصير. ولذلك أصبح من أولى مسؤوليات  
منهاج التزكية الذي نناقشه أن يفرز مقررات دراسية وموضوعات وأبحاث شرعية تبرز دور  
الصلاة الفاعل الشامل في إحداث التوازن في حياة الأفراد وعلاقات الجماعات، وعلاقات  
الإنسان بالوجود المحيط.

(5) مسند أحمد، ج5، ص300.

(6) مسلم، الصحيح، باب الصلاة، ج5، ص156.

والصلاة بأبعادها القرآنية لا تقتصر على الإنسان المسلم وحده وإنما هي جزء صلاة كبرى قائمة في الوجود الكبير كله، ويتكامل في إقامتها كل من الخالق والمخلوقات من الملائكة والإنس والجن والحيوان والنبات والجماد. ويفصل القرآن في أنواع الصلاة الكبرى القائمة في الوجود الكبير فيذكر ان هناك صلاة يصلّيها الله وملائكته على نبيه لتكون منه تعالى رحمة ونصراً ومن ملائكته دعاءً واستغفاراً<sup>(1)</sup>. { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ } [الأحزاب: 56].

**وصلاة يصلّيها الله وملائكته على عباده المؤمنين لتكون منه تعالى رحمة وهداية لهم وبركة عليهم، ومن ملائكته دعاءً واستغفاراً لهم<sup>(2)</sup>.**  
{ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا } [الأحزاب: 43].

**وصلاة أقامها النبي - صلى الله عليه وسلم - لله سبحانه لتكون شاكرًا لله على نعمه واصطفائه لرسالاته: { فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ } [الكوثر: 2].**

**وصلاة صلاحها النبي - صلى الله عليه وسلم - على المؤمنين لتكون - في حياته - ترحمًا على المؤمنين ودعاءً لهم، وفي مماته اهتداء برسالاته وسنته: { وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } (التوبة: 103).**

**وصلاة يقيمها المؤمنون لله لتكون اتصالاً دائماً به، وتقرباً إليه بطاعته واتباع أوامره: { حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى } [البقرة: 238].**

**وصلاة يصلّيها المؤمنون على النبي خلال قراءة الصلاة الإبراهيمية التي تعقب التشهد في الصلاة لتكون تجسيداً لاتباع سنته في الداخل وحمل رسالته في الخارج: { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [الأحزاب: 56].**

**وصلاة يصلّيها المؤمنون على أنفسهم وعلى بعضهم بعضاً ويدعون لبعضهم بعضاً أحياءً وأمواتاً.**

**وصلاة تصلّيها المخلوقات كلها وهي تجري طبقاً لسنن الله وقوانينه: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } [النور: 41].**

(1) الطبري، التفسير، ج22، ص17.

(2) القرطبي، التفسير، ج14، ص128.

وحين يتوقف الإنسان عن المشاركة في هذه الصلاة الكونية الكبرى فإنه يصطدم بسنن الوجود وقوانينه , وينقطع عن جلال هذا الموكب الكوني الكبير ويحرم نفسه من جماله وأمن مسيرته ويغترب عن نفسه وينتهي الى الخسران المبين: { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } [الحج: 31].

الصلاة ومشكلات التربية المعاصرة:

من المشكلات التي تعاني منها التربية المعاصرة أمران: الأول؛ حاجتها إلى مفهوم راق لـ (( هوية الإنسان )) وحياته على الأرض والمصير الذي يسير إليه. والثاني؛ الحاجة إلى بلورة روابط جديدة تنظم الحياة في المجتمعات الحديثة التي نشأت بعد الثورة الصناعية والتقدم التكنولوجي. فقد ترتب على ظهور المدن الكبرى اجتماع الملايين من أخلاط الأجناس والأعراق الذين لا توحدتهم ثقافة ولا تربطهم روابط القرى أو العلاقات التي عاشوها آلاف السنين في عصور الزراعة والريف. ولقد نتج عن ذلك انهيار العقائد والقيم والأخلاق وظهور الجريمة وانتشار الخوف وعدم الثقة. ومع انتشار التكنولوجيا في العالم كله أخذت مشكلات الهوية والانتماء والقيم تتخذ طابعاً عالمياً وتشكل تحدياً خطيراً لنظم التربية القائمة.

لقد حاول رجال التربية الإسهام في حل المشكلات المشار إليها، فشرعوا في تطوير نظم تربوية عرفت باسم - تربية المدن الكبرى Urban Education -، وأجريت دراسات وعقدت مؤتمرات واقترحت مناهج وبرامج تربوية، لكنها ما زالت لم تحقق النجاح المنشود. ومن الذين أسهموا في هذه النشاطات التربوية البروفسور ديفيد مارتن الذي كتب عما أسماه ((ثورة المدن الكبرى: بحث عن الذات)) وقال ان الانسان في التجمعات السكانية الكبرى يعاني من مشكلات حادة لم تقدم التربية لها حلولاً بعد. وأن المشكلة الأولى هي - البحث عن الهوية - التي يتمناها سؤال: من أنا؟ وإن المشكلة الثانية هي مشكلة - الانتماء أو الاغتراب - التي يتضمنها السؤال المستمر: لمن انتمي؟ ويضيف - ديفيد مارتن - أن لكل مشكلة من هاتين المشكلتين مضاعفات تتمثل في الشعور بالوحدة , والشعور بشذوذ الحياة، والشعور بالضعف، وعدم الالتزام بقواعد ثابتة في السلوك<sup>(1)</sup>.

(1) Dauid Martin" The Urban Rebolution: A Search for identity" in Education in A Dynamic Society, edited by Dorothy Westby-gibson, PP.177-183.

وممن أسهم في تشخيص هذه التحديات التي تواجه نظم التربية في المدن الكبرى - وليم س. ملر الذي ذكر أن التحدي الذي يواجه التربية في المدن الحديثة هو - التوتر النفسي وعدم الإحساس بالأمن وفقدان الثقة. وأضاف: (( صحيح أن الحياة المنتجة تحتاج إلى مستويات معينة من عدم القناعة والتوتر حتى يمكن الإبداع وانجاز المطلوب. ولكن هذا التوتر يجب أن لا يصل إلى الحد الذي يهدد الصحة العقلية والجسدية... فالإنسان يحتاج إلى الاحترام كحاجته إلى الطعام والشراب والهواء وحين يعيش الإنسان في وسط اجتماعي تتصف العلاقات فيه بالاضطراب وعدم التقدير والإحساس بالغرابة فسوف يقع تحت تأثير العوامل المذهبة للصحة النفسية. وهذا هو طابع الحياة في المجتمعات الحديثة التي تقوم العلاقات فيها على أساس المصالح الموقوتة المتعلقة بالعمل وثقافة الاستهلاك والمترلة الاجتماعية. ولقد أدى ذلك كله الى شيوع القلق النفسي ومعاناة حوالي (50) خمسين مليون إنسان في الولايات المتحدة وحدها من مضاعفات هذا القلق المتمثلة في الصداع الشديد، وقرحة المعدة، وآلام الظهر، والإمساك، وعسر الهضم، وأمراض القلب، والالتهاب الشعبي، وتصلب الشرايين، وأمراض القولون، والخمول الجنسي، والأرق، والربو<sup>(1)</sup>.

ويناقش - مارفن هاريس - مشكلات العمل في ظل التكنولوجيا الحديثة وعصر الكمبيوتر فيذكر أن من نتائج عصر الكمبيوتر عزلة الإنسان وشعوره بالوحدة والحاجة إلى علاقات أكثر دفتاً مع الآخرين. فالموظف والعامل اللذين يعزل كل منهما نفسه في زاوية من زوايا مكتب مجهز بالآلات الاتوماتيكية، وعيناه مثبتتان إلى شاشة الكمبيوتر، صار أكثر عرضة للملل والسأم والإحساس بالعزلة من الموظف الذي كان ي عصر ما قبل الكمبيوتر. ذلك أن الآلة أصبحت - في الوقت الحاضر - تسيطر على حياة الإنسان وتوجه سلوكه وتقلل من تواصله مع الآخرين ما عدا أولئك الذين يقومون الى حوارهم بالعمل نفسه.

وفي دراسة أجريت على العاملين على أجهزة الكمبيوتر في ألمانيا وغيرها تبين أنهم يعانون ضعف ما يعانيه الآخرون من التعب والشعور بالعزلة والسامة وآلام العيون وتوترها، وآلام الصداع والظهر والتوتر.

(1) Willian C. Miller, Dealing With Stress: A Challenge for Education, (Bloomington: Phi Delta Kappa Educational Foundations, 1979) PP.7-14.

كذلك أجريت دراسات أخرى على العاملين في مراكز التلفزيونات ومكاتب الشركات ودوائر البريد أظهرت أن مكننة العمل قد أضعفت التواصل وقللت فرص التفكير<sup>(2)</sup>. ولقد حاول رجال التربية الحديثة التصدي لأمثال هذه المشكلات التي تسببت بها مضاعفات الانفجار السكاني وتقدم التكنولوجيا، وانهدام الحدود الجغرافية والثقافية، فتناولوها بالدراسة والتحليل بغية معالجتها والتقليل من مضاعفاتها، ولكن النظم والمناهج التربوية التي طوروها لم تسفر عن نتائج ذات بال. فالإنسان في المجتمعات وملاعبها، ونوادي القمار والسهر الليلي، وصلات الرقص، وشلل المخدرات، وأمثالها دون أن تشبع هذه المؤسسات حاجته في الانتماء أو تحل مشكلاته في الإحساس بالعزلة، وقلة الاحترام وقلة الأمن. ويكفي أن يذهب الإنسان إلى محطات النقل العام والقطارات العامة أوي سير في الشوارع الرئيسية في المدن الكبرى عند الساعة الخامسة مساءً ليرى كيف يجري الناس مذعورين مرعوبين، يتبادلون نظرات الريبة والحذر والخوف من القتل أو السرقة أو الاغتصاب، ويعانون من قلة الانتظار وترقب وسائل المواصلات التي تنقلهم إلى محابثهم في شققهم وبيوتهم وراء أبواب مقفلة محصنة بالأقفال والأزراد وكلاب الحراسة.

ولقد كشفت الدراسات البيئية التي أجريت في المدن الحديثة أن الكتابة المطبوعة وبرامج التلفزيون والمكالمات التلفونية لا تغني عن اللقاءات والجلسات المباشرة بين بني الإنسان، وأن جميع مراكز الترفيه ومسارح التسلية لا تسد جوع الإنسان وحاجته إلى الهوية والانتماء القائمين على أنبل ما فيه من مزايا رفيعة وأشواق روحية<sup>(1)</sup>.

وإزاء هذه المشكلات الاجتماعية المستعصية يبدو أنه لا علاج لجماهير العصر الحديث إلا ما توفره صلاة الجماعة والمساجد من روابط الأخوة وهوية الإيمان. فالهوية هي الإسلام والانتماء إلى جماعة المسلمين، والتوتر يعالجه الاطمئنان النفسي الذي تحدته الصلة بالله والاسترخاء الذي يمارسه المصلي خمس مرات في اليوم نتيجة للتحرر من أسر الماديات الدنيوية. والوحدة تعالجها جماعات المساجد التي تلتقي في اليوم خمس مرات حول أسمى ما في الإنسان وتطلعاته الروحية. وهذا ما أثبتته تاريخ المدن الإسلامية حيث كانت صلاة الجماعة والمساجد مؤسسات وفرت الوقاية للمجتمعات الإسلامية التي تشكلت من عناصر متعددة الأعراق

(2) Marbin Harris, America Now: The Anthropology of A Chaning Culture, (New York: Simon & Schaster Inc, 1981) PP. 52-53>

(1) Rene Dubos, So Human an Animal, P.59, 212-213.

والأجناس وأمدتها بروابط إيمانية حفظتها من الجريمة ومضاعفاتها ووفرت لها فرص الانتماء الروحي وتوفير الفرص لبروز روابط جديدة قائمة على المصاهرة إلى جانب روابط الدين والأخوة. ولقد انتبه إلى هذا الدور الذي تؤديه الصلاة في تقليل الانحرافات ومعالجة السلبيات التي تنشأ عن التجمعات السكانية الكبرى، العالم البيئي - رينيه دوبو - عندما ضرب مثلاً بصلاة الجمعة فقال:

(( في العالم الإسلامي يشكل المسجد والسوق مركز الحياة كل يوم جمعة. وترمي القاعدة الفقهية التي تجعل متطلبات عقد صلاة الجمعة هي إجماع أربعين رجل على الأقل إلى ربط الممارسات الدينية بالمراكز ذات التجمعات السكانية الكبرى ))<sup>(2)</sup>.

### التناقض بين جماعية الصلاة وفردية ثقافة العصبية القبلية:

والسؤال الذي نطرحه هو: إذا كانت الصلاة توفر هذه المعالجات لمشكلات المجتمعات الصناعية الحديثة، فلماذا تفتقر المجتمعات الإسلامية الحديثة إلى المزايا التي توفرها الصلاة في بث روح الجماعة والتكافل والنظام؟ الجواب هو أن هذه المجتمعات في الوقت الذي تؤدي الصلاة كشعيرة دينية تمارس تطبيقات الثقافة القبلية في علاقاتها الاجتماعية وممارساتها الإدارية، وتلقن ناشئتها آداب القبلية وأشعارها وفنونها الأمر الذي ينعكس سلباً على فاعلية الصلاة الاجتماعية. ومع ذلك فإنه لا يمكن أن ننكر أثر الصلاة - خاصة صلاة الجماعة - في حفظ أخلاق الطبقات العمالية وتقليل مظاهر الجريمة في أوساطها وإشاعة نوع من الدفاء النفسي في علاقاتها.

### 3- الزكاة:

الزكاة هي الأسلوب الثالث في أساليب منهاج التزكية، وهي أهم المظاهر العملية التي تجسد علاقة الانسان بالإنسان؛ لأنها تسهم في تحقيق علاقة العدل من خلال إمداد الفقير بمقومات الحياة الكريمة المحققة لبقاء النوع البشري، وتسهم في توفير علاقة الإحسان الموفرة لأسباب رقي النوع البشري من خلال تهذيب نفوس الأغنياء من أمراض البخل والشح والطغيان، وتطهير نفوس الفقراء من أسباب الحقد والحسد المفضية الى الفتن أو أسباب الضعة

<sup>(2)</sup> Rene Dubos, *Beast Of Animal: Choices that make us Human*, (New york: Charies Scribner's Sons, 1974) P. 96.

المفضية الى الاستضعاف وهذا بعض ما عناه قوله تعالى: { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } [ التوبة: 103]. وقوله: { الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى } [ الليل: 18].

ولقد تكرر التأكيد على الزكاة في القرآن الكريم في (32) اثنين وثلاثين موضعاً اقترنت خلالها بالصلاة اقتراناً غير قابل للانفكاك وجعلت مع الصلاة هدفاً رئيساً للحكم الإسلامي لتعمل الصلاة على دوام رقي النوع البشري وتعمل الزكاة على صيانة هذا الرقي من الانتكاس تحت ضغط الحاجات الأساسية اللازمة لبقاء النوع: { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } (الحج: 41). والزكاة شرط من شروط تنزل رحمته تعالى على الناس: { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ } (الأعراف: 156).

والزكاة سبب من أسباب الازدهار الاقتصادي ووقاية من مضاعفات الاستغلال والاحتكار المفضيين إلى الحقد والحسد والفتن المدمرة والكوارث الماحقة: { وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِيُرَبُّوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرُبُّوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ } (الروم: 39). لكل ذلك صنفت الأحاديث النبوية الزكاة ضمن الأركان الخمس التي بني الإسلام عليها، واعتبر أداؤها برهاناً على صحة الصلاة وإقامة معانيها في واقع الحياة: (( إنا أنزلنا المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ))<sup>(1)</sup>.

والزكاة نظام اقتصادي وتنظيم اجتماعي هدفه الارتقاء بشبكة العلاقات الاجتماعية في الأمة الإسلامية، وصيانة هذه العلاقات من الطبقة والأحقاد المصدعة للوحدة، المعيقة للنمو والتقدم. فهي تزكية للأغنياء من مضاعفات (( الطغيان ))، وتزكية للفقراء من مضاعفات (( الاستضعاف ))، وتزكية للأمة من أن تترد إلى حالة التخلف والانهيار. وإذا كان الفقه التقليدي الذي سجن نفسه في دائرة (( معاملات الأسواق ))، وتكيف لضغوط ذوي السلطان والنفوذ قد حصر مضمون الزكاة في دفع النسبة المالية التي وقفت عند دفع الـ 2.5% من المال الذي يحول عليه الحول، وترك أداؤها للفرد نفسه وبالأسلوب الذي يراه، فإن مضامين الزكاة في القرآن والحديث وتطبيقاتها في العصر النبوي والعصر الراشدي لا تقف عند هذه النسبة ولا تسمح بدفعها بأساليب تلحق المن والأذى بأخذها. فالتعبير القرآني قد أطلق اصطلاح الزكاة لتشير إلى نظام اقتصادي - اجتماعي متكامل حدد أهدافه بتوفير (( المعاون )) الذي يعين كل إنسان على التفرغ لدينه والقيام بمسؤولياته وحمايته من اقتصاد (( السحت ))

(1) مسند أحمد، ج5، ص 219.



الذي يسحت إنسانية الإنسان أي يستأصلها ويأتي عليها، ثم امتحن العقل الإسلامي بكيفية بناء هذا النظام الاقتصادي وإخراجه.

أما التوجيهات النبوية فانه الرسول \_ صلى الله عليه وسلم \_ يبين بصراحة أن في المال حقاً سوى الزكاة، وأن هذا الحق يمتد حتى الاكتفاء الذاتي بين المؤمنين ومن يعايشونهم من غير المؤمنين. فهو يذكر بصراحة أن (( ليس المؤمن الذي يشيع وجاره جائع إلى جنبه )) (1) ومن الطبيعي أن يتعدى مفهوم الجوار هنا جوار الأفراد الى جوار الجماعات والأقطار. فعن عباد بن شراحيل قال: قدمت المدينة وقد أصابني جوع شديد فدخلت حائطاً فأخذت سنبلأ فأكلت منه وجعلت في ثوبي. فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ما في ثوبي. قال: فانطلقنا إلى رسول الله \_ صلى الله عليه وسلم \_ فذكرنا ذلك له. فقال رسول الله لصاحب الحائط: (( ما علمته إذ كان جاهلاً، ولا أطعمته إذ كان ساغباً! فأمر لي بنصف وسق من شعير )) (2).

وعن رافع بن عمر الغفاري قال: كنت وأنا غلام نخلأ للأنصار. فقيل للنبي \_ صلى الله عليه وسلم \_: أن هاهنا غلاماً يرمي نخلنا. قال: قال خذوه فأتوني به. قال: يا غلام لم ترمي نخلهم؟ قال: إني أريد أن أكل. قال: لا ترم نخلهم وكل مما في أصولها. قال ومسح رأس الغلام وقال: اللهم أشبع بطنه (3).

وفي قصة الأشعريين تجسيد للحدود التي يتسع إليها مبدأ الترقية الاقتصادية. والأشعريون جماعة من المسلمين أعجب بهم الرسول \_ صلى الله عليه وسلم \_ وقال فيهم: (( إن الأشعريين إذا أرملوا (4) في الغزو، أو قل طعامهم في المدينة، جمعوا ما عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم )) (5).

وفي العصر الراشد كان من فقه عمر بن الخطاب أنه قال: لقد هممت أن آخذ فضول أغنيائهم وأردها على فقرائهم. وحدث في زمانه أن جماعة من الأنصار ذهبوا في سفر فجاعوا، فأتوا على حي من أحياء العرب فسألوهم القرى أو البيع، فأبوا. فضبطوهم وأخذوا حاجتهم. فاشتكى الأعراب إلى عمر وأشفقت الأنصار من ذلك. فهم بهم عمر رضي الله عنه وقال:

(1) البيهقي، الجامع لشعب الإيمان، ج6، ص565 رقم 3117.

(2) البيهقي، السنن الكبرى، ج10، ص2.

(3) البيهقي، السنن الكبرى، ج10، ص3.

(4) .....

(5) مسلم، الصحيح، (شرح النووي)، ج16، فضائل الصحابة.

تمنعون ابن السبيل ما يخلف الله في ضروع الإبل والغنم بالليل: ابن السبيل أحق بالماء من التأي عليه<sup>(6)</sup>.

وفي عام الرمادة - الثامنة عشرة الهجري - الذي ضرب به القحط الحجاز استقدم الخليفة عمر الإمدادات من ولايات مصر والشام والعراق. وبعدها رفع الله القحط قال: لو لم يرفعه الله لجعلت مع كل أهل بيت مثلهم، فإنهم لن يهلكوا عن أنصاف بطونهم<sup>(1)</sup>.  
وحدث أن مماليكاً جياً أخذوا ناقة أعرابي فلم يقدروا على حملها، وإنما قضى بأن يدفع سيدهم ضعف ثمنها، ودرأ عنهم قطع الأيدي لأن سيدهم جوعهم وتسبب لهم بالسرقة<sup>(2)</sup>.

وقياساً على حكم عمر هذا فإن الحكومات والشركات وأصحاب العمل في المجتمعات الحديثة في الأرض قاطبة التي تدفع للموظفين والعمال أجوراً ورواتب تقل عن نفقاتهم وسد حاجاتهم هي المسؤولة والمدانة عما يقع من سرقات الموظفين وجرائم العمال.  
وفي زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز كتب حجة البيت الحرام إليه أن يرسل للكعبة بكسوة كما فعل من كان قبله فكتب إليهم: (( إني رأيت أن أجعل ذلك في أكباد جائعة فإنهم أولى بذلك من البيت ))<sup>(3)</sup>.

والخلاصة أن فقه الصحابة للزكاة كان فقهياً شاملاً مؤصلاً يقوم على أساس - تزكية - الأمة من كل ما ينال من استقرارها وأمنها ورفيها. وإذا كانت أساليب التطبيق التي قدمنا أمثلة عليها قد ناسبت مجتمع المدينة التي لم يكن حجمها يزيد عن حجم القرى المعاصرة، فإن تراخي سعة الأقطار المعاصرة يوجب على العاملين في التربية الإسلامية والفقه الإسلامي أن يبلوروا أصولاً اقتصادية تبرز مضامين الزكاة بأساليب وتنظيمات تلائم روح العصر، بحيث تحافظ على المبدأ وتطور أساليب التطبيق بما يناسب التطورات الجارية في الزمان والمكان.

#### 4- الصوم:

الصوم وسيلة من وسائل التزكية هدفها تنمية الإرادة المتحررة التي (( تتقي )) الاصطدام بسنن الله وتعاليمه في ميادين الحياة المختلفة. والى هذا الهدف يشير قوله تعالى: ﴿

<sup>(6)</sup> البيهقي، السنن الكبرى، ج10، ص3-4.

<sup>(1)</sup> ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج3، ص310-316.

<sup>(2)</sup> ابن تيمية، الفتاوى، كتاب الفقه: الجهاد، ج28، ص119.

<sup>(3)</sup> أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ج5، ص306.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ { [البقرة: 183]. ومثله إشارة الرسول \_ صلى الله عليه وسلم \_ لرمضان بقوله: (( هذا شهر زكاتكم ))<sup>(1)</sup> وقوله أيضاً: (( لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصيام ))<sup>(2)</sup>، وقوله: (( الصيام جنة ))<sup>(3)</sup> أي وقاية.

والصوم أنواع ثلاثة: نوع فرضه الله ليكون عبادة يمارسها المسلم بشكل دوري كصيام رمضان. ونوع ثاني يمارسه المسلم ليكون كفارة لمخالفات يرتكبها في مواقف محددة كالصوم الذي جعل بديلاً للهدى في الحج، وبديلاً للفدية، وتحرير الرقبة في القتل الخطأ، وبديلاً لإطعام المساكين في الإيمان المغلظة ومظاهرة النساء، وبديلاً لإطعام المساكين في الصيد الحرام. ونوع ثالث يتطوع به المسلم نافلة خلال شهور السنة كيوم عاشوراء وصيام الأيام الثلاثة البيض من كل شهر.

والصوم بهذا التنوع تزكية شاملة هدفها تطهير حياة المسلم من عوامل الضعف التي توقعه في أسر (( الأشياء )) فيسهل تدمير إنسانيته، وتنمية أسباب القوة التي تساعده على الاحتفاظ بإنسانيته وتميزه بين المخلوقات الأخرى. فالصوم تزكية من الانفعالات الطائشة التي توقع في الخطأ، وتسهيل اقتراف الزلل المؤدي إلى الإفساد والتخريب كما هو في صوم الكفارات. والصوم تزكية من أنماط السلوك اللاعقلاني الذي يفسد العلاقات ويهدد الروابط كما هو في صوم كفارات الإيمان المغلظة وأيمان الظهار. والصوم تزكية من اتجاهات الاستهتار بالواجب والارتجال في السلوك المؤديين إلى اقتراف الأخطاء الضارة بالنفس والآخرين كما هو في صوم كفارة القتل الخطأ. والصوم تزكية للجسم من الشره والإفراط في الشهوات الضارة بالصحة المشيعة للاضطراب في وظائف الجسد وعناصر السلوك الفكري والعاطفي كما هو في صيام النوافل المتكررة.

والصوم تزكية للجماعات من عوامل الشح والأنانية ومنميات الحقد والتدابير وتنمية لأسباب الترابط وصلة الرحم والأخوة والمودة كما يتضح من الممارسات الاجتماعية خلال رمضان كالبذل والصدقات وتبادل دعوات الإفطار.

(1) مالك، الموطأ، باب الزكاة.

(2) ابن ماجه، السنن، باب العصبية، رقم 3949.

(3) مسلم، الصحيح، فضل الصيام، ج8، ص30.

وجميع هذه المظاهر التزكوية تتركز خلال شهر رمضان لتشكل دورة تربوية مكثفة تعيد للأفراد والجماعات المسلمة عافيتها العقلية والنفسية والجسدية وتوجهها نحو الأهداف التي أخرجت من أجلها. وإلى هذه العافية يشير قوله \_ صلى الله عليه وسلم \_ : (( صوموا تصحوا ))<sup>(1)</sup>. واليها - أيضاً - يشير اسم رمضان نفسه الذي هو مشتق من (رمض) أي احترق. وسمي شهر الصيام بذلك لارتماض النفس من شهواتها التي أصابها التضخم، والارتماض الذنوب في رمضان وتوقف مصادرها وأسبابها.

وانتهاء رمضان - (( عيد الفطر )) ينسجم مع أهداف الصوم ووظائفه. فالعيد مشتق من العودة المتكررة. والفطر مشتق من الفطرة التي تعني أن الإنسان مفطور على الانسجام مع حركة الكون الكبير وقوانين الخلق القائمة على الاستجابة لسنن الله، والمؤدية إلى الانجذاب إلى عبادته وإلى تعشق معاني الحق والفضيلة، والنفور من الشر والرذيلة. فعيد الفطر يعني العودة إلى الفطرة بعد أن رمض الصوم النفس وزكاه مما اعتراها من أعطال وانحرافات في الأفكار والمشاعر والممارسات، ومما أصاب البيئة الاجتماعية العامة من اضطراب في العلاقات ومفاسد في الاتجاهات. أي أن - عيد الفطر - عودة الأفراد والجماعات إلى حالة (( الوسطية )) المفضية إلى الشر والفساد. فهو عودة الحاكم إلى تحمل المسؤولية والعدل. وعودة التاجر إلى الأمانة وتحري الحلال في الكسب والإنفاق. وعودة المفكر والعالم إلى الصحة في الفكر والتفكير، وعودة الأفراد إلى تحمل مسؤولياتهم في مختلف مواقعهم على ثغور الحياة الإسلامية، وعودة الجماعات إلى روابط الأخوة وعلاقات التراحم والتآوي والتناصر والمواودة. وعودة النشاطات الاجتماعية إلى رفعة الأهداف ونقاء الممارسات. وهكذا في جميع مواقع الحياة وأدوارها ومؤسساتها.

والعودة إلى الفكرة معناه عودة الأذواق إلى تذوق جمال الحياة القائمة على الاعتدال في الاستهلاك والإنفاق، وتذوق بشاعة الإفراط والتفريط المؤديين إلى فقدان السعادة والمتعة، المورثين للملل وما ينتج عن هذا الملل من ميل للمشبهيات الضارة المحرمة. والعودة إلى الفطرة معناه العودة إلى علاقات الأخوة الإنسانية والمحبة والتكافل والعدل والإحسان، وتنقيتها كلها مما يناقضها من علاقات الصراع والطبقية والاستغلال والظلم والأحقاد. ولقد قدم \_ صلى الله عليه وسلم \_ النموذج الإنساني الكامل لذلك فكان:

(1) مسلم، الصحيح، كتاب فضل الصيام، ج8، ص30.

(( أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل. وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - القرآن، فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة ))<sup>(1)</sup>.

والعودة إلى الفطرة معناها **العودة إلى العافية في الاعتقاد والتصور ومناهج الفهم وتطبيقات ذلك كله في ميادين السلوك المختلفة**. وهذا ما توفره فترة الاعتكاف في رمضان وما يتخللها من مراجعة وتقويم للأفكار والمناهج التي اتبعت والتطبيقات السلوكية التي مورست خلال شهور السنة المختلفة.

والعودة إلى الفطرة معناها **العودة إلى الأخلاق الفاضلة بمعناها الواسع والنفور من الرذيلة بكل مظاهرها**. وهذا ما يوفره الصوم عن الفحش والفسوق والمماراة والمجادلة والتحلي بما يقابلها من الفضائل. والى هذا الصوم يوجه أمثال قوله - صلى الله عليه وسلم -: (( الصوم جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم ))<sup>(2)</sup> ومثله قوله: (( من لم يدع قول الزور والعلم به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه ))<sup>(3)</sup>.

والعودة إلى الفطرة معناها **العودة إلى حرية الاختيار في الأفعال والمشاعر والأفكار والقدرة على الاختيار الواعي الحر الذي يمكن الإنسان من التصرف بالأشياء بدل أن تتصرف به وتأسره**. وهذا ما يوفره تكرار الامتناع عن الطعام والشراب والنكاح عند الإمساك وإتيانها بعد الإفطار. ويمكننا أن نتبين حكمة هذا الإمساك والإفطار من خلال النظر في نتائج البحوث العلمية التي أجريت في ميدان التربية الأخلاقية. فقد تبين أن هناك بعض الناس الذي يودون إشباع رغباتهم ودوافعهم في الحاضر الآني السريع دون اعتبار لمشروعية مصدر الإشباع أو وسائله. بينما يوجد فريق آخر يفضل إرجاء إشباع هذه الرغبات حتى يتيسر له المصدر المشروع والوسائل المشروعة. وعند البحث في فاعلية الفريقين ظهر أن الذين يستطيعون إرجاء إشباع شهواتهم إلى الوقت المناسب وبالوسائل المشروعة وبالقدر المشروع ومن المصدر المشروع هم أقدر على التفاعل مع متغيرات البيئة وأقدر على المثابرة على العمل الصعب في الحاضر والمستقبل. أما الذين يخضعون لشهواتهم ويميلون إلى إشباع رغباتهم في الحال فإنما يفعلون ذلك

(1) البخاري، كتاب الصوم.

(2) صحيح البخاري وصحيح مسلم، كتاب الصوم.

(3) صحيح البخاري، كتاب الصوم.

هروباً مؤقتاً وتنفيساً عاطفياً عن متاعب الحياة التي يفشلون في مواجهتها، وأهم عاجزون عن المثارة والصمود أمام التحديات وتحمل المسؤوليات.

ولقد علق - م. سكوت بك - على ذلك بقوله:

(( يبدو لي أن ساعة من الألم تتبعها ساعات من السرور خير من ساعة من المتعة تتبعها ست ساعات من الألم. إن تأجيل المتعة هو عملية تنظيم آلام الحياة ومسراتها بطريقة نحصل بها على السعادة من خلال تقبل الألم وخبراته أولاً ثم التغلب عليه بالسعادة. فهذه هي الطريقة الوحيدة للعيش بأمانة وصدق ))<sup>(1)</sup>.

يضاف إلى ذلك كله أن القادرين على إرجاء إشباع شهواتهم حتى الحصول على المصادر المشروعة وبالوسائل المشروعة وبالقدر المشروع هم أكثر التزاماً بالمسؤوليات العامة التي تفرضها وظائف القيادة والولاية وأكثر مناعة من اختراقات الأعداء والإغواء بالخيانة ممن هم عاجزون عن إرجاء الإشباع المذكور.

وأخيراً فإن العودة إلى الفطرة معناها صلاحية الإنسان المسلم للعودة للجهاد والتضحية في سبيل الله. وهذا ما يرمز إليه - عيد الأضحى - الذي يعقب عيد الفطر بشهرين وعشرة أيام وهي فترة للإعداد ثم الاجتماع والتعارف ثم البيعة والنفير العام طوال الشهور الباقية في السنة. فإذا جاء صوم رمضان التالي دخل المسلمون في عملية تزكية مركزة ومراجعة وتقويم شاملين بهدف الاستعداد لانطلاقة جديدة في الجهاد والتضحية.

ولقد استشرف عالم النفس المشهور - ابراهام ماسلو - بعض هذه الآثار التزكوية للصوم حين كتب يقول:

(( ربما كان صحيحاً أن الحاجات العليا (أي حاجات تحقيق الذات والانتماء والاحترام والحب) قد لا تظهر أحياناً بعد الإشباع، وإنما بعد الحرمان القسري أو الاختياري ونكران الذات وكبت الحاجات الدنيا الأساسية ( من خلال الزهد والتسامي والتأديب والاضطهاد.. الخ). ونحن لا نعرف إلا القليل عن مدى عمق آثار هذه الأساليب مع أنه نقل إلينا أنها ظاهرة عامة في الثقافات الشرقية. وعلى أي حال فهذه الظواهر لا تتناقض مع موضوعنا طالما أننا لا ندعي أن الإشباع هو المصدر الوحيد للقوة، أو أي من الأمان النفسية الأخرى. فمن الواضح أن نظرية الإشباع هي نظرية جزئية محدودة وليست جديدة بالوجود المستقل أو الصدق. فهي قد تتصف بهذا الصدق فقط حين تتكامل مع: 1- نظرية الإحباط. 2- نظرية التعلم. 3 -

(1) دكتور ماجد عرسان الكيلاني، اتجاهات معاصرة في التربية الأخلاقية، ص 62-65.

نظرية العصاب 4- نظرية الصحة النفسية. 5 - نظرية القيم. 6 - نظرية التأديب والإرادة والمسؤولية.. الخ)).

ويستمر - ماسلو- في عرض النتائج العامة لإتخام الحاجة فيقول: (( إن أهم النتائج المترتبة على اشبع الحاجة اشباعاً كاملاً أو إتخامها هو أن هذه الحاجة تختفي وتظهر حاجة جديدة أعلى. وهناك نتائج أخرى مصاحبة منها: ظهور ترفع وأنفة معينة عن المشبعت القديمة للحاجة مع التطوع الى مشبعت ووسائل جديدة كانت تعتبر بعيدة المنال ولا تتحرك لها الإرادة إلا احياناً. وهذا التبدل في المشبعت والإرادات يتضمن نتائج أخرى ثالثة هي التغير في الاهتمامات، حيث تصبح ظواهر معينة مثيرة للاهتمام لأول مرة، وتتحول ظواهر قديمة الى مملة ومثيرة للاشمئزاز. أي أن التغير يصيب القيم الإنسانية بحيث يتصف النظام القيمي بثلاث صفات: الأولى؛ مبالغة في تقدير الكافيات ذات القوة في تلبية الحاجات غير المشبعة. والثاني؛ تهوي الكافيات الأقل قوة والتي لا تشبع الحاجات غير المشبعة. والثالث؛ تهوي الكافيات للحاجات التي أشبعت من قبل والحط من قيمتها.

وهذا التحول في القيم يتضمن إعادة تركيب فلسفة المستقبل وأحلامه ونوع السعادة والشقاء والحياة الأفضل.

وبكلمة أخرى فنحن نميل إلى تهوين البركات التي حصلنا عليها من دون كفاح. فالطعام والأمن والحب والاحترام والحرية التي وجدت من قبل ولم يحس بفقدانها ولم يجز الحنين إليها يقل الإحساس بوجودها وتقل قيمتها ويسخر منها ويتم تهديدها. وهذا الفشل في تقدير النعمة حالة من المرض النفسي الذي لا يكون الشفاء منه سهلاً وبسيطاً إلا من خلال المرور بخبرات الحرمان المتمثل بالألم والجوع والفقر والعزلة والرفض والظلم إلى آخر ذلك))<sup>(1)</sup>.

ويخلص - ماسلو - من هذا التحليل النفسي لآثار الحرمان الايجابية فيقول: (( ربما كان إشباع الحاجات الأساسية ضرورياً، ولكنه ليس كافياً وحده إذ لكل من الاشباع والحرمان آثاره المرغوبة وغير المرغوبة))<sup>(2)</sup>.

وفي رمضان - ليلة القدر - التي يطلب إلى المسلم إحيائها بقراءة القرآن والصلاة والدعاء والاستغفار، وهو ما وجه إليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقوله: (( من قام

<sup>(1)</sup> Abraham H. Maslow, Motivation and Personality, PP. 61-62.

<sup>(2)</sup> Ibid, PP. 50-60.



ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ((<sup>(3)</sup>). ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه. والحكمة من وجود ليلة القدر - في رمضان تنسجم مع منهج التزكية الرمضانية. فهي ليلة تقدر فيها نتائج التزكية ويقرر في ضوء هذه النتائج من استفاد من هذه التزكية وأصبح مؤهلاً للاستمرار في حلم مسؤوليته ومكانته ووجوده، ومن يستحق الترفع أو التخفيض أو الإسقاط. وفي ليلة القدر تقدر آجال الأفراد والأمم وجريان الأحداث والى هذا التقدير يشير قوله تعالى: {حَمَّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} [الدخان: 1-5].

فهي ليلة يتم فيها إعادة النظر في تقدير منازل الأفراد والأمم ومصائرهم وأحوالهم. وهذا ما فسره قتادة حين قال: تقضى فيها الأمور وتقدر الآجال والأرزاق كما قال تعالى: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} <sup>(1)</sup>، واليه أشار هلال بن يسار حين قال: ((انتظروا القضاء في شهر رمضان فيرم في ليلة القدر من شهر رمضان كل أجل وعمل ورزق وما يكون في تلك السنة)) <sup>(2)</sup>.

واقتران رمضان بالقرآن - سواء من حيث التزول أو من حيث التلاوة والمدارسة - هو اقتران الهداية بالفطرة. فإذا كان القرآن هو مصدر الهدى، فإن هذا الهدى لا يتحقق إلا إذا عاد الإنسان إلى فطرته المتحررة النقية الصافية، القادرة على التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، وهو ما يوفره صوم رمضان وآثاره في التزكية.

وأخيراً لا بد من الانتباه إلى موقع رمضان في التوقيت القمري وما يعكسه هذا الموقع من عدل الهي في توزيع مشاق الصوم وتسهيلات، فـرمضان يتحرك سنوياً عشرة أيام إلى الأمام مما يؤدي إلى دورانه خلال فصول السنة كلها، ومشاركة الصائمين بمشاقه وتسهيلات، خلال فصول السنة كلها بصيفها وشتائها، وربيعها وخريفها. وينطبق نفس التوزيع العادل على أعمار الأفراد وأطوار حياتهم فمن صام رمضان في الشتاء في طفولته، يصومه في الصيف خلال رجولته، ومن صامه في الصيف خلال رجولته صامه في الشتاء خلال شيخوخته. كذلك ينطبق نفس التوزيع على مناطق الأرض وقاراتها فالمناطق الحارة التي تصومه في الصيف يأتيها زمن تصومه في الشتاء ومثلها المناطق الباردة والمعتدلة وهكذا.

(3) البخاري، الصحيح، كتاب الصوم.

(1) الطرطوشي، الحوادث والبدع، ص118.

(2) ابن كثير، التفسير، (الدخان: 4)، ج4، ص530.

## 5- الحج:

الحج - لغة - معناه القصد والأمر - بفتح الهمزة - . يقال: حج البيت أي قصده وأمه<sup>(1)</sup>. واصطلاحاً معناه: السفر إلى البيت الحرام في مكة المكرمة في فترة معينة من كل سنة قمرية والقيام بعبادات وشعائر محددة.

والذين يقومون بالحج - هم المرشحون لتولي منصب إقامة الدعوة إلى الإيمان بالله والامر بالمعروف والنهي عن المنكر في بقية شهور السنة وما يتولها.

فالحج تطبيق عملي مستمر للوعد الإلهي الذي تفضل به الله على إبراهيم عند قوله

تعالى:

{ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } [البقرة: 124].

والكلمات التي ابتلي - أي اختبر وامتحان - بها إبراهيم هي:

أولاً: استعداد للتضحية بنفسه في سبيل توحيد الله وعبادته ومحاربة الصنمية والأصنام.

ثانياً: استعداد للهجرة في سبيل عقيدته.

ثالثاً: استعداده للتضحية بولده ( وهو هنا إسماعيل عليه السلام).

وحين نجح إبراهيم في الابتلاءات الثلاثة نصبه الله إماماً لرسالة الدعوة إلى الله والإصلاح الإنساني واستجاب لطلبه إسناد نفس - منصب الإمامة - للمؤهلين من ذريته الذين يجتازون الابتلاء الإلهي بنجاح، المجتهدين في اتباع ملة إبراهيم عليه السلام.

فالحج عملية اختيار لإمامة الإنسانية وحمل دعوة الله ورسالة الإصلاح العالمي، والطلب

إلى المرشحين لذلك أن يذهبوا إلى نفس المكان الذي نصب الله تعالى إبراهيم عليه السلام فيه (( للناس إماماً )) ليمروا بنفس - الابتلاءات - الثلاثة التي مر بها أبو الأنبياء وليتدبروا على مهام (( الإمامة )) المذكورة في جيلهم المعاصر. فالذين يجتازون الابتلاء ينالهم عهد الله - أي يتفضل عليهم سبحانه بمنصب القوة العظمى - أو الإمامة الكبرى - .

أما الأجيال الظالمة - التي تغفل عن مقاصد الحج - وتحيله إلى مجرد طقوس وممارسات

لا تؤدي إلى تخريج أئمة الدعوة والإصلاح فهؤلاء لا ينالهم عهد الله تعالى، وليس لهم من أعمال حجهم إلا التعب غير المأجور.

(1) لسان العرب، مجموعة من تفاسير القرآن الكريم.

فالحج تربية بالخبرة وتزكية من مضاعفات (( الطغيان )) و (( الاستضعاف )) التي تفرزها العصبية القبلية والطبقية والإقليمية والعرقية. وهو صهر عملي للاختلافات العارضة في اللون والجنس والثروة والمكانة الاجتماعية، وتوحيد لقوى الخير وإعدادها للوقوف صفاً واحداً ضد الشر الذي يفترس الإنسان ويدمر إنسانيته.

وتتناسق مناسك الحج وأجواؤه مع الأهداف التي شرع الحج من أجلها:

وأول مظاهر هذا التناسق هو فرض الحج على من يتوفر لديه المال والعافية اللذين هما مادة الجهاد إن أحسن الحاج استعمالها، وهما أيضاً من أقوى الأسباب المهيجة لسياسات الظلم والإفساد إن أسيء استعمالها.

وثاني مظاهر هذا التناسق هو - الفترة الزمنية - التي شرع الحج خلالها موقعها في العام الهجري - أي التوقيت القمري - فالحج يأتي بعد شهرين من صيام رمضان وهما فترة إعداد وتهيؤ يقوم بهما من مر بعيد الفطر - أي عادت فطرته إليه - في تعشق الإيمان والخير والفضيلة، والنفور من الإفساد والشر والرذيلة والكفر، وصحت تزكيتة، وصار عنصراً إنسانياً صالحاً للانضمام إلى - جيل أئمة الدعوة والإصلاح - الذين يرشحهم حج هذا العام لإمامة الدعوة إلى الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وثالث مظاهر تناسق الحج وأهدافه هو طبيعة الأرض التي اختارها الله مكاناً للحج، فهي - تاريخياً - الأرض التي رفع إبراهيم وإسماعيل قواعد البيت وأتما بناءه ليكون مثابة للناس وأمناً: يثوبون للهدى الذي نزل فيه كلما فقدوا الرشد، ويستلهمون معاني الأمن الذي يشيعه أتباع الرسالة التي تنطلق منه كلما شاعت الفتن وكثر القتل والهرج، وفيها نصب الله تعالى إبراهيم عليه السلام إماماً للناس ووعد بذلك من ذريته الذين لا يظلمون أنفسهم ولا يفرطون بشروط الإمام وأحلاقها.

وهي - جغرافياً - أرض صحراوية لا خضرة فيها ولا ماء، وهي شديدة الحرارة ثقيلة المناخ لا وجود فيها لأسباب اللهو والمتعة التي يجدها طلاب الدنيا في أماكن الخصب والتجارة والاعتدال المناخي ومنشآت السياحة والترفيه. فمن دخلها فكأنما خرج من الدنيا بمتعتها وأسباب الغفلة فيها، واستشرف أرض المحشر بحرهما وبردها ومشاقها.

ويطلق القرآن الكريم على المظهرين - التاريخي والجغرافي - مصطلح الميقات - وجمعه مواقيت، وهو اصطلاح لا نظير له في اللغات الأخرى.

فـ (( الإحرام )) الذي يبدأ به الحاج عند الميقات إنما هو تجرد من رفث الدنيا وفسوقها: أي فتنها ومعاصيها، وتجرد من ولاءاتها العصبية، ودخول في طاعة الله وولايته وحده.

و (( التلبية )) التي يرفع الحاج بها صوته ويظل يكرر: لبيك اللهم لبيك! لا شريك لك لبيك! إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك! )) من بدء الحج حتى نهايته، هي تزكية للأفراد والجماعات من الاستعمالات الخاطئة لمفاهيم (( الحمد )) التي تشيعها ثقافات العصبية وتعزي الأتباع بترديدها، فتجعل (( الحمد )) لغير الله، وتسند (( النعمة والملك )) للآلهة - الأنداد.

و (( الطواف حول البيت )) هو تطهير للعقول والإرادات والممارسات من الطواف حول أهواء العصبية وأصنامها، وتدريب على الطواف حول - المثل الأعلى - الذي جاءت به الرسالة الإسلامية ليكون نموذجاً للحياة الكريمة وواقعياً للإنسانية من حياة الطغيان والاستضعاف.

و (( تقبيل الحجر الأسود أو الإشارة إليه )) هو رمز لمبايعة الله ومحبته وطاعته وترفع عن طاعة الأصنام - الأنداد الذين تنصبهم الجاهليات ويسبح بحمدهم إعلام العصبية.

و (( السعي بين الصفا والمروة )) رمز لسعي المسلم خلال العقود السبعة من عمره الفاعل المؤثر الذي يبدأ من صفاء الفطرة ولا يهبط عن نبل المروءة وعزمها.

و (( الوقوف على جبل عرفات ))، رمز لتعارف المؤمنين وتجميع للذين ترشحهم العناية الإلهية لوظيفة الإمامة في الأرض.

و (( الإفاضة نحو المزدلفة )) رمز لزخوف المؤمنين نحو أهدافهم في الجهاد والدعوة.

و (( رمي الجمرات في منى )) رمز لجهاد الزخوف المسلمة وصب جمرات غضبها خلال العقود السبعة من أعمارها طبقاً لترتيب المواجهة مع شياطين الباطل: شياطين الجند الصغار، وشياطين القادة الوسط، ورؤوس الشياطين المدبر للفتن، المشيعة للظلم والفساد.

و (( تقديم الأضاحي )) رمز لتضحيات المؤمنين وما يتطلبه الجهاد من تكاليف.

فإذا أكمل الحاج هذه المناسك طافوا (( طواف الإفاضة )) ايذاناً من الله للإفاضة إلى مواقع رباطهم على ثغور الإسلام في الأرض كلها ليحولوا ما قاموا به من (( مناسك )) دينية إلى (( سياسات )) دنيوية.

وتحتاج وفود الحج القادمة من كل فج عميق أن تنسق سياساتها وممارساتها - خلال أيام التشريق وغيرها - طبقاً لهذا (( الفقه )) العالمي الهادف إلى تزكية المجتمعات الإنسانية من العصبية العرقية والقومية والإقليمية والطائفية والقبلية ومن مضاعفاتها في الفتن السياسية والفساد الاجتماعي الكبير، ثم تحقيق الأخوة الإنسانية تحت راية الرسالة الإسلامية الداعية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله. وهذا هو جوهر ما توجه إليه الآية الكريمة القائلة:

{ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ } [ الحج: 28 ]

### والسؤال الذي نطرحه: ما هي محتويات المنافع التي توجه الآية إلى شهودها؟

لعل أفضل مصدر للإجابة عن هذا السؤال هو النظر في حجة الرسول - صلى الله عليه وسلم - باعتبارها التطبيق النموذج لتوجيهات الآية الكريمة. ومن تحقيق حوادث هذه الحجة النبوية يلاحظ أنها اشتملت على نوعين من المحتويات: الأول، توجيهات وأعمال دينية استهدفت تعليم الحجاج الصحابة مناسك الحج وشعائره. والثاني، خطب نبوية حددت أصول الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي أوكل الرسل إليهم مسؤولياتها في حاضرهم ومستقبلهم بعد أن أشهد الله وأشهدهم على تبليغهم الرسالة وأدائه الأمانة. وهذه الخطب هي التي عاجلت (( المنافع )) التي تتساءل عن محتوياتها. وللوقوف على تفاصيل هذه المنافع نبدأ النظر في نص الخطبة التي وردت في المصدرين الرئيسيين للحديث وهما صحيح البخاري وصحيح مسلم.

أما البخاري فقد أورد للخطبة ثلاث روايات هي:

**الرواية الأولى؛** (( عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نتحدث بحجة الوداع والنبى - صلى الله عليه وسلم - بين أظهرنا ولا ندرى ما حجة الوداع. فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر المسيح الدجال فأطنب في ذكره وقال: ما بعث الله من نبي إلا أنذر أمته: أنذره نوح والنبيون من بعده، وانه يخرج فيكم فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم أن ربكم ليس على ما يخفى عليكم ثلاثاً. إن ربكم ليس بأعور وأنه أعور عين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية. إلا إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد ثلاثاً. ويلكم أو يحكم! انظروا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض )).



**الملاحظة الأولى؛** أنها ركزت على أربع محاور: المحور الأول؛ معالجة مضاعفات الحروب التي أفرزتها العصبية القبلية. والمحور الثاني؛ إلغاء الربا ومعالجة مضاعفاته في الاقتصاد والاجتماع. والمحور الثالث؛ معالجة العلاقات الاجتماعية القائمة على الطغيان والاستضعاف وخص منها أوضاع النساء فرغب في الإحسان إليهن وحذر من سوء معاملتهن. والمحور الرابع؛ التأكيد على التمسك بكتاب الله لاستمرار الصلاح في ميادين الحياة والنجاح في الآخرة.

**الملاحظة الثانية؛** أن الخطبة لم ترد كاملة عند أي من البخاري ومسلم، بل إن رواية الأخير خلت من الافتتاحية النبوية التي تبدأ بالبسملة والحمد.

**الملاحظة الثالثة؛** تشابه المحتوى في بعض الموضوعات، واختلافه في أخرى، فقد تشابهت الروايتان في إيراد النهي عن رجوع المسلمين كفاراً بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - يضرب بعضهم رقاب بعض. ولكن مسلماً انفرد برواية التوصية بالنساء في حين انفرد البخاري برواية التحذير من فتنة المسيح الدجال.

**الملاحظة الرابعة؛** أن كلاً من البخاري ومسلم لم يورد بقية خطب حجة الوداع. إذ يذكر - النووي - في شرحه لصحيح مسلم أن مذهب الشافعي (( أن في الحج أربع خطب مسنونة. إحداها يوم السابع من ذي الحجة يُخطب عند الكعبة بعد صلاة الظهر، والثانية هذه التي يبطن عرنة يوم عرفات، والثالثة يوم النحر، والرابعة يوم النفر الأول، وهو اليوم الثاني من أيام التشريق<sup>(1)</sup>).

وهذه الملاحظات الأربع تدل على أن ظروفًا معينة وأسباباً خاصة حالت دون إيراد نص الخطبة كاملاً عند كل من البخاري ومسلم، وهي ظروف ناقشناها - في كتاب آخر - عند الحديث عن خطب الجمعة وخطب الصلاة الجامعة في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعهود خلفائه الثلاثة: أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

وهناك خطب أخرى ألقاها الرسول - صلى الله عليه وسلم - في حجة الوداع أوردها محدثون آخرون. وفيها يحذر الرسول - صلى الله عليه وسلم - من فتن المستقبل ومضاعفاتها في فساد الحكام ونفاق العلماء، وتصدع الأمة الإسلامية وهزائمها والمذابح التي ستنتابها والتشريد الذي سيصيب نساءها وأطفالها نتيجة تفرقها وعجزها وبعدها عن منهج الله. ولقد أورد بعض

(1) مسلم، الصحيح، (شرح النووي)، ج8، هامش ص 182.



هذه الخطب مصنفون كثيرون منهم محمد خليل الخطيب المدرس في الأزهر في كتابه - إتحاف الأنام بخطب رسول الإسلام - وذكر أنه نقلها عن ابن مردويه والديلمي وأبي الشيخ(1). ولقد زامن حجة الوداع توجيهات إلهية نزل بها الوحي على النبي - صلى الله عليه وسلم -، وهي توجيهات تصنيف توضيحات للمنافع التي وجه الحجاج لشهودها. من ذلك قوله تعالى: {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} [ البقرة: 196].

ولقد علق سفيان الثوري على هذه الآية فقال:

(( إتمامها - أي إتمام الحج والعمرة - أن تخرج قاصداً لهما لا لتجارة ولا لغير ذلك. ويقوي هذا قوله تعالى: ((الله!!)) (2).

وعزز القرطبي تعليق سفيان هذا بقوله:

(( وفائدة التخصيص ((الله)) هنا أن العرب كانت تقصد الحج للاجتماع والتظاهر والتناضل والتنافر وقضاء الحاجة وحضور الأسواق. وكل ذلك ليس فيه طاعة، ولا حظ بقصد، ولا قرابة. بمعتقد، فأمر الله سبحانه بالقصد إليه لأداء فرضه وقضاء حقه! )) (3).

ويروي التاريخ أن سادات قريش تفننوا في استغلال مواسم الحج للمكاسب التجارية والجاه القبلي والنفوذ الإقليمي، وأنهم من أجل هذا الهدف جمعوا ما أمكنهم جمعه من أصنام القبائل في البيت الحرام لاجتذاب القبائل وتنشيط التجارة، وأن سدنتهم حرموا على القادمين للبيت أن يطوفوا بملابس غير ملابس أهل مكة مما اضطر الفقراء - في كثير من الأحيان - إلى الطواف عراة. ويذكر المؤرخون والمفسرون أن امرأة اضطرت مرة للطواف عارية وهي تستر عورتها بقطعة قماش بينما تردد:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله(4)

(1) محمد خليل الخطيب، إتحاف الأنام بخطب رسول الإسلام (طنطا: المعهد الأحدي، 1373-1954)، ص 311 - 315.

(2) القرطبي، التفسير (البقرة: 196)، ج2، ص224.

(3) القرطبي، نفس المصدر والجزء، ص 246.

(4) دكتور جواد علي، المصدر السابق، ج6، ص 394.

البيهقي، السنن الكبرى، ج5، كتاب الحج، باب لا يطوف بالبيت عريان، ص8 ورواه الطبري في التفسير وأصحاب السير.

وكان هذا الجشع الاقتصادي من الأسباب الرئيسة التي جعلت قريشاً تقاوم دعوة الإسلام الداعية إلى تزكية مقاصد الحج وتطهير البيت من الأصنام وتزكية البيئة من قيم العصبية القبلية وتقاليدها وعاداتها.

ويبدو أن هذا الجشع الذي مرنت قريش عليه قد أعطاها اسمها الذي عرفت به والذي ذهب مبغضوها ومحبوها مذاهب مختلفة في تعليقه. ولقد روى القرطبي في تفسيره مختلف هذه التفسيرات فقال:

(( واختلف في تسميتهم قريشاً على أقوال: أحدها؛ لتجمعهم بعد التفرق. والتقرش: التجمع والتنام.

والثاني؛ لأنهم كانوا تجاراً يأكلون من مكاسبهم، وأن التقرش معناه التكسب، وأنه مشتق من قرش يقرش قرشاً: إذا كسب وجمع.

والثالث؛ لأنهم كانوا يفتشون الحاج من ذي الخلة فيسدون خلته. والقرش: التفتيش<sup>(1)</sup>. والرابع؛ ما روي أن معاوية سأل ابن عباس لم سميت قريشاً قريشاً؟ فقال: لدابة في البحر من أقوى دوابه يقال لها القرش (أي سمك القرش)، تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تعلو، ثم أنشد قول تبع:

وقريش هي التي تسكن البحر  
تأكل الرث والسمين ولا تترك  
هكذا في البلاد حي قريش  
ولهم آخر الزمان نبوي  
بما سميت قريش قريشاً  
فيها لذي جناحين ريشاً  
يأكلون البلاد أكلاً كميثاً  
يكثروا القتل فيهم والخموشا<sup>(2)</sup>  
كذلك تحدث الرازي في تفسيره عن سبب تسمية قريش بهذا الاسم فقال:

(( إنه تصغير القرش وهو دابة عظيمة في البحر تعبت بالسفن، ولا تنطلق إلا بالنار )) وأضاف أن معاوية سأل ابن عباس: بم سميت قريش قريشاً؟ فأجابه نفس الجواب المذكور أعلاه وروى البيت الأول من نفس الشعر<sup>(3)</sup>.

وبسبب هذا الجشع الاقتصادي أخذ الله سبحانه على قريش ابتداعهم المحرمات والتحليلات الاقتصادية كالسائبة والبحيرة من الأنعام التي تقول إلى كهانهم وسدنتهم، وأخذ

(1) ذي الخلة: صاحب الخمرة. يسدون خلته: يصلحون فساده.

(2) القرطبي، التفسير: تفسير سورة قريش، ج2، ص138-139.

(3) الرازي، التفسير، تفسير سورة قريش، ج32، ص106.

عليهم - إيلافهم - أي شدة ألفتهم للتجارة ونسيانهم (( الغاية )) التي من أجلها استحباب الله لدعاء إبراهيم عليه السلام فكفى ذريته المعيشة والأمن في وادي غير ذي زرع ليقيموا الصلاة ويجعلوا هدفهم الرئيس تهيئة البيت للقادمين من أجل التربي على إقامة معاني الصلاة وعبادة رب البيت حق العبادة:

{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ، إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}

ولقد روى الطبري أن ابن عباس فسر (( لإيلاف قريش )) فقال: نهاهم عن الرحلة وأمرهم أن يعبدوا رب هذا البيت وكفاهم المؤونة<sup>(1)</sup>.

ولقد وعى الخليفة علي بن أبي طالب هذا التوجيه القرآني فكتب إلى واليه على مكة - قثم بن العباس - يقول:

((... ومر أهل مكة أن لا يأخذوا من ساكن أجراً، فإن الله سبحانه يقول: (سواء العاكف فيه والباد). فالعاكف: المقيم به، والبادي الذي يحج إليه من غير أهله، وفقنا الله وإياكم لمحابه، والسلام))<sup>(2)</sup>.

ومثله الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي كتبه إلى عامله في مكة يقول: (( لا تدع أهل مكة يأخذوا على بيوت مكة أجراً فإنه لا يجلب لهم ))<sup>(3)</sup>.

وثمة توجيه إليه آخر هو الدعوة إلى تزكية شعائر الحج من الدعايات الإعلامية التي تستغل موسم الحج للإشادة برموز العصبية وقياداتها وتبرير سياساتها وتوفير الولاء لها. من ذلك قوله تعالى:

{فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ} [البقرة: 200].

(1) الطبري، التفسير، تفسير سورة لإيلاف قريش، ج 30، ص 307.

(2) الشريف الرضي، فحج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، ج 3، ص 140 رقم 67.

(3) ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص 77.

ولقد روى الطبري مناسبة هذه الآية فقال:

(( كان القوم في جاهليتهم بعد فراغهم من حجهم ومناسكهم يجتمعون فيتفخرون بمآثر آبائهم. فأمرهم الله في الإسلام أن يكون ذكركم بالثناء والشكر والتعظيم لربهم دون غيره، وأن يلزموا أنفسهم من الإكثار من ذكره نظير ما كانوا في جاهليتهم من ذكر آبائهم)) (1).

كذلك روى القرطبي ما قاله جمهور المفسرين في مناسبة الآية فقال:

(( كانت عادة العرب إذا قضت حجها تقف عند الجمرة فتفاخر بالآباء، وتذكر أيام أسلافها من بسالة وكرم، وغير ذلك حتى أن الواحد منهم قال: اللهم إن أبي كان عظيم القبة، عظيم الجفنة، كثير المال، فاعطني مثل ما أعطيته، فلا يذكر غير أیه. فتزلت الآية ليلزموا أنفسهم ذكر الله)) (2).

من هذا الاستعراض المفصل يستخلص أن أبرز المنافع التي يوجه إليها قوله تعالى: {ليشهدوا منفع لهم} هي تداعي القياديين والخبراء المختصين من الحجاج واجتماعهم - طبقاً لخطة مسبقة - لمناقشة المشكلات والتحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في داخل أقطارها وخارجها. ومناقشة الأزمات والتحديات القائمة في ميادين الثقافة والاجتماع والسياسة والاقتصاد وشؤون التربية والفكر والتحديات العسكرية والأمنية، وتقييم مناهج العمل والتطبيق الجارية في الداخل والخارج، ثم التخطيط لتنسيق الجهود وحشدها وتنظيمها بغية عبور المستقبل بعقول واعية وإرادات مخلصه وكفاءات مؤهلة تتكامل فيه عناصر القوة الثلاثة: قوى الفكر والمال والقدرة القتالية.

#### خامساً: التقويم في منهاج التزكية:

المحور الذي يدور حوله التقويم في منهاج التزكية هو التعرف على درجة حصول (( الإخلاص )) الذي يعني كمال الوعي بالمسؤولية أمام الله. والتعرف على درجة تحقيق (( الصواب )) الذي يعني كمال التوافق مع سنن الله - أي أقداره - في الحياة.

أما عن - الإخلاص - فقد تكررت الإشارة إليه والى مشتقاته في القرآن الكريم في احد وثلاثين موضعاً. من ذلك قوله تعالى:

(1) الطبري، التفسير، (البقرة: 200)، ج2، ص 296.

(2) القرطبي، التفسير (البقرة: 200)، ج2، ص 285.

{وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} [الأعراف: 29].

{أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} [الزمر: 3].

والإخلاص ميدانه الإرادات، وله مستويان اثنان: الأول مستوى المخلصين - بكسر اللام - أي المبتدئين الذين يجاهدون الضغوط النفسية والاجتماعية لجعل أعمالهم خالصة لله وإرادتهم متوجهة لمراداته دون سواه والثاني مستوى المخلصين - بفتح اللام - أي الذين خلصوا من الضغوط المشار إليها وتحملوا مسؤولياتهم بحمبة وعزم شديدين. ويقوم الإخلاص من خلال النظر في مفردات الأعمال التي تجسده في عالم الواقع والتي يرشد الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليها من خلال ما يسميه بـ (( شعب الإيمان )) وذلك عند قوله - صلى الله عليه وسلم -: (( الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة. فأفضلها قول لا اله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان ))<sup>(1)</sup>.

ولقد قام بعض علماء الحديث بمحاولة تصنيف هذه الشعب وبلورة ما يعاها من أعمال. من ذلك ما قام به ابن منده في مصنفه المسمى (( الإيمان ))، ومثله البيهقي الذي وضع مصنفاً أسماً (( الجامع لشعب الإيمان )) وهذه تصنيفات تفيد العاملين في منهاج التزكية التربوية لبلورة مدلولات الشعب المشار إليها وأساليب تقويمها.

ويحتاج منهاج التزكية إلى استمرارية تقويم الإخلاص لضعف الطبيعة الإنسانية وقابليتها للإصابة بضعف الإحساس بالمسؤولية خلال التعامل مع المؤثرات الحياتية في البيئة العامة المحيطة. أما (( الصواب )) فميدانه القدرات العقلية والعملية. ولقد وردت الإشارة إليه في القرآن الكريم بمصطلحين اثنين: الأول مصطلح (( التمكين )) وذلك عند قوله تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْمِنُ بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ} [يوسف: 54].

والثاني مصطلح (( القوة )) التي تعني القدرة على تحقيق المراد. ولقد وردت الإشارة إليها عند أمثال قوله تعالى: {أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ} [النمل: 39]. ومثله قوله تعالى: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص: 26].

(1) مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، ج2، ص5-6.

ويلاحظ أن كلا المصطلحين وردا مقرونين بـ (( الأمانة )) التي تعني صدق توجه الإيرادات أو الصدق في (( الإخلاص )) .

أما تقويم (( الصواب )) فهو يتم من حيث درجة التوافق مع سنن الخلق وقوانين الاجتماع والكون وميدانه قياس القدرات العقلية والعملية.

ويتجسد مبدأ التقويم في (( التوبة )) التي يتكرر الحض عليها والإشادة بفاعليها في مواضع كثيرة من القرآن الكريم. من ذلك قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا } . [التحریم: 8]. ومثلها قوله \_ صلى الله عليه وسلم \_ (( إن الله يحب العبد المفتن التواب )) . وقوله: (( لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار ))، وقوله أيضاً: (( ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم مائة مرة ))<sup>(1)</sup>.

والمغفرة معناها وقاية شر الذنب بحيث لا يعاقب المذنب على الذنب إذا غفر له<sup>(2)</sup>. ولا يشترط في التوبة أن تكون بسبب ذنب أو معصية - كما هو شائع - وإنما قد تكون التوبة انتقال من عمل إلى عمل أحسن منه، ومن خلق حسن إلى خلق أحسن، ومن فهم حسن إلى فهم أحسن، ومن تنظيم حسن إلى تنظيم أحسن، ومن إعداد سيء أو حسن إلى إعداد حسن أو أحسن وهكذا. ولذلك أحب الله التوابين ووصفهم بالمتطهرين: { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } [البقرة: 222]. ولهذا كله اعتبرت التوبة أفضل الكمالات، وجعلت واجبة على الخلق جميعاً بما فيهم الرسل والأنبياء: { لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ } . [التوبة: 117] ولهذا طلبت التوبة في مواقف الانجاز وتحقيق الانتصارات تزكية من العجب المفضي إلى مرض (( الطغيان )) في جانب و(( الاستضعاف )) في جانب آخر: { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا } .

والحقيقة أن التوبة قدرة على التفاعل مع متطلبات المثل الأعلى ومراجعة المنجزات، وصقل التفكير، وتنمية القدرات العقلية التسخيرية والإرادات العازمة النبيلة المؤهلة للتكامل مع مسيرة التاريخ وعبور المستقبل. ولهذا قال \_ صلى الله عليه وسلم \_ (( إنه ليغان على قلبي، واني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة ))<sup>(1)</sup>.

(1) ابن تيمية، الفتاوى، التفسير ( الجزء الثالث)، مجلد 16، ص 57.

(2) ابن تيمية، الفتاوى، السلوك، ج10، ص 317.

(1) صحيح مسلم، باب الذكر.

و حين تتأصل التوبة في القيم والعادات يشيع النقد الذاتي ويتعمق مفهومه، وتنحو الأمة من تراكم الأخطاء وانفجار الفتن، وتمضي في مدارج الترقى المستمر. ولذلك قال \_ صلى الله عليه وسلم \_ (( يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فوالذي نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة ))<sup>(2)</sup>.

والتوبة الصادقة تحيل الذنب أو الخطأ إلى خيرة مربية تقود إلى معارف أعلى وتفكير أعمق وأحوال أسمى. ولذلك قال \_ صلى الله عليه وسلم \_: (( والذي نفسي بيده لو للم تذبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيعفر لهم ))<sup>(3)</sup>.

وفي السنين الأخيرة كشف علم النفس عن أهمية الذنب والتوبة في ترقى الإنسان ونموه، وعن مخاطر غياب التوبة في انحطاط الإنسان، تعقد حياته. وهذه ظاهرة اهتم بها عالم النفس المشهور - أبراهام ماسلو - في أبحاثه المختلفة وخلص إلى أن الطبيعة الإنسانية ضعيفة تتغلب عليها العادات السيئة والضغوط الثقافية والاتجاهات الخاطئة، وأن تهذيبها وتربيتها لا يقتصران على إشباع حاجاتها الأساسية وحدها، وإنما يتمان أيضاً من خلال الحرمان والإحباط والألم والمآسى والشعور بالذنب، شريطة أن يتوفر للنفس الإرشاد الصحيح الذي يحول هذه الخبرات القاسية إلى نمو حر وتطور نحو النضج والتكيف والتوازن<sup>(4)</sup>.

## علماء التزكية

أولاً: من هم علماء التزكية:

علماء التزكية مصطلح يطلق - في هذا البحث - على المربين العاملين في (( منهاج التزكية )) الذي مر الحديث عنه. و (( الحنفية )) هي الصفة المميزة لهذا النوع من العلماء. ولقد ورد مصطلح - الحنيف - ومشتقاته في (12) اثني عشر موضعاً من القرآن الكريم حيث جرى تحديد مفهوم الحنيفية ونشأتها ومسارها التاريخي ابتداء من رسالة إبراهيم عليه

(2) البخاري، الصحيح، كتاب الدعوات.

(3) مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، ج17، ص65.

(4) Abraham H. Maslow, Toward a Psychology of Being, PP. 3-8.



السلام حتى رسالة الرسول \_ صلى الله عليه وسلم \_ الذي طلب الله تعالى إليه ان يدعو الناس إلى الحنيفية ويربيهم عليها.

والحنيفية تعني - لغة - الميل. يقال: حنف الشيء: أي مال عنه<sup>(1)</sup>. أما - اصطلاحاً -

فهي تعني: الميل عن الأديان الخاطئة إلى الإسلام الصحيح والثبات عليه<sup>(2)</sup>.

ويكشف النظر في الآيات التي حدثت عن الحنيفية والحنفاء أن الحنيفية تتجسد في عالم الواقع من خلال أمرين: الأول، هو التحلل من كافة (( الآصار )) الثقافية التي يتسلمها الأبناء عن الآباء ثم استبدالها بتوجيهات الله الداعية إلى الانسجام مع قوانين الله في الكون وسننه في الاجتماع البشري في ضوء الغايات الموجهة لرحلة الإنسان عبر النشأة والحياة والمصير. والثاني، هو التحرر من كافة (( اغلال )) اللوات العصبية وإفراد الله بالولاية التي يجسدها التطابق بين إرادة الله وإرادة الإنسان المؤمن في جميع أشكال السلوك والممارسات المختلفة. ورائد هذه الحنيفية في مسيرة الاجتماع الإنساني هو إبراهيم عليه السلام الذي بدأ حنيفيته بتمحيص التراث الديني والاجتماعي لمجتمعه الذي نشأ فيه، ثم تحدى ولاءات العصبية التي تجيز للآباء والمجتمع أن يقرروا للأبناء الحق من الثقافات والصائب من الولاءات دونما برهان أو دليل إلا ما كان من قولهم إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون. ومن الطبيعي أن لا يبدأ إبراهيم هذا الحوار إلا بعد تزكية طويلة لنفسه من تراث الآباء وثقافتهم المحيطة، وبعد تأمل طويل في رموز الصنمية التي تمثلت - آنذاك - في عبادة الشمس والقمر والكواكب، إلى أن خلص إلى الحنيفية - أي الميل عن الباطل في الاعتقاد والولاء. وهذه تجربة تشبه تجربة الرسول \_ صلى الله عليه وسلم \_ خلال تحنثه في غار حراء قبيل البعثة وتحديه لثقافة العرب الآبائية وولاءاتها العصبية: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج9 (باب حنف) ص 57.

(2) القرطبي، التفسير، (البقرة:135)، ج2، ص95.

أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ}. [الأنعام: 74-80].

ويشير مضمون الآيات التي تصف - المحاججة - التي دارت بين إبراهيم وقومه أنهم لم يكن لهم حجة تبرر التسليم بصوابية الولاء للعصبية وتراث الآباء إلا ما يحققه لهم من الجاه والاستقرار، وإهم حذروا إبراهيم من عواقب التنكر لهذا الولاء فكان رده هو إعلان (( حنيفيته )) وولاءهم لله وحده وأنه أحق بالأمن منهم.

ويستمر السياق القرآني ليخبر أن الحنيفية منهج سار عليه أبناء إبراهيم وأحفاده، وأن لا صلة بينه وبين الخلف الذين كفروا هذه الحنيفية واستبدلوها بالعصبية الدينية والقبلية: { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }. [آل عمران: 67].

ثم كانت رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - ليجدد للحنيفية الإبراهيمية أصالتها ويعمل لتصحيح مسارها: { قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }. [آل عمران: 95].

ولعله من الضروري - هنا - الانتباه إلى نهاية الآيات القرآنية التي تكررت في (10) عشر مواضع من المواضع الاثني عشر التي ذكرت الحنيفية. حيث ختمت هذه الآيات بالتحذير من الشرك والمشركين عند أمثال قوله تعالى: { ما كان من المشركين }، { وما أنا من المشركين } { ولا تكونن من المشركين } وهذا يعني إن العصبية المناقضة للحنيفية - سواء أكانت عصبية دينية أم عصبية دموية - هي المعادلات العملية للشرك والمشركين. **ثانياً: وظيفة علماء التزكية:**

في ضوء التفصيلات التي مرت عن - الحنيفية - الصفة المميزة لعلماء التزكية يتبين أن الوظيفة الرئيسة لعالم التزكية هي القيام بما يلي:

1- مراجعة القيم والنظم التي تحدد مفاهيم - العمل الصالح وشبكة العلاقات الاجتماعية - شريطة أن يبدأ عالم التزكية بخاصة نفسه قبل أن يشتغل بأمر العامة. إذ من الطبيعي أن لا يستطيع عالم التزكية القيام بوظيفته ما لم (( يحنف )) عن الفهم الخاطيء للدين والثقافة وعن الولاءات الخاطئة في ميادين الحياة المختلفة وهذا متطلب يفرض على - عالم التزكية - أن يكون على وعي راسخ محيط بالتيارات الجارية في الفكر والاجتماع وأن يديم متابعة ذلك بالمراجعة والتقويم وفرز الصواب من الخطأ، وهو بعض ما توجه إليه الآية الكريمة:

{ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاحْتَبُوا الرَّحْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ، حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}. [ الحج: 31-30 ]

فالرجس - هنا - هو رمز الآبائية والصنمية، وقول الزور هو رمز الثقافة الخاطئة والفكر الخاطيء والتربية الخاطئة. وكلها تنتهي بالأمم التي تقترفها إلى سقوط المنزل وتتردي الأحوال بحيث تصبح كسقوط الذي يخر من السماء فتحطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق.

والتصدي لتزكية الثقافات والولاءات العصبية لا يقدر عليه إلا عالم حنف عنها وصحت نفسه من أمراضها. فالعالم المكبل بقيود الآبائية، المريض بولاءات العصبية وعقد الأنانية والحسد والحقد والعجب يشوه الحقيقة ويلجمها برغباته، ويفرض عليها مفاهيمه الفجة، ويتأثر بالحاجات والانفعالات التي تدور في نفسه. ومن السهل أن يعتريه الخوف من الآخرين وأن يشكل صور الحقيقة وتطبيقاتها في السلوك والممارسات طبقاً لرغبته في الحصول على رضاهم والشهوات التي عندهم. وكثير من المعوقات التي تحول بين المربي وبين التأثير في المجتمع والبيئة حوله سببها الحواجز النفسية الموجودة في داخل المربي نفسه، لأن المربي لا يستطيع التواصل مع المجتمع والبيئة إلا إذا ارتفع إلى مستوى التلقي عن المجتمع المحيط والبيئة المحيطة وصار قادراً على تبادل التلقي والعطاء معاً. فالعمل في ميدان التربية كالنظر في المرايا التي اذا نظر القرد فيها فلن تظهر له صورة ملاك جميل.

والنتيجة الرئيسة لذلك أن نعي أن تزكية الأحشاء النفسية للمربي أصل أساسي لنجاحه وأن تأثير المربي في البيئة المحيطة إنما يتحسن بالفاعلية المطلوبة حين يتحسن داخل المربي نفسه، وأن التربية تتوازي مع التزكية الشخصية وتحلية المربي بـ "الحنيفية" التي تحرره من الحرب الأهلية التي تدور داخله بين أمشاج نفسه.

**2- والوظيفة الثانية لعالم التزكية هي المراقبة الدائمة الدقيقة للعلوم والتطبيقات الجارية في ميادين الدين والثقافة والاجتماع والعلوم والتعرف على مدى تلبية هذه العلوم وتطبيقاتها لحاجات الزمان والمكان، ومدى تطابقها مع الفطرة التي ترشد إلى التزامها آيات الكتاب، لأن (( الحنيفية )) هي الفطرة التي فطر الإنسان عليها، ولكن ولاءات العصبية وثقافات الآبائية التي**

يتعرض لتأثيرها عند نشأته وخلال مراحل نموه تفسد هذه الفطرة وتنحرف بها عن صراط الحنيفية المستقيم:

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } . [ الروم: 32-30 ]

وفي الحديث القدسي أنه سبحانه وتعالى قال: (( وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهما أ؛للت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً ))(1).

وأخطر أنواع الشياطين المشار إليهم في الحديث هم شياطين الفكر والتربية والثقافة والسياسة والاقتصاد من الإنس الذين يقومون بتحريم ما أحل الله وتحليل ما حرمه ويتكرونها رموزاً للصنميات التي يتدعونها. وهذه مشكلة تضع عالم التزكية في مواجهة دائمة مع أنماط التربية والفكر والأدب والفن والثقافة المنقطعة عن الإيمان بالله لأن انقطاعها هذا يضعها في خدمة الولاءات العصبية والثقافات الأبائية.

ويحتاج عالم التزكية أن يكون لديه القدرة على التفكير والتدبر الذي يمكنه من التمييز بين الثقافة السمحة والحياة اليسر التي يوجه إليها الدين الصحيح، وبين الفهم الديني الصارم وتطبيقاته العسرة المؤدية إلى بث الفرقة والعصبية الدينية والمذاهب المتصارعة. فهذا التمييز عنصر أساسي في منهاج النبوة. فالرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول: (( أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة ))(2)، ويقول: (( بعثت بالحنيفية السمحة ))(3).

والواقع أن المقارنة بين المضامين القرآنية لمعنى - الحنيفية - بما يقابلها من العصبية الدينية عند الأديان الأخرى، والعصبية المذهبية والدموية في ماضي المجتمعات الإسلامية وحاضرها يكشف عن أن الحنيفية منهج للتصحيح والتغيير لما بالأنفس من أفكار ولما تمارسه من أعمال بحيث يؤدي هذا التغيير إلى يسر في الحياة وأمن في الولاءات والعلاقات. أما العصبية الدينية فهي تفرز شبكة علاقات اجتماعية تتصف بالصرامة وعسر الحياة، وتمزيق الجماعة وتنافر

(1) مسلم، الصحيح، كتاب الجنة.

(2) البخاري، الصحيح، كتاب الإيمان.

(3) مسند أحمد، ج 5.

الأقوال مع الأعمال، واختلاف الظواهر عن البواطن. وهذا ما يشير إليه ويندد به أمثال قوله تعالى: { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ، وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ } [البينة: 4-5]، ومثله قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا } . [ الأنعام: 159 ].

3- والوظيفة الثالثة لعلماء التزكية هي الفحص الدوري للثقافات والولاءات المتحدرة عبر الأجيال لاكتشاف احتمالات الإصابة بالصنميات الثقافية والولاءات العصبية ثم القيام بتنقية المناهج التربوية والنشاطات الفكرية والأدبية والفنية والاجتماعية من آثارها وتطبيقاتها. ويراعى أن لا يقتصر الفحص على الممارسات الشخصية التي يقوم بها الأفراد وإنما يركز كذلك على البيئة العامة وشبكة العلاقات الاجتماعية التي توجه ممارسات الأمة في الداخل والخارج، ذلك أن الممارسات الجماعية هي البيئة المحيطة التي تشكل المناخ الثقافي والاجتماعي فإذا تلوثت هذه البيئة ثقافياً واجتماعياً استحال على الأفراد الصالحين أن يعيشوا وعلى الخاطئين أن يصلحوا.

ولكن التزكية المنشودة لن تكون فاعلة مؤثرة إلا إذا استطاع علماء التزكية بلورة علوم اجتماعية ونفسية تتوازي مع ميادين التزكية ومكونات البيئة التي مر استعراضها في هذا الكتاب وتزود العاملين في منهاج التزكية بالخبرات والمهارات التي تؤهلهم للقيام بعملهم حسب الحاجات والتحديات.

ثالثاً: منهجية علماء التزكية:

المنهجية التي يستعملها - علماء التزكية - نابعة من مفهوم التزكية الذي مرت تفاصيله. وتتألف هذه المنهجية من منهجين اثنين: الأول؛ ما نسميه بـ (( المنهج التوبائي )) نسبة إلى مصطلح التوبة. والمنهج الثاني؛ هو (( المنهج الاتقائي )) نسبة إلى مصطلح التقوى. والنظر في استعمالات مصطلح التوبة يدل على أن المنهج التوبائي منهج يطبق لتقويم المنجزات الفكرية والعملية في ميادين الخبرات الدينية والاجتماعية والكونية المتحدرة من الماضي والقائمة في الحاضر. ويتكرر مصطلح التوبة ومشتقاته في مئات المواضع في القرآن والحديث التي تحض على - التوبة - وتقرر أن الله يحب التوابين والمتطهرين في جميع الأعمال والممارسات وفي جميع الأزمنة والأمكنة، وأن التوبة هي السبيل الى النجاة من نتائج الأخطاء التي اقترفت والوقائع التي انحرفت.

أما مصطلح - التقوى - فإن النظر في استعمالاته في كل من القرآن والحديث يشير إلى أن - المنهج الاتقائي - يطبق في تقويم الخبرات الدينية والاجتماعية والكونية المتجددة خلال الإفلاح لعبور المستقبل بغية التعرف على سنن الله وقوانينه التي تنظم هذا العبور و (( اتقاء )) الاصطدام بها و (( إحسان )) التعامل معها.

ويتكرر الحديث عن (( التقوى )) و (( المتقين )) في مئات المواضع من القرآن والحديث، وبها تفتتح سورة البقرة التي تقرر أن الاهتداء إلى منهاج المعرفة الصحيحة والحياة المستقيمة في الكتاب الإلهي إنما ينجح به المتقون.

ولذلك تحتاج التربية الإسلامية إلى بلورة تفاصيل هذين المنهجين وتفصيل المهارات المتعلقة بهما وتدريب العاملين في منهاج التزكية عليها.

والناظر في أحداث المجتمع الإسلامي الذي كان الرسول يشرف على بنائه - صلى الله عليه وسلم - يشرف على بنائه وتربية أعضائه وتوجيهه يرى أن كلاً من المنهج التوبائي والمنهج الاتقائي كانا الوسيلتين الرئيسيتين في تقويم الممارسات وتوجيه المشروعات. ففي أعقاب معركة بدر التي تخللها عشرات المواقف البطولية وأشكال التضحية من المسلمين اشتق الوحي اسم السورة التي عاجلت أحداث الغزوة من مقولة الشباب الذين رأوا الاستئثار بالأنفال دون الشيوخ، ثم مضت السورة لتحذر الصف المسلم من الوقوع في مثل هذا الخطأ المفرق للجماعة المشتتة للوحدة. وفي كل من معركة أحد والخندق وفتح مكة طبق نفس المنهج التوبائي والمنهج الاتقائي. وهكذا في جميع المعالجات القرآنية لمواقف الحياة الفردية والجماعية وشبكة العلاقات الاجتماعية الدائرة في المجتمع المسلم وخارجه. والحكمة من ذلك أمور ثلاثة: الأول، المحافظة على مجتمع المسلمين في تقدم دائم نحو نموذج (( المثل الأعلى )) الذي حددت معالمه في القرآن والسنة. والثاني، وقاية ذلك المجتمع من عوامل الركود والجمود. والثالث، تنقية صفوفه ومؤسساته من بذور الضعف والتخلف التي تعمل غير مرئية ولا محسوسة وتنتهي بالجماعات إلى السقوط والانهيار.

## الفصل السادس

### صورة رقم (6)

#### ميدان تعليم الكتاب والحكمة

أولاً: معنى الكتاب والحكمة:

الكتاب - لغوياً - يعني المجموع. وكتب الشيء إذا جمعه. وسمي الكتاب كتاباً لأن المعاني والعلوم اجتمعت فيه<sup>(1)</sup>.

أما - اصطلاحاً - فقد ورد اسم - الكتاب - في القرآن الكريم ليدل على أربعة معاني هي:

الأول، بمعنى - الفرض - مثل: { كتب عليكم القصاص } و { كتب عليكم الصيام } و { إن الصلوة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً }.

والثاني، بمعنى - الحجة - مثل: { فأتوا بكتبكم إن كنتم صدقين }.

والثالث، بمعنى - الأجل - مثل: { وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم }.

والرابع، بمعنى - المكاتبه والعقد - مثل: { والذين يبتغون الكتب مما ملكت أيمنكم }<sup>(2)</sup>.

والكتاب - أحد أسماء القرآن التي بلغ عددها - حسب إحصائية الرازي - اثنين وثلاثين اسماً<sup>(3)</sup>.

والسؤال الذي يقوم هنا: ما الحكمة من اختياره تعالى اسم - الكتاب - دون بقية الأسماء ليشير به إلى مهمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في تعليم الكتاب والحكمة؟.

(1) الرازي، التفسير، (البقرة: 2)، ج 2، ص 14.

ابن تيمية، الفتاوى، مقدمة التفسير، ج 13، ص 9.

(2) الرازي، التفسير، (البقرة: 2)، ج 2، ص 14.

(3) المصدر نفسه، ص 14-18.

الأسماء هي: الكتاب - القرآن - الفرقان، الذكر والتذكر، التزليل، الحديث، الموعظة، الحكم، الشفاء، الهدى والهادي، الصراط المستقيم، الحبل، الرحمة، الروح، القصص، البيان والتبيين، المبين، الفصل، النجوم، البرهان، البشير والنذير، القيم، المهيمن، الهادي، النور، الحق، الرحمن، الكريم، العظيم.



الجواب، إن كل اسم من أسماء القرآن يشير إلى صفة معينة. فاسم القرآن ورد ليدل على أنه منبع القراءة - أي المعرفة - الدائمة الجريان. ومثله اسم - الرحمن - الذي يعني منبع الرحمة الدائمة الجريان في الكون كله. ومثله اسم الفرقان الذي ورد ليدل على صفة القرآن في التفريق بين الحق والباطل، والنافع والضار، والحلال والحرام، والخالق والمخلوق، وأنه لا يجوز أن يسوى المخلوق بالخالق في شيء، وبين المؤمنين المصلحين والكافرين المفسدين<sup>(1)</sup>. ومثله اسم - الذكر - الذي ورد ليدل على صفة القرآن في التذكير بغايات النشأة والحياة والمصير. وهكذا في بقية الأسماء.

والرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد أن تلا آيات الله علم الصحابة منهاج النظر في هذه الآيات المكتوبة - أي المجموعة المدونة - ليستخرج كل جيل فيما بعد المعارف والعلوم التي تفرق بين الحق والباطل، وتذكر بعد الغفلة، وتشفي النفوس بعد المرض، وتهدي بعد الضلال إلى آخر الثمرات والنتائج التي تشير إليها أسماء القرآن المختلفة.

أما - الحكمة - فهي تعني - لغوياً - معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. وأحكمت الشيء صار محكماً. والمحكم الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب<sup>(2)</sup>. وأما اصطلاحاً - فقد عرفها الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقوله: (( الحكمة الإصابة في غير النبوة ))<sup>(3)</sup>. ولقد تردد ذكر الحكمة ومشتقاتها في مئات المواضع من القرآن الكريم. ولكن النظر في دلالتها المباشرة يدل على أنها تشير إلى المعاني التالية:

- 1- (الحكمة) بمعنى الإصابة في اكتشاف عمل السنن أو القوانين الإلهية وتقديم العبرة. قال تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ، حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ} [القمر: 4-5]
- 2- (الحكمة) بمعنى الإصابة في تمييز الحق من الباطل. قال تعالى: {الر، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود: 1]
- 3- (الحكمة) بمعنى الإصابة في تقديم الحلول. قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا} [الزخرف: 63]

(1) ابن تيمية، الفتاوى، مقدمة التفسير، ج13، ص6-14.

(2) ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص140-143.

(3) البخاري، الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب 24.

- وفي الحديث: (( الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق الناس بها ))<sup>(1)</sup>.
- 4- (الحكمة) بمعنى الإصابة في التمييز بين الخطأ والصواب، والنافع والضار. قال تعالى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [البقرة: 268-269]
- وقال أيضاً: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} [النساء: 113].
- 5- (الحكمة) بمعنى الإصابة في الفهم والمعرفة. مثل قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ} [لقمان: 12]
- وفي الحديث: (( أنا دار الحكمة وعلي باهما ))<sup>(2)</sup>
- وعن ابن عباس قال: ضمنى النبي وقال: (( اللهم علمه الحكمة ))<sup>(3)</sup>
- 6- (الحكمة) بمعنى الإصابة في الرأي وتقدير الأمور.
- جاء في الحديث: (( إذا رأيتم الرجل قد أعطي زهداً في الدنيا، وقلة منطق فاقربوا منه، فإنه يلقي الحكمة ))<sup>(4)</sup>.
- وقال \_ صلى الله عليه وسلم \_: (( لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها ))<sup>(1)</sup>.
- 7- (الحكمة) بمعنى إحكام الإبانة والتطبيق. قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: 125]
- 8- (الحكمة) بمعنى الإصابة في الإدارة وتصريف الأمور. قال تعالى: {وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ} [البقرة: 251].

(1) الترمذي، السنن، ج7، ص329، كتاب العلم.

ابن ماجه، السنن، كتاب الزهد، باب الحكمة، رقم 4169.

(2) الترمذي، السنن، ج9، ص306، كتاب المناقب.

(3) البخاري، الصحيح، كتاب فضائل الصحابة. الترمذي، السنن، كتاب المناقب

(4) ابن ماجه، السنن، كتاب الزهد، رقم 4101.

(1) البخاري، الصحيح، ج1، كتاب الاعتصام، باب 12.

وقال أيضاً: { وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ } [ ص: 20 ].

9- (الحكمة) بمعنى الإصابة في القضاء والحكم.

وفي الحديث: (( مدح النبي - صلى الله عليه وسلم - صاحب الحكمة حين يقضي بها ويعلمها ))<sup>(2)</sup>.

10- (الحكمة) بمعنى الإصابة في العبادة والمعاملة والسلوك. ومن أمثلتها الآيات 23-

39 من سورة الإسراء التي تبتدئ بقوله تعالى: { وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا... } والتي اشتملت على الإصابة في العبادة والإحسان للوالدين والإنفاق على ذي القربى والمساكين، والمسافر، وحسن السلوك، وعدم الاعتداء على حياة الناس، وحسن أخذ الحق، وحسن رعاية اليتيم، ووفاء العهد وإيفاء الكيل والميزان، وإقامة العدل، وإتقان البحث العلمي واستعمال حواس البصر والسمع والعقل، والتواضع وحسن التعامل. إلى أن ختم الآيات الموضوعات التي تحدثت عنها بقوله تعالى: { مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ }.

ولقد تناول المفسرون اصطلاح الحكمة بالتفسير والشرح. من ذلك قول مقاتل بن سليمان أشهر مفسري التابعين أن تفسير الحكمة في القرآن الكريم جاء على أربعة وجوه: أحدها، مواعظ القرآن الكريم. وثانيها، الحكمة بمعنى الفهم والعلم. وثالثها، الحكمة بمعنى النبوة. ورابعها، القرآن الكريم بما فيه من العجائب والأسرار<sup>(3)</sup>.

أما الطبري فقد نقل جملة الأقوال في الحكمة فذكر أن بعضهم قال: الحكمة هي السنة. وإن بعضهم قال: الحكمة هي المعرفة والفقہ في الدين والإتباع له. وقال آخرون: الحكمة هي العقل في الدين. ثم خلاص هو نفسه إلى القول: والصواب من القول عندنا في الحكمة: إنها العلم بأحكام الله التي لا يدرك علمها إلا ببيان الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمعرفة بها، وما دل عليه ذلك من نظائره، وهو عندي مأخوذ من الحكم بمعنى الفصل بين الحق والباطل، ويقال إن فلاناً لحكيم بين الحكمة، يعني إنه لبين الإصابة في القول والفعل<sup>(1)</sup>.

(2) البخاري، الصحيح، ج1، كتاب الاعتصام

(3) الرازي، مفاتيح الغيب، ج2، الطبعة الأولى (القاهرة: 1308)، ص 347-348.

(1) الطبري، التفسير، (البقرة: 129)، ج1، ص 557-558.

وأما الرازي فقد ذكر (( أن الحكمة لا يمكن خروجها عن معنيين هما: العلم وفعل الصواب ))، وأنها " تنقسم إلى قسمين: حكمة نظرية، وحكمة عملية، ولا بد من اجتماعهما في السلوك الكامل. فقوله تعالى: { رب هب لي حكماً } هو الحكمة النظرية، { وألحني بالصالحين } هو الحكمة العملية. وقوله { إنني أنا الله لا اله إلا أنا فاعبدي } فالقسم الأول: { إنني أنا الله لا اله إلا أنا } حكمة نظرية و { فاعبدي } حكمة عملية<sup>(2)</sup>. ثم خلاص إلى القول: (( الحكمة هي اسم لكل عمل حسن وعمل صالح، وهي بالعلم العملي أحض منه بالنظري، وفي العمل أكثر استعمالاً من العلم. ويقال: أحكم العمل إحكاماً إذا أتقنه وحكم بكذا حكماً، والحكمة من الله تعالى خلق ما فيه منفعة العبادة ومصالحهم في الحال وفي المال ومن العباد أيضاً كذلك ))<sup>(3)</sup>.

ويلاحظ على جميع التعريفات التي سبقت أنها لم تحدد لمعنى - الحكمة - ((معادلات عملية)) يمكن قياسها وتحديدها. ولذلك يبقى السؤال حولها جميعها. ما هو الصواب؟ وما هو الصالح؟ وما هو الحكمة والمتقن؟ وغير ذلك من التعريفات التي ذكرها السابقون في تعريفهم للحكمة.

لذلك نقول أن المعنى الاصطلاحي لـ (( الحكمة )) هو: القدرة على اكتشاف السنن والقوانين التي تنظم ظواهر الكون والحياة، ثم تحويل هذه السنن والقوانين إلى تطبيقات عملية هي العمل على إشاعة التفكير السني - القانوني بدل - الحمية والظن والهوى - التي ميزت التفكير الجاهلي، وإشاعة العمل المحكم القائم على الإعداد والتخطيط بدل الارتجال، وإعداد الحكماء - العلماء القادرين على تطبيق ذلك في ميادين الحياة المختلفة، واقتراح المؤسسات التي تبحث في مختلف علوم الحكمة وتطبيقاتها. وهذا كله من متطلبات الحياة في الطور العلمي - العالمي - الذي جاء الإسلام على أبوابه لترشيد المسيرة الإنسانية خلال العملية التاريخية. والله سبحانه يصف نفسه بالحكمة في نهاية كل ذكر لخلق السموات والأرض وتصريف الأحداث وسنن الكون وقوانين الحياة وأقدارها.

(2) الرازي، التفسير، ج2، ص348.

(3) الرازي، المصدر نفسه والجزء، ص283.

ثانياً: أهمية البحث لميدان (( تعليم الكتاب والحكمة )):

البحث لميدان (( تعلم الكتاب والحكمة )) أمر هام لأسباب ثلاثة:

- 1- الأهمية الأول؛ تحديد علوم (( غايات )) النشأة والحياة والمصير، وتوضيح أخطار اغتراب الإنسان عن هذه (( الغايات )) ووقوعه ضحية الصنمية والاستعباد للأشياء والمخلوقات الأخرى.
- 2- والأهمية الثاني؛ هو بلورة علوم (( الوسائل )) اللازمة لتحقيق (( الغايات ))، أي: علوم الحكمة الطبيعية والاجتماعية ثم تحويل محتويات هذه العلوم إلى نظم ومؤسسات علمية واجتماعية وأدوات تقنية حسب الحاجات والتحديات.
- 3- والأهمية الثالث؛ هو تنمية القدرات والمهارات التي تؤهل إنسان التربية الإسلامية لاستعمال القيم والمؤسسات والوسائل التي تقررها (( علوم الحكمة )) أو علوم الوسائل استعمالاً يتفق مع (( الغايات )) التي تفرزها علوم الكتاب. ويدرج القرآن الاستعمالات الصائبة تحت اسم - الحلال - والاستعمالات الخاطئة تحت اسم - الحرام -.

والمحور الرئيس للقيم التي يتضمنها الأهمية الأول - العدل - تماماً كما تشكل الديمقراطية محور أهداف التربية العامة في الغرب. ويتم التركيز على قيمة العدل من خلال تطوير العلوم والتطبيقات التي تعرف به، وتبرز أهميته في قيام الحضارات ودوام صحة المجتمعات، ثم التدريب على الوسائل والأدوات وإقامة المؤسسات المؤدية إلى إشاعة هذا العدل وحمانيته. وهذا ما يوج إليه قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [النحل: 90].

{ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [آل عمران: 18].

والعدل هو محور المظهر الاجتماعي للعبادة في الرسالات الإلهية التي جاء بها الرسل جميعهم وهو السبب في خلق الميزان المعنوي والمادي الذي يعرف به العدل، وخلق الحديد ليستعمل للدفاع عن العدل في أيام الحرب، وليجسد منافع العدل في أيام السلم: { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحديد: 25].

ولأهمية العدل جعل الله من يقتل الداعين إليه كمن يقتل الأنبياء ويكفر بالله:

{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ }

والصفة المميزة لمجتمع المؤمنين هو كثرة قيامه بالعدل وتفوقه في ذلك على غيره من المجتمعات: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ } [النساء: 135].  
والعدل هو دعامة نظام الحكم الذي توجه إليه آيات الكتاب: { وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ } [المائدة: 42].

والعدل هو السمة المميزة للأنظمة والمعاملات الاقتصادية التي توجه إليها أصول التربية في الكتاب: { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ } [الأنعام: 152].  
والعدل هو المعيار الإلهي في الحساب والحزاء الأخروي:

والسؤال الذي يتبادر للذهن هو: لماذا يحتل العدل هذه المترلة في أهداف منهاج (( تعليم الكتاب والحكمة؟ الجواب هو أن العدل يزكي البيئة من أسباب الكفر والمعصية والفتنة ويهيئ للناس الحاجات الأساسية وحاجاتهم في الأمن والمحبة والاحترام والانتماء وتحقيق الذات مما يجعلهم يتفرغون للتفكير في الخلق الموصل إلى معرفة الله الخالق والإيمان به.

ويتفرع عن هذا الهدف الرئيس العام جميع الأهداف الخاصة التي يوجه إليها منهاج الكتاب والحكمة سواء في ميادين المعلومات أو تنمية المهارات وتكوين الاتجاهات.

ثالثاً: محتوى (( ميدان تعليم الكتاب والحكمة )):

ينقسم محتوى هذا الميدان - كما هو واضح من عنوانه - إلى قسمين رئيسيين: الأول، محتوى علوم الكتاب، أو (( علوم الغايات ))، والثاني، محتوى علوم الحكمة، أو (( علوم الوسائل ))، أما عن تفاصيل كل من هذين القسمين فهي كما يلي:

أ - محتوى علوم الكتاب؛ يتركز محتوى هذا القسم من الميدان حول دراسة نوعين من آيات القرآن الكريم والآيات المحكمات، والآيات المتشابهات. وإلى هذين النوعين يشير قوله تعالى:

{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ } [ آل عمران: 7].

والآيات المحكمات هن مجموعة القيم والأحكام التي تحتوي على مقاصد السلوك الإنساني وقواعده. أي هي تحتوي على العبادات والمعاملات والأخلاق وشبكة العلاقات الاجتماعية التي فرقت بين الحلال والحرام. وأهم صفات هذا النوع من الآيات ما يلي:

- 1- طبقت زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفهم السلف لها ملزم لمن بعدهم.
- 2- لا اجتهاد فيها.
- 3- لها أسباب نزول.
- 4- آيات سلوكية تزكي السلوك الفكري والنفسي والجسدي لتؤهل الإنسان للفهم وتعدده لوعي العلم.

5- فيها إجابات هادية لمن يتقون الصدام بسنن الحياة { فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } [ البقرة:

[2

- 6- تفقه فقهاً لغوياً
- 7- هن (( أم الكتاب )) أي هن محور الرسالة ومرادها وفيها غايات الحياة ومقاصدها.
- 8- اهتم المسلمون الأوائل ومن تبعهم بفتحها وأورثوا آلاف المجلدات في هذا الفقه.
- 9- تعالج قضايا الاعتقاد والعبادة والحلال والحرام، والفضائل والردائل، والأخلاق الحسنة والسيئة.

وتقسم الآيات المحكمات كذلك إلى قسمين رئيسين: آيات المحور، والآيات المفصلة. والى القسمين يشير قوله تعالى: {الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}. [هود:1].

وأما آيات المحور فهي ما أشارت إليه الآية التالية من سورة هود، آية 2 {أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ}. فعبادة الله، التي هي طاعته وخلع طاعة ما سواه من الأنداد، هما محور الأحكام، وهما ما جاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - يبشر بفوائدها وينذر من خطورة التقصير فيها.

وأما عن - الآيات المفصلة - فهي ما أشارت إليها الآية الثالثة والرابعة من سورة هود. وهاتان الآيتان هما:

{وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.



فالتفاصيل هي موجهاً - الأعمال الصالحة-، والاستغفار من غير الصالحة لمراجعة الخطأ فيها وتقويمه. وبذلك يتمتعهم الله في الحياة - أي يوفقهم لبناء الحضارات الراقية مع الاستمتاع والسعادة بهذه الحضارات - خلال الزمن المقدر لهم في الدنيا، وعند المرجع الى الله في الآخرة يقضي الكتاب والحكمة - أن يوازن بين مقررات فقه الأحكام والأخلاق الدنيوية، ومقررات العلوم الأخروية التي تبين للدارس تفاصيل النتائج الدنيوية وتفاصيل الجزاءات الأخروية لكل سلوك فردي أو جماعي.

وأما أن كلا من آيات المحور، والآيات المفصلة { من لدن حكم خبير } فلأن القرآن - كما قلنا - هو الوعي الكامل للكون، المطابق للوجود وحركته وسننه وقوانينه. وبذلك توجه - آياته المحكمات المفصلة - إلى ميادين حقيقية لا وهم فيها ولا ظن، ويمارس الإنسان فيها نشاطه المعرفي دون أن يبدد قدراته العقلية والسمعية والبصرية في تجارب مجردة من الصواب، ضاربة في الخطأ.

أما - الآيات المتشابهات - فهي مجموعة الحقائق التي أوحاها الله إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم -، والتي كانت في موضوعها غيبية عن الوعي الإنساني عند نزول الكتاب، وأخبر الله بتتالي شهود موضوعاتها في المستقبل عبر الدنيا والآخرة سواء. ولقد سميت بهذا الاسم لأنها تشير إلى حقائق ووقائع يشبه بعضها بعضاً في النواميس والقوانين وفي مظاهر البروز والحدوث مثل قوله تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } [البقرة: 118]

ولقد أعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - العقل المسلم وزكاه وزوده بالمنهج العلمي ليقوم العلماء الراسخون بتتبع بروز موضوعات الآيات المتشابهات من عالم الغيب، وذلك من خلال النظر في موضوعات الآفاق والأنفس - أي موضوعات العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية والعلوم الطبيعية، وذلك لشهود البراهين والشواهد التي تجدد فهم الدين وتنمية الإيمان واليقين في نفوس كل جيل من الأجيال المتتابعة حتى قيام الساعة وشهود الموضوعات الأخروية للآيات المتشابهات. ولذلك لم يترك الرسول - صلى الله عليه وسلم - للآيات المتشابهات تفسيراً، وإنما وجه أجيال العلماء الراسخين في المنهج العلمي للبحث والنظر في (( آيات الكتاب )) و (( آيات الآفاق والأنفس )) ليكون من ثمار مقارنة نتائج البحث تأويلها - أي شهودها - عندما يؤول - أي يحين - الوقت لإبراز مدلولاتها من عالم الغيب، تماماً كما أعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - المسلمين المجاهدين للقيام بالفتوحات العسكرية خارج المدينة والجزيرة

العربية. ولذلك اتصفت الآيات المتشابهات بصفات تختلف عن نظائرها في الآيات المحكمات، وأهم هذه الصفات هي:

- 1- ثبات العبارة وتحرك المعنى ومن هنا اتسمت بصفة المشابهة.
- 2- ليس لها أسباب نزول.
- 3- أبيض للراسخين في العلم الاجتهاد فيها.
- 4- لم يترك الرسول - صلى الله عليه وسلم - لها تفسيراً وإنما هنا المسلمين لفهمهما وتطبيقها كما هيأهم للفتوحات الإسلامية وحمل الرسالة.
- 5- يتناسب عمق فهمها بتناسب عمق الخبرات الكونية والاجتماعية.
- 6- فهم السلف لها غير ملزم.
- 7- آيات معرفية تناقش الحقائق الصحيحة للوجود - خاصة تلك التي تقع خارج الوعي الإنساني، وتوجه إلى النظر في قوانين الكون وقوانين التاريخ.
- 8- تؤول ((أولياً)) لغوياً وعلمياً.
- 9- تتزوج مع آيات الآفاق والأنفس لتوليد - اليقين - المؤدي إلى الشكر والعبادة.
- 10- توجه الى البراهين والمعجزات العلمية التي تحقق التجديد والفاعلية في تأثير الآيات المحكمات.

ولتوضيح صفة - التجدد المتشابهة - في تأويل الآيات المتشابهات تقدم مثالين اثنين: الأول من ميدان العلوم الاجتماعية أو آيات الأنفس، والثاني من ميدان العلوم الطبيعية أو آيات الآفاق.

أما عن المثال الأول فهو قوله تعالى: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} [الأنعام: 65]

لقد أولت أجيال المفسرين هذه الآية تأويلات متحركة المعاني طبقاً لخبراتهم وأحداث عصورهم. فمثلاً قال الأقدمون من أمثال ابن عباس ومجاهد وابن جبير أن معنى ( من فوقكم) الرجم والحجارة والظوفان والسيحة والريح، كما فعل بقوم عاد وثمود وقوم لوط وقوم نوح. وأولوا { أو من تحت أرجلهم } بالخنس والرجفة كما فعل بقارون وأصحاب مدين.

وفي الجيل الذي تلا الجيل الأول أولوا { من فوقكم } بالأمرء الظلمة؛ وأولوا { أو من تحت أرجلكم } بالسفلة وعبيد السوء. وأولوا { أو يلبسكم شيعاً } أي يخلط أمركم فيجعلكم مختلفي الأهواء. وأولها الحسن البصري بأنها ما جرى

وفي جيل آخر أولها المفسرون بأن معناها: يقاتل بعضكم بعضاً وذلك بتحليل أمركم وافتراق أمرائكم في طلب الدنيا، وأولوا معنى { ويذيق بعضكم بأس بعض } أي بالحرب والقتل في الفتنة.

وفي عصر القرطبي الأندلسي رأى في تأويلها أحداث عصره فقال: (( إنه المشاهد في الوجود، فقد لبسنا العدو في ديارنا، واستولى على أنفسنا وأموالنا، مع الفتنة المستولية علينا، يقتل بعضنا بعضاً واستباحة بعضنا أموال بعض ))<sup>(1)</sup>.

ونستطيع في زماننا أن نؤول معنى { من فوقكم } بغارات الطائفة والقذائف الصاروخية، ونؤول { من تحت أرجلكم } بالألغام والمتفجرات وقذائف الدبابات، ونؤول { أو يلبسكم شيعاً } ويذيق بعضكم بأس بعض { بالصراعات والحروب الحزبية والطائفية والإقليمية والانقلابات العسكرية وحوادث الاعتقال الدائرة منذ مطلع هذا القرن في الأقطار الإسلامية. وسوف يجد من يأتي بعدنا من أجيال تأويلات تتشابه مع تأويلاتنا وتتناسب مع أحداث عصورهم وخبراتهم.

وأما عن المثال الثاني - أي مثال العلوم الطبيعية أو آيات الآفاق - فإن الأمثلة لذلك تفوق الحصر. ونختار منها قوله تعالى: { يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ } [ فاطر: 1 ]. فقد أولها الطبري: (( يعني الملائكة فمنهم من له اثنان من الأجنحة ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة. أما القرطبي فقد نقل عن الزهري وابن جريج قولهما: إن هذه الزيادة هي حسن الصوت. وقال قتادة ( تلميذ ابن عباس): إنها الملاحظة في العينين، والحسن في الأنف، والحلاوة في الفم. وقيل الوجه الحسن. وقيل الخط الحسن، وقيل الشعر الجعد، وقيل العقد والتميز. وقيل العلوم والصنائع. ومثل القرطبي قال الرازي، وعن القرطبي نقل الشوكاني ثم علق بقوله: (( ولا وجه لقصر ذلك على نوع خاص بل يتناول كل زيادة ))<sup>(1)</sup>.

ونستطيع أن نؤولها في زماننا بما اكتشفه العلم الطبيعي عن تكوين العناصر والجزئيات والذرات والشحنات الكهربائية، وكيف إن زيادة شحنة بروتون أو نيوترون أو إلكترون تولد

(1) القرطبي، التفسير ( الأنعام: 65 )، ج7، ص8-9.

(1) الشوكاني، فتح القدير ( تفسير العاشية: 17 ).

عنصراً جديداً يخالف العنصر السابق في الخواص ويؤدي إلى إضافة عنصر جديد في سلم العناصر.

ومثله قوله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ} [الغاشية: 17]. فقد نقل الطبري عن قتادة قوله: لما نعت الله ما في الجنة عجب من ذلك أهل الضلالة فأنزل الله الآية فكان شريح يقول: اخرجوا بنا ننظر إلى الإبل كيف خلقت. ثم جاء جيل التابعين وأولها قتادة - كما يروي القرطبي - بأن المراد بالنظر إلى الإبل كيف أنما مثل السرر تتطامن ثم ترتفع. أما القرطبي نفسه فقد قال بأن المراد النظر إلى طول أعناقها واحتمالها للعطش في الصحارى والبراري، وانقيادها للأطفال. وفي القرن الثامن الهجري أولها ابن كثير بأن المراد النظر إلى خلقها العجيب وتركيبها الغريب فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تنقاد للقائد الضعيف، ويؤكل لحمها، وينتفع بوبرها، ويشرب لبنها.

وفي زماننا نستطيع استناداً إلى ما اكتشفه علماء التشريح أن نؤولها بالوظائف السيولوجية التي تتميز بها معدة الجمل وسنامه، ودرجة حرارته، وامتصاص خلاياه السريعة للماء، وقلة عرقه رغم ارتفاع درجة الحرارة بطريق تغاير غيره من المخلوقات تكيفاً للبيئة الصحراوية<sup>(1)</sup>.

وهكذا في جميع الآيات المتشابهات التي توجه إلى النظر في خلق الإنسان، والنبات والحيوان والحشرات، وتكوين البحار والرياح والقضاء الخارجي، وطبقات الأرض، ومكتشفات الآثار وأمثالها، فإن ثبات اللفظ وحركة المعنى تبدو واضحة في الآيات المذكورة ابتداءً من جيل الصحابة ومروراً بخبرات المسلمين العلمية والاجتماعية في عصور الحضارة الإسلامية حتى عصرنا الذي بدأ يقدم الكثير من شواهد الإعجاز العلمي للقرآن في ميادين الطب والتشريح، والأحياء والفضاء وعلوم الفيزياء والكيمياء وتطبيقاتها التكنولوجية المختلفة<sup>(2)</sup>.

<sup>(1)</sup> Paul A.Colinbaud, Introduction to Ecoloty, (New york: john Wiley & Sons, Inc. 1973) PP. 280-285.

<sup>(2)</sup> للوقوف على نماذج الإعجاز العلمي للقرآن أنظر مثلاً في

Keith L.Moore, The Defeloping Human: Clinically orented embryology. With Islamic Additions: Correlation With Kur'an and Hadith , USA ; W,B Saunders Com - pany, 1983.

- دكتور محمد علي البار، خلق الإنسان بين الطب والقرآن.

ويلاحظ على المسلمين - من جيل الصحابة والتابعين - أنهم اهتموا بفهم الآيات المحكمات دون الآيات المتشابهات، ويعود ذلك لباب هي:

**السبب الأول؛** غلبة الجهاد العسكري على وقتهم لنشر الرسالة التي تتركز موضوعاتها حول تعاليم الآيات المحكمات.

**السبب الثاني؛** إن الظروف والبيئة - آنذاك - لم تمكنهم من إعطاء نفس العناية للجهاد العلمي وفهم - الآيات المتشابهات - لأن هذا الفهم يحتاج إلى وضع حضاري معين، وخبرات علمية، وتفرغ للبحث. ولذلك قال تعالى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا} [الإسراء: 106]. ويلاحظ هنا أنه تعالى قال: { لتقرأه على الناس } ولم يقل على (الذين آمنوا) أو (الذين اتقوا) الذين تحكم سلوكهم الآيات المحكمات. والقراءة - على مكث - تتصاعد تدريجياً مع تقدم الجهود الإنسانية في العلم والبحث وتراكم الخبرات المعرفية. فكلما زادت مؤسسات البحث العلمي وزاد عدد العلماء - الحكماء المتفرغين لهذا البحث، وزاد عدد موضوعات العلم زاد فهم الناس للآيات المتشابهات وزادت الشواهد والبراهين والإعجاز العلمي المستخرج منها.

**والسبب الثالث؛** عن المسلمين الأوائل استجابوا للمعجزات اللغوية للقرآن لأن الخبرات اللغوية كانت أقصى خبراتهم المعرفية، واستجابوا للمعجزات المادية التي حدثت على يد الرسول - صلى الله عليه وسلم - فأغنتهم عن المعجزات العلمية، فقامت طريقتهم في الإيمان على ما تذوقوه - لغوياً - وما رأوه من الرسول - صلى الله عليه وسلم - من المعجزات المحسوسة. وهذه طريقة لا تيسر لمن بعدهم ولا يكون لها نفس الفاعلية والتأثير في غياب الرسول - صلى الله عليه وسلم - في العصور التي تليه، وحين يختفي التذوق السليقي للغة العربية، أو حيث لا توجد اللغة العربية أصلاً، وإنما لا بد من عناصر إعجازية أخرى مستمدة من خبرات الأجيال المتتالية نفسها، عناصر تبرز (( صوابية )) الرسالة و ((معجزاتها)) بأشكال تناسب الزمان والمكان، وتتعدى حدود اللغات والثقافات، وهذه عناصر تكمن في الآيات المتشابهات - التي سوف يستمر تأويلها بحلول أزمان هذا التأويل و بروز شواهد ووقائعه حتى يشاهد الناس مظاهر تأويلها عند الحشر والحساب، والثواب والعقاب، ودخول الجنة والنار.

- دكتور خالص جليبي، الطب محراب الإيمان.

- دكتور مصطفى محمود، العلم والإيمان، سلسلة فيديو.

وتشارك - الآيات المتشابهات - هذه الصفات الإعجازية أحاديث الرسول التي تتحدث عن المستقبل والتي أطلق عليها المحدثون اسم - أحاديث الفتن وعلامات قيام الساعة - مع أن الأولى أن يطلق عليها عنوان أحاديث اختبار إيمان الأجيال حتى قيام الساعة.

ثم خلف المسلمين الأوائل - منذ القرن الثاني الهجري - أجيال توفرت لها بيئات العلم ووسائل البحث، ولكن استبدال المنهج العلمي التجريبي الذي يوجه إليه القرآن بالمنطق الذي تسلمه المسلمون خلال ترجمات العلوم اليونانية، وتأثر علم الكلام الذي استمدوه من هذا ((المنطق)) في براهين الإيمان، واقتصار معارضي علم الكلام على المعارضة السلبية والدعوة للتسليم بظاهر النصوص، كل هذا سد الباب أمام العقل المسلم ومنعه من النظر في - الآيات المتشابهات - بالطريقة التي يوجه إليها القرآن، فاستمر الخلاف حول - الآيات المتشابهات - بالطريقة التي يوجه إليها القرآن، فاستمر الخلاف حول - الآيات المتشابهات - وتصاعد بين المفسرين وعلماء الأصول والعقيدة، فتعددت تعريفات هذه الآيات واختلقت حتى داخل المذهب الواحد. فمنهم من قال: إن المتشابه لا يرجى بيانه، ومنهم من قال إن المتشابه هو الذي يؤمن به ولا يعمل به، ومنهم من قال إن المتشابه لا يعلمه إلا الله، ومنهم من قال إن المتشابه يمكن الاطلاع عليه من قبل الراسخين في العلم، لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته، ومنهم من قال إن المتشابه لا يمكن الاطلاع عليه، وأن متبعي المتشابه وصفهم الله بالزيغ وابتغاء الفتنة، وأن الراسخين في العلم يقولون آمنا به دون تتبع معناه(1)\*.

ولقد حاول الزركشي التوفيق بين هذه الأقوال المتضاربة بطريقة لم تحقق التوفيق حين قال: (( إن كان ( المتشابه ) مما يمكن علمه فله فوائد: منها ليحث العلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه والبحث عن دقائق معانيه، فان استدعاء الهمم لمعرفة ذلك من أعظم القرب... ))

(1) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص3-5. القرطبي، التفسير، (آل عمران: 7)، ج4، ص8.

(\*) ان النظر الدقيق في الآية لا يدل على ما قاله أولئك الذين قالوا إن متبعي المتشابه وصفهم الله بالزيغ وابتغاء الفتنة. وإنما الذي تدل عليه الآية هو أن المصايين بمرض الزيغ وحب الفتنة يؤولون - أي يفسرون - المتشابه طبقاً لأهدافهم المنحرفة. كذلك لا تدل الآية على أن الراسخين في العلم يؤمنون بالمتشابه دون تتبع معناه , وإنما السياق فيه حذف وإيجاز، وأن المعنى الصحيح هو أن الراسخين في العلم حين يقفون على ثمار النظر في آيات الآفاق والأنفس، ويقارنونها بالصائر التي تتضمنها الآيات المتشابهات تتألم روعة صدق الخبر الذي تتضمنه آيات الكتاب فتنتقل ألسنتهم بالإعجاب والتضرع إلى الله أن لا يجعل مصائرهم كالجاهلين بهذه الآيات.

ومنها إظهار فضل العالم على الجاهل وليستدعيه علمه إلى المزيد من الطلب في تحصيله ليحصل له درجة الفضل، والأنفس الشريفة تتشوق لطلب العلم وتحصيله.

وأما إن كان ممن لا يمكن علمه فله فوائد. منها إنزاله ابتلاءً وامتحاناً بالوقف فيه، والتعبد بالاشتغال من جهة التلاوة وقضاء فرضها، وإن لم يقفوا على ما فيها من المراد الذي يجب العمل به. اعتباراً بتلاوة المنسوخ من القرآن.. ومنها إقامة الحجة بما عليهم وذلك إنما نزل بلسانهم ولغتهم، ثم عجزوا عن الوقوف على ما فيها مع بلاغتهم وإفهامهم ((2)).

وتعليل الزركشي الثاني فيه إسقاطات آثار ثقافة العصبية القبلية ومفاهيمها عن إرادة الزعيم المتجبر الذي يمتحن الأتباع بما لا يفهم مجرد اختبار طاعتهم العمياء، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فهو الذي يعيب على من يؤمن دون سلطان - أي برهان - بين شديد الوضوح: {هُؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} [الكهف: 15].

إن أصل الخطأ عند الذين قالوا بعدم إمكانية فهم الآيات المتشابهات هو أنهم حصروا مصطلح (( التأويل )) بمعنى (( التفسير )) مع أنه ورد بمعنى المآل والصيرورة. وهذا ما انتبه إليه ابن تيمية عند تفسيره لقوله تعالى: { بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلْمِهِ وَاَلَمْ يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ } [يونس: 39]، فذكر أن إتيان التأويل تعني وقوع ما أخبر به القرآن، وأن هناك فرقاً بين التفسير والتأويل. فالتفسير هو معرفة الصورة العلمية، أما التأويل فهو خروج حقيقة الصورة العلمية إلى عالم الحس، وهذا يعني أن القرآن أنزل ليعلم، ويفهم، ويفقه محكمه، وليتدبر ويتفكر في متشابهه وإن لم يأتي تأويله بعد(1). والواقع أنه لما كان القرآن الكريم هو الوعي الكامل للوجود والكون والنشأة والحياة والمصير، فإن هذا الوعي ثابت النص متحرك التأويل - أي التحويل من الغيب إلى الشهادة - وهذا التحويل يحتاج دائماً إلى تذكير وتذكير حسب الكشف العلمي والتقدم المعرفي في حركة التاريخ - أي في آيات الآفاق والأنفس حسب التعبير القرآني -. وهنا يكمن إعجاز القرآن للناس جميعاً دون استثناء. أي إن إعجاز القرآن لا ينحصر في إعجازه اللغوي كما فقه العرب، وإنما بكامل الوعي للوجود وحركة الكون ومسيرة التاريخ. والناس بمختلف لغاتهم عاجزون أن يعطوا كتاباً متشابهاً يبقى النص فيه ثابتاً، ويتحرك فيه المعنى مع حركة التاريخ، ويتطابق فيه

(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، (بيروت: دار المعرفة، 1972/1391) ط2، ص75-76.

(1) ابن تيمية، الفتاوى، مقدمة التفسير، ج13، ص283.



المحتوى مع المكتشفات المعرفية - العلمية المتطورة مع تطور الزمن إلى أن تقوم الساعة ويقوم عالم الآخرة ويصبح حقيقة ماثلة للعيان.

إن مثل هذا الإنجاز لا يمكن أن يقوم به إلا من يعلم الحقيقة المطلقة ويوجه حركة الكون ومسيرة التاريخ. ولذلك لا يمكن لأحد غير الله أن يعلم تأويل القرآن تأويلاً كاملاً. أما الراسخون في العلم فيقولون حسب خلفياتهم المعرفية في كل زمان، وكل واحد منهم حسب اختصاصه الضيق. وهنا يبدو لنا جانباً من سر التحدي الإلهي للإنس والجن أن يأتوا بمثل القرآن:

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلْعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ } [يونس: 38 - 39].

وهنا تبدو الحقيقة الكبرى وهي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - (( تلا )) الكتاب ولم (( يؤوله ))، وإنما أعطى الناس - مفاتيح عامة للفهم - يطبقونها خلال مسيرة التاريخ وحركة الكون حتى نهاية الحياة على الأرض. وهذا ما فهمه الصحابي أبو الدرداء حين قال: (( لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً ))<sup>(1)</sup> أي حتى ترى في القرآن معاني متدفقة متجددة بتجدد ميادين الحياة وتجدد العصور والمخلوقات.

والتأويل عملية إلهية - سننية لا دخل للإنسان فيها، وإنما دور الإنسان هو مشاهدتها. والراسخ في العلم هو الذي يقوم بالتذكير بما - أي ربطها بالآيات المحكمات وإظهار الإعجاز القرآني - حين تقول أنباء الآيات المتشابهات التي تتحدث عن عالم الغيب إلى واقع محسوس في عالم الشهادة. وهذا ما يوجه إليه قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } [ آل عمران: 7 ].

فالله وحده هو الذي يعلم متى سيؤول الغيب المشار إليه في الآيات المتشابهات إلى شهادة محسوسة، والراسخون في العلم يؤمنون بأن كلا من الآيات المحكمات والمتشابهات من عند الله. وأولوا الأبواب هم القادرون على - التذكر - حين يؤول الغيب إلى شهادة فيشهدون الإعجاز القرآني ويحصل اليقين لهم ولمن يتعلم عليهم.

(1) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ج1، ص 211.

والذين لا يحيطون بعلم الآيات المحكمات والآيات المتشابهات التي لم يأتمم تأويلها - أي تحولها من عالم الغيب إلى عالم الشهادة - هم المكذبون بها. والى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [ يونس: 39]. والناسون لهذه السنن الإلهية في العلاقة الجدلية بين الغيب الذي تنبىء به الآيات المتشابهات وعالم الشهادة الذي تبرز فيه هذه الآيات هم النادمون على نسيانهم الذي قادهم إلى الانحراف وعدم أخذ التذكير القرآني بمأخذ الجد: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلٍ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [ الأعراف: 52-53].

### ب - محتوى علوم الحكمة:

يتركز محتوى هذا القسم من منهاج - تعليم الكتاب والحكمة - حول دراسة العلوم التي توفر (( وسائل )) تحقيق (( الغايات )) التي توجه إليه محتوى علوم آيات الكتاب التي مر الحديث عنها.

والموضوعات التي يوجه إليها محتوى علوم الحكمة هي موضوعات متنوعة متعددة بتنوع وتحدد حاجات الأزمنة والأمكنة. فهي في عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - تتمثل في إحكام القدرة على إصابة الرأي والتصريف، وإحكام طرائق الدعوة، وإحكام معالجة الأوضاع والمواقف والتعامل مع الأفراد والجماعات، وفي إحكام التعرف على القدرات وحسن تعبئتها وتوظيفها حسب التخصصات وأنواع الكفاءات التي احتاجها المجتمع آنذاك<sup>(1)</sup>. وكانت نتيجة ذلك كله بروز قيادات ومتخصصين في الكتابة<sup>(2)</sup>، وفي الولاية والجبابة، والخطابة، والفقهاء، والدعوة<sup>(3)</sup>. وبرزت قيادات عسكرية وعلمية حاذقة، وجرى التنسيق بين مختلف المصادر البشرية والفكرية والمادية وتوظيفها لتحقيق الأهداف التي يوجه إليها (( المثل الأعلى )) لذلك المجتمع. لذلك لم يخرج المفسرون عن دائرة الحكمة حين ذكر نفر منهم أن الحكمة هي السنة.

(1) ابن القيم، زاد المعاد، ج 1 ( القاهرة: المكتبة المصرية، بلا تاريخ) ص 41.

(2) ابن القيم، المصدر نفسه، ص 29.

(3) ابن القيم، المصدر السابق، ص 31-32.

ثم تطورت موضوعات الحكمة في العصر الراشدي يتطور حاجات المجتمع وتحدياته فتشعبت إلى قضايا الإدارة والعسكرية والمعاهدات والمواثيق والقضاء، والأمانة المالية، والتربية، ثم تطورت بعد ذلك لتشمل موضوعات الحكمة الطبية والحكمة العلمية والحكمة الزراعية والحكمة الصناعية والحكمة الفنية والحكمة اللغوية وغيرها، حتى إذا طغت الآبائية على التربية وضربها الركود والتقليد ثم الجمود انفصلت ميادين الحكمة عن ميادين تعليم الكتاب ثم بدأت في الانحسار والتفسيخ والانهيار.

ويلاحظ على موضوعات علوم الحكمة هذه أن الانفتاح فيها مطلوب على ما عند المجتمعات الأخرى من علوم ونظم ووسائل، ولذلك قال - صلى الله عليه وسلم - (( الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق الناس بها ))<sup>(4)</sup>، وبسبب هذا الانفتاح كتب النبي - صلى الله عليه وسلم - كتاباً. فقيل له: إهم لا يقرؤون كتاباً إلا محتوماً، فاتخذ خاتماً من فضة، ونقشه محمد رسول الله<sup>(1)</sup>. وبسبب هذا الانفتاح أيضاً تبني الخليفة عمر كثيراً من نظم الإدارة من حضارات فارس والروم، طالما لا يؤثر هذا الانفتاح وما فيه من (( علوم وسائل )) على (( علوم الغايات )) التي توجه إليها آيات الكتاب. وبسبب هذا الانفتاح كان نصيب عبد الله بن عمرو بن العاص من غنائم معركة اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب التي استعملها للاستشهاد لا للاعتقاد<sup>(2)</sup>.

والحكم تقتضي وجود حكماء - أي خبراء - في جميع موضوعات الحكمة. ولما كانت الحياة متطورة متغيرة، فإن محتويات الحكمة وموضوعاتها هي أيضاً متغيرة متطورة حسب حاجات الأجيال والأمكنة. وهذا يقتضي قيام مؤسسات وحكماء يتابعون الاجتهاد في هذه الموضوعات باستمرار.

والخلاصة إن الحكمة النظرية والعملية ينبثق عنها علوم ومؤسسات وتخصصات متعددة تتوازي مع مظاهر الحاجات والتحديات المتجددة في مجالات الحياة عامة، حيث يمثل العلماء والمفكرون الحكمة النظرية بينما يمثل القادة والإداريون والتقنيون الحكمة العلمية.

(4) الترمذي، السنن، باب العلم، ابن ماجه، السنن، باب الزهد.

(1) البخاري، الصحيح، كتاب اللباس.

(2) ابن تيمية، الفتاوى، مقدمة التفسير، ج13، ص366.

والواقع أن طور العالمية - العلمية الذي جاءت التربية الإسلامية على أبوابه لترشيد مهمة عبوره يقتضي الهجرة الجريئة من جميع قيم طور القبلية والإقليمية إلى قيم جديدة واتجاهات جديدة تتصف بما يلي:

**الصفة الأولى؛** الانتقال من طور الخبرات الفردية العابرة إلى عهد الحكماء المتخصصين في جميع الموضوعات والميادين شريطة مراعاة التكامل لتجنب سلبات التخصص التي مر تحليلها. ومن طريف ما ذكره القرطبي في هذه الصفة تفسيره لقوله تعالى: {مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [آل عمران: 117]. قال: أي أنهم ظلموا أنفسهم إذ زرعوا في غير وقت الزرع<sup>(3)</sup>.

**والصفة الثانية؛** الانتقال من الأعراف والتقاليد إلى القوانين والمواثيق، ومن الطريف في هذا المجال ما فهمه الصحابي كعب حينما قال في تفسير قوله تعالى: {إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ} [البقرة: 282]. هل تعلمون مظلوماً دعا ربه فلم يستجب له؟ قالوا: وكيف يكون ذلك؟ قال: رجل باع شيئاً فلم يكتب ولم يشهد، فلما حل ماله جحده صاحبه، فدعا ربه فلم يستجب له، لأنه عصى ربه<sup>(1)</sup>.

**والصفة الثالثة؛** الانتقال من قيم الارتجال والفردية إلى قيم التخطيط والإعداد والعمل الجماعي. ومنم هنا كان تكرار الأوامر الإلهية لإعدادها ما يستطيعه المسلمون من قوة ومن رباط الحملات العسكرية المتطورة بتطور العصور ابتداء من رباط الخيل في عصر السيف والرمح ومروراً برباط الناقلات العسكرية في البر والبحر والجور وعبوراً لما يفرزه غيب المستقبل. وكان المبدأ الإسلامي القائل بأن يد الله مع الجماعة وأن الفرد القاصي عن الجماعة كالشاة التي ينفرد بها الذئب، وكانت الصفة الجماعية للفاتحة والصلاة وغيرها من العبادات والممارسات.

ومن المؤسف أن الفقه الإسلامي الذي أفرزته المذاهب والمؤسسات الإسلامية لم تطبق مقياس (( الحلال والحرام )) على هذه القيم التنظيمية والعلمية ولم يرفع التنكر لها إلى درجة (( المعصية )) كما فعل الصحابي كعب، وإنما حصر - الحلال والحرام - في السلوك الفردي والأخلاقي في اعتماد الفردية، والاحتكام إلى الأعراف والتقاليد، والخبرات الفردية العابرة،

(3) القرطبي، التفسير (آل عمران: 117)، ج4، ص 114.

(1) الطبري، التفسير (البقرة: 282)، ج3، ص 117.

والارتجال والعفوية والتلقائية، وهذه وأمثالها تركت أفدح الأخطار وأثرت في مسيرة الحضارة والمجتمعات الإسلامية تأثيرات سلبية كانت أكثر ضرراً من فساد الأخلاق الفردية.

### جـ- كيفية تكامل علوم الكتاب وعلوم الحكمة:

يتحقق التكامل بين علوم الكتاب وعلوم الحكمة من خلال تنظيم المناهج والمقررات والأنشطة الدراسية الجارية طبقاً للشكل التالي:

1- تصنيف مقررات خاصة من الآيات المتشابهات طبقاً لتصنيف موضوعات علوم الحكمة، ثم يدرس كل مقرر جنباً إلى جنب مع نظيره في منهاج الحكمة. فالذين يدرسون علوم الطب - مثلاً - تقدم لهم الآيات التي توجه إلى النظر في أطوار الجسم البشري منذ مرحلة النطفة ومروراً بأطوار العلقة والمضغة وخلال الحمل والولادة، وحالات الصحة والمرض وجميع التغيرات التي تصيب الجسم خلال أشكال سلوك الطاعة والمعصية والاعتدال والإسراف والتفريط وغير ذلك. ومثلهم الذين يدرسون علوم جيولوجيا اليابسة والبحار حيث تقدم لهم الآيات التي تشكل بصائر للنظر في عالم الجيولوجيا.

ومثلهم الذين يدرسون علوم الحيوان والنبات، ومثلهم الذين يدرسون التاريخ والحضارات، وعلوم النفس والاجتماع والسياسة والإدارة والتربية والصناعة والتجارة وكل علم تقوم الحاجة إليه في ميادين التخصصات المختلفة.

ففي جميع هذه الميادين يدرس الدارسون مقرر الآيات المتشابهات التي يجري اختيارها لتشكيل بصائر موجهة للنظر في موضوعات تخصصهم والنشاطات المرافقة لها بهدف تبيان (( الغايات )) التي يعمل لتحقيقها من خلال التخصص المشار إليه، وتقييم النتائج التي يُسفر عنها.

2- تصنيف مقررات خاصة من - الآيات المحكمات - التي توضح (( غايات )) كل علم من علوم الحكمة - أو علوم الوسائل - وتبين القيم والأخلاق التي يجب ان توجه نشاطات المختصين في العلوم المذكورة، توجيهاً يتفق مع - الغايات - المشار إليها بحيث لا يخالف (( حلالاً )) ولا يقترف (( حراماً )) . فعندما يجري - مثلاً - تنظيم وتعليم مقررات علم التغذية يراعى في تنظيمها إبراز الحكمة التي (( تحرم )) أو (( تحلل )) الأطعمة والأشربة وتوجه إلى عدم الإسراف في تناولها. وكذلك عندما يجري تنظيم وتعليم مقررات - اللغة التي هي بعض علوم الحكمة أو علوم

الوسائل - يراعى أن يُسهّم تنفيذ هذه المقررات الدراسية في تحقيق ((الغاية)) التي توجه إليها (( آيات الكتاب أو علوم الغايات )) وهي القدرة على ((بيان)) القيم التي يراد تعليمها، والمهارات والاتجاهات التي يراد تنميتها، والتي يشير إليها قوله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } . [إبراهيم:4] فـ(( اللسان )) المذكور في الآية يعني - لغة التواصل وإبانة المعاني - . ولقد ورد ذكر اللسان في (25) خمسة وعشرين موضعاً من القرآن لتدل على ما يطلق عليه الآن - اللغة - . أما لفظ اللغة فلم يرد في القرآن على الإطلاق، وكانت العرب في الجاهلية تستعمله بمعنى - لهجة - . والغالب على الاستعمالات القرآنية أن تورد ذكر (( اللسان )) مقروناً بـ(( البيان )) و (( الصدق )) مثل قوله تعالى: { وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ } . [النحل: 103]

فاللغة هي أداة لتحقيق هدفين اثنين: الأول؛ إبانة مضمون الرسالة بمعناها الواسع. والثاني؛ تعزيز قيم الرسالة الإسلامية واتجاهاتها. أما عن مهارة ((الإبانة)) أو (( البيان )) فهي عرض الأفكار بوضوح وصواب وتأثير كامل واستجلاء كامل للمواقف والمقدمات والنتائج. ولقد اشترك القرآن هذه المهارة وجعلها من مكونات القيام بمسؤولية الرسالة، بل جعلها من صفات الوحي الإلهي حين وصف هذا الوحي بأنه (( آيات بينات من الهدى والفرقان )) وأنه (( كتاب مبين )) وأنه (( بيان للناس )) إلى غير ذلك من أمثال هذه الصفات المنتشرة في مئات المواضع من القرآن الكريم.

وحيث يصف القرآن مهارات التعبير بـ (( البيان )) و (( الصدق )) فهذا يعني أن الدراسات اللغوية - في التربية الإسلامية - ليست هدفاً بذاتها وإنما هي وسيلة لبيان محتويات الرسالة وإشاعة قيمها خاصة قيم الإيمان والعدل والصدق. فإذا انفصلت اللغة عن هذه (( الغايات )) أصبحت (( لغواً )) لا معنى له ولا فائدة، و ((سحراً)) ثمرة الإضلال والضلال واللغوية. ولذلك شجب القرآن (( اللغو )) ونزه أهل الإيمان عنه وعن سماعه، وجعل الجنة مطهرة منه:

- { وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ } ( المؤمنون: 3 )
- { وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ } ( القصص: 55 )
- { فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً } ( الغاشية 10 - 11 )

— { لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا } (النبأ: 35)

كذلك وصف القرآن آداب الجاهليين وأشعارهم وأشكال الفصاحة التي استخدموها لمعارضة الرسالة بأنها " لغو" يستحق اللوم والإدانة: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ } [فصلت: 26].

وأما عن دور اللغة في تعزيز قيم الرسالة أو إضعافها فلأن قسماً كبيراً من اللغة يجري تعليمه من خلال الأدب والشعر والخطابة والقصة وغيرها. وهذه كلها تحمل في طياتها (( محتويات مستترة )) غير مصرح بها من الولاءات والاتجاهات وأنماط التفكير والميول التي تتفق مع قيم الرسالة وفضائلها أو تصطدم بها وتناقضها. والوعي بهذه المحتويات المستترة أمر في غاية الأهمية عند تخطيط مناهج اللغة وتصنيف مقرراتها. لأن كثيراً من آداب الجاهليين وأشعارهم وخطبهم تصطدم مع قيم الرسالة الإسلامية واتجاهاتها. ومثل آداب الجاهلية امتداداتها في العصور الأموية والعباسية والأندلسية التي وضعت نفسها في خدمة العصبية الأسرية والقبلية والمذهبية والطائفي والعرقية، وفي التعبير عن اتجاهات اللهو والترف والشهوات. لهذه وأمثالها من الخطورة أن تقدم للدارسين خلال فترات الطفولة والمراهقة والمراحل الأولى من الجامعة لأنهم يتبنون اتجاهاتها في الشعور والتفكير أكثر من الوعي بالمحتويات والمعاني. ولا يعني ذلك التنكر لهذا التراث الأدبي وإنما المقصود أن لا يقدم لإنسان التربية الإسلامية في مراحل التكوين العقلي والنفسي وإنما تؤجل دراسته للباحثين الدارسين في مراحل الدراسات العليا وبأساليب ناقدة تمتدي بالأهداف العامة للتربية الإسلامية، وتبرز الآثار السلبية لهذه الأكاس الأدبية التي لم يكن لها من آثار إلا الإسهام في انحلال المجتمعات التي عاصرتها وإشاعة الفتن والتفكك الذي انتهى بسقوط الأنظمة وضياع بعض الأقطار.

ويستنتج من هذه المواقف القرآنية من اللغة واستعمالاتها أن مناهج موضوعات الحكمة اللغوية لا مكان فيها لموضوعات (( اللغو )) الشائع تحت أسماء الأدب والشعر والقصة والفن التي لا تسهم في تحقيق الأهداف العامة للتربية الإسلامية ولا ترتبط بـ (( غايات الرسالة ))، ولهذا نهى الرسول — صلى الله عليه وسلم — عن البلاغة اللغوية التي تستهدف قولبة عقول الناس ومشاعرهم والتلاعب بولاءاتهم



واتجاهاتهم، وقصر الأداء اللغوي على بيان الهدى الصادق. من ذلك قوله \_ صلى الله عليه وسلم \_ (( إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها ))<sup>(1)</sup>. ومثله قوله: (( إن من البيان لسحراً )) الذي ورد في معرض الذم وليس المدح كما دلت على ذلك مناسبة الحديث وسياقه الكامل<sup>(2)</sup>. ولقد أدرك - ديفيد بيريل - أهمية ارتباط الأداة اللغوية بـ "الغايات" الإنسانية العليا حينما قال:

(( من المؤكد أن التربية تتطلب معرفة التعلم والمحتوى ومهارات اللغة والطرائق وحسن الأداء والعلاقات الشخصية. ومع أن هذه الصفات كلها ضرورية للمعلم إلا أنها ليست صفات المربي الحقيقي. فالمطلوب، إضافة إلى هذه المعرفة وهذه المهارات، التزام بتصوير يحدد من نحن؟ وماذا يجب أن نكون؟ وبدون هذا الالتزام يصبح المربي مثل شخص يحسن اللباس دون معرفة مكان يذهب إليه. فالمربي، مثله مثل بقية أصحاب المهن الأخرى، يحتاج إلى الأدوات والمهارات ولكن يجب أن تكون لديه الحكمة التي تجعله يستعمل هذه الأدوات كلها بشجاعة وعاطفة نبيلة ))<sup>(3)</sup>.

ومثل اللغة، علوم الحكم والسياسة والإدارة. لهذه عند تنظيم مقرراتها وتعليمها تحتاج أن يدرس إلى جانبها الآيات والأحاديث التي توجه لتحقيق (( غاية )) العدل الذي تجعله الأصول القرآنية محور هذه المسؤوليات وغاية رئيسة لها كما مر ذلك في صفحات سابقة.

وفي تنظيم مقررات العلوم العسكرية وتعليمها يراعى أن يدرس إلى جانبها الآيات التي توجه إلى تحقيق (( غاية )) النصر التي يوجه الله إليها ويفصل مظاهرها في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

وعند تنظيم مناهج - العلوم التقنية والصناعية والاقتصاد - يراعى أن يدرس إلى جانبها الآيات التي توجه إلى تحقيق (( غاية )) الشكر على النعم الإلهية وخطورة

(1) سنن أبي داود، باب الأدب، رقم 5005.

الترمذي، السنن، باب الأدب.

(2) مسند أحمد ( تحقيق الساعاتي)، ج19، ص 272، 300.

(3) Dabid E. Purple, The moral and Spiritual Crisis in Education, p.12.

التنكر لهذه الغاية في سقوط المجتمعات وانهايار الحضارات. ويقدم القرآن أمثلة كثيرة وهادفة، من ذلك قصص قوم فرعون، وقوم إبراهيم، وقوم نوح، وقوم عاد، وقوم لوط، وقوم شعيب وغيرهم.

والخلاصة إن الاشتغال بـ (( علوم غايات )) لا وسائل لتحقيقها يحول هذه الغايات إلى مثاليات غير قابلة للتحقيق، كما أن الاشتغال بـ "علوم وسائط لا غايات لها يحولها إلى أدوات لخدمة أهواء العصبية المختلفة والشهوات الفردية والمصالح الخاصة فيشقى الإنسان بهذه العلوم رغم تقدمها وازدهارها. ولذلك يوجه القرآن في كل آية تتحدث عن نعمة من نعم الله في علوم الوسائل وتطبيقاتها إلى الغاية المرادة منها. ففي موضع تأتي الغاية مثلاً { لعلهم يشكرون } وفي آية { لذكرى لقوم يعقلون } وهكذا. وفي نفس السياق يمكن أن نفهم قوله \_ صلى الله عليه وسلم \_ : (( لا يبيع في سوقنا هذا إلا من تفقه في الدين ))<sup>(1)</sup> وقول خالد بن الوليد: (( أمرنا أن نعلم أولادنا الرمي والقرآن ))<sup>(2)</sup> وقوله \_ صلى الله عليه وسلم \_ : (( أن الله يبغض كل عالم بالدنيا جاهل بالآخرة ))<sup>(3)</sup>. ومن نفس المنطلق جعل الله الحياة نفسها (( وسيلة )) والآخرة (( غاية )) ودعا إلى تكامل الاثنين انطلاقاً من هذا المعيار: { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ } [القصص: 77]. وابتغ - أي اجعل غايتك -، ولا تنس نصيبك من الدنيا - أي لا تنس الوسيلة الموصلة إلى هذه الغاية -، ومن نفس المنطلق ندد الله سبحانه بالذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون.

وتحويل هذه الغايات والوسائل إلى واقع تربوي هي بعض وظائف ميدان - تعليم الكتاب والحكمة - في تدريب إنسان التربية الإسلامية عليها وإكسابه المهارات والاتجاهات اللازمة لتحقيقها.

3- تصنيف مقررات من التأويلات العلمية التي تبرز - المعجزات والبراهين والشواهد - في موضوعات الحكمة المتلفة، ثم تقديمها للدارسين المختصين في - العلوم الدينية

(1) الترمذي، السنن، باب الوتر.

(2) الطبراني، المعجم الكبير، ج4، ص 134 رقم 3837.

(3) السيوطي، صحيح الجامع الصغير، تحقيق الألباني، ج1، رقم 1879.

— أو علوم الكتاب — لتمدهم بمزيد من اليقين هم أنفسهم، وليستعملوا محتوياتها في نشاطاتهم الدعوية والتعليمية.

والخلاصة أن تنظيم المقررات التي أشير إليها في الأنواع الثلاثة أعلاه يحقق عدة فوائد منها:

الفائدة الأولى؛ هي مساعدة — إنسان التربية الإسلامية — من شهود وجوه الإعجاز وبراهينه في ميدان تخصصاته مما يؤثر في الدارس عقلياً ونفسياً تأثيراً يزيد في يقينه بتوجيهات الوحي وتعاليمه.

والفائدة الثانية؛ هي تمكين — إنسان التربية الإسلامية — من شهود وجوه الإعجاز وبراهينه في ميدان تخصصاته مما يؤثر في الدارس عقلياً ونفسياً تأثيراً يزيد في يقينه بتوجيهات الوحي وتعاليمه.

والفائدة الثالثة؛ هي إسهام أولي الألباب من الدارسين، بعد اكتمال درجات الدراسة العليا والرسوم في التخصص والإحاطة بتاريخه وتفاصيل حاضره، في بروز تفاسير قرآنية متجددة بتجدد الأزمنة، متنوعة بتنوع ميادين الدراسة والمعرفة.

والفائدة الرابعة؛ هي تمكين إنسان التربية الإسلامية من التعرف على ((غايات)) العلم الذي يتخصص به والأخلاق التي توجه تطبيقاته واستعمالاته.

والفائدة الخامسة؛ أن تكالم علوم الكتاب وعلوم الحكمة سوف يؤدي إلى القضاء على الطريقة التقليدية التي يدرس بها القرآن، ويدفع الإحساس بالثقل والملل اللذين يعاني منهما دارسو القرآن بعيداً عن آيات الحكمة وشواهداها.

والفائدة السادسة؛ أن محصلة هذه الفوائد مجتمعة سوف تكون هي تكامل ((علوم الغايات)) مع ((علوم الوسائل)) وتضافرها للحفاظ على النوع البشري ورقيه.

**رابعاً: الأساليب في ((ميدان تعليم الكتاب والحكمة)):**

الأساليب المستعملة في هذا الميدان ثلاثة هي: أسلوب التفسير، وأسلوب التأويل، وأسلوب المنهج التجريبي. وتتكامل الأساليب الثلاثة لتحقيق الأهداف العامة لهذا المنهج. أما عن تفاصيل كل منها فهي كما يلي:

**أ — أسلوب التفسير:**

المقصود بالتفسير هو تبيان ما تقدمه الآيات المحكمات من حلال أو حرام في الاعتقاد

والعبادة والسلوك. ويراعى فيه عدد من القواعد هي:

**القاعدة الأولى؛** هي الاستعانة بالأدوات اللغوية وبالمأثور عن الرسول ﷺ وعن السلف الصالح وهو ما سموه التفسير بالرواية ولا مجال للرأي أو الاجتهاد فيه. ولذلك ظلت موضوعاته ثابتة كما هو في الصلاة والحج وأمثالهما من العبادات وموضوعات السلوك الأخلاقي.

**والقاعدة الثانية؛** مراعاة أنواع التفسير وهي أربعة: أولها: تفسير القرآن بالقرآن الذي اعتبر أسن طرق التفسير، لأن القرآن قد يجل في مكان ويفصل في مكان آخر، ويختصر في مكان ويبسط في آخر<sup>(1)</sup>. وثانيها: تفسير بالحديث والسنة لأههما شارحان للقرآن وموضحان له لقوله تعالى: { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } . [النحل: 64]. ولهذا قال: (( ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ))<sup>(2)</sup>. وثالث أنواع التفسير: هو التفسير بالمعنى اللغوي لأن القرآن نزل باللغة العربية. ورابعها: تفسير بالرجوع إلى أقوال الصحابة حين لا يجد الباحث أو الدارس مراده في القرآن أو السنة لأن الصحابة أقرب عهداً بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وبتزول الوحي وأكثر اطلاعاً على وقائعه ومتشابهه.

**والقاعدة الثالثة؛** هي مراعاة النسخ والمنسوخ. وهذا موضوع ألف به الباحثون في علوم القرآن واختلفوا فيه. فقسم - وأشهرهم النحاس المتوفى عام 338هـ - يقول: ان المقصود بالنسخ هو إبطال العمل بحكم الآية المنسوخة<sup>(3)</sup>. وقسم قال: إنه لا يوجد في القرآن نسخ أو منسوخ ولا يليق ذلك بكتاب الله<sup>(4)</sup>. وقسم قال: إن النسخ وقع في الأوامر والنواهي<sup>(5)</sup>.

والواقع أن حدوث النسخ حقيقة تاريخية أشار إليها القرآن نفسه عند قوله تعالى: { مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [البقرة: 106]. ولكن الاختلاف وقع في فهم المقصود بالنسخ بسبب عدم الرسوم في تطبيقاته في واقع

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص175-176.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) أبو جعفر النحاس، النسخ والمنسوخ في القرآن الكريم ( بيروت: مؤسسة الكتاب الثقافية، الطبعة الأولى 1409هـ - 1989م).

(4) نفس المصدر، ص 5.

(5) المصدر السابق، ص 6.

الاجتماع الإنساني. وحين ندقق النظر في منهاج الوحي في الإنزال والتتريل وفي المناسبات التي رافقت الآيات المنسوب إليها النسخ نتبين حقيقة النسخ المشار إليه في الآية الكريمة.

فهذا المنهاج قام على مراعاة المستويات الثلاثة في - سلم قيم التقوى - أي مستويات: الإسلام والإيمان والإحسان، والبيئات التي تيسر تطبيقات هذه القيم أو تعسرهما. والتجسيد العملي لأعلى هذه المستويات - أي الإحسان - هو ما يشير إليه قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ } [ آل عمران: 102]. والمستويات التي تلي المستوى الأعلى المذكور هي ما يشير إليه قوله تعالى: { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } [التغابن: 16]، شريطة أن لا تتزل هذه الاستطاعة عن المستوى الأدنى المشار إليه باسم - الإسلام-.

ولقد بحث ابن حزم في هاتين الآيتين فقال:

(( عندما نزلت الآية الأولى قالوا يا رسول الله: ما حق تقاته؟ فقال عليه الصلاة والسلام: حق تقاته أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر. فقالوا: يا رسول الله ومن يطيق ذلك؟ فانزعجوا لتزولها انزعاجاً عظيماً. ثم أنزل الله بعد مدة يسيرة آية حكمها وهي قوله تعالى: { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ } [الحج: 78]. فكان هذا أعظم من الأول، ومعناها: اعملوا لله حق عمله. فكادت عقولهم تذهل. فلما علم الله ما قد نزل بهم في هذا الأمر العسير خفف فنسخها بالآية التي في التغابن وهي قوله تعالى: { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } . فكان هذا تيسيراً من التفسير الأول وتخفيفاً من التشديد الأول))<sup>(1)</sup>.

والحقيقة أن الآيتين لا تشيران إلى ناسخ ومنسوخ بالمعنى الذي فهمه ابن حزم، وإنما تقرران حدين: حداً أعلى من التقوى، وحداً أدنى. وفي ذلك مراعاة لمبدأ التدرج في التربية، ومبدأ استمرارية النمو والترقي في سلم قيم التقوى، ومبدأ الفروق الفردية في القدرات والاستعدادات، واختلاف الظروف والبيئات.

والخلاصة التي ننتهي إليها من هذا هي أن المقصود بالنسخ هو تعليق العمل بحكم آية إذا ذهبت الظروف والأحوال التي استدعت نزولها وحلت ظروف مختلفة عنها. فإذا عادة ظروف وأحوال شبيهة بالظروف والأحوال التي عاشها المسلمون قبل نسخ الحكم المذكور رفع النسخ عن حكم الآية أي أعيد تفعيل الحكم الذي تتضمنه وبدأ العمل به من جديد. أما قوله تعالى { ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها } فإن - الخيرية - هنا ليست خيرية تفاضل

(1) ابن حزم الأندلسي، الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم (بيروت) دار الكتاب العلمية، 1986/1406،

وإنما هي خيرية ملائمة حكم دون حكم. أي أن الحكم الذي توجه إليه الآية الناسخة هو حكم أو أمر أكثر ملائمة للحالة الجديدة من الحكم الذي كانوا عليه وهم يسترشدون بالآية المنسوخة - أي التي علق العمل بها - . ولا بد هنا أن نلاحظ أن النسخ إنما وقع في بعض - آيات الأحكام - المتعلقة بالأعمال، ولم يقع في الآيات المتعلقة بالعقائد، كما أنه لم يقع البتة في الآيات المتشابهات المتعلقة بالحقائق المغيبة والمشهودة.

والعلاقة بين تزكية الأعمال والقيم التي توجهها وبين نسخ الآيات علاقة وثيقة وطرديّة. فالآية التشريعية المتعلقة بالأعمال كانت تظل في السماء دون إنزال ما دامت القيم الإسلامية لا تحكم في الأرض ولا توجه عقول الناس وإراداتهم وممارساتهم، فإذا زكت البيئة من القيم غير الإسلامية وحل محلها القيم الإسلامية وصارت توجه الأعمال والممارسات أوقف العمل بالآية المنسوخة وأنزلت آية أخرى بتشريع يجرس القيم الإسلامية!

وبنفس المقياس فإن انحسار أية قيمة إسلامية وحدوث قيم وبيئات غير إسلامية خانقة للأعمال الإسلامية التي حددتها آيات النسخ ينسخ - أي يؤجل - حكم آية الأمر والنهي أو التشريع المقابل في ميدان التطبيق وليس من الكتاب، حتى إذا تمكن الدعاة والولاة مرة أخرى من تطهير البيئة والنفوس من القيم والأعمال المخالفة للقيم الإسلامية وإحلال الإسلامية اعتمزم فعله الخليفة عمر بن الخطاب في عام الرمادة حين أوقف العمل بجد قطع السارق ما دام القحط مستشرياً والجوع خطراً محيطاً، ومثله عدم إقامته لحد السرقة على المماليك الجياع الذين سرقوا ناقة أعرابي، ففضى بتغريم سيدهم ضعف ثمنها، لأنه جوعهم وتسبب لهم بالسرقة<sup>(1)</sup>. وهذا أيضاً ما يوجه إليه الحديث النبوي القائل أنه في آخر الزمان لو فعلوا عشر ما طولبوا به نجوا في حين أن الصحابة لو تركوا عشر ما طولبوا به هلكوا. وحينما سئل - صلى الله عليه وسلم - عن السبب جاء الجواب أنهم في آخر الزمان لا يجدون على الخير أعواناً<sup>(1)</sup>.

**والقاعدة الرابعة؛** هي ثبات (( القيمة التربوية )) التي توجه إليها الآيات المحكمات وتطور (( تطبيقها ورموزها )) . ومثل ذلك - قيمة العدل - التي تحتل مركز المحور في أهداف - منهاج تعليم الكتاب والحكمة - . فلقد بدئ بتطبيق هذه القيمة زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - في مكان تحددت بحدود المجتمع المدني، ثم اتسعت رقعة التطبيق لتشمل الجزيرة بعد فتح مكة، ثم اتسعت - زمن الراشدين - باتساع دار الإسلام خلال مراحل الفتح

(1) ابن تيمية، الفتاوى، كتاب الفقه والجهاد، ج28، ص119.

(1) الترمذي، السنن، باب الفتن.

الإسلامي. وتظل إمكانية توسيع مساحة التطبيق ورقعته طبقاً لسعة الانتشار الإسلامي وكسب الإسلام مناطق جديدة وعناصر بشرية جديدة دون حصره في الأقاليم الجغرافية المنتشرة في العالم الإسلامي الجزأ. ومثله - رموز تطبيق قيمة العدل - فقد تجسدت هذه الرموز في مجتمع النبوة في عدالة توزيع الأنفال التي حصل عليها المسلمون وعدالة توزيع الأعطيات (أو الرواتب)، وعدالة توزيع الأعمال، وعدالة تطبيق الحدود بين أفراد ذلك المجتمع من المهاجرين والأنصار. وحينما اتسعت دائرة الفتح الإسلامي على أثر فتوحات الرموز السابقة عدالة توزيع الأراضي، وعدالة الخراج والجزيرة، وعدالة التعليم، وعدالة الوظائف لتشمل المسلم العربي والمسلم غير العربي.

ولكن حين تسلم أمور القيادة طلقاء مكة من أمية وثقيف وهيمنت ثقافة العصبية القبلية انحسرت مساحة تطبيق العدل ورموزه ضمن دوائر العصبية الحاكمة وأدى هذ الانحسار إلى ظهور الشعوبيات والفرق والطوائف المتناحرة المتنافرة.

ومثل قيمة العدل (( قيمة التعاون والإعانة )) التي يندد من القصور إزاءها قوله تعالى {ويمنعون الماعون}. فالقيمة التربوية الثابتة - هنا - هي التنديد بمنع (( الماعون )) الذي يعين الإنسان على الحصول على حاجاته المادية والمعنوية بغية التفرغ للتفكير بالحق، ويعين المسلم على التفرغ لعبادة الحق سبحانه وتعالى.

أما تطبيقات - الماعون - ورموزه فهي متطورة متغيرة بتغير الأزمنة والأمكنة. فقد يكون الماعون في عصر أو مكان هو - الإناء - الذي يعيره الجار إلى جاره، وفي غيرهما قد يكون هو - توفير الوظيفة والعمل -، وفي مكان وزمان تالين قد يكون (( توفير الزواج )) للشباب والشابات. وفي موقف رابع يكون (( توفير السكن )) وفي موقف خامس هو (( توفير الحرية ))، وفي موقف سادس هو (( توفير تكافؤ الفرص )) وفي موقف تاسع هو (( حرية التنقل وحرية الاتجار )) وهكذا إلى ما لا نهاية من حاجات الأفراد والجماعات التي تعينهم على التأمل والتفكير فيما يحقق إنسانيتهم التي كرمهم الله بها بين مخلوقاته.

ومثله قوله تعالى: { ولا يحض على طعام المسكين }. فالقيمة التربوية - هنا - هي توفير الحاجات الأساسية المتمثلة في الغذاء. أما تطبيقات الحض على طعام المسكين ورموزه فهي متغيرة بتغير الزمان والمكان. فقد يكون في - عصر ومكان ما - صدقة فردية، وقد يكون في حقبة تالية خطبة منبرية أو مقالاً أو كتاباً يدعو إلى - الضمان الاجتماعي - وقد يكون في



عصر ومكان تالين دعوة للعدالة في توزيع الموارد العامة، وقد يكون دعوة لـ "المعونات الدولية" وهكذا.

ومثله قوله تعالى: {وَاسْتَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتْهُمْ وَمَا يَعْهَدُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} [الإسراء: 64]. فالقيمة التربوية هنا هي التعرف على أساليب الإفساد وإشاعة الانحراف. أما التطبيقات والرموز التي يجب الحذر منها فهي متغيرة بتغير الزمان والمكان. ففي عصر ابن عباس وقتادة وعكرمة اشتقوا معانيها من خبرات عصر الجاهلية القريب لعصرهم، فذكروا أنها إشارة إلى المشاركة في الأموال التي جعلوها بحيرة وسائبة، وإشارة إلى تبتيك آذان الأنعام.

وفي عصر الرازي قال: إن المشاركة في الأموال عبارة عن أخذ المال من غير حقه ووضعه في غير حقه كالربا والغصب والسرقة والمعاملات الفاسدة، والمشاركة في الأولاد لها وجوه هي: الأول، الدعوة إلى الزنا وإنجاب الأولاد من هذا الطريق. والثاني، تسميتهم أسماء قبيحة شركية مثل: عبد اللات، وعبد العزى. والثالث، ترغيب الأولاد بالأديان والمعتقدات الباطلة. والرابع، قتل الأولاد ووأدهم. والخامس، تربية الأولاد تربية سيئة مثل تحفيظهم الشعر الفاحش، وترغيبهم في القتل والحرف الخسيسة<sup>(1)</sup>.

وفي عصرنا يمكن القول أن الآية تحذر مما يلي: 1- الغناء والإعلام المضلل وإفساد الثقافة. 2- الغزو العسكري والعدوان المسلح محمولاً وراحلاً. 3- الاستعمار والنهب. 4- إشاعة ثقافة الجنس وإفساد الناشئة. 5- التبرير الفكري والنفسي للباطل والمنكر. وسوف يأتي في المستقبل من يجد في الآية تطبيقات ورموزاً لم يعرفها السلف ولا نعرفها نحن الخلف.

وهكذا في جميع القيم التي توجه إليه - الآيات المحكمات ونظائرها في الحديث النبوي - فالثبات قائم في القيمة والتطور يعتري مساحات تطبيقاتها والرموز الممثلة لها. والنتيجة لذلك كله أن لا يكون هناك تفسير نهائي للقرآن، وإنما هناك طبقات منا لتفسير المتابعة بتتابع الأزمنة والخبرات المعرفية وتنامي الوعي الذي يحققه الإنسان، في ميادين الخبرات الاجتماعية والكونية. ولذلك يكون التفسير للحاضر وما كان في الماضي يندرج في تاريخ التفسير.

(1) الرازي، التفسير، ج 21، ص 6-7.

**ب- التأويل:**

للتأويل - عند ابن تيمية - معنيان اثنان: الأول، التفسير، وهذا يعلمه الراسخون في العلم. والثاني، هو الحقيقة التي يؤول الكلام إليها. فتأويل ما أخبر الله به في الجنة من الأكل والشرب واللباس والنكاح وقيام الساعة هو الحقائق الموجودة نفسها. وهذا التأويل هو الذي لا يعلمه إلا الله، أي لا يعلم زمن وقوعه إلا الله. وهو الذي عناه تعالى عند قوله: { هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق }<sup>(1)</sup> وبناءً على ذلك يمكن القول إن التأويل هو ما تؤول إليه الآية القرآنية المتشابهة من قانون نظري عقلي، أو حقيقة موضوعية، أو حدث واقعي، أو سنة اجتماعية. ويقوم بالتأويل العالم الاجتماعي المسلم، والعالم الطبيعي المسلم اللذين امتزجت ثقافتهما - علوم الكتاب وعلوم الحكمة - وأدوات هذا التأويل هي العقل والحواس في ضوء بصائر الوحي. وهناك مجموعة من القواعد التي تراعى في التأويل. وهذه القواعد هي:

**القاعدة الأولى؛ البدء في النظر في معجم اللغة العربية لتحديد بدء أو مفتاح المعاني ومساها؛ وذلك من خلال البحث عن الفعل المجرد - أي أصل الكلمة - في معاجم اللغة. فإذا تم التعرف على بدء تكوين المعنى أو بدء المسار، اتجه الباحث إلى الخبرات الإنسانية في قاموس الآفاق والأنفس لتتبع مراحل نمو محتوى الكلمة لاستخراج كمية المعاني التي استطاع العقل الإنساني تحويلها من عالم الغيب إلى عالم الشهادة. فإذا أتم الباحث التعرف على كمية المعاني - المجتمعة من الماضي حتى الحاضر، بحث في الجديد من علوم عصره في ميدان الآفاق والأنفس ليضيف كمّاً جديداً إلى المعاني التي تسلمها جيله.**

والرسوخ في هذه القاعدة يحدد دور عربي ما قبل الإسلام في تبيان معاني الكلمة العربية. فخبرات ذاك العربي تنحصر في تقديم - مفاتيح المعاني - التي تحدد - بدء المسار - ولكن خبراته في (( كمية المعاني )) خبرة محدودة وبسيطة ولا يجوز الوقوف عندها، لأن هذا الوقوف تجميد للتفكير وحجر على عقول الأجيال التالية، وتحكيم لتلك الخبرات البدوية البسيطة بالمعاني الإلهية المطلقة التي لو كان البحر مداداً، والشجر أقلاماً، لنفد البحر ونفد الشجر دون أن تنتهي المعاني الإلهية. لذلك فإن الاقتصار على التفسير اللغوي للآيات المتشابهات، هو خطأ قاتل بالنسبة ليقين المسلم وفقهه وهو الذي يطلب منه الله أن يجادل أبناء

(1) ابن تيمية، الفتاوى، الأسماء والصفات، ج5، ص36.

عصره بـ (( أحسن )) مما لديهم من العلوم والمعارف. ولقد أدرك ابن تيمية خطورة الاقتصار على التفسير اللغوي - خاصة في الآيات المتشابهات - حينما قال:

(( وأما اللغويون الذين يقولون إن الراسخين لا يعلمون معنى المتشابه فهم متناقضون في ذلك. فان هؤلاء كلهم يتكلمون في تفسير كل شيء في القرآن ويتوسعون في القول في ذلك، حتى ما منهم أحد إلا وقد قال في ذلك أقوالاً لم يسبق إليها، وهي خطأ )) (1).

**والقاعدة الثانية؛** هي وجوب تعدد الأدوات اللغوية حسب اتساع دائرة الاتصال والتفاعل في المرحلة التي يعيشها العالم المسلم. ويقدم التطبيق النبوي بصائر واضحة في هذا المجال، إذ حين بدأ - صلى الله عليه وسلم - يتفاعل مع غير الناطقين بالعربية انتدب أصحاب القدرات من صحبه لتعلم اللغات الأخرى. فعن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (( إنه يأتيني كتب من الناس ولا أحب أن يقرأنا كل أحد فهل تستطيع أن تتعلم كتاب السريانية؟ قلت: نعم! فتعلمتها في سبع عشرة )) (2). وعن زيد بن ثابت أيضاً إنه - صلى الله عليه وسلم - أمره أن يتعلم اليهودية. قال: (( فكنت أكتب له إليهم وأقرأ له إذا كتبوا )) (3). ولقد ظل زيد هذا يتعلم اللغات الأخرى حسب الحاجة حتى أتقن العبرية والفارسية والحبشية والرومية والقبطية، تعلمها كلها زمن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (1). ومثله عبد الله بن الزبير وآخرون (2).

**والقاعدة الثالثة؛** هي فهم الفرق بين التزليل والإنزال. فحين يذكر التزليل في القرآن الكريم إنما يشير إلى تزليل القرآن منجماً بواسطة جبريل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - . والى ذلك يشير أمثال قوله تعالى:

{ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ } [آل عمران: 3].

وقوله: { آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ } [النساء: 136].

(1) ابن تيمية، الفتاوى، التفسير، الجزء الرابع، ج17، ص410.

(2) الطبراني، المعجم الكبير، ج5، ص..... رقم 4617.

(3) المصدر نفسه، ص 146 رقم 4856.

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج8 ( أحداث عام 45هـ )، ص29.

(2) الحاكم، المستدرک، ج3، ص633 رقم 6335.

أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ج1، ص334.

وقوله: { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ مِثْلِهِ } [البقرة: 23].

أما الإنزال فهو حين يذكر فانما يشير الى - انزال - القرآن دفعة واحدة الى السماء ومنها نزل منجماً كما ذكرنا أعلاه. والى ذلك يشير أمثال قوله تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا } [البقرة: 170].

- { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ } [البقرة: 174].

{ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون } ( المائدة: 44 ).

**والقاعدة الرابعة؛** هي وحدة الموضوع الذي تعالجه عدد من الآيات المتشابهات وعدم الوقوع في التعضية. وهذه من أخطر قواعد التأويل وأهمها. وإليها كانت الإشارة عند قوله تعالى: { كما أنزلنا على المقتسمين (90) الذين جعلوا القرآن عضين (91) فوربك لنسنلنهم أجمعين (92) عما كانوا يعملون (93) } ( الحجر: 90 - 93 )

والعضية منهج دراسي خاطئ ومغرض ، ولقد مر الحديث عنه في الفصل الأول من هذا البحث فليراجع هناك.

**والقاعدة الخامسة؛** هي التمييز بين (( سنن الخطاب الإنساني )) - أي الخطاب الموجه للناس كلهم - ، و (( سنن الخطاب القومي )) - أي الموجه إلى قوم معينين - ، أي الموجه إلى معين - ، فحين يتحدث القرآن - مثلاً - عن كل من الرزق والاجل فإن لهذا نوعين من السنن: النوع الاول؛ (( سنن الخطاب الانساني )) . فالإنسانية ككل رزقها محدود يأتي من مصدر واحد هو السماء التي تسمو فوق الارض ويتزل مهنا المطر السبب الرئيس في كل رزق. ولهذا الرزق قوانين متعلقة بالنظام البيئي وليس للإنسان دخل في زيادته أو انقصه. والنوع الثاني؛ (( سنن الخطاب الفوري والقومي )) . فالأفراد والأقوام يقدر الله رزقهم طبقاً لدرجة إلتقاهم اختيار (( الاسباب )): أي إلتقان عمليات السعي في مناكب الأرض. وهم المسئولون عن اسباب زيادة هذا الرزق أو نقصانه. ومثل الرزق الآجل؛ فالبشرية كنوع آجال خلافتها على الأرض محدودة ، وأما البشر كأفراد وأقوام فأجالهم تزيد وتنقص طبقاً لمراعاهم لقوانين الصحة والمرض ، والأمن والسلامة ، والصلاح والفساد وسنن الاجتماع الإنساني.

والخلط بين النوعين من السنن أوقع الباحثين في علوم العقيدة في مجالات عقيمة ، وأوقع الكثيرين في الاعتقاد المتناقض ، ونسبوا للقدرة الإلهية التحكم بالأسباب والنتائج سواء ، مع انه

يجعل الأسباب لاختيار الأفراد أنفسهم , وفي ضوء اختياراتهم يقدر (( النتائج )): { أفرءيتم ما تمنون (58) } عأنتم تخلقونه أم نحن الخلقون (59) { ( الواقعة: 58-59 ) } أفرءيتم ما تحرثون (63) عأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون (64) { ( الواقعة 63-64 ) }. فنسب الإمناء والحراثة إلى البشر , وثبت الخلق والإنبات لذاته سبحانه وتعالى.

**القاعدة السادسة؛** هي (( توحيد الطلب من شخص الرسول )) وتحويل الى (( تخصصات متكاملة في الأمة )) . فالرسول \_ صلى اللع عليه وسلم \_ أمة تجتمع فيه جميع التخصصات وسنته جامعة لمختلف الإنجازات والتطبيقات. ولكنها تنفرع في الأمة لتكون هنالك سنة للحاكم , وسنة للعالم , وسنة للتاجر , وسنة للعامل وسنة للجماهير... وهكذا. والمطلوب ان تتواجد هذه السنن كلها ثم تتكامل وتتوحد في إنجاز الأمة مجتمعة.

**والقاعدة السابعة؛** هي الوقوف على المعاني المتعددة لـ (( الكلمة القرآنية )) مثل كلمة (( الهدى )) . إذ الهدى نوعان: هدى بمعنى - الدلالة - وهو ما يقوم به الرسول \_ صلى الله عليه وسلم \_ واتباعه. وهدى بمعنى - التوفيق والتأييد - وهو ما تفرد به الله سبحانه. ومثلها كلمة (( المتقين )) . إذ التقوى نوعان: تقوى يتصف بها المؤمنون والمسلمون وهي اتقاء الوقوع في معصية الله وغضبه. وتقوى يقوم بها بعض الناس من غير المسلمين وهي اتقاء الوقوع في الخطأ والضرر. وإلى هذه القاعدة أشير باسم (( الوجوه والنظائر )) عند السيوطي وامثاله من اللذين كتبوا في علوم القرآن.

### ج \_ أسلوب التدبر القآني:

وردت الإشارة إلى هذا الأسلوب في اربع مواضع من القرآن الكريم:

**الموضع الاول؛** عند قوله تعالى: { أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً (82) } ( النساء: 82 )

**والموضع الثاني؛** عند قوله تعالى: { أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أفعالها } { محمد: 24 } .

**والموضع الثالث؛** عند قوله تعالى: { أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين } { المؤمنون: 68 } .

**والموضع الرابع؛** عند قوله تعالى: { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ } { ص: 29 } .

ولو نظرنا في التوجيه الذي يتضمنه السياق القرآني في كل موضع من المواضع الأربعة لوجدنا أنه يوجهنا الى أربعة أنواع من التدبر:

الأول تدبر التركيب البنائي للقرآن  
والثاني تدبر الصدق الاجتماعي للقرآن  
والثالث تدبر الصدق التاريخي للقرآن  
والرابع تدبر الصدق العلمي للقرآن

أما عن تفاصيل أنواع التدبر المذكورة أعلاه فهي كما يلي:

### أولاً: تدبر التركيب البنائي للقرآن<sup>(1)</sup>

يعتمد هذا النوع من التدبر على طرح عدد من الموضوعات المتعلقة بـ (( الظواهر القرآنية ))، وهذه الموضوعات تتناول ما يلي:

- 1- معنى الكلمة القرآنية.
- 2- تخير الكلمة القرآنية.
- 3- هدف الكلمة القرآنية
- 4- الشكل الخارجي للكلمة القرآنية.
- 5- التسلسل المعنوي والتناسب في الانتقال من غرض الى غرض.
- 6- التصنيف.

أما عن تفاصيل هذه الموضوعات فهي كما يلي:

#### 1- معنى الكلمة القرآنية:

يتكون القرآن الكريم من كلمات تماماً كما يتكون البناء من لبنات. ولذلك فمن الطبيعي أن تكون الخطوة الأولى لفهم القرآن الكريم هي تدبر كلماته. وللقيام بهذه المهمة نتبع الأمور التالية:

- 1- التجرد من موحيات المناخ الفكري الراكد المؤلف. ذلك أن الاستعمالات الرتيبة التلقائية تجعل الناس يستعملون الكلمات العربية في غير معانيها مما يفقدها إيجازات اللفظ وظلاله فلا يملكون رهافة الحس التي تجعلهم يفرقون - مثلاً - بين لفظتي (قرب - اقتراب) أو (فكر - افكر). ومع تكرار هذه الاستعمالات تتعلق الأذهان بمعاني جامدة محدودة ويفقد المتكلمون

(1) اعتمدنا في هذا القسم على ما ورد في كتاب - التدبر في القرآن - للسيد محمد رضا الشيرازي، ص 53-95.

الشعور بمحور شعاع الكلمة. فنحن مثلاً حينما نستعمل كلمة (( جن )) يتبادر الى أذهاننا المخلوق الغريب دون أن نفكر بالعلاقة بين هذه الكلمة وبين كلمة (جنين) الذي في بطن أمه وهي أن كليهما مستور عن علاقة - الستر - بين اللفظتين وأن هذا يستر الوجه وتلك تستر العقل.

من هنا يجب علينا التحرر من الفهم التقليدي المألوف للألفاظ العربية نحو أفق متيقظ يتصف بالدقة والشمول ويجمع القواسم المشتركة للألفاظ ويوصل بالمعنى الإيحائي العام.

2- وبالرجوع إلى المادة الأساسية التي تجمع كل التصريفات للكلمة والتفكير في المعنى المناسب لربط هذه المجموعات باللفظ. فمثلاً نجتمع معاني: يعرشون، عرشاً، معروضات، وهي تشترك جميعها في معنى - البناء الفوقي -.

3- قياس موارد استعمال اللفظ ببعضها ليعرف المعنى المشترك الذي يمكن أن يتصور جامعاً بين هذه الموارد ثم استخراج المعنى الدقيق للكلمة التي هي موضع الدراسة. وأفضل قياس من هذا النوع هو النظر في الاستعمالات المتعددة في القرآن نفسه.

وفيما يلي بعض الأمثلة عن (( التدبر في معنى الكلمة القرآنية )):

**المثال الأول:** يقول تعالى: { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا } [آل عمران: 67]. لكي نفهم كلمة (( حنيف )) التي وردت في الآية الكريمة، ننظر في قواميس اللغة لنجد المواضع التي استخدمت فيها هذه الكلمة ثم نستنبط من هذا المجموع - المعنى العام - فنجد في اللغة: حنف: مال. وحنف رجلة: جعلها حنفاء أي معوجة. والحنفاء: القوس... وهكذا.

ثم نعود إلى التفسير لنجده يؤكد المعنى ذاته، ثم نقارن المواضع القرآنية التي وردت فيها كلمة (( حنيف )) ومشتقاتها ببعضها ببعض.

وأخيراً يكون معنى الآية: إن إبراهيم كان مائلاً عن كل المبادئ الزائفة مسلماً لله تعالى وحده.

**المثال الثاني: يقول تعالى:**

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } [الأعراف: 59-60].



يبدو للنظرة العابرة أن كلمة (( الملائ )) في هذه الآية تعني (( الجماهير ))، وعلى هذا الأساس فإن الذين كفروا بـ (( نوح )) وغيره من الرسل كانوا: عامة الناس. وهذا فهم يثير التساؤل عن سبب كفر الجماهير برسالات الأنبياء ما دامت هذه الرسائل تدعو الى فطرتهم وتستهدف رفع الظلم عنهم.

والحقيقة أن البحث في مدلول كلمة (( الملائ )) يكشف أنها تعني (( أشرف القوم )) كما تذكر كتب اللغة وكتب التفسير. أي أن الذين كفروا برسالات الأنبياء لم يكونوا (( الجماهير )) وإنما هم (( الأشرف والوجهاء )) من أجل الحفاظ على مصالحهم الشخصية وسلطانهم وهيمنتهم.

## 2- تخير الكلمة القرآنية:

من نقاط الالتقاء بين (( النظام القرآني )) و (( النظام الكوني )) وضع كل شيء في محله الطبيعي المناسب له، وأن أي تلاعب ولو كان بسيطاً يسبب خللاً في النظام وفساداً. ففي النظام الكوني نجد أن كل ذرة من ذرات الوجود وجدت لحكمة ووضعت في مكانها الخاص بما لحكمة بحيث لو حدث أي تغيير في ذلك لاختل جانب من جوانب الحياة. وفي النظام القرآني نجد أن كل كلمة في القرآن وضعت في محلها الطبيعي بحيث لا يمكن أن تسد مكانها أية كلمة أخرى ولا أن تعطي نفس الأبعاد والظلال التي تعطيها تلك الكلمة. وفيما يلي بعض الأمثلة التي توضح ذلك:

### المثال الأول: يقول تعالى:

{أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2)}

إن معنى الآية كما يدل عليه السياق أنكم شغلكم التكاثر في عروض الدنيا وزينتها عما هو أهم وهو ذكر الله والاستقامة على طاعته فعمتكم الغفلة مدى حياتكم. والسؤال هو لماذا يستعمل القرآن كلمة "زرتم" ولم يقل - مثلاً - سكنتم المقابر، أو نزلتم في المقابر؟.

الجواب: إن استعمال كلمة (( زرتم )) يشير إلى الإقامة المؤقتة كالزيارة المؤقتة ثم يعقبها الانتقال إلى دار القرار في الآخرة، وفي استعمال كلمة (( زرتم )) تضمين لمعان عديدة تتعلق بالموت والبعث والحساب والعقاب وتناسق دقيق معها كلها.

**المثال الثاني:** يقول تعالى وهو يتحدث عن قصة زكريا عليه السلام بعد أن بشرته

الملائكة ببيحي عليه السلام:

{ قَالَ رَبِّ أُنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } [ آل عمران: 40 ]

ويقول تعالى وهو يتحدث عن قصة مريم بعد أن بشرها بعيسى عليه السلام:

{ قَالَتْ رَبِّ أُنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [ آل عمران: 47 ]

نلاحظ أن القرآن يستعمل في قصة زكريا كلمة "يفعل" بينما في قصة مريم يستعمل كلمة (( يخلق ))، فما هو الفرق بين الاستعمالين؟

الجواب: في قصة زكريا كانت عوامل الولادة الطبيعية من وجود الزوج والزوجة وغيرهما موجودة، ولكن كانت هناك موانع والله سبحانه رفع هذه الموانع ولذلك كان التعبير بـ (( الفعل ))، تماماً كما لو أن العلم توصل إلى علاج لرفع العقم وإعادة الشيخ إلى صباه قوة وقدرة، فهذا لا يعتبر (( خلق )) للجنين وإنما كان (( فعلاً )) لرفع العقبة عن الطريق. أما في قصة مريم فلم تكن عوامل الولادة الطبيعية متوفرة، وإنما كان تكويناً إعجازياً يرتبط بالغيب، ومن هنا كان التعبير عنه بـ (( الخلق )).

المثال الثالث: يقول تعالى:

{ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا } [ النساء: 5 ].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا لماذا قالت الآية: { وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا } ولم تقل (( وارزقوهم منها )) وهو الذي يتبادر الى الذهن؟.

الجواب: إن استبدال كلمة (( فيها )) بـ (( منها )) توجه إلى ضرورة استثمار مال السفیه وإطعامه من ربح هذا الاستثمار. ولو قال: (( وارزقوهم منها )) لكان المقصود الإنفاق على السفیه من المال نفسه مما يؤدي إلى نقصه مع الزمن ونفاذه وهو ما لا يتفق مع نهي القرآن عن الكثر والدعوة إلى استثماره وعدم تجميده.

**3- هدف الكلمة:**

من نقاط الالتقاء بين (( النظام الكوني )) و (( النظام القرآني )): (( الغائية )) . ففي النظام الكوني نجد أن كل المخلوقات التي تسبح في الكون لها " غاية " وهدف، ولا نجد كائناً واحداً زائداً على الحياة متطفلاً عليها.

وفي النظام القرآني نجد أن كل جملة، وكل كلمة، وكل حرف جاء من أجل هدف معين، ولا نجد في القرآن الكريم حرفاً يمكن الاستغناء عنه.

ولذلك كان على من يحاول التدبر في القرآن، الكريم أن يحاول اكتشاف هدف الكلمة الذي جاءت من أجله. وفيما يلي بعض الأمثلة لذلك:

**المثال الأول:** يقول الله سبحانه متحدثاً عن قصة زكريا عليه السلام بعد أن بشرته الملائكة بـ (( يحيى )) عليه إسلام:

{ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } [آل عمران: 40].

السؤال: ما الهدف من استعمال (( كذلك )) في الآية الكريمة؟ ولماذا لم تكن الآية (( قال: الله يفعل ما يشاء )) أو (( إن الله يفعل ما يشاء! ))؟

الجواب: إن وجود كلمة (( كذلك )) يضيف إلى الآية بعداً جديداً هو: الدلالة على الدأب والاستمرارية، وإن هذا الفعل سنة قديمة لله في هذا الكون.

**المثال الثاني:** يقول الله سبحانه وتعالى:

{ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ } [الصف: 6].

في هذه الآية يلاحظ أن القرآن يضيف إلى المسيح نسبه ( عيسى ابن مريم ). بينما في

الآية السابقة يذكر موسى عليه السلام بشكل مجرد فيقول:

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ }

ولقد تكرر هذا في القرآن حوالي (20) عشرين مرة.

الجواب: لقد تكرر التأكيد القرآني على كلمة " ابن مريم " تأكيداً على الجانب البشري

في المسيح ونفياً مشدداً لما ادعته النصراني من وجود جانب الهي فيه.

## 4- الشكل الخارجي للكلمة القرآنية:

لو ألقينا نظرة عابرة على الجسد الإنساني لوجدنا أن كل عضو وكل جهاز له شكل معين يختلف عن شكل الأعضاء والأجهزة الأخرى. وهذه الشكلية لم تأت عبثاً، وإنما جاءت لتقوم بوظيفة معينة على أكمل وجه. ونلاحظ مثل ذلك في الكون والمفردات النباتية والحيوانية والجمادية.

ونحن نستطيع تلمس هذه الظاهرة في القرآن الكريم. فالشكل الخارجي للآيات القرآنية لم يأت عبثاً، وإنما وضع للدلالة على حكمة خاصة يحتاج - التدبر - أن يتحراها ويتبينها. من ذلك:

- التقديم والتأخير في القرآن.
  - الإفراد والتثنية والجمع.
  - المعلوم والمجهول.
  - سائر الأشكال الأخرى.
- وفيما يلي بعض الأمثلة لذلك:

مثال التقديم والتأخير: يقول الله تعالى:

{وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ} [الأنعام: 151].

{وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ} [الإسراء: 31]. فلماذا قدم

في الآية الأولى رزق المخاطبين على رزق أولادهم. وفي الآية الثانية قدم رزق الأولاد؟

الجواب: في الآية الأولى توحى العبارة ( من إملاق ) بأن الفقر موجود بالفعل ولذلك ينصب اهتمام الإنسان - أولاً - على رزق نفسه قبل أن يهتم برزق ولده فهو يخاف أن يبقى جائعاً لو أراد إطعام أولاده، ولذلك يطمئنه الله - أولاً - على نفسه ثم على رزق أولاده ثانياً. ينما في الآية الثانية توحى العبارة (خشية إملاق) بأن الفقر غير موجود ولكن الإنسان يخاف وقوعه إن جاءه أولاد ولذلك يقول له الله: سأتكفل أنا برزقهم مثلما أنا كافل رزقك: { نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ }

- مثال المفرد: يقول الله تعالى:

{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ

رَاكِعُونَ} [المائدة: 55].

السؤال هنا: لماذا استعملت الآية صيغة المفرد في (( وليكم )) ولم تستعمل ((أولياؤكم)) ما دام المشار إليهم هم الله ورسوله والذين آمنوا؟

الجواب: إن التعبير بهذه الطريقة يلفت الانتباه إلى أن الله هو الولي الحقيقي ومن ولايته تستمد ولاية الرسول \_ الرسول صلى الله عليه وسلم \_ وولاية الذين آمنوا.

- مثال المفرد والجمع: يقول الله تعالى متحدثاً عن القرآن:

{يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [المائدة: 16].

وفي آية أخرى:

{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153].

والسؤال هنا: لماذا وردت كلمة (( صراط مستقيم )) و (( هذا صراطي )) بصيغة

المفرد؟ ولماذا وردت (( سبيل السلام )) بصيغة الجمع؟ ومثلها (( السيل )) و (( سبيله ))؟

الجواب: إن الصراط المستقيم هو صراط واحد لأن الحق واحد. أما (( سبيل السلام ))

فلأن الحياة حقل ألغام والمشكلات كثيرة: نفسية، وجسدية، واجتماعية، واقتصادية، وعسكرية وغيرها. والسبل المخلصة من هذه المشكلات هي (( سبيل السلام )).

- مثال للمعلوم والمجهول: يقول الله سبحانه:

{ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون}

هنا يرد فعل (( يوق )) بصيغة المجهول. لماذا؟

الجواب: إن الشح ملتصق بالنفس البشرية، والإنسان يحتاج للتخلص من هذا الشح الى

وقاية تربوية خارجية إما عن طريق تجارب وعظات يجريها الله في حياة العبد، وإما من خلال المرين المختصين.

- مثال لزيادة حرف أو عدمها: يقول الله سبحانه في فضيلة الصبر على المصائب::

{إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [لقمان: 17]

ولكن القرآن يضيف لام التوكيد حينما يتكلم عن أذى الآخرين فيقول:

{وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [الشورى: 43]

والسؤال هنا: لماذا أضيف حرف - اللام - في الآية الثانية:

الجواب: إن الصبر على أذى الغريم الذي يستطيع الإنسان أن يرد عليه بأذى مثله يحتاج إلى عزم أكبر، فالصبر هناك ليس كالصبر على مصيبة لا حيلة للإنسان فيها. ومن هنا جاءت لام التوكيد في الآية الثانية ولم تجيء في الأولى.

### 5- الارتباط والتسلسل:

من الشروط التي يجب توفرها في الكلام ليكون بليغاً وأنيقاً الارتباط والتسلسل. فالكاتب الذي يدع أفكاره يموج بعضها في بعض، أو يقفز من موضوع إلى موضوع أو تتزاحم على دماغه الأفكار فيتحدث بها جميعاً في وقت واحد، كل ذلك ليس من البلاغة في شيء!. ولأن القرآن الكريم هو قمة البلاغة والفصاحة فلا بد من وجود روابط وعلاقات معينة بين آياته كعلاقة السبب بالمسبب، أو علاقة التكامل، أو علاقة التعليل، أو علاقة التشابه، أو علاقة التقريع أو غير ذلك من العلاقات.

واكتشاف هذه العلاقات يساعد على فهم المعنى الحقيقي للآية، وعلى اكتشاف المبادئ والأحكام الهامة. وفيما يلي بعض الأمثلة:

#### المثال الأول: يقول الله تعالى:

{ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُنْثِيَ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ [ آل عمران: 195 ] }

هذه الآية تبين أن الجنة هي من نصيب أفراد صفاتهم كالتالي:

- 1- إنهم هاجروا نفسياً وجسدياً وعقلياً.
- 2- ولكن هجرتهم هذه لم تكن من أجل الراحة أو السلامة، بل ليعملوا ويصدعوا بالحق.
- 3- وكانت هذه الهجرة عقيب تلقيهم الأذى والاضطهاد.
- 4- وهذه المصاعب كلها لم تكن من أجل طموحات شخصية أو قومية أو أي لون من ألوان العصبية، وإنما من أجل اله: (( في سبيلي ))
- 5- وبعد أن سدت الأبواب كلها في وجوههم لم يستسلموا في المهجر للراحة بل واصلوا مسيرة الجهاد: (( وقاتلوا ))
- 6- ثم إن قتالهم كان بروح المصمم على الموت حتى استشهدوا (( وقاتلوا )).

ثم ماذا كانت النتيجة بعد أن قتلوا وضحوا بأنفسهم وحياتهم؟  
الجواب: {لَأَكْفُرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}  
كل ذلك {ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ} لم يكونوا ليحصلوا عليه إلا بالصفات التي تقدمت. ثم  
إن هذا الثواب يستحق هذه السلسلة من التضحيات:

{وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ}

**المثال الثاني:** يقول الله سبحانه وتعالى متحدثاً عن زكريا:  
{فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ  
مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ}. [آل عمران: 39]

هناك ارتباط بين أجزاء الآية يتسلسل على الشكل التالي  
لقد بشرت الملائكة نبي الله زكريا بابنه يحيى عليهما السلام وذكرت له مواصفات هي:

- 1- أنه يكون المبادر إلى تصديق كلمة الله عيسى ابن مريم.
- 2- ولكن ذلك لا يعني أنه كجملة المصدقين، وإنما هو (( سيد )) له دوره الهام  
وشخصيته المميزة.
- 3- وهو ليس كالمألوف من السادة الذين لهم شهواتهم وغرائزهم وإنما هو حصوراً  
يحصر نفسه عن اللهو البريء والشهوات المحللة.
- 4- وهو لا يقف عند الصفات الثلاث المشار إليها وإنما يبلغ قمة الكمال الإنساني  
فيصبح (( نبياً من الصالحين )).

#### 6- التصنيف:

المقصود بالتصنيف تقسيم ما ورد في الآيات القرآنية، وفقاً للأبعاد الزمنية، أو المواقف  
الاجتماعية، أو الصفات النفسية، أو غير ذلك. وفيما يلي مثالان لذلك:

**المثال الأول:** يقول الله سبحانه وتعالى:

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ  
شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}. [آل

عمران: 64]



في البداية يقرر القرآن مبدأ (( التوحيد )) القاعدة الأساسية التي يقوم عليها الإسلام كله، ثم بين أن هناك عدوين للتوحيد هما:

أ- عبادة (( الأشياء )) وما يتصل بها من الأهواء والشهوات النفسية والأصنام التي تتخذ آلهة مع الله. وفي ذلك يقول: {وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا}.

ب- عبادة (( الأشخاص )) الأنداد والطواغيت يطاعون مثل طاعة الله وفي ذلك يقول: {وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ}.

فإن لم يستجيبوا لذلك أعلن الرسول وأتباعه إصرارهم على التفرد والتسليم لله وحده دون (( الأشياء )) و (( الأشخاص )).

### ثانياً: تدبر الصدق الاجتماعي للقرآن

في القرن دعوة متكررة إلى دراسة الاجتماع الإنساني ابتداءً من الماضي حتى الحاضر لاكتشاف آثار سنن الله في قيام المجتمعات واهيارها.

ولتدبر صدق هذه السنن الاجتماعية يستعان بأسلوب التأويل من خلال دراسة ما آل في الحياة الاجتماعية من تقارير قرآنية. وهذا يتطلب أن تفرز التربية - علم اجتماع إسلامي - تكون قوانينه وقواعده منطلقات تساعد على التدبر الاجتماعي في القرآن. فإذا اخبرنا القرآن عن سنة من سننه في تكوين الأسر وعلاقات الجنتين بقوله:

{وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوْجِيَّ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} [الإسراء: 32].

فإن تحري واقع المجتمعات التي تماونت إزاء هذه السنة قد أثبت أن الزنا ((فاحشة)) نفسية، وسبيلاً سيئاً يجلب إلى الأجساد أمراضاً قاتلة مهلكة.

### ثالثاً: تدبر الصدق التاريخي للقرآن

في القرآن كذلك دعوة لدراسة تاريخ المجتمعات والأفراد لاكتشاف آثار سنن الله فيمن أطاعوا وفيمن عصوا، ولتدبر (( الآيات )) النفسية والاجتماعية المصدقة لهذه اسنن. فحين يخبرنا القرآن أن الله أجاب استغاثة فرعون وإيمانه عند الغرق بقوله:

{فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لَتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً} [يونس: 92] فإن الفحوصات التي

أجريت في القرن الحالي على جثة فرعون موسى - امنحوتب الثالث - وجدت الأملاح في جثته أو موميائه وقدمت الدليل الناصع على موته غرقاً واستمرت جثته آية لمن خلفه في عصرنا هذا.

### رابعاً: تدبر الصدق العلمي للقرآن

كذلك يدعونا القرآن إلى النظر في الكون وتدبر آيات الكتاب التي تتحدث عن هذا الكون تدبراً يقدم شواهد صدق آيات الكتاب من آيات الآفاق. ولا بد من تضافر الأسلوب العلمي الذي مر ذكره مع أسلوب التدبر لتحقيق غايات التدبر وأهدافه كما مر في فصول سابقة.

### خامساً: شروط التدبر في للقرآن

- لكي يكون التدبر في القرآن سليماً ومفيداً لا بد من توفر مجموعة من الشروط هي:
- 1- الملاحظة العلمية الدقيقة: إذ أن قسطاً كبيراً من التقدم العلمي الحديث يعود إلى تمتع الذين ساهموا فيه بمهارات الملاحظة وحسن استعمال أبصارهم وأسماعهم ثم تركيز أفكارهم. ولذلك كان التأكيد القرآني على مسؤولية الإنسان عن سمعه وبصره وفؤاده لأن مهارات الملاحظة الدقيقة شرط أساسي في سلامة التدبر في القرآن ومقدمة للوقوف على لطائف معانيه.
  - 2- التروي والأناة: ويراعى في - التدبر - التدرج وعدم الاستعجال لأن في التدرج مراعاة لقوانين التعلم، وهو ما كان عليه تلامذة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد أتى رجل زيد بن ثابت فقال: كيف ترى في قراءة القرآن في سبع؟ قال: ذلك حسن ولن أقرأه في نصف شهر أو عشرين أحب إلي، وسلي لم ذلك؟ قال: فإني أسألك! قال زيد: لكي أتدبره أقف عليه<sup>(1)</sup>.
  - ولقد تعلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة البقرة في اثني عشرة سنة، وعندما ختمها نحر جزوراً. أما ابنه عبد الله فقد مكث على نفس السورة ثمان سنوات<sup>(2)</sup>.
  - 3- رفعة الهدف وصدقه: يراعى في التدبر البحث عن الحقيقة وبلوغ (( اليقين )) لأن مستوى قراءة التدبر يتناسب مع الهدف الذي كانت القراءة من أجله، فقد يقرأ الآية عشرات الأشخاص بل المئات والألوف ثم تتفاوت نسب الفهم عندهم تفاوتاً قد يصل عدده إلى عددهم. والذي يقرر مستوى الفهم هو درجة صدق الهدف ورفعته، وأعلى مستويات أهداف القراءة ما كان (( باسم الله )) ولذلك افتتحت كل سورة بالبسملة وكان الأمر بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم

(1) البيهقي، الجامع لشعب الإيمان، ج5، ص9.

(2) نفس المصدر، ج4، ص511-512.

عند القراءة لأن الأفكار والفنون والثقافات المنشطنة - أي المنحرفة عن قصد وعمد - تمسك بالقارئ إلى أهداف دنيا تحول بينه وبين تدبر الآيات التي يقرأها: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [النحل: 98].

ولذلك تعلم الصحابة - كما جاء على لسان ابن مسعود - الإيمان ثم تعلموا القرآن: فبالإيمان سمت أهدافهم إلى ما يناسب المقاصد الإلهية فجاء فهمهم للقرآن بعد ذلك عالياً ليناسب مستوى أهدافهم الإيمانية. وبدون هذا الإيمان لا يحدث التدبر الحقيقي لمعاني القرآن: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا}. [الإسراء: 45].

والارتباط بين مستوى التدبر في القرآن وبين الهدف الذي من أجله تتم القراءة، قاعدة يمكن تعميمها على كافة أنواع القراءات. فالأهم المعاصرة التي تقرأ كتاب الكون لاكتشاف أسرارهِ وتسخيهِ يصل بها مستوى الفهم إلى اكتشاف القوانين الكونية، بينما الأمم التي تقرأ كتاب الكون للتمتع بجماله يتوجه بها الفهم إلى نظم قصائد شعر أو كتابة نصوص أدبية، أو رسم لوحات زيتية. وهناك أمم لا أهداف لها، ولذلك تعجز عن قراءة أي معنى من المعاني الكونية، ولذلك تتفوق الأمم في الأرض بمقدار تفوقها في قراءة صفحات الكون والخبرات الكونية والاجتماعية الجارية.

4- عدم التسرع في تقبل واردات الفهم. خلال التدبر في القرآن تتوارد الأفكار وأنواع الفهم ويكون لها في بدايتها بريق خاص لا يقاوم. وهنا يجب الحذر من التسرع في تقبل أفكار الفهم الحاصل إلا بعد التأكد من خلوها من أمرين: الأول؛ الفهم الذي يصطدم بأصول التوحيد ويتعارض معه. والثاني؛ الفهم الشخصي الذي يخدم تحيزات الإنسان ويبررها سواء في حالات التحيز القائم على الحب أو التحيز القائم على الكره.

5- الرجوع إلى المصادر اللغوية والأحاديث الصحيحة والتفاسير الموثوقة، مع التمكن من مناهج البحث فيها جميعها.

6- الثقة بالنفس والاجتهاد ما أمكن. إذ لا يجوز للمسلم وهو يتدبر في القرآن يستصغر ما يعلمه الله ولا يذوب في إفهام الآخرين وتفسيرهم. صحيح أن تفاسير السابقين تلقي أضواءً على الطريق ولكنها لا يجوز أن تقفل التفكير

وتصيب العقل بالجمود والتحجر، وعلى الإنسان أن يربي عقله على الإبداع في حدود الدين وليس خارجاً عنه حتى لا يقع في البدعة المنهي عنها في الشرع.

7- عدم جواز التوقف في التعلم على التلاوة ولا بد من شمول التلاوة لـ:

أ \_ التلاوة

ب \_ التدبر

ج \_ التأويل

د- أسلوب الميدان العلمي التجريبي:

وأساس هذا الأسلوب هو الدعوة الإلهية إلى النظر في مختبر الآفاق والأنفس بغية الوقوف على كمية المعاني التي تكونت خلال نمو الخبرات العلمية التي أحاط بها العلم الإنساني ورسخ فيها حتى العصر الذي يعيش فيه المتعلم أو الدارس. ذلك أن التفسير اللغوي لا يصلح وحده لفهم آيات الكتاب - خاصة في الآيات المتشابهات - وإنما لا بد من اقترانه بالمنهج العلمي - التجريبي سواء في التعامل مع الآيات التي تشير إلى ظواهر الكون وحقائقه، أو تلك التي توجه إلى أحداث الاجتماع الإنساني. ففي كلتا الحالتين لا بد من تكامل البحث العلمي التجريبي مع المفاتيح اللغوية التي تحدد بدء المعاني ومساراتها. فالآيات التي تتحدث عن الماضي لا بد لفهمها من - السير في الأرض - والتنقيب في آثار الموضوعات التي يوجه القرآن للنظر في مصائرنا وأحوالنا. وإن كانت تتحدث عن الحاضر فلا بد من النظر فيها نظراً استقرائياً لا نظراً قياسياً كما هي عقلية الأمثال في التراث العربي، وإن كانت تتحدث عن المستقبل فلا بد من تحليل مقدماته ومراقبة وقائعه.

أما الآيات التي تتحدث عن حقائق الكون الاجتماعي البشري وطبيعة النفس الإنسانية فلا بد من دخول مختبرات العلم واتباع المنهج العلمي والعلم على شهود ما توجه إليه الآيات لتكون ثمرة ذلك النظر استخلاص البراهين والشواهد والعبر الموجهة الى قدرة الله وحكمته المتسببة بالإيقان بوجوب طاعة أوامره ونواهيه.

والواقع أن الاختصار على مناهج التفسير اللغوي وقواعد علم الكلام والفصل بينها وبين مناهج البحث العلمي - التجريبي قد أوقع المفسرين في خرافات وأساطير نسبوها إلى ما أسموها بالإسرائيليات. من ذلك تفسير الطبري: لقوله تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ} حيث قال الطبري: إن الله عاقب هذا الذي جادل إبراهيم بفتح البعوض عليه وأنه حكم

أربعمئة عام<sup>(1)</sup>. ومثله أقوال المفسرين بأن الأرض - مثلاً - تستقر على ظهر حوت، وأن فرعون اسمه مصعب بن الريان وأن بلقيس كان نصفها الأعلى بصورة إنسان ونصفها الأسفل بصورة حصان، وأن والديها كان خليطاً من الإنس والجن. ففي هذه وأمثالها من التفاسير الأسطورية لا تقع المسؤولية على ما أسموه - الإسرائيليات - وإنما على عدم الانتباه للمنهج العلمي التجريبي الذي يتكرر التشديد عليه في مواضع عديدة من القرآن عند أمثال قوله تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} [العنكبوت: 20]. {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ} [الغاشية: 17-20]، والنظر - كما عرفه ابن تيمية - لا يقتصر على رؤية البصر المجردة وإنما يشترك العقل والحواس والتجربة الحسية، ومن السذاجة أن تتصور معرفة كل الظواهر الطبيعية والتاريخية بالنظر الخارجي العابر وإنما الأمر يمتد إلى استعمال العقل والحواس والأدوات التقنية التي يطورها العلم في المختبرات ومحطات الأرصاد الجوي والفضائي.

لذلك لا يمكن فهم معاني الآيات المتشابهات فهما برهانياً يقينياً من خلال الاقتصار على التفسيرات اللغوية وإنما من خلال مختبر الآفاق والأنفس. ولعل المقارنة التي عقدها الدكتور محمد علي البار عن لفظ - العقلة - يبين ما كتبه المفسرون القدامى والمحدثون الذين ذكروا أنها دم غليظ متجمد وبين ما كتبه الأطباء المختصون تكشف أن المفسرين - قديماً وحديثاً - وقعوا في خطأ صراح، وأن كتاباتهم لم تحدث الأثر الاعجازي في نفوس القراء، بينما كان لما أورده الأطباء قوة المعجزة التي تزيد الإيمان وترسخ اليقين<sup>(2)</sup>. وهذا يعني أن آيات الله في الكتاب لا ترى في قواميس اللغة وإنما في مختبر الآفاق والأنفس، وأما حين ترى في هذا المختبر تنمي اليقين وتجدد الولاء للدين.

### خامساً: الأنشطة المرافقة في منهاج تعليم الكتاب والسنة:

يتكامل مع الأسباب الثلاثة التي مر ذكرها عدد من الأنشطة الداعمة لها المعززة لفوائدها، ومن هذه الأنشطة ما يلي:

**1- تدريب إنسان التربية الإسلامية على قراءة التذكار لآيات الكتاب:** وهذه القراءة هي التي يوجه إليها قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: 37] والمعادل العملي للتذكار هو (( التلاوة )) المتكررة الدائمة بهدف تحقيق

(1) الطبري، التفسير (البقرة: 258)، ج2، ص25.

(2) دكتور محمد علي البار، خلق الإنسان بين الطلب والقرآن، جدة: الدار السعودية للنشر.

القدرة على - تذكر - (( آية الكتاب )) الهادية للصواب حينما يتلقى السمع أو يشاهد البصر ((آية)) من آيات الآفاق والأنفس. ولذلك شدد الرسول - صلى الله عليه وسلم - على العناية بحفظ القرآن ودوام تلاوته. ولتكون هذه التلاوة مستمرة لا يتسرب الملل إلى صاحبها، موقظة لأجهزة التلقي والوعي، وجه القرآن والحديث إلى ترتيل القرآن - الذي تبلور فيما عرف باسم ((علوم التلاوة)).

2- تنمية الألفة وعقد صلات المودة مع البيئة والكون المحيط: والترجمة العملية في هذا النشاط يتمثل في تشجيع الرحلات - أو السير في الأرض حسب تعبير القرآن - والنظر في (( كيف بدأ الخلق )) . وأن يشتمل إجراء التجارب والبحوث وجمع المعلومات وتحليلها واستخلاص النتائج منها حسب برنامج مدروس لتدريب إنسان التربية الإسلامية على تحقيق معنى قوله تعالى: { هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً } , { وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الجاثية: 13]. فكل ما في الأرض مخلوق للإنسان وليس ضده كما توجه إلى ذلك ثقافات العصبية القبلية التي تجعل من الناشئ إنساناً عدوانياً يتوقع الأذى من عناصر البيئة وحيوانات البيئة فيبادرها بالأذى قبل أن تؤذيه. ولعله من المناسب هنا أن نلفت الانتباه إلى الفرق بين نشئة الناشئة في الغرب ونظائرهم في الشرق العربي. ففي الغرب يدرّب الإنسان منذ طفولته على الألفة مع البيئة المحيطة وما فيها من مخلوقات حيوانية ونباتية والحفاظ عليها وعدم إيذاؤها والتلطف معها والاقتراب بمودة وتحبب إليها مما يهيئوه كثيراً لدراستها والعلم بها، بينما يخوف الطفل في الشرق العربي من كل ما يدب حوله ويشار إليه باعتباره (( بيع )) يعض أو يلدغ أو يخمش. لذلك تراه إذا رأى قطة أو عصفوراً أو فراشة أو حشرة أو زهرة فإن أول ما يفعله هو إيذاؤها أو إتلافها. وبذلك يقام بينه وبين الكون المحيط سداً يحول دون دراسته واكتشاف قوانينه.

وتحقيق الألفة بين الإنسان والكون هدف بارز في سور القرآن المكية التي افتتح الله الكثير منها بالقسم بظواهر الكون مثل: {والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى} ، { إذا الشمس كورت } ، { والضحى والليل إذا سجد } ، { والسما والطارق } ، { والعاديات ضبحاً } ، { والتين والزيتون } . وتمثل هذه الألفة كذلك في إطلاق أسماء المخلوقات على بعض السور مثل: البقرة، والنحل، والعنكبوت، والنمل، والفيل، فجميع هذه المصطلحات والعناوين القرآنية تحمل في ثناياها تزكية ثقافة المسلم الجديد من التصورات الخرافية المرعبة التي أشاعتها أساطير العصبية الصنمية عن الكون المليء بالشياطين والغيلان والقوى الشريرة الماكرة التي لا يتقنى

شرها إلا بتعاويد الصنميات القائمة مقابل أثمان باهظة في النفس والعقل والمال. ولا بد للأنشطة المقترحة أن تقدم لإنسان التربية الإسلامية صورة واقعية أليفة عن الكون وعناصره، وأنه مستودع معجزات الله وشواهد قدراته، وفيه خزائن نعمته التي لا يعلمها إلا هو، وأن من واجب الإنسان المسلم أن يبقى في بحث دائم لاستخراج المعجزات والشواهد التي تقوي يقينه، واستخراج النعم المحققة لسعادته الموجبة لشكره.

### 3- الجمع بين النشاطات التي تجري في كل من مؤسسات (( الكتاب )): وأبرزها

المسجد ومؤسسات (( الحكمة )) كالدوائر التعليمية والإدارية والعسكرية والصناعية والتجارية وغيرها، ثم تنظيم برامج العمل في جميع هذه المؤسسات بحيث تتكامل توجيهات المساجد والعبادة مع الأنشطة الدائرة في المؤسسات المختلفة. ولا يقتصر هذا التكامل على أداء الصلاة خلال فترات العمل وإنما يشمل الاجتماعات والمحاضرات والندوات التي يمتزج فيها (( علوم الغايات )) التي توجه إليها مؤسسات (( الكتاب )) و (( علوم الوسائل )) وتطبيقاتها الدائرة في مؤسسات (( الحكمة )) .

### سادساً: التقويم في منهاج - تعليم الكتاب والحكمة -:

ينقسم التقويم في منهاج تعليم الكتاب والحكمة إلى قسمين رئيسين: تقويم يتناول النشاطات العلمية والتعليمية الجارية في ميادين الآيات المحكمات والآيات المتشابهات، وتقويم يتناول النشاطات الجارية في ميادين الحكمة. أما تفاصيل هذه القسمين فهي كما يلي:

أ \_ تقويم ميادين الآيات المحكمات والآيات المتشابهات: في دراسات الآيات المحكمات والمتشابهات هو التحقق من حصول - تعلم الكتاب - وذلك من خلال أمرين: الأول، قياس درجة إحكام (( تلاوة )) القرآن بالشروط والقواعد التي توجه إليها علوم التجويد. والثاني، قياس درجة إحكام (( تدبر )) القرآن ثم تحويل ثمار هذا التدبر إلى أعمال صائبة محكمة. وهذا ما يوجه إليه أمثال قوله تعالى:

{ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } [ محمد: 24 ]

{ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ } [ ص: 29 ]

وفي الحديث قال رسول الله: (( يا أهل القرآن لا توسدوا القرآن واتلوه حق تلاوته آناء الليل والنهار، وافشوه وتغنوه وتدبروا ما فيه لعلكم تفلحون، ولا تعجلوا تلاوته فإن له ثواباً )) .



والتدبر - في اللغة - معناه النظر في العواقب. أما اصطلاحاً فهو النظر في ما تؤول اليه ثمار الدراسات في (( آيات الكتاب )) والتحقق من مطابقتها للأهداف التي توجه إليها هذه الآيات. لذلك يحتاج العاملون في منهاج تعليم الكتاب الحكمة إلى معرفة المعادلات العملية لـ (( التدبر )) في كل فرع من فروع المعرفة التي تندرج تحت هذا المنهاج بهدف الاهتمام إلى أساليب تعليمها وتقويمها.

ولقد وضع المسلم الألماني احمد فون دنفر مجموعة من الأسئلة التي يرى البحث عن إجاباتها بعد تلاوة أية مجموعة من الآيات القرآنية، وهي أسئلة تصلح أن تدخل ضمن معايير التقويم في منهاج تعليم الكتاب والحكمة. وتداول هذه الأسئلة حول بلورة ثلاث قضايا هامة هي:

- ماذا يقول القرآن؟

- ماذا تعني هذه التقارير القرآنية؟

- ماذا تعني هذه التقارير للدارس شخصياً؟

ويندرج تحت كل قضية من القضايا الثلاث مجموعة من الأسئلة كالتالي:

أولاً: ماذا يقول القرآن ( في الآيات المختارة)؟

س1: ماذا يعرفه المتدبر عن نزول هذه الآيات (متى أوحى بها، وأين؟ ولماذا؟...الخ).

س2: ما هو محتوى هذه الآيات؟

س3: ما هي الفترة التاريخية التي تعالجها هذه الآيات؟

س4: ما هو الموضوع العام لهذه الآيات؟

س5: ما هي النقاط الرئيسية التي تعالجها الآيات؟

س6: ما هي أهم التعبيرات والكلمات في الآيات؟

س7: ما هي الأشياء الأخرى التي تبدو هامة ومعتبرة؟

س8: ما هو العنوان أو العبارة التي تلخص محتوى الآيات على أفضل وجه؟.

س9: ما هي الصياغة الأولية التي تقدم المعنى بشكل أفضل؟

س10: من (المذكور هنا)؟ وما هو؟ وأين حدث؟ ومتى حدث؟

س11: ما هي أنماط العمل التي توجه إليها الآيات؟ وما هو الأسلوب المستعمل

(الأسئلة، المقارنة، المقابلة، التعميم، الرمز...الخ؟

س12: ماذا بقي غامضاً بالنسبة للمتدبر؟

ثانياً: ماذا تعني هذه التقارير القرآنية؟

- س1: ما هي الآيات الأخرى في القرآن التي تعالج هذا الموضوع؟  
 س2: ماذا قال رسول الله \_ صلى الله عليه وسلم \_ عن هذا الموضوع؟  
 س3: ما هي الكلمات الرئيسة في هذه الآيات؟  
 س4: ما معنى هذه الكلمات الرئيسة؟  
 س5: ما الذي يبدو غير مألوف في هذه الآيات؟ وما أهمية ذلك؟  
 س6: ما هي التقارير التي تتضمنها هذه الآيات وليس لدى المتدبر عنها شواهد وبراهين، ولكنها ذات أهمية خاصة؟  
 س7: ما هو الموضوع الرئيس لهذه الآيات؟  
 س8: هل صياغة المتدبر الأولية للمعنى مقبولة؟ أم هي تتطلب تغييرات وإضافات؟ وإذا كانت كذلك ففي أي منها؟  
 س9: ماذا بقي غامضاً؟

ثالثاً: ماذا تعني هذه التقارير القرآنية للمتدبر شخصياً؟

- س1: هل تتطابق نتائج دراسة المتدبر مع القرآن؟ ( وإذا لم تكن كذلك فأين الأخطاء التي وقع فيها)؟  
 س2: هل تتطابق نتائج دراسة المتدبر مع سنة الرسول \_ صلى الله عليه وسلم \_ ( وإذا لم تكن كذلك فأين الأخطاء التي وقع فيها؟)  
 س3: هل هناك نتائج أخرى مشابهة أو مختلفة في كتب التفاسير؟  
 س4: ما هي أوجه الفهم الجديدة التي توصل إليها المتدبر خلال دراسته وبجته؟  
 س5: أي موضع يخاطب القرآن بشكل مباشر؟  
 س6: ما هي مظاهر سلوك المتدبر وتصوراته التي لا تتطابق مع القرآن؟  
 س7: كيف يستطيع المتدبر أن يغيرها؟  
 س8: ما هو أفضل شيء للمتدبر ليستقيم على الحق في الوقت الحاضر؟(1)  
 ومن الواضح أن مجموعة دنفر هذه تعالج الجانب الفردي في حياة الدارس لذلك يستحسن أن يضاف إليها ما يجعلها تلائم حياة الجماعة خلال الحركة التاريخية للمجتمعات الإنسانية وذلك بإضافة القضيتين التاليتين:

(1) نشرة خاصة من الأستاذ احمد فون دنفر شخصياً.

**القضية الأول؛** درجة إدراك المتدبر أو الدارس لما تعنيه التقارير القرآنية بالنسبة لعصره الزماني ورقعة التفاعل المكاني. أو الإجابة عن سؤال: ماذا تعني هذه التقارير القرآنية بالنسبة لحاجات العصر الذي يعيش فيه المتدبر، وبالنسبة لحاجات الرقعة المكانية التي يتفاعل مع محتوياتها؟ ويتفرع عن هذه القضية الأسئلة التالية:

س1: ما هي الحاجات المادية والاجتماعية والسياسية والعلمية التي يمكن أن تسهم الآيات القرآنية في توجيهها في الرقعة الجغرافية التي يعيش فيها إنسان التربية الإسلامية في ضوء متغيرات العصر؟.

س2: ما هي المعارف والمهارات والوسائل التي توجه إليها الآيات لتحقيق الحاجات المذكورة؟

س3: ما هي المؤسسات التي يجب إقامتها لتحقيق الحاجات المذكورة؟.

س4: ما هي القيم وشبكة العلاقات الاجتماعية اللازمة لتحقيق الحاجات المذكورة؟.

**القضية الثانية؛** ماذا تعني هذه التقارير القرآنية بالنسبة لمسيرة إنسان التربية الإسلامية خلال مراحل النشأة والحياة والمصير؟

**ب - تقويم مبادئ الحكمة:**

يركز التقويم في هذه الميادين على قضايا ثلاث هي:

**القضية الأولى؛** قياس درجة المعرفة والمهارات المتعلقة بموضوعات الحكمة المختلفة. ويستفاد في هذه القضية من أساليب القياس والتقويم التي توصلت إليها مراكز البحوث التربوية في التربية الحديثة لأن الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق الناس بها كما مر في حديث نبوي سابق.

**والقضية الثانية؛** ما هي الشواهد والبراهين الإيمانية التي أفرزتها الدراسة التي يجريها الباحثون في ميادين الحكمة الجارية. وما هي مظاهر الربط بينها وبين الآيات القرآنية المتعلقة بها.

**والقضية الثالثة؛** ما هي أوجه النعم الإلهية التي كشفتها الدراسات التي يجريها الباحثون والدارسون، وما هي مظاهر الربط بينها وبين الآيات القرآنية المتعلقة بها؟.

سابعاً: أزمة الانشقاق بين (( تعليم الكتاب )) و (( تعليم الحكمة )) في الأقطار الإسلامية الحديثة:

تعاني المناهج التربوية القائمة في الأقطار الإسلامية الحديثة من الانشقاق بين (( تعليم الكتاب )) أي العلوم الدينية، و (( تعليم الحكمة )) أي الموضوعات العلمية والاجتماعية. وتعود جذور هذا الانشقاق إلى قرون سابقة حيثما فشل المختصون بـ ((علوم الكتاب)) من الفقهاء، والمختصون بـ (( علوم الحكمة )) من علماء العلوم الطبيعية والطب والهندسة في تنظيم مناهج تربوية تتكامل فيها موضوعات (( الكتاب )) أو علوم الغايات، وموضوعات (( الحكمة )) أو علوم الوسائل. وإزاء هذا الفشل أفتى الفقهاء بأن "علوم الحكمة" هي من العلم الذي لا ينفع والذي لا يثاب عليه فاعله ولا يحاسب عنه تاركه، في حين ولى المختصون بـ (( علوم الحكمة )) لبحثوا عن (( غايات )) لعلومهم في الفلسفة اليونانية التي طوروها باسم (( الفلسفة الإسلامية )) . وحينما اشتد الخلاف بين الفريقين وقف الخلفاء والسلطين والوزراء إلى جانب الفقهاء وأوقفوا دعمهم لمؤسسات البحث العلمي وتخلت المؤسسات التربوية عن تعليم علوم الحكمة ، واقتصرت على تعليم فقه (( آيات الكتاب )) وأهملت فقه ((آيات الآفاق والأَنْفُس)). ونتيجة لذلك اتخذت التربية منهجاً مغايراً لما بدأت عليه المسيرة التربوية في العصور الإسلامية الأولى، فبدل أن يفهم القرى، فهماً يتوافق مع سنن الله في الآفاق والأَنْفُس – التي هي مدار البحث العلمي – صار فقهاء الكتاب يفقهونه فقهاً يتوافق مع الأعراف والتقاليد الأمر الذي أدى إلى جمود الفقه واستفحال المذهبية والإقليمية. ولو أن الفقه الإسلامي استمر في مساره الذي يقترن فيه – الكتاب بالحكمة – أو الدين بالعلم، لتكاملت مدارس الفقه والعلم واتصفت بالمرونة والتجدد والعالمية ولجأت مضامين كل من (( القياس )) و (( الإجماع )) قياساً وإجماعاً على العلم بدل أن تكون إجماعاً وقياساً على الأعراف.

وفي العصور الحديثة حين أحست الأقطار الإسلامية بنتائج إهمال ((علوم الحكمة)) أقامت مؤسسات تربوية حديثة على النمط الغربي استوردت علوم حكمة مجردة من ((الغايات)) الإنسانية إلا ما كان من غايات (( الاستهلاك والإنتاج )) حيث نجحت في الاستهلاك وقصرت في الإنتاج.

وخلال العقدين الأخيرين جرت محاولات لرأب الصدع القائم بين ((علوم الكتاب)) و ((علوم الحكمة)) دون دراسة علمية دقيقة تدرس تاريخ الأزمة وحاضرها. ولذلك اقتصررت هذه المحاولات على تجميع الكليات الإسلامية التقليدية إلى جانب الكليات العلمية الحديثة في حرم جامعي واحد، وعلى تغيير الرتب العلمية وأسماء الشهادات والإدارات دون أن تنفذ إلى جوهر المناهج والمحتويات.

ثامناً: افتقار التربية الحديثة إلى مناهج تجمع بين ((علوم الكتاب)) و ((علوم الحكمة)):

تشير خبرات التربية الحديثة خلال القرنين الأخيرين إلى أن مسيرة ((علوم الرسائل)) دون ((غايات)) إنسانية تحدد مساراتها وتوجه استعمالاتها هي أمر هبط بالمجتمعات البشرية وتسبب لها بالشقاء والمخاطر التي تهدد مقومات وجودها. وهذا ما يجذر منه فلاسفة التربية وعلماء النفس والاجتماع الذين يرى بعضهم أن زمن الإنقاذ قد فات وأن ما يكتبه لا يتعدى الندب والنواح على السقوط الذي تسير المجتمعات الحديثة إليه. من ذلك ما كتبه - فرتز شوماخر- الذي أسهب في تحليل أزمة التربية الحديثة وآثار الانشقاق بين ((علوم الوسائل)) - أي العلوم الطبيعية، و ((علوم الغايات)) أي علوم الدين والقيم والأخلاق. ومما قاله ما يلي:

(( إذا كانت الحضارة الحديثة في أزمة دائمة فلن نبعد عن الصواب إذا قلنا إن هناك خطأ ما في نظمها التربوية. فنحن نؤمن أن التربية هي المفتاح لكل شيء والعلاج لكل مشكلة.. ولكن هذه الاهتمامات التربوية تركز على النواحي التكنولوجية والعلمية، أي هي تركز على ((وسائل)) الحياة دون ((غاياتها)). وما تحتاجه التربية هو أن تعمل بالدرجة الأولى على تطوير الأفكار والقيم، أو ماذا يجب أن نعمل بحياتنا؛ صحيح أن هناك حاجة لمعرفة وسائل الحياة، ولكن هذه الحاجة يجب أن تحتل المرتبة الثانية من الأهمية لأنه من الطيش أن تضع قوى هائلة في أيدي أناس لا يملكون أفكاراً عاقلة ترشدتهم إلى كيفية استعمالها...<sup>(1)</sup>

(( إن العلم لم يحقق انتصارات أكثر مما حقق في هذا العصر، ولم تكن سيطرة الإنسان على البيئة أكثر مما هي عليه الآن. ولم يكن تقدمه أسرع مما هو الآن، فنحن نعرف كيف نصنع، ولكن هل نعرف ماذا نعمل؟ فما هي التربية إذن؟ إنها تطوير الأفكار التي تساعد الإنسان على أن يختار شيئاً دون الآخر، أو كما قال - أورتيجا جاسيه - أن نعيش فوق مأساة الفراغ والأسى النفسي... ))<sup>(1)</sup>.

(( دعنا نرى الأفكار الرئيسة التي انحدرت من القرن التاسع عشر وما زالت توجه

عقول المثقفين إلى اليوم:

<sup>(1)</sup> E. Frize Shcumacher, Small is Beautiful. Pp. 80-81.

<sup>(1)</sup> Ibid, P. 86.

- 1- هناك فكرة التطور القائلة بأن الكائنات العليا تتطور باستمرار عن الكائنات الدنيا كعملية طبيعية تلقائية. ولقد شاهد هذا القرن تطبيقاً منظماً لهذه الفكرة كجميع مظاهر الحقيقة بلا استثناء.
  - 2- هناك فكرة التنافس أو الانتقاء الطبيعي والبقاء للأقوى التي هي تصور لشرح عملية التطور الطبيعية التلقائية.
  - 3- هناك الفكرة القائلة بأن جميع مظاهر الحياة الإنسانية العليا، كالدين والفلسفة والفن.. الخ هي ما سماه - ماركس - (( اجتماع الأوهام في أدمغة الناس ))، وهي ليست سوى ملحقات ضرورية للحياة المادية لتقنيع وتنمية الرغبات الاقتصادية بطرق راقية، وإن التاريخ البشري هو صراع الطبقات.
  - 4- هناك فكرة التفسير الفرويدي التي تتزل بالدوافع الإنسانية إلى المحركات المظلمة للعقل الباطن وتشرحها كنتائج للرغبات الباطنة التي لا تلي خلال الطفولة والمراهقة المبكرة.
  - 5- هناك الفكرة العامة للنسبية التي ترفض المطلق كله وتحلل من الأعراف والمعايير وتتجسد في - البراجماتية - التي تنتهي إلى تحقير فكرة الحقيقة.
  - 6- وأخيراً هناك انتصر فكرة الفلسفة الوضعية التي تقرر بأن المعرفة الموضوعية الصحيحة تحصل من خلال مناهج العلوم الطبيعية وحدها، وأنه لا معرفة واضحة إلا إذا قامت على أساس الحقائق القابلة للملاحظة... (2)
- ولا يستطيع أحد أن ينكر القوة الكاسحة لهذه الأفكار الستة - رغم أنه لا يوجد بحث حقيقي يثبت صحة أي منها، لأنها وثبات خيالية ضخمة في المجهول غير قابلة للمعرفة ولا تتصف بالصفات العلمية... والصفة المشتركة لهذه الأفكار الستة أنها تعترف بحياة هابطة وترك إمكانية الحياة (( الرفيعة )) المتسامية، وتسوي الإنسان ببقية المخلوقات من الجماد والحيوان، وانه ليس إلا مجموعة من الذرات التي تحركها الغرائز، وإن إنتاجه الفكري والفني ليس إلا جشع مقنع أو إحباطات جنسية، ومن العبث الدعوة إلى (( حياة عليا )) تختلف عن رغبات الإنسان (( الدنيا )) (1).
- (( ويتطلع الغرب اليوم إلى تربية واضحة تخرجه من هذه الغابة المظلمة والجهل الموحد إلى نور الفهم للوجود. ولا تستطيع التربية العلمية أن تقدم لنا هذا الفهم المنشود لأنها تتعامل

(2) Ibid, P. 87-88.

(1) Ibid. PP. 88-89.

فقط مع الأشياء المحسوسة.. ولا العلوم الاجتماعية التي عندنا لأنها هي أيضاً أفكار ميتافيزيقية مدمرة أفرزت أمراضاً اجتماعية قاتلة.. فنحن اليوم في حرب مع عقولنا، وعقولنا أصبحت غائمة مكدره باعتقادات عمياء هامشية غير معقولة.. ومجموعة من الأفكار المدمرة للحياة ورثناها عن القرن التاسع عشر... (2)

(( وإزاء هذه الثقافة السائدة المدمرة يتحدد دور التربية المرشحة للإنقاذ. ولا يكون هذا بالعودة إلى القيم المسيحية القديمة، وإنما بقدرتنا على فهم العالم الحاضر وقدرتنا على الاختيار. إن مشكلات التربية المعاصرة لا تحل بالتنظيم والإدارة، وإنفاق المال – رغم أهمية هذه الأمور – وإنما تحل بنقد الأفكار المتركة في مركز التصور عن الكون كله وإعادة المكانة العليا للإنسان )) (3)

ويناقدش عالم الاجتماع – ارنست بيكر – تطور التربية الغربية عامة والأمريكية خاصة التي قادها مربون من أمثال: جون ديوي، وجورج كونت، وبرونر، إلى أن يقول إن نتائج هذه التربية هو (( إنجاب أمة أغنام توجهها وسائل الإعلام ))، وأن ثمرة التصور الضيق الذي طرحته هذه التربية عن الاجتماع والحياة (( وتجاهل البعد الديني وقضايا المنشأ والمصير لا يفرز إلا جماهير فارغة الرؤوس، لا تقدر على شيء إلا استهلاك مصادر الحياة في أفرائها )).

ويضيف إرنست أن التربية الحديثة استبدلت تسلط الكنيسة بتسلط الدولة دون تحرير حقيقي للإنسان، وأن العلم الذي بشرت به لتحويل الأرض إلى (( جنة )) كانت هديته للإنسان هذه الأسلحة النووية والكيميائية، وإن علماء الطب النفسي الذين أفرزتهم التربية الحديثة، وقالت إنهم سيثيرون الصحة العقلية والسلوك السوي، باعوا أنفسهم إلى دوائر البوليس السري في روسيا والصين، وإلى مؤسسات التجارة في أمريكا، وأجروا ذكاءهم لقبولة دماغ الإنسان وتسهيل مهمة القوى العسكرية الطامعة في احتلال الآخرين. ثم يضيف قائلاً: (( هذا هو العلم الذي عمل على إخضاع الإنسان – علم المسيح الدجال – الذي غوى الإنسان بالوعود واستدرجه لتدميره (1).

(2) Ibid. PP. 90-93.

(3) Ibid. PP. 88-89.

(1) Ernest Backer. Beyond Alienation, PP. 238-248.



ولكن - ارنست بيكر - لا يدين العلم لأنه علم، وإنما لأن التربية الحديثة فصلت بينه وبين (( علوم الغايات )) التي يجسدها الدين والقيم والأخلاق. ويلوم الجامعات الحديثة لأنها قصرت في تحقيق الجمع بين علوم الغايات، وعلوم الوسائل، وبذلك يقول:

(( إن جامعات اليوم لا تقوم بهذا الجمع الشامل لميادين التربية والخبرات البشرية وإنما تفرز التنافس والانشقاق والكراهية والحروب. ولذلك تستحق أن نسميها ((مفاقس وأماكن تفريخ)) لا (( جامعات ))). فالجامعة معهد لم يشرق فجره بعد على أية بقعة في الكرة الأرضية))<sup>(2)</sup>.

ثم يستمر - ارنست بيكر - في تحليل السلبيات التي أفرزها انفراد (( العلم )) في التربية الحديثة دون علوم القيم والأخلاق، إلى أن يدعو إلى تطوير منهاج تربوي متكامل فيه الدين والعلم، ومما قاله في هذا المجال:

(( يعترض كثير من العلمانيين والعلماء الطبيعيين والمذهبيين على تضمين البعد الديني في المنهاج الدراسي. ولا غبار على هذا الاعتراض إذا كان المقصود هو عدم تدريس وجهة نظر مذهبية معينة والدفاع عنها. ولكن المقصود أن المنهاج - وهو يلبي حاجة الإنسان - في البحث عن المعاني لا بد أن يتضمن نضال الإنسان لمعرفة سر الوجود ومعناه، وهذا هو وظيفة البعد الديني، ولا بد أن تكون الدراسة وصفية تحليلية ناقدة متكامل مع ميادين التربية الأخرى وتساعد على توحيد صورة الفهم. ولتحقيق أهداف منهاج الاغتراب - لا بد أن يستهدف البعد الديني فيه فهم الحدود التي تحول دون قناعة الإنسان وراحته في أحوال الوجود.

والواقع ان تأخر دراسة الحاجة للبعد الديني في المنهاج سببه تأخر تطور علوم الإنسان وفهم طبيعته وفهم أسباب الفشل الفردي والاجتماعي. ولكن حين بدأنا نفهم ذلك وقفنا على امتزاج البعد العلمي بالبعد الديني لأنهما قدما لنا المثل الأعلى في مجتمع المساواة الإنسانية، ومعنى (( المعصية الاجتماعية ))). إذ من المستحيل أن نفترض أن الإنسان قدر وحده على أن يكون مسؤولاً عن كل المعاني التي يكتشفها، بل لا بد أن يكون مخلوقاً متصلاً باللامحدود ويحاول أن يؤسس أفعاله طبقاً لذلك.

وبدون هذا التصور سوف يزرع الإنسان تحت عبء (( الأخطاء والمعاصي )) وسوف يرى الحياة عبئاً ثقيلاً لا يتخلص منه إلا بالهروب من الحياة نفسها، وهذا هو جوهر - الفلسفة الوجودية - عند سارتر وألبير كامو.

(2) Ibid. PP. 257-258.

أما حين يرى الإنسان وجوده جزءاً من وجود لا متناهي فإن المعصية تستحيل عندئذ بعض القيود التي تعيق حرية الإنسان واستمرار انطلاقه لفهم نفسه وفهم علاقته بالوجود المحيط ((<sup>(1)</sup>.

ومن أسهب في تحليل سلبيات الفصل بين الدين والعلم - أو الكتاب والحكمة- في التربية الحديثة - ابراهام ماسلو - أحد مؤسسي علم النفس الإنساني. ومما قاله في هذا المجال ما يلي:

(( لقد تم الفصل بين الدراسات الدينية والدراسات العلمية بشكل تام.. حيث جرى صياغة كل سؤال وكل جواب وكل طريقة، وكل قانون، وكل واجب ليمثل: إما الدراسات الأولى أو الثانية بدون أي تداخل من الناحية العملية.

وكانت النتيجة الأولى لهذا الفصل أن حل السقم في الدراسات الدينية والدراسات العلمية وانشقا الى نصف علم معوق ونصف دين معوق...

ونتيجة لهذا الانقسام فإن الطالب الذي يصبح عالماً يفقد بشكل تلقائي جزءاً كبيراً من الحياة، ويصبح مثل الراهب الذي يطلب اليه الدخول ( إلى المعبد) ليقوم بنذور الزهد ونكران النفس لأن العلم التقليدي قد استبعد من تعريفه أجزاء كثيرة من عالم الإنسان الحقيقي. وأهم ما استبعده العلم هو أن العلم لم تعد له علاقة بالقيم. فالعلم التقليدي أصبح يعرف بأنه متحرر من القيم وليس لديه ما يقوله عن غايات الحياة وأهدافها وعطائها ومبرراتها، وأصبحت المقولة العامة هي أن (( العلم لا يخبرنا عن لماذا؟ وإنما يقتصر كيف؟)). وثمة مقولة أخرى هي: ((العلم ليس أيولوجية أو قواعد أخلاقية أو نظم قيم، وهو لا يستطيع مساعدتنا على الاختيار بين الخير والشر...))

والتطبيق الذي يترتب على هذه المقولات هو أن العلم أداة فقط، وتكنولوجيا فقط يستعملان من قبل الأخيار والأشرار على قدم المساواة. وحينما يتساءل الوجوديون لماذا لا يجب أن نتحرر؟ فإن العلم لا يستطيع إلا أن يهز كتفيه وجيب. لم لا؟.

لقد أصبح الوضع أسوأ مما كان عليه خلال عصر النهضة، لأنه في الوقت الحاضر أصبحت كل القيم والإنسانيات والفنون مدرجة في العالم غير العلمي. ويحاول العلم التقليدي اليوم أن يتحرر من العواطف ويصبح (( بارداً)) لأن التجرد والموضوعية والدقة والقانونية كلها - حسب زعم العلم الحديث - تعني أن العواطف هي ملوثات الفهم والتفكير...

(1) Ibid. PP. 272 -273.

والحصار العام لهذا الانشقاق بين العلم وبين الدين والقيم والعواطف هو نزع القدسية عن العلم ونبذ الخبرات العلوية من ميدان المعرفة<sup>(1)</sup>.

وفي السنوات الأخيرة ازداد النقد لأزمة الفصل بين العلم والعلوم الدينية والفلسفة. ومن مشاهير المستنقدين - ميهالي كيكسيزنت ميهالي - و - كفن رائوند O اللذان كتبا يقولان: (( إن تجاهل الخبرات الدينية والفلسفية الماضية المتعلقة بسلامة الجنس البشري يعني أننا نجلب العمى لأنفسنا عمداً بدافع من كبريائنا الزائف. ففي ثقافتنا الماضية كان الأطفال - مثلاً - يحذرون من الانحراف الجنسي خاصة الشذوذ الجنسي، وكانت مثل هذه الأعمال تدرج في قائمة السلوك الخاطئ المنافي للأخلاق. ولكن حدث في نصف القرن الأخير أن المعرفة العلمية قللت من قيمة القيم والقواعد الأخلاقية مما قاد إلى اعتبار الضبط الجنسي يقوم على فروض خرافية، فأدى هذا الاعتبار إلى تشجيع الثورة الجنسية واعتبار القيود الأخلاقية كبتاً لطاقة بشرية وسعادة من سعادات الإنسان. ولم تشأ العلوم الطبية والبيولوجية أن تجابه هذا الانفلات الجنسي لقلة معلوماتها آنذاك، ولثلاثتهم بالرجعية وإعاقفة المتع البشرية فكانت النتيجة زيادة أشكال الأمراض الجنسية وظهور مرض (( إلايدز ))...<sup>(1)</sup>

ونحن نميل في العادة لاعتبار منهج المعرفة الحديث أ: ثر ثقة ومصداقية من سابقه، ولذلك يظن أن المنهج العلمي أكثر تمثيلاً للحقيقة وله الحق أن يلغي مناهج المعرفة التي سبقته لأنه أكثر حداثة من الدين والفلسفة. وهذا اعتقاد خاطئ لسببين اثنين: الأول أن حداثة أي نهج معرفي لا تعني أنه أكثر صدقاً ولعله يكون أكثر سوءاً. والثاني، هب أن المنهج الحديث كان دقيقاً وصحيحاً فإنه لا يلغي سابقه لأن الدين والفلسفة والعلم هي مناهج متكاملة ويفتح كل منها نفاذة على الخبرات الإنسانية<sup>(2)</sup>.

ولقد وصف - هكسلي - نماذج المجتمعات التي أفرزتها التربية الحديثة، و (( علوم الوسائل )) المنفصلة عن (( علوم الغايات )) الإنسانية في القرن العشرين فقال: (( دول دكتاتورية فيها رؤساء بأيديهم كل القوة التنفيذية والسياسية ولديهم جيوش من المديرين ليضبطوا سلوك شعوب من الأرقاء الذين يجنون الاسترقاق الذي يحبه إليهم وزراء

<sup>(1)</sup> Abraham H. Maslow. The Psychology of Sciene, PP. 119-121.

<sup>(1)</sup> Mihaly Csikszent mihaly and Kebin Rathund, "The Psychology of wisdoms Wisdon, ed. By Robert J. Stentberg. P.25.

<sup>(2)</sup>Ibid, P.27.

الإعلام ومحرورو الصحف وأساتذة المدارس... ولكن محبة الاسترقاق لا يكتب لها الدوام والاستقرار إلا إذا حدث تغيير شخصي شامل في العقول والأجساد البشرية، وإحداث مثل هذا التغيير يجب حدوث مثل هذه الاكتشافات والاختراعات: أولاً؛ ترويض مبكر في الطفولة ثم بعد الطفولة بمساعدة المخدرات. ثانياً؛ تطوير علم خاص بالفروق البشرية يساعد مدراس الحكومة على تعيين كل شخص في مكان في السلم الاجتماعي والاقتصادي. ثالثاً؛ تطوير بدل للمخدرات والخمرة، بديل أقل ضرراً وأكثر متعة من تناول الجن والهيروين. رابعاً؛ ( وهذا مشروع طويل المدى يحتاج إلى أجيال من ضبط الحكومات الدكتاتورية للحصول على نتائج ناجحة) وهو علم تحسين النسل لتطوير بشر ليس لديهم المناعة ضد السخافة مما يسهل مهمة المدراء والموجهين لهم...

وتطبيقاً لهذه المبادئ الأربعة يجري تشجيع الحرية الجنسية واللهم لأنه كلما نقصت الحرية السياسية والاقتصادية تزداد الحرية الجنسية وحرية اللهم وهو ما تلجأ إليه الحكومات التسلطية. يضاف إلى ذلك - حرية أحلام اليقظة - التي تقدمها أجهزة التلفزيون والراديو ((1).

أما العالم الفيزيائي الشهير - جاكوب برونسكي - فقد سرد تجربته الشخصية في ميدان العلوم الطبيعية - علوم الوسائل - فذكر أنه أمضى سنوات في إجراء بحوث تستهدف تطوير القنابل الذرية البريطانية والأمريكية، وأنه من أجل هذا الغرض أرسل إلى اليابان في نهاية الحرب العالمية الثانية لدراسة الآثار المدمرة للقنبلة الذرية، وحينما رأى الخراب والقرف اللانسانى لكل من هيروشيما وناجازاكي اقتنع بأن تطوير الأسلحة الذرية يمكن أن يؤدي إلى إبادة الجنس البشري(2). ولذلك صمم أن يتوقف عن الاشتراك في صنع أسلحة التدمير الجماعي، وأضاف أنه لا يكون هناك إنسانية حقيقية إلا إذا اقترنت علوم الحكمة - أو علوم الوسائل - بعلوم الخير، وجرى النظر إليهما كوجهين لشخصية الإنسان التي لا يمكن تجزئتها(3).

(1) Erick Fromm, The Sane Swciety, PP. 199-200.

نقلاً عن Aldous Hudley, Brabe New World.

(2) ترى كم هو البون الواسع بين التربية التي خرجت - برونسكي - وقومه وبين التربية التي خرجت خالد بن الوليد الذي قال: "أمرنا أن نعلم أولادنا الرمي والقرآن". حيث - الرمي - هنا أحد ميادين الحكمة أو "علوم الوسائل" التي تضبط استعمالها "علوم الغايات" التي يوجه القرآن إليها وتمد الجهاد الاسلامي بأخلاقه وأهدافه النبيلة - الطبراني، المعجم الكبير.

(3) Hocob Bronowski, A Sense of the Future, PP. 196-198.

وأخيراً يعلق - لويس مامفورد - على الحضارة الحديثة التي أفرزتها نظم التربية الحديثة فيقول:

(( إن النقد المميت الذي يمكن أن يوجه للحضارة الحديثة، بالإضافة إلى الأزمات والكوارث التي أفرزتها، هي أنها غير إنسانية.. فمثل هذه الحضارة تنتج في عاقبتها إنسان قطيع، غير قادر على الاختيار، غير جدير بالنشاطات الذاتية التلقائية. فهو في أحسن حالاته خنوع مطيع، مروض للعمل الرتيب إلى درجة المسكنة، ولا يشعر بالمسؤولية. وأخيراً فهو مخلوق محكوم بانعكاساته الاشرافية ( أي نموذج شهواته التي لا تتحقق). وهو محكوم بوكالات الإعلانات التجارية ومؤسسات البيع في التجارة الحديثة، محكوم بمكاتب الدعاية والتخطيط في الحكومات السلطوية. وأجمل وصف لهذا المخلوق: (( إنه لا يثير مشكلات ))). ومثل هذا المجتمع يفرز فريقين من الناس: المقولبون - بكسر اللام - والمقبولون - بفتح اللام -، أو الفاعلون البرابرة والمفعول بهم السلبيون ((<sup>1</sup>)).

ومن التعريفات الطريفة للإنسان التقني الذي تخرجه مناهج التربية الحديثة هو تعريف السير ريتشارد لفنجستون أحد أساتذة كلية كوريس كريستي في جامعة أكسفورد حيث قال: (( رجل يفهم كل شيء من وظيفته ما عدا مقاصدها النهائية وموضعها في نظام الكون ))(<sup>2</sup>).

<sup>1</sup>Lewis Munford, The Conduct of life, (New York: Hercourt, Brace & Co. 1951) P. 14.

<sup>2</sup> Abraham H. Maslow, Motifation and Personality, P.18.

## علماء الكتاب والحكمة

أولاً: من هم علماء الكتاب والحكمة؟

علماء الكتاب والحكمة اصطلاح يطلق في هذا البحث على المرين العاملين في - منهاج تعليم الكتاب والحكمة - الذي مر استعراضه. و (( الربانية )) هي الصفة المميزة التي يصف القرآن الكريم بها هذا النوع من المرين. والرباني مشتق لغوياً من الفعل (رَبَّ) أي تعهد بالإصلاح والتربية<sup>(1)</sup>. أما اصطلاحاً فقد تعددت تعاريف هذا المصطلح عند علماء الصحابة وتابعيهم، من ذلك قول ابن عباس: الربانيون هم الحكماء الفقهاء. وقول ابن زيد: الربانيون هم الحكماء الفقهاء. وقول ابن زيد: الربانيون هم العلماء الولاة الذين يلون أمور الناس ويربونهم ويصلحون أمورهم. وقول سعيد بن جبیر بأنهم الحكماء الأتقياء. وقول مجاهد بأنهم الفقهاء العلماء<sup>(2)</sup>. وعرفهم النحاس فقال: الرباني هو الذي يجمع إلى العلم البصر بالسياسة. وقال آخرون: إن الرباني هو العالم بالحلال والحرام، والأمر والنهي، العارف بأمور الأمة وما كان وما يكون<sup>(3)</sup>.

مما مر من تعاريف وشرح حول - علماء الكتاب والحكمة - يمكن الخروج بالملاحظات التالية:

**الملاحظة الأولى،** إن النظر الشامل في الآيات القرآنية التي تناولت هذا الموضوع والخبرات التي تقدمها تطبيقات السنة النبوية تبين أن العالم الرباني هو إنسان تكاملت في صفة (( الإخلاص )) وتطبيقاتها في التجرد والمثابرة مع صفة (( الصواب )) وتطبيقاتها في القدرة والمهارة. أي هو إنسان تحررت - إرادته - من عصبية (( الأشخاص )) ورق (( الأشياء ))، وتحرر - عقله - من الآبائية والتقليد فصار قادراً على قراءة قوانين الله في الكون والاجتماع وتحويلها إلى تطبيقات عملية فصار (( حكيماً )) يحكم تجسيد أفكار المثل الأعلى في تطبيقات عملية تفيد في تنظيم حاضر الأمة وتسهم في عبور المستقبل.

**الملاحظة الثانية،** أن هذا القسم من العلماء تجتمع فيه الصفتان اللتان ذكرهما سعيد بن جبیر - أي صفتي الحكمة والتقوى - . لأن من صفاتهم البارزة أن يتقوا استثمار عملهم وحكمتهم في معصية الله. فحكماء الإدارة يتقون استعمال حكمتهم الإدارية في غمط الناس

(1) ابن منظور، لسان العرب، (باب الفعل رب)، ج1، ص401.

(2) الطبري، التفسير (آل عمران: 79)، ج3، ص325-327.

(3) القرطبي، التفسير (آل عمران: 79)، ج4، ص79.

حقوقهم. وحكماء العسكرية يتقون استعمال حكمتهم في العدوان والإضرار بالخلق. وحكماء السياسة يتقون استعمال حكمتهم السياسية في إشاعة الطغيان ومشايعة الظلم، وحكماء الاقتصاد يتقون استعمال حكمتهم في دعم - اقتصاد السحت: أي الاقتصاد الذي يسحت مصادر العيش ويستأصلها مخلفاً الأزمات الاقتصادية والمفاسد الاجتماعية. ومثل هؤلاء حكماء التربية وحكماء الإعلام وحكماء الفكر وحكماء الطب وحكماء العلوم الطبيعية وكل عامل في ميدان من ميادين الحكمة المتجددة بتجدد الأزمنة واختلاف الأمكنة. فهم جميعاً يتقون الله من استعمال ثمار علومهم وحكمتهم فيما يلحق الضرر بالخلق ويجتهدون لاستعمالها في النفع وإشاعة الأمن والاستقرار والسلامة.

والملاحظة الثالثة، إن من صفوف هذا القسم من العلماء يتخرج - أولو الأمر - الذين أشار اليهم ابن زيد فيما مر عند قوله: الربانيون هم العلماء الولاة الذين يلون أمور الناس ويربونهم ويصلحون أمورهم. فالربانية - إذن - هي الصفة الرئيسة لـ (( علماء الكتاب والحكمة )) - الذين يجمعون بين الدين والسياسة في مقابل (( الدنيوية Secularism )) الصفة المميزة لأولي الأمر من غير المؤمنين الذين يفرقون بين الدين والسياسة فيطفنون فاعلية القسمين المتكاملين. فأولو الأمر الربانيون يديرون أمور الدنيا في ضوء توجيهات الدين وقيمه، والعلم عندهم رسالة للإصلاح وإشاعة العدل وحرية الاختيار وإطلاق طاقات العمل. أما الدنيويون فهم يؤولون - أي يفسرون - المتشابه من الكتاب ابتغاء تعبيد جماهير الناس وترويضهم لطاعة أصحاب النفوذ، والعلم عندهم صناعة مشيخية وظيفتها إصدار الفتاوى وتبرير سياسات الدنيويين. وإلى هذا يشير أمثال قوله تعالى:

{ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } [آل عمران: 79]. ومعنى عباداً لي: خاضعين لي. ومعنى ربانيين: طائعين لله. ومن هذا المنطلق جاءت تفسيرات علماء الصحابة وتلامذتهم لـ (( أولو الأمر ))، فالإمام علي بن أبي طالب قال: حق على الإمام أن يحكم بالعدل، ويؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك وجب على المسلمين أن يطيعون، لأن الله أمر الإمام بأداء الأمانة والعدل ثم أمر بطاعته. وعن جابر بن عبد الله ومجاهد أن (( أولو الأمر )) هم أهل القرآن والعلم، وهو اختيار الإمام مالك. ومثله قول الضحاك الذي



قال: (( أولو الأمر )) يعني الفقهاء والعلماء في الدين<sup>(1)</sup>. ومثله قول الرازي الذي قال: إن المراد من أولي الأمر في قوله تعالى: {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم} : العلماء، لأن الملوك يجب عليهم طاعة العلماء ولا ينعكس<sup>(2)</sup>. وأضاف إن (( المراد بقوله تعالى: وأولى الأمر – أهل الحل والعقد من الأمة... وأما طاعة الأمراء والسلاطين فغير واجبة قطعاً، بل الأكثر أنها محرمة لأنهم لا يأمرؤن إلا بالظلم، وفي الأقل تكون واجبة بحسن الظن الضعيف، وأن أعمال الأمراء والسلاطين موقوفة على فتاوى العلماء، والعلماء في الحقيقة أمراء الأمراء، فكان حمل لفظ أولي الأمر عليهم أولي ))<sup>(3)</sup>.

والخلاصة إن علماء الكتاب والحكمة هم الذين يحكمون الفقه النظري والتطبيق

العملي، ولهم تكون – ولاية الأمر – في ميادين الحياة المختلفة. والى ذلك يشير قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} [النساء: 105]. ويلاحظ على الآية أنها لم تقل "لتحكم بالكتاب" وإنما قالت: {بما أراك الله} أي بما فقهك الله خلال النظر في الكتاب وفي الاجتماع الإنساني. وهو معنى التوجيه النبوي الذي كان يصدره – صلى الله عليه وسلم – إذا بعث سراياه: (( وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تترهم على حكم الله فلا تترهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا ))<sup>(4)</sup>.

ثانياً: وظائف علماء الكتاب والحكمة:

حددت الآيات القرآنية الوظائف الرئيسة لعلماء الكتاب والحكمة في وظيفتين اثنتين: الأولى؛ بلورة العلوم الدينية والعلوم الاجتماعية الموضحة لـ (( غايات الحياة )) وتطبيقاتها في كل جيل. والثانية؛ بلورة العلوم الطبيعية والإدارية والمهنية التي توفر (( الوسائل )) و (( المؤسسات )) اللازمة لتنفيذ (( الغايات )) المشار إليها. أما تفاصيل هاتين الوظيفتين فهي كما يلي:

**الوظيفة الأولى؛** أي بلورة (( علوم الغايات )) فهذه تشتمل على ثلاثة أقسام رئيسة هي: القسم الأول يتضمن العلوم التي تحول علاقة إنسان التربية الإسلامية بالخالق، وعلاقته

(1) القرطبي، التفسير ( النساء: 59)، ج5، ص168.

(2) الرازي، التفسير (البقرة: 31)، ج2، ص79، 179.

(3) الرازي، التفسير ( النساء: 59)، ج10، ص144-146.

(4) مسلم، الصحيح، كتاب الجهاد والسير.

بالآخرة - كما عرضتها فلسفة التربية الإسلامية - إلى تطبيقات وعبادات<sup>(1)</sup>. وكثير من هذه العلوم قد فصل فيها فقهاء السلف تحت ما عرف باسم (( علوم العقيدة )) و (( فقه العبادات ))، ولكن يؤخذ على هذه العلوم أنها انحرفت عن مسارها المستقيم الذي بدأه فقهاء صدر الإسلام، كما حصل لعلوم العقيدة التي جنحت للجدل حول الغيبات بعيداً عن واقع الحياة وأصاها الجمود والانشقاق بسبب تخلفها عن شؤون الحياة المتطورة وظهور العصبية المذهبية. ولقد أسهب ابن تيمية - في فتاويه - فيم ناقشة هذه الآثار السلبية التي أصابت هذه العلوم خاصة على أيدي علماء الكلام والمنطق ومن تأثر بهم. لذلك يحتاج النظر في هذه العلوم إلى إحاطة راسخة بنشأتها وتطورها، وإلى تفكير ناقد لتقويمها ومراجعتها. كذلك يحتاج البحث في العلوم المنشودة الى عقليات خاصة قادرة على استقراء الآثار النفسية والاجتماعية لهذه العبادات، وتخطي المقولة التي تقول: إن العبادات لا تعلق، لأن العبادات شأنها شأن أية خبرة نافعة تتألف من حركة وأثر. فإذا انصب الاهتمام على حركات العبادة دون الاجتهاد لإبراز آثارها النفسية والاجتماعية تحولت إلى طقوس وحركات لا روح فيها، وتمهد السبيل للتهاون بها والتحلل من آدائها. صحيح أن آثار بعض العبادات قد تخفى على جيل معين من العلماء، ولكن حين تتعمق الخبرات في آيات الآفاق والأنفس فسوف تبرز مظاهر الحكمة من هذه العبادة. ومثال ذلك صلاة الجماعة التي برزت أهميتها بعد نشوء ظاهرة المدن الكبرى والمجتمعات ذات الأعراق المتعددة والثقافات والجنسيات والطبقات المتنوعة، وذلك من خلال ما توفره صلاة الجماعة من فرص الانتماء والتعارف وعقد الصلاة الاجتماعية، والحفظ من الاغتراب النفسي والاجتماعي ومضاعفاته في الجريمة والانحراف، ومثله الصوم الذي برزت أهميته بعد تقدم العلوم الطبية وعلم النفس وعلم الاجتماع وهكذا.

**والقسم الثاني من (( علوم الغايات )) يتضمن العلوم التي تجسد علاقة إنسان التربية الإسلامية بالإنسان والحياة في تطبيقات عملية تنظيم شبكة العلاقات الاجتماعية في الداخل وشبكة العلاقات الإنسانية في الخارج. وثمره هذه العلوم أمران الأول، إفراز النظم السياسية والاقتصادية والإدارية والاجتماعية التي ترسخ قيم المسؤولية والعدل والحرية وتخرج أمة ينفر قادتها من استعباد الناس وظلمهم، وتأبى رعيته استضعاف الأقوياء وتملقهم. والثاني؛ تطوير المؤسسات التي تنفذ هذه النظم بجدارة وفاعلية في ميادين الحياة المختلفة.**

(1) للتعرف على تفاصيل هاتين العلاقتين، راجع - كتاب فلسفة التربية الإسلامية - للمؤلف.

والقسم الثالث من (( علوم الغايات )) هو بلورة العلوم التي تشيع (( ثقافة الطهر واقتصاد الماعون ))<sup>(1)</sup> وتحارب (( ثقافة الإثم واقتصاد السحت )) . وهذا ما يوجه إليه قوله تعالى: { لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } [المائدة: 63]، و (( قولهم الإثم )) إشارة إلى - ثقافة الإثم - التي تنتكر للفضائل والأخلاق. أما (( أكلهم السحت )) فهو إشارة إلى - اقتصاد السحت - الذي يسحت - أي يستأصل - جهود الناس ومصادر عيشتهم من أجل أقلية مترفة تحتكر المال وتستعمل الحلال والحرام لجمعه. ولقد مثل مفسرو الصحابة لاقتصاد السحت بثمن البغي، وثمن الخمر، وثمن الكلب، وأجرة تلقيح فحل الإبل لأنتاها وغير ذلك من وسائل الكسب الحرام التي استعملها معاصروهم الجاهليون لاستتراف مقدرات الآخرين المادية والمعنوية<sup>(2)</sup>. ويقابلها في زماننا اقتصاد الربا، وتجارة الحروب والأسلحة، وتجارة المخدرات والجنس والملاهي والسياحة المحرمة، وتجارة السينما والأغاني الماجنة وأمثال ذلك مما يستهلك دخول الأفراد والجماعات والأمم ويوقعهم تحت طائلة الديون ويوردتهم موارد الفقر والأزمات الاقتصادية ويسحت - أي يستأصل - مصادر الأمم البشرية والطبيعية سواء.

وتبدو أهمية هذا القسم من وظيفة علماء الكتاب والحكمة من تكرار التنديد بالإثم وأكل السحت عند قوله تعالى:

- { سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ } [المائدة: 43].

- { وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ } [المائدة: 62].

والعلاقة بين (( ثقافة الإثم )) و (( اقتصاد السحت )) علاقة متلازمة، لأن اقتصاد السحت لا ينجح إلا في بيئة تهيمن عليها (( ثقافة الإثم )) . فشيوع الإثم والانحلال الأخلاقي والاجتماعي شرط لتسويق تجارات اقتصاد السحت ورواج بضاعته. ولذلك تجتهد الأنظمة الرأسمالية وإدارتها ووكلاؤها وخبراء التسويق فيها في محاربة الأديان الصحيحة وفلسفات الأخلاق ويستنفرون معاهدهم العلمية ومؤسساتهم الإعلامية والصحفية للسخرية منها وإبطال فاعليتها الاجتماعية وإبعادها عن توجيه السياسة والتربية وشبكة العلاقات الاجتماعية.

(1) اقتصاد الماعون: اصطلاح نشته من قوله تعالى: أرأيت الذي يكذب بالدين... ويمنعون الماعون).

(2) الطبري، التفسير، ج6 (سورة المائدة: الآيات 42، 62، 63)، ص 240-241.

غير أن كلاً من (( ثقافة الإثم )) و (( اقتصاد السحت )) يحملان في طياتهما عوامل فشلها وتدير المجتمعات التي تتبناها وتحمل ألوية الدعوة إليهما. وهذا ما ناقشه الكثير من علماء النفس والاجتماع والفلسفة، من ذلك ما كتبه ر.هز توني حين ذكر المبدأ الذي يقوم عليه المجتمع الرأسمالي هو هيمنة الأشياء على الإنسان إلى درجة تجعل الناس العقلاء فيه مقتنعين أن رأس المال يوجه الحياة ويتحكم بالمصائر تماماً كما اقتنع أسلافهم الوثنيون بأن قطع الحديد والخشب \_ التي نصبوها آلهة \_ تدمهم بالمحاصيل وتجلب لهم العافية وتدفع عنهم الضرر. واليوم يتحدث الناس عن المال كما لو أن أصنامهم السابقة عادت إلى الحياة من جديد. ثم يضيف أن الوقت قد حان لمحيء من يحطم صنم المال لأن العمل يتكون من الإنسان ورأس المال يتكون من الأشياء. وفائدة الأشياء الوحيدة أن تخدم الإنسان لا أن تستعبده<sup>(1)</sup>.

ولقد ناقش عالم النفس المشهور - إيرك فروم - الآثار المدمرة لاقتصاد السحت وثقافة الإثم اللذين يميزان الرأسمالية المعاصرة فذكر إن السوق يحتل مركز المحور في المجتمعات الرأسمالية الحديثة ويمثل القاعدة التي تتشكل فيها العلاقات الاجتماعية القائمة على التنافس المادي والجري وراء الربح وعدم المسؤولية نحو الآخرين<sup>(2)</sup>. وفي خضم هذه العلاقات انتصب المال صنماً طاعياً يشرع للحياة الجارية، ويحول الفضيلة إلى رذيلة، والرذيلة إلى فضيلة، والعبد إلى سيد، والسيد إلى عبد، والجهل إلى معرفة، والمعرفة إلى جهل وهكذا<sup>(3)</sup>.

ويضيف - فروم - أن عبادة المال هذه أفرزت عدة مضاعفات: منها حلول النقود محل الجهد البشري حيث صار الإنسان يحصل على أشياءه بالنقد لا بالجهد. وهذه عملية شاذة وظالمة لأن النقود - من الناحية العملية - لا تمثل العمل والجهد طالما قد يحصل الإنسان عليها بالوراثة أو بالخداع أو بالحظ أو بأية طريقة أخرى.

ومن مضاعفات عبادة المال أن علاقة الإنسان بالإنسان صارت علاقة تجارية. فهو لا يتوقف عن تسويق نفسه، وبمقدار نجاحه أو فشله في هذا التسويق تتقرر هويته وصورته عن مكانته. ونتيجة لذلك تحولت مزايا الإنسان الرئيسة كالمودة والصدقة واللفظ والتدين إلى مجموعة من العادات والتقاليد والقيم التجارية المصطنعة الخالية من الصدق والحياة والدفء،

(1) R.H.Tawney, **The Acquisitive Society**, (New york: Hartcourt, Brace & Co.Inc. 1920). P. 99.

(2) Erich Fromm, **The Sane Society**, P. 83.

(3) Ibid, PP. 120-124.

واستمتت علاقاته بالبرود والجفاف بما فيها علاقة الرجل بالمرأة، وما التحرر الجنسي القائم في المجتمعات الرأسمالية الحديثة إلا محاولة يائسة للتعويض عن المودة المفقودة والعاطفة الميتة بين الجنسين.

ومن مضاعفات عبادة المال أن الإنسان الحديث فقد الاستمتاع بالأشياء التي يشتريها وصار يتصف بصفة معينة وهي الحاجة لتبديل ما يشتريه باستمرار. إذ لا يكاد يشتري شيئاً حتى يبدأ التفكير بكيفية بيعه في أول فرصة تلوح. ولقد امتدت هذه الصفة إلى العلاقات الشخصية والحب والزواج والصدقة حيث يبحث الإنسان الحديث عن تبديلها باستمرار طبقاً لمقاييس الربح والخسارة المادية<sup>(1)</sup>.

كذلك فقد الإنسان الاستمتاع بأوقات الراحة فصار يقضيها طبقاً لما تمليه عليه وسائل الإعلام التجاري التي توجهه إلى الأماكن التي تريدها لا تلك التي يستمتع بها، بل إن هذه الإعلانات التجارية صارت تملّي على الإنسان ما يلبس وما يأكل وما يشرب، كما تسببت له بمرض إدمان الشراء فصار يكسب المشتريات المختلفة إن لم يستعمل الكثير منها.

ولعل أخطر مضاعفات عبادة المال أن الإنسان فقد إرادته وتأثيره في الأحداث التي تجري من حوله، فصار يشارك في الجرائم والحروب دون أن يكون له هدف أو دور في إشعالها أو إيقافها. بل إن قادة المجتمعات الرأسمالية أنفسهم فقدوا السيطرة على توجيه السياسات التي صارت تحكمها قوانين المنافسة والإنتاج.

ويخلص - فروم - Fromm - إلى أن إنسان المجتمعات الحديثة صار مسيراً بأنانيته إلا ما كان من ولائه للدولة التي أصبحت - صنماً - يمارس الأفراد في ظلها أشكالاً من الوثنية والواجبات المتناقضة الغربية. فهو يدفع الضرائب للدولة ويحترم قوانينها، ويضحى بحياته من أجلها، ولو سأله إنسان آخر أن يساعده بمائة دينار لرفض مساعدته، ولكن حين تسير إلى الاثنين في حرب لا علاقة لهما بما فإن الزي العسكري الموحد يجعل الواحد منهما يقدم حياته لإنقاذ الآخر<sup>(1)</sup>.

والواقع أن جميع هذه المضاعفات المدمرة لإنسانية الإنسان التي أوردتها - فروم - وما تلا عصره من مضاعفات ما زالت تحدث، ما كانت لتشيع وتستشري لو لم تقم مؤسسات التربية الحديثة باحتضان - عبادة المال ونشر معارف الديانة الوثنية الجديدة وتنمية اتجاهاتها

<sup>(1)</sup>Ibid, PP. 128-135.

<sup>(1)</sup> Ibid, PP. 124-128.

ومهاراتها والولاء لها، واعتماد ثقافة الإثم واقتصاد السحت كأهم أصولها وأهدافها. لذلك تتضاعف واجبات علماء الكتاب والحكمة الذين نتطلع إلى إخراجهم. فهم من ناحية سوف يكونون مسؤولين عن بلورة علوم تشيع ثقافة الطهر واقتصاد الماعون اللذين يتلازمان في التربية الإسلامية كتلازم ثقافة الإثم واقتصاد السحت أو أشد. فالصلاة التي هي محور ثقافة الطهر معيار صدقها إنما تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة التي هي محور اقتصاد الماعون - أي الذي يعين الإنسان على الطهر - معيار صدقها إنما تطهر المجتمع من الأحقاد والذائل وتركيه بروابط الحب والفضائل.

**والوظيفة الثانية لعالم الكتاب والحكمة هي إحكام (( علوم الوسائل )) وتطبيقاتها العملية التي تحقق (( الغايات )) التي مر ذكرها في الوظيفة الأولى.** وهذا ما يوجه إليه أمثال قوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ} [الأنفال: 60] ومثله قوله تعالى: {وَعَلَّمَآهُ صِنْعَةَ لُبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ} [الأنبياء: 80]. لأن الله علم داود الحكمة العسكرية التي تمهني له القوة اللازمة لإشاعة العدل والإحسان، والممانعة للفساد والعدوان.

ومثله قوله تعالى عن سليمان: {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ} [ص: 20] لأن الله أتاه الحكمة السياسية والإدارية والتقنية وشد أزره بنظام دقيق من الحكماء والخبراء.

ومثله قوله تعالى عن لقمان:

{وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ} [لقمان: 12] لأنه أحكم علم التربية ومقاصده وتطبيقاته.

ومثله قوله تعالى عن يوسف عليه السلام:

{وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [يوسف: 21-22] لأنه أتاه علماً في الكتاب وحكمة في الاقتصاد وتطبيقاته فاستحق من أجل ذلك أن يعين مسؤولاً عن خزائن الدولة.

ومثله مئات الأحاديث النبوية التي تحث على تعلم العلوم المهنية والعسكرية ووسائل الكسب الحلال، والتي توجه لحسن القيادة والإدارة وإتقان مهنة التعليم وغيرها. هذه التوجيهات القرآنية والنبوية المتعلقة بـ (( علوم الوسائل )) لا يمكن أن ينظر إليها على أنها مواعظ فردية تقع مسؤولية تطبيقها على الأفراد العاملين في أي نظام وتحت أية قيادة، بل هي توجيهات تستهدف لفت انتباه الأمة إلى ضرورة تطوير نظم ومؤسسات تربوية وعلمية تضم تخصصات متعددة بتعدد ميادين المعرفة التي تقوم إليها الحاجات وتفرضها التحديات ويعمل فيها متخصصون يشتقون (( غايات )) كل علم وأهدافه من آيات الكتاب ويطورون (( علوم الوسائل )) اللازمة لتحقيق هذه (( الغايات )) وهذا ما يوجه إليه قوله تعالى: { فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ } [ التوبة: 122]. ولم تخرج تعريفات الصحابة الذين قالوا إن - الربانيين - هم: الحكماء الأتقياء عن هذه المقاصد لأن (( الغايات )) التي يستخرجها علماء الكتاب والحكمة من - آيات الكتاب - تتكامل مع (( الوسائل )) التي يطورونها من علوم الآفاق والأنفس وتجعلهم يتقنون استعمال حكمتهم فيما يصطدم مع سنن الله وقوانينه الميسرة لقبول العمل ونجاحه. فحكماء السياسة والإدارة - مثلاً - يتقنون استعمال حكمتهم في الظلم والطغيان، وحكماء العسكرية يتقنون استعمال حكمتهم في الإيذاء والعدوان، وحكماء الاقتصاد يتقنون استعمال حكمتهم في النهب والاحتكار. ومثل هؤلاء حكماء التربية، وحكماء الفكر، وحكماء الطب، وحكماء الصيدلة، وحكماء العلوم الطبيعية، وحكماء الزراعة، وحكماء الصناعة، ومثلهم كل عالم يحكم العمل في ميدان من ميادين العلم والحكمة المتجددين بتجدد الحاجات والتحديات، فجميعهم يتقنون الله أن يستعملوا مضامين حكمتهم وتطبيقاتها فيما يلحق الإيذاء بالناس والخلق أجمعين.

ولكن علماء الكتاب والحكمة لا يستطيعون القيام بوظائفهم المشار إليها إلا إذا اتصفوا بصفتين رئيسيتين هما:

**الصفة الأولى؛ شهود تيارات العصر بمختلف فروعها واتجاهاتها.** ولن يستطيعوا هذا الشهود إلا إذا أحاطوا بوسائله التي تؤهلهم للمرابطة في ثغور المعرفة والشهود المباشر بأبصارهم وأسماعهم وعقولهم. وتشمل وسائل الشهود المقترحة القراءة المباشرة - أي قراءة كل معرفة بلغتها المباشرة - والخبرة المباشرة.

**ولا بد من الانتباه إلى أن شهود العالم بالطريقة الإسلامية يختلف عن شهوده بالطريقة الغربية، وعن شهوده بالطريقة القبلية أو الإقليمية.** فالشهود بالطريقة الإسلامية يستهدف



التعرف على جوانب الخير والصواب لتنميتها وإشاعة تطبيقاتها , والتعرف على جوانب الشر والخطأ لاستنقاذ الإنسان من آثارها المدمرة وتطبيقاتها الضارة.

أما الشهود بالطريقة الغربية فله فلسفة هدفها التعرف على نقاط القوة والضعف عند الآخرين لاستثمارها في الاستعمار والهيمنة والاستغلال. وأما الشهود بطريقة العصبية القبلية والإقليمية فهو يقوم على التحسس التلقائي المرتجل في البيئة الضيقة المحدودة زماناً ومكاناً، ورؤية العالم المحيط طبقاً لما تهواه النفس ويدغدغ المشاعر ويشبع الرغبات في المدح والهجاء من خلال الخطب الحماسية والمواظع الهائجة المنفصلة، ومعالجة المضاعفات الطافية على سطح الحياة دون النفاذ إلى غدد الإفراز ومؤسسات الصنع وأجهزة التنفيذ.

**والصفة الثانية التي يحتاج إليها عالم الكتاب والحكمة أن يتصف بها هي أن تكون أحشأؤه النفسية والعقلية سليمة معافاة من الأمراض النفسية المقيدة للعقول الحارفة للإرادات، كالحسد والطمع والرياء والشهوات. وهذه صفة حثت عليها مئات الآيات والأحاديث ووصايا الصحابة وعلماء التابعين.**

ولجلال هذه الصفة وصف الإمام علي بن أبي طالب الذين يمثلونها في واقع الحياة بقوله:

(( العالم الرباني عالم قائم لله بحججه حتى لا تبطل حجج الله وبياناته، وهذا النوع هم الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤديها إلى نظائرهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فاستلنا ما استوعر منه المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمنظر الأعلى، أولئك خلفاء الله في بلاده ودعائه إلى دينه ))<sup>(1)</sup>.

ولقد حصر كل من ابن مسعود وابن عباس رتبة العلماء الربانيين في الذين يترفعون عن اتخاذ العلم وسيلة لكسب الدنيا، والذين لا يتزلفون لأحد , ويتواضعون للضعفاء ويترفعون عن مجالس العظماء , ويجعلون كل همهم إرضاء الله والعمل بما عملوا.

وفي المقابل عاب الصحابة والتابعون - علماء السوء - الذين يضعون علومهم عند أهل الدنيا لينالوا دنياهم. وأضافوا أن الفتن تثور وتتخلف الأمة وتتدهور الحضارة وتنقلب العزة إلى ذل حين يجري التفقه لغير الدين والتعلم لغير العمل، وتلتمس الدنيا بعلوم الآخرة<sup>(2)</sup>.

(1) الكاندهلوي، حياة الصحابة، ج4، ص12.

(2) المصدر نفسه، ص 113-114.

ولعل من المناسب - هنا - أن نقتبس ما وري عن الحسن البصري الذي خرج من عند الوالي ابن هبيرة بعد أن دخل عليه ونصحه وحذره، فإذا بنفر من القراء - أي الفقهاء - على الباب فقال لهم:

(( ما يجلسكم هنا تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء؟ أما والله ما مجالستهم بمجالسة الأبرار. تفرقوا فرق الله بين أرواحكم وأجسادكم، قد لقتهم وشتمتم ثيابكم، وجززتم شعوركم. فضحتم القراء فضحككم الله. أما والله لو زهدتم فيما عندهم لرغبوا فيما عندكم، لكنكم رغبتم فيما عندهم، فزهدوا فيما عندكم أبعدهم الله من أبعدهم<sup>(3)</sup>)).

### ثالثاً: منهجية علماء الكتاب والحكمة:

هناك أكثر من منهج يستعمله علماء الكتاب والحكمة لبلوغ أهداف الميدان الذي يعملون فيه. ولكن أبرز هذه المناهج ثلاثة:

**الأول، المنهج الاستنباطي - التحليلي؛** ويقوم هذا المنهج على أسس ثلاثة: أولها؛ تحديد المشكلة أو الحاجات الجديدة التي تفرزها القيم الجديدة في ضوء شهود الواقع شهوداً يتصف بصفتي الرسوم الزماني والإحاطة الجغرافية. وثانيها؛ تحديد الحل أو العلاج في ضوء نتائج التحديد الذي مر ذكره، وفي ضوء توجيهات الكتاب والسنة. وثالثها؛ استمرار تقويم الحل أو العلاج في ضوء ثمار التطبيق العملي في واقع الحياة وإلى هذه الثمار يشير القرآن باسم ((العاقبة)).

ويراعى عند تطبيق هذا المنهج الحذر من أن يتحول إلى منهج للحكم والإدانة بدل ان يتصف بالتحليل والتشخيص. وتحدث الصفة الأولى حينما يقتصر العالم أو الباحث على النظر في معايير الكتاب والسنة نظراً نصياً دون أن يصاحب ذلك نظر مماثل في شؤون الاجتماع الإنساني التي يشير إليها القرآن باسم (آيات الأنفس)، ذلك أن آيات الكتاب لا تفقه حق الفقه إلا من خلال النظر في خبرات الآفاق والأنفس حيث الحاجات المتجددة والعواقب النافعة أو الضارة.

(3) أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ج2، ص151.

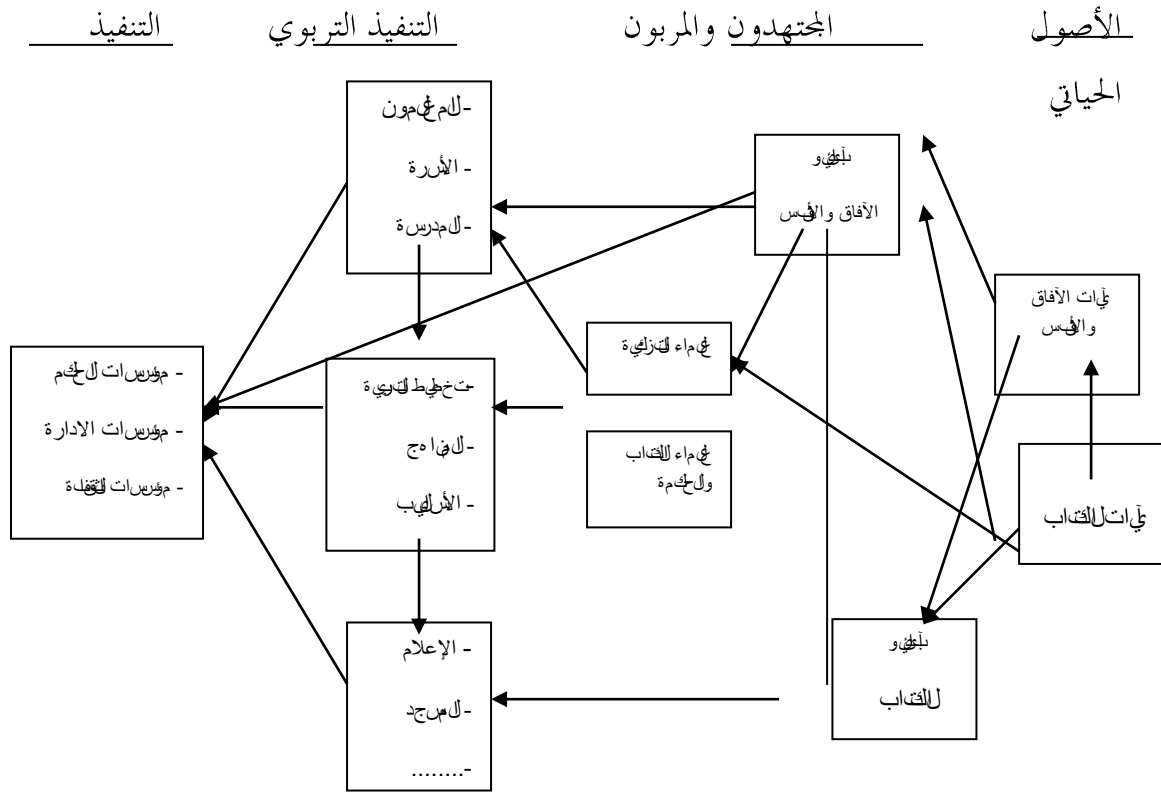
**والمنهج الثاني؛** هو المنهج التجريبي الذي هو بعض مبتكرات العلماء المسلمين حين أحسنوا الاستفادة من توجيهات القرآن الكريم لاستعمال السمع والبصر والفؤاد. ثم خلف من بعدهم خلف صدروا هذا المنهج إلى غيرهم وحرموه أنفسهم. ويقوم هذا المنهج على تكامل أدوات المعرفة الثلاثة: أي الوحي والعقل والحواس بشكل فعال مثمر. وفيه تتبع خطوات البحث العلمي التي تبدأ بالإحساس بالمشكلة ثم تحديدها ثم جمع المعلومات ثم تحليلها ثم إصدار الحكم. ثم يجري تتبع نتائج هذا المنهج بالقياس والتقويم، أو - التوبة - المتكررة حسب الاصطلاح الإسلامي.

ويحتاج العاملون في تطبيق هذا المنهج إلى مراعاة النظر الاستقرائي الذي ((يحيط)) بمكونات الظاهرة المعرفية مكانياً ومادياً، إذ بدون هذه الإحاطة فإن المعرفة القائمة على التقاط ما يصادفه الباحث من معلومات سوف تنأى به عن واقع الظاهرة التي هي موضوع البحث ويجانب الصدق في دراستها.

**والمنهج الثالث؛** هو المنهج التاريخي. وفي هذا المنهج تجري دراسة الظواهر العلمية والاجتماعية ضمن مجرى الزمان للوقوف على البيئات والمؤثرات التي تعاقبت على ظواهر العلم وموضوعات البحث. ويحتاج العاملون في تطبيق هذا المنهج إلى مراعاة النظر الاستقرائي الذي ((يرسخ)) بمكونات الظاهرة زمنياً. إذ بدون الوعي العميق بالتطورات التي يحدثها الخلق الجديد خلال أقسام الزمن الثلاثة: أي الماضي والحاضر والمستقبل، فإن المعرفة سوف تتوقف عن التجدد وتفتقر إلى الأصالة والمعاصرة.

وأخيراً تحتاج المناهج الثلاثة إلى التكامل لأن انسلاخ أي منها عن الآخر سوف يؤدي إلى أخطاء كثيرة في دراسة الظواهر المعرفية، إذ بدون الوعي العميق بالظاهرة العلمية ومكوناتها وبالتطورات التي مرت عليها يتعذر تحقيق ((الاستقراء)) المفضي إلى اكتشاف القانون، ويقع الباحث في خطأ ((القياس)) الذي ينتهي إلى صياغة الأمثال والمأثور من الأقوال.

ويمكن أن تمثل للتكامل المنشود بين فرقاء المربين بالشكل التالي:



ففي الشكل المشار إليه تبدأ عملية التربية بـ (( الآياتيون )) الذين ينظرون في الأصول الأساسية للتربية الإسلامية المتمثلة في - آيات الكتاب - ليقترحوا، في ضوء نظرهم في (( الآفاق والآنفس ))، ميادين المعرفة الجديدة وليحددوا الحاجات والتحديات التي تتطلب ميادين العلوم والمعارف المشار إليها، ثم يقومون باستخراج (( الشرعات )) التي يشرع منها الباحثون في تحديد غايات المعرفة وميادينها المقترحة، ثم يقدمون نتائج عملهم الى (( علماء الترقية )) ليقوموا بتزكية الأفهام ومناهج البحث من - الملوثة الفكرية السلبية من التراث، والى (( علماء الكتاب والحكمة )) ليقوموا ببلورة تفاصيل العلو التي اقترحها الآياتيون، ثم تقديم نتائج عملهم إلى علماء - التخطيط التربوي - ليقوموا باقتراح السياسة العامة للتربية والمناهج والأساليب والمؤسسات اللازمة لتنفيذ العلوم الجديدة، ثم يدفعون ذلك كله إلى المؤسسات التربوية التي يوكل إليها مهمة (( التنفيذ التربوي )) لتقوم بدورها بإمداد الأمة بالقيادات والعناصر اللازمة في ميادين (( التنفيذ الحياتي )) .

فإذا بلغت العملية المعرفية والتربوية هذه المرحلة تناول (( الآياتيون )) ثمار هذه العملية واستخرجوا منها (( آيات الآفاق والأنفس )) أو المعجزات والشواهد والبراهين الجديدة التي تفرز اليقين في نفوس أبناء العصر الجديد.

ويراعى في ذلك كله استمرار التقويم وتتبع العمليات والوظائف والممارسات والنشاطات الجارية ثم توزيع النتائج مرة ثانية إلى - الآياتيين - وعلماء التزكية، وعلماء الكتاب والحكمة، لاكتشاف مدى إسهامها في تحقيق الغايات الموجهة للتربية الإسلامية.

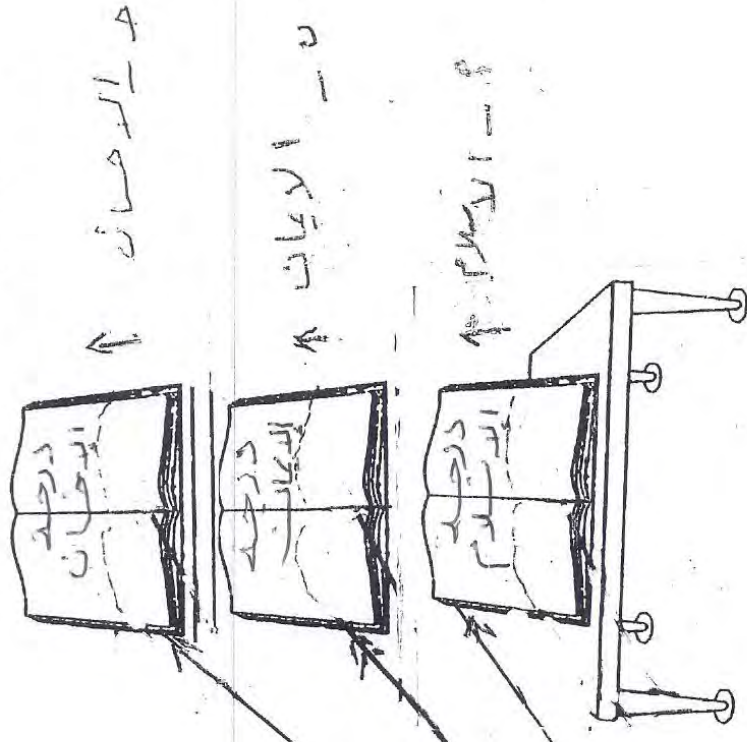
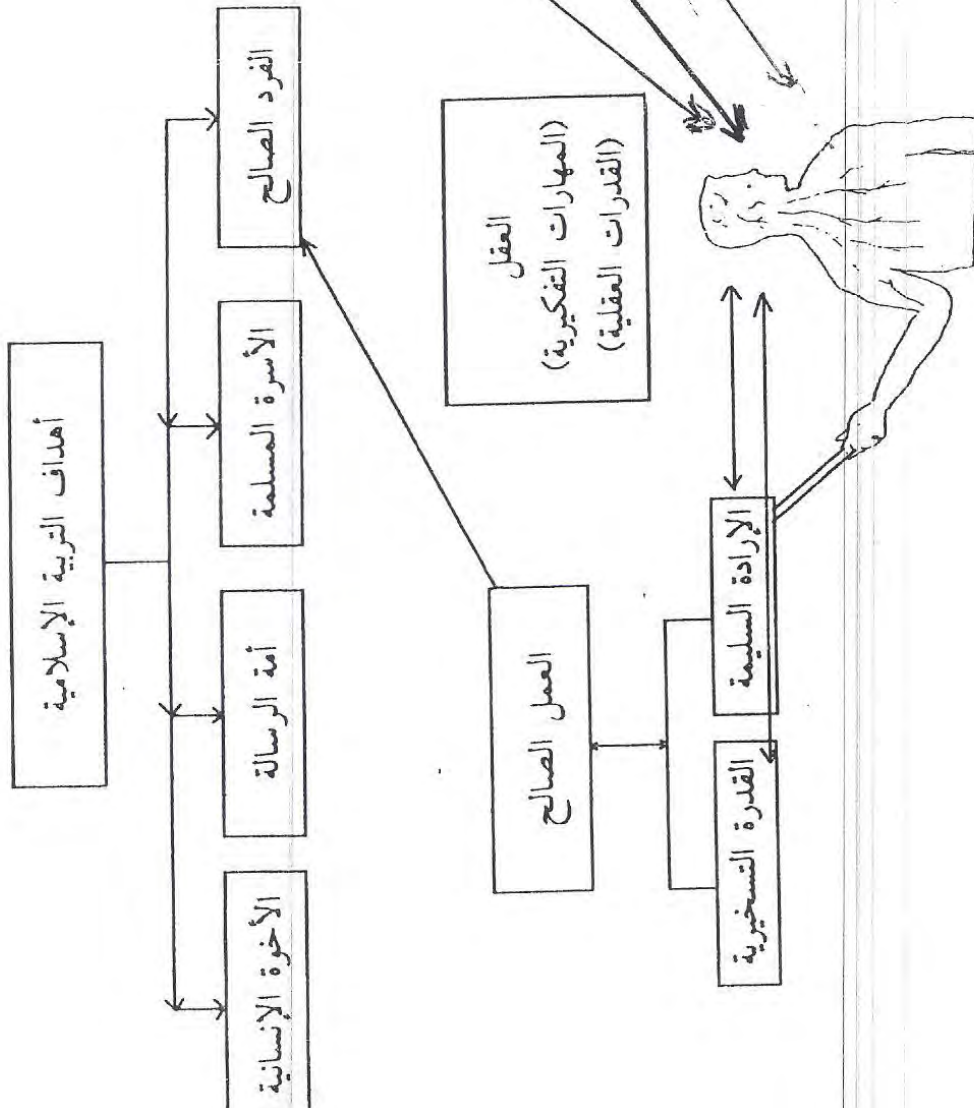
## الفصل الحادي عشر:

البعد الطولي والافقي \_ الدرجي لمنهاج الترييه

الاسلاميه.

٢- درجة الإسلام

[الشكل رقم ٤]



تصميم  
الدكتور ماجد عرسان الكيلاني



ورد في صحيح البخاري أن عمر رضي الله عنه قال:  
بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله \_ صلى الله عليه وسلم \_ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد  
بياض الثياب , شديد سواد الشعر , لا يرى عليه اثر السفر والا يعرفه منا احد. حتى جلس الى  
النبي \_ صلى الله عليه وسلم \_ فأسند ركبتيه الى ركبتيه. ووضع كفيه على فخذيه , وقال يا  
محمد اخبرني عن الاسلام , فقال رسول الله \_ صلى الله عليه وسلم: الإسلام ان تشهد ان لا  
اله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة , وتصوم رمضان وتحج البيت إن  
استطعت إليه سبيلاً. قال صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الايمان. قال: ان  
تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر. وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال صدقت -  
قال فأخبرني عن الاحسان , قال: ان تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك , قال  
فأخبرني عن الساعة , قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل؟ قال فأخبرني عن علامتها. قال:  
ان تلد الامة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان , ثم انطلق فلبثا  
ملياً ثم قال يا عمر اتدري من السائل؟ قلت الله ورسوله اعلم. قال: إنه جبريل اتاكم يعلمكم  
دينكم. رواه مسلم.

ويستخلص من هذا الحديث عدة قضايا تربويه هي:

#### القضية الاولى: تقسيم محتوى المنهاج الاسلامي وهي تتعلق بـ:

محتوى الاسلام ومقصدة تركية المحتويات الحسية المتعلقة بالجسد البشري والاشياء المادية. ورثة  
الاعجاز في الوجود المادي بالكون وكان التربية الاسلامية تربط بين التزكية المادية وإبصار  
الموجودات الالهية الخلق والمخلوقات وهذا ما تشير اليه الايات والصور التي نزلت لتركيتها مثل:  
{ وثيابك فطهر والرجز فاهجر } ( المدثر ). واسلوب التعلم فيها يكون باسلوب الاستجابة  
والاتباع.

القضية الثانية: المرحلة المتعلقة بتزكية القلب والمشاعر والعلاقات الاجتماعية واسلوب التعلم  
فيها بالتفكر ومقصدها تركية الانسان تركية معنوية.

القضية الثالثة: مرحلة الاحسان وموضوعها اسماء الله الحسنات يتصدرها اسم الله الاعظم.  
وهذه الاسماء هي تجليات الحق سبحانه وتعالى على عوالم الانسان والحيوان والنبات والكون.  
وترشدك الايات القرآنية ان حاجاتنا انما نطلبها من الباب الذي يشير اليه الاسم الالهي , وهكذا  
يبدأ العلم من عند الله سبحانه وينتهي عنده.

والقضية الرابعة: هي ان العلم الاسلامي يبدأ من العلم بالله ثم تبحر مساراته في الافاق والانفس لقوله تعالى { واتقوا الله ويعلمكم }.  
1 \_ اخي القارئ إن هذا البحث لم ينل ادنى درجاته لانني لم استطع خلال فترة المرض التي

ابتلية بها ولذلك اكتفية بالاطار العام لهذا الجزء من المنهاج ولعل الله يمكنني او يلهم من تختاره العناية الالهيه لاسهام في هذا البحث الذي سيحقق الوحدة بين كافة العلوم والمهن.

اللهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## وَبَدَأَ الْإِسْمَاءَ الْحُسْنَىٰ فَارْعَوْهُمَا

هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك  
 قدوس السلام المؤمن العزيز الجبار  
 متكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار  
 ذو الجلال والإكرام ذو الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط  
 الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير  
 الحكيم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم  
 الغفور الشكور العلي الكبير الغنيظ المقرب  
 الحسيب الجليل الكريم الرقيب المحيئ الواسع  
 الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق  
 الوكيل القوي المتين الوالي الحميد المحصي  
 المبدئ المعيد المحيي المميت الخفي القيوم  
 الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتر  
 المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي  
 المتعال البر التواب المنتقم العفو الرؤف مالك  
 الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني  
 المغني المنيع الضار النافع النور الصادي البديع  
 الباقي الوارث الرشيد الصبور

## الفصل الثاني عشر

### تكامل ميادين التربية ودرجاتها والمربين العاملين في ميادين التربية الإسلامية

يتكامل المربون الذين يرشحهم هذا البحث للعمل في مناهج التربية الإسلامية المقترحة. وهذا التكامل مستمد مما مر عن تكامل المناهج المذكورة ويتطابق معها خطوة بخطوة ووظيفة بوظيفة، ثم تكون له فوائده النافعة وأهم هذه الفوائد ما يلي:

**الفائدة الأولى؛** هي أن هذا التكامل يجعل المربين المقترحين عميقي الإحساس بالعملية التاريخية، دائمي اليقظة والتفكير بمسار الخلق ومجرى التاريخ، وأن هذا المجرى يحتوي دائماً على خلق خلقه الله في (( الماضي )) وخلق يخلقه الله في (( الحاضر ))، وخلق سوف يخلقه الله في (( المستقبل )) في كافة عوالم الأفكار والأشخاص والأشياء، وأن على المربي المسلم أن يكون قادراً على التمييز الدقيق بين فترات الماضي والحاضر والمستقبل، وعلى الوعي بالمواليد المتجددة في عوالم الأفكار والأشخاص والأشياء، وبال حاجات والتحديات التي تصاحبها، والأدوات والوسائل والمؤسسات اللازمة للتعامل معها. فالذي صلح للماضي لا يصلح للتعامل مع مخلوقات الحاضر، والتي تصلح للحاضر لا تصلح للتعامل مع (( مخلوقات )) المستقبل، والخلط بين الأنماط الثلاثة من المخلوقات ومتطلباتها في الوسائل والأدوات والمؤسسات يوقع في الاضطراب ويؤدي الى الخسران والتخلف، وهذا بعض ما يوجه إليه قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي كِبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: 15].

ولذلك يقوم – الآياتيون – بالمراقبة الدائمة والتفكير الدائم بمسار الخلق المتجدد، ويقوم علماء التزكية بتحرير إنسان التربية الإسلامية من (( أغلال )) الماضي و (( آصار )) الحاضر، وتحلية عقله ومشاعره وسلوكه بكل ما يهيئه للانطلاق عبر صراط المستقبل المستقيم مع سنن الحيات وقوانينها، ويقوم علماء الكتاب والحكمة بإفراز العلوم والتطبيقات التي تمكن من (( وعي )) الحاضر وتوفير متطلباته.

**والفائدة الثانية؛** هي تكامل المعارف العلمية والفضائل الأخلاقية في أشخاص المربين المقترحين وهو ما ركز عليه علماء جيل الصحابة وتابعيهم. من ذلك قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تأدبوا ثم تعلموا. ومثله أبو عبد الله السلمي الذي قال: أدب العلم أكثر من العلم. وكذلك عبد الله بن المبارك الذي قال: إذا وصف لي رجلاً له أدب النفس أتمنى لقاءه وأتأسف على عدم لقاءه. ولقد أطنب الشيخ عبد القادر الكيلاني في التعليق على هذه الأقوال.

من ذلك قوله: إن لكل علم خمس دوائر. أولها: غاية العلم. والثانية: الإخلاص. والثالثة: فراض العلم. والرابعة: سنن العلم. والخامسة: آداب العلم. وأضاف أن الحكمة من هذا التقسيم هي أن الإنسان ما دام يحافظ على آداب العلم ويتعاهده فإن الخلل لا يتسر إلى ثمار العلم. أما إذا ترك الآداب فإن الخلل يصل إلى السنن ثم إلى الفرائض ثم إلى الإخلاص ثم إلى الطاعة. وبذلك تنقلب نتائج العلم ضرراً على الإنسان. وأضاف أن للإيمان خمس دوائر: الدائرة الأولى دائرة اليقين وصفاء الاعتقاد. والدائرة الثاني هي دائرة الإخلاص. والدائرة الثالثة هي آداء الفرائض. والدائرة الرابعة هي إتمام السنن. والدائرة الخامسة هي حفظ الآداب. فما دام العبد يحفظ الآداب ويتعاهدها فالشيطان لا يطمع فيه. فإذا ترك الآداب طمع الشيطان في السنن، ثم في الفرائض ثم في الإخلاص ثم في اليقين<sup>(1)</sup>.

ولقد كشفت الخبرات التربوية الحديثة عن أهمية اقتران العلم بالفضائل الأخلاقية في أشخاص العلماء والمربين. وممن وعى هذه الأهمية العالم الفيزيائي - جاكوب برونسكي - الذي أسهم في تطوير أول قنبلة ذرية. ومما كتبه في هذا الشأن قوله: (( بحسب الكثير من الناس أ، العلم محايد ولا دخل له بالقيم ومقاييس الخير والشر، وأنه يقتصر على التعامل مع الصواب والخطأ. غير أن هذا الفصل بين مقاييس الخير والشر من ناحية وبين الصواب والخطأ من ناحية أخرى هو فصل مدمر لأنه يبعد الأخلاق الفاضلة من المقاييس التي تحكم بها على الأمور التي تحدث من حولنا كل يوم ويجعلها شيئاً خارج الحياة العملية التي نحيها... وهذا أخطر مظهر في حياتنا الحاضرة... ولذلك لا يوجد دفء في العلاقات الإنسانية ما لم تقترن الحكمة بالخير ليكونا شخصيتنا الواحدة التي تقبل التجزئة... ولهذا هناك مجموعة من القيم العلمية التي نتحلى بها خلال البحث العلمي، بدون هذه القيم لا نستطيع ممارسة العلم أبداً. وأول هذه القيم هي - الثقة بين العلماء. وثانيها هي البحث عن الحقيقة. وثالثها هي أصالة الفكر واستقلال العقل وحرية مخالفة الآراء والمعتقدات القائمة. ولكن القيم العلمية لا تمثل جميع القيم، فهناك مجموعتان مختلفتان من القيم ولا تكمل أية منهما دون الأخرى. والضعف القائم في الحياة المعاصرة هو أننا نضع قيم الخير ضد قيم الحقيقة دون مبرر لذلك<sup>(1)</sup>.

(1) عبد القادر الجيلاني، الغنية لطالبي طريق الحق، ج1، ص 54.

(1) Jacob Bronowski, A Sense of the Future, ( Cambridge: Massachussetts MIT Preas. 1970) PP. 197-203.

ولقد تتبع بعض التربويين الآثار السلبية للفصل بين العلم والأخلاق في مناهج التربية الحديثة. من ذلك ما كتبه - هنري جيرو - حيث قال:

(( تكشف سلسلة الإصلاحات التربوية عن أزمة ثقة في قدرة معلمي المدارس العامة على تقديم القدوة الأخلاقية والثقافية لشباب الأمة... والسبب أنا لنظم التربية تنزل بهم إلى منزلة المهنيين التقنيين الذين يقتصر دورهم على تنفيذ ما يطلبه منهم خبراء بعيدون عن وقائع الحياة اليومية...))

لذلك نحتاج إلى فحص القوى الايدولوجية والمادية التي أسهمت في تحويل المعلمين إلى عمال مهنيين يعملون تحت ادارة البيروقراطية المدرسية لتنفيذ مناهج صممت لهم مسبقاً دون أن يكون لهم رأي في تخطيطها وتنفيذها.

ولذلك فان الحاجة ماسة لإنقاذ المعلمين من المنزلة الوضيعة التي أحالتهم إلى أدوات تقنية، ثم الارتقاء بإنسانيتهم ليصبحوا رواد تحويل ثقافي وتغيير اجتماعي، وليصبح هدفهم تعليم الطلاب ليكونوا عناصر مثقفة ومواطنين صالحين ((<sup>2</sup>)).

**والفائدة الرابعة،** هي تكامل أصناف المربين العاملين في كل مناهج التربية الإسلامية المقترحة بمختلف درجاتهم المعرفية والتطبيقية.

فالتجديديون الذين أنزلهم علماء عصور الازدهار منزلة الاجتهاد ويحتلون الدرجة الاولى في سلم التصنيف المعرفي يقومون بتجديد الفهم وإنتاج الجديد في المعرفة والعلم اللازمين لمواجهة التحديات وتلبية الحاجات.

ثم يليهم - المحولون - الذين يحتلون الدرجة الثانية والذين وضعهم السلف بمرتبة الأتباع، وهؤلاء يحولون الجديد من المعرفة والعلم إلى تطبيقات ومؤسسات تربوية وعلمية واجتماعية وسياسية وإدارية تتعدد بتعدد الحاجات والمشكلات القائمة.

ثم يليهم - الممارسون - الذي وضعهم علماء السلف بمرتبة التقليد. وهؤلاء يحتلون الدرجة الثالثة ويحسنون استعمال التطبيقات التي ينتجها أصحاب الدرجة الثانية.

ووجود الفرقاء الثلاثة في كل مناهج وتكاملهم يحفظ النظم التربوية في نشاط دائم. وحين يضعف الفريق الأول أو يغيب من ميادين المناهج التربوية يحل الركود وعدم التجديد والعجز عن تلبية الحاجات ومواجهة المشكلات. فإذا تحدر هذا الركود إلى الأجيال التالية وملا أصحاب المنزلة الثانية والثالثة منزلة الفئة الأولى الغائبة حدث الجمود المفضي إلى تخلف العلم

(<sup>2</sup>) Henry A. Cirouf, Teachers As Intellectuels, PP. 121-128.



وفاسد التربية واهيار الاجتماع. وأساس هذا التصنيف لفريق المربين المقترحين في كل منهاج موجود في القرآن، الكريم عند أمثال قوله تعالى:

- {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة:11]
- {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} [يوسف:76]
- {وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ} [الأنعام:165]

ولا بد من الانتباه إلى أن الدرجية المشار إليها في الآيات لا توجه إلى تصنيف طبقي يفرز امتيازات موازية، وإنما هو تصنيف ابتلاء - أي امتحان - حيث يمتحن أصحاب الدرجة الأولى بمسؤولية أكبر ويطلبون بزهد وتجرد أكثر ممن يليهم من أصحاب الدرجات الأدنى. واليوم يتداعى علماء التربية الحديثة - بعد عقود طويلة من التخصص والفصل بين مربي المناهج المختلفة - إلى ضرورة الانتباه إلى أهمية التصنيف التكاملي بين العلماء والمربين في ميادين العلم والتربية. من ذلك ما يقوله - جورج سارتون - من أن الناس يفهمون العالم بطرق مختلفة. ويتركز هذا الاختلاف إلى قسمين رئيسين:

القسم الأول هم ذوو العقول القادرة على التنظير. وهؤلاء يهتمون بالتفكير بالخالق والمنشأ، ووحدة الكون والتصور الشمولي والوجود المطلق وغير ذلك من المفاهيم. أما القسم الثاني فيتركز تفكيرهم على الحياة المحسوسة وقضايا الصحة والمرض، والربح والخسارة. وهؤلاء يبتكرون الأدوات والحلول والعلاجات. وهم أقل اهتماماً بالمعرفة إلا فيما يتعلق بتحويل المعارف التي بين أيديهم إلى تطبيقات تعالج المشكلات العملية. ويطلق - سارتون - على القسم الأول اسم (( الحالمين )) بينما ينظر للقسم الثاني كـ (( عمليين نافعين )).. ولقد برهن التاريخ على قصر نظر العمليين، بينما برأ (( الحالمين )) الكسالى من هذه الصفة، وأن الحالمين كثيراً ما يساء فهمهم من الآخرين.

ولقد علق - ثيودوسيوس دوبر هانسكي - على كلام سارتون هذا بالقول إن المجتمع الذي يضم كلا النوعين من الناس أفضل من المجتمع الذي فريقاً دون الآخر لأن المجتمعات إنما تزدهر وتنحضر بتنوع القدرات والمهارات<sup>(1)</sup>.

<sup>(1)</sup> Theodosius Dobzhansky, "Human Nature as a Product of Evolution" in New Knowledge in Human Balues. Ed. By Abraham H. Maslow, ( South Bend, Indiana, 1959) PP. 84-85.



وممن أدرك أهمية تصنيف المربين المشار اليه - الكس مولنار - الذي كتب يقول:  
( ( يحتاج الاكاديميون المنظرون Academies والمتقنون الممارسون Practitioners الى تبادل المعارف والمهارات والخبرات. ومع أن كلا من الفريقين يعيش في عالم مختلف ويواجه ضغوطاً مختلفة، وعليه إشباع حاجات مختلفة، إلا أن كل فريق يحتاج إلى الآخر. والسبب أن كل فريق يحتل ميداناً يحتاج الآخر إلى اكتشافه إذا ما أراد أن يكون فعالاً في عمله))<sup>(2)</sup>.

---

(2) Alwd Molnar (ed.), Current Thought on Curriculum, P.iii.

## الفصل الرابع عشر

### الملاحظات والتوصيات

في ضوء ما مر من تفصيلات وملاحظات تتعلق بالمناهج المطبقة والمقترحة يقترح مراعاة التوصيات التالية:

**التوصية الأولى؛** إقامة مؤسسات مختصة تنظر في كيفية تحويل المناهج التربوية النظرية التي تم استعراضها في هذا البحث إلى مناهج دراسية تطبيقية ذات مستويات تتوازي مع مستويات المراحل التعليمية. فهذا البحث لا يزعم أنه قال كلمة الفصل في مناهج التربية الإسلامية المنشودة، ولكنه يفتح الباب للمختصين لتأصيل المناهج التربوية القادرة على الإسهام الفعال في تغيير ما بالأنفس من مفاهيم وثقافات صنيعة تحول دون الوعي بالتطورات التاريخية، وتحول دون الإحاطة بالتحديات والحاجات القائمة، ثم إمداد الأجيال المتابعة بالمؤهلات وتنمية القدرات العقلية والإرادية والحسية التي تمكن هذه الأجيال من تغيير ما بها من أحوال اسيفة متخلفة في ميادين الحياة ونشاطاتها المختلفة.

**والتوصية الثانية؛** أن يكون القرار الذي ينظم عمل المؤسسات المقترحة قراراً تربوياً مستقلاً يقوم به خبراء التربية والمختصون بها بالتعاون مع نظرائهم المختصين بالأصول الاجتماعية والعلمية والفلسفية، وأن لا يكون قراراً سياسياً لأن هذا يصطدم مع الأسس التربوية العلمية، ويضع " الأفكار " في خدمة " الأشخاص والأشياء ".

**والتوصية الثالثة؛** أن يجري العمل في المؤسسات المقترحة على أسس الفهم الجماعي لـ "الكتاب والحكمة" لأن عصر الفرد أو الحكيم الفرد أو العالم الفرد قد انتهى وحل محله عصر جماعة العلماء - الخبراء في أي ميدان من ميادين التربية والعلم، ولأن النظر في "آيات الآفاق والأنفس" اتسعت ميادينه - جغرافياً - لتشمل الأرض والفضاء، واتسعت - ثقافياً - تضم العلماء الباحثين من مختلف فروع التربية والعلوم الاجتماعية والعلمية والمترجمين والتقنيين، وسوف يتطلب توزيع العمل وتكامل المختصين إن أريد لمناهج التربية الإسلامية أن تتصف بالإصابة والفاعلية.

**والتوصية الرابعة؛** العمل على تحقيق التكامل بين " علوم الغايات " التي توجه إليها " آيات الكتاب " و " علوم الوسائل " التي تندرج تحت ما يسميه القرآن " الحكمة ".

ولتحسيد اقتران "آيات الكتاب" مع علوم "الحكمة" في تطبيقات عملية يراعى أن يقوم المختصون باختيار مجموعات من آيات الكتاب لتدرس مع كل علم يناسبها من علوم الحكمة. كأن تدرس الآيات التي توجه إلى النظر في الكون والأفلاك مع علوم الفلك والفيزياء، وتدرس الآيات التي توجه إلى النظر في الحية مع علوم الأحياء، وتدرس الآيات التي توجه إلى النظر في النبات والإنبات مع علوم النبات، وتدرس الآيات التي توجه إلى النظر في جسد الإنسان وخلقه وتكوينه والأحوال التي تعتبره مع علوم الطب، وتدرس الآيات التي توجه إلى المعاملات المالية وعمليات الإنتاج والكسب مع علم الاقتصاد، وتدرس الآيات التي توجه إلى النظر في نشأة المجتمعات والحضارات ومسارها ونهايتها مع علوم التاريخ<sup>9</sup> والاجتماع، وتدرس الآيات التي توجه إلى الجهاد مع العلوم العسكرية، وتدرس الآيات التي توجه إلى النفس الإنسانية وتقلبها مع علوم النفس والتربية. وهكذا في كل الموضوعات العلمية والاجتماعية المعروفة أو التي تنشأ الحاجة لقيامها.

ويقترح أن يكون كل من المناهج المقترحة ذا مستويات ثلاثة تكون ملامحها الأولية

كالتالي:

1- منهاج تلاوة الآيات؛ ويتضمن - المستوى الأول - منه التعرف على القرآن

الكريم من خلال التلاوة العادية، والتعرف على الحديث النبوي والسيرة النبوية، والتعرف على ظواهر الخلق الكوني والاجتماع الإنساني في البيئة المحيطة.

أما - المستوى الثاني - فيتضمن تدريس علوم القرآن، والحضارات الإنسانية حسب مراعاتها لسنن الاجتماع الإنساني أو مخالفتها، وثمار البحث العلمي في الكون والاجتماع الإنساني، والنفس البشرية.

وأما - المستوى الثالث - فيتضمن نظرية الوجود، ونظرية المعرفة، والعقل المسلم، والعقل غير المسلم، والمعجزات والبراهين العلمية والاجتماعية وآثارها في تنمية اليقين والإيمان، وتطبيقات معجزات العلم في آيات الآفاق والأنفس، وتدريب إنسان التربية الإسلامية على الإسهام في اكتشاف آيات الآفاق وآيات الأنفس في ضوء الحاجات والتحديات المتجددة.

2- منهاج التزكية؛ ويتضمن المستوى الأول السلوك الفردي والأسري والعلاقات في

المجتمع المحلي، في ضوء التوجيهات القرآنية والنبوية، ويتضمن نظائرها السلبية وأخطارها الناجمة عنها في الدنيا والآخرة.

أما المستوى الثاني - فيتضمن دراسة الثقافة القائمة بنظمها وعاداتها وتقاليدها ومؤسستها في ضوء التوجيهات القرآنية والنبوية، ونقد التراث، ودراسة استمرارية الخلق (أو التطور).

وأما - المستوى الثالث - فيتضمن دراسة نظرية القيم في التربية الإسلامية مقارنة بنظائرها في الثقافات الأخرى، وتدريب إنسان التربية الإسلامية على إفراز تطبيقات التزكية في الاجتماع الإنساني القائم. ونقد ممارسات التاريخ الإسلامي والعالمي في هذه الميادين المذكورة بغية التجديد والتنظير اللازم للوعي بحاجات الحاضر والمستقبل.

3- منهاج تعليم الكتاب والحكمة؛ ويتضمن - المستوى الأول - منه التعرف على الفقه المنحدر من السلف في شؤون العبادات والعلاقات الاجتماعية والكونية، ومهارات اللغة والحساب والكتابة ومهارات التقنية المعاصرة.

أما - المستوى الثاني - فيتضمن دراسة الفقه وعلوم الحكمة التي انحدرت من الماضي دراسة تحليلية ناقدة، ودراسة ميادين الحكمة العلمية والنظرية حسب الاستعدادات والقدرات عند الدارسين لإعدادهم لحمل مسؤولياتهم الحاضرة، والتدرب على مهارات العصر والمهن والتخصصات التي تنشأ فيه.

وأما - المستوى الثالث - فيتضمن تدريب إنسان التربية الإسلامية على الاجتهاد لإفراز علوم الكتاب، وعلوم الحكمة التي تؤهل الدارسين للوعي بحاضرهم وتلبية الحاجات والتحديات التي تقوم في هذا الحاضر.

ويمكن أن تمثل للمناهج الثلاثة ومستوياتها التي مرت أعلاه بالشكل التالي:

### تطبيقات مناهج التربية الإسلامية ومستوياتها الثلاثة

نوع المنهاج مستوى المنهاج	منهاج تلاوة الآيات	منهاج التزكية	منهاج تعليم الكتاب والحكمة
المستوى الأول	- تلاوة سور القرآن الكريم	- نماذج السلوك الفردي والأسري الايجابي منها	- فقه العبادات والعلاقات الاجتماعية والكونية المحلية

<p>- مهارات اللغة والحساب والكتابة - مهارات التكنولوجيات والمهارات العملية المحلية المعاصرة .....-</p>	<p>والسليبي - العلاقات في المجتمع المحلي: الايجابية والسلبية .....- .....-</p>	<p>- السيرة النبوية الشريفة آيات الخلق في البيئة المحيطة آيات الاجتماع الإنساني المحلي .....- .....-</p>	<p>(الابتدائي)</p>
<p>- دراسة فقه السلف وميادين الحكمة عندهم تحليلاً ونقداً - دراسة علوم الحكمة المعاصرة - التدريب على مهارات العصر والتخصصات والمهن التي تنشأ فيه - مهارات اللغات والاتصال .....-</p>	<p>- دراسة الثقافة القائمة وتحليلها - دراسة التراث وتحليله ونقده - دراسة مفاهيم التزكية الفردية والجماعية عند السلف ونقدها .....- .....-</p>	<p>- تفسير القرآن وعلومه - تحليل السيرة وسننها - الحضارات الإنسانية وآياتها وسننها وقوانينها - آيات البحث العلمي في الكون والاجتماع الإنساني .....-</p>	<p>المستوى الثاني (الثانوي)</p>
<p>- أصول فهم الكتاب والحكمة - التدريب على الاجتهاد في علوم الكتاب والاكتشاف في ميادين الحكمة طبقاً للحاجات الحاضرة والتحديات والمستقبلية - تطوير مؤسسات الحكمة المعاصرة.</p>	<p>- نظرية القيم بين الإسلام والأديان والفلسفات الأخرى - التدريب على تأصيل القيم وتعصيرها في الاجتماع الإنساني - نماذج السلوك والعلاقات على المستوى الإنساني العالمي - تطوير مؤسسات التزكية المعاصرة</p>	<p>- نظرية الوجود بين الإسلام والأديان والفلسفات الأخرى - نظرية المعرفة بين الإسلام والأديان والفلسفات الأخرى - التدريب على ابتكار ميادين العلوم المتجددة واكتشاف آيات الآفاق</p>	<p>المستوى الثالث (الجامعي)</p>

		والأنفس - تطوير مؤسسات الآيات. -.....
--	--	--

وأهمية التنظيم المقترح في هذه التوصية تتجسد في أمور كثيرة منها:  
**الأهمية الأولى؛** أن هذا التنظيم سوف يوفر لكل باحث أو دارس أن يرى المعجزات العلمية والبراهين والشواهد الاجتماعية في ميدانه الذي يختص فيه. وسوف يجعله أقدر الناس على عرضها ومناقشتها وتقديم شواهد الإيمان فيها. ولعل الدراسات العلمية التي قدمها الدكتور مصطفى محمود في كتبه وحلقاته التلفزيونية، والدكتور محمد علي البار في كتابه عن - خلق الإنسان بين الطب والقرآن، والدكتور خالص جليبي في كتاب - الطب محراب الإيمان، والدكتور موريس بوكاي في كتبه المختلفة، والبروفسور كيث ل. مور في كتاب **The Debeloping Human**، ودراسات الإعجاز العلمي التي قدمها أمثال وحيد الدين خان، والدكتور عبد الرزاق نوفل، والشيخ عبد المجيد الزنداني، تقدم أمثلة أولية لما ستكون عليه ثمار التنظيم المقترح.

**والأهمية الثانية؛** هي أن التنظيم المشار إليه سوف يضع حداً للتخريب التربوي الذي أحدثه تقسيم المناهج إلى: مناهج علمية، ومناهج أدبية، ومناهج مهنية ومناهج شرعية. فهذا التقسيم الذي خصت به الدول المستعمرة دول العالم الثالث، يحول دون تكامل الشخصية الإنسانية ونموها ويقتل فاعليتها، ويقرب المجتمعات أعلاها إلى سافلها قيادة وأتباعاً. والسبب أن العلوم الدينية والاجتماعية تقدم "غايات الحياة"، بينما تقدم العلوم الطبيعية والمهنية " وسائل الحياة". والفصل بين علوم الغايات وعلوم الوسائل جعل أصحاب علوم الغايات يتكلمون بمثاليات لا وسائل لتحقيقها، وجعل أصحاب علوم الوسائل حمقى ضالين لا غايات ترشدتهم. كذلك تسهم العلوم الطبيعية في تنمو قدرات "الذكاء" والحسد بينما تسهم العلوم الدينية والاجتماعية في الارتقاء بكل من قدرة "العقل والإرادة". والفصل بين العلوم اللازمة لتنمية هذه القدرات وتكاملها، تدمير لشخصية الإنسان وسبب في عدم توازن كيانه، وبث للقلق في حياته.

**والأهمية الثالثة؛** هي أن التنظيم المقترح سوف يبرز للوجود علوماً إسلامية الفلسفة والمحتوى والتطبيق؛ كأن يبرز علم الطب الإسلامي وعالم الطلب المسلم، وعلم الفلك الإسلامي وعالم الفلك المسلم، وعالم الاجتماع المسلم، وعلم النفس الإسلامي وعالم النفس المسلم وهكذا. وسوف يبرز كذلك تفاسير قرآنية متجددة الإعجاز والبراهين، متعددة الأنواع بتعدد العلم وتنوع ميادينه.

ولا يمتنع ذلك أن يقوم إلى جانب هذه التطبيقات التربوية في المناهج الدراسية تخصصات شرعية بحتة تتوسع في علوم القرى، وفقه العبادات بالأساليب والمنهجيات التي انحدرت عن السلف شريطة تجدد تطبيقاتها بتجدد الأزمنة والأمكنة، وشريطة متابعتها بالمراجعة والتقييم وتحقيق التكامل مع ميادين العلوم الأخرى.

ولعله من الضروري - هنا - أن نشير إلى أن التصنيفات التي طرحتها التربية الحديثة لمناهج التربية لا تجسد الموضوعية العلمية المجردة، وإنما هي تصنيفات نابعة من مصالح رجال المال والأعمال والصناعة الذين يوجهون الحضارة الحديثة، والذين عملوا منذ قيام هذه الحضارة - وما زالوا يعملون - على استثمار التربية والعلم لزيادة الإنتاج والاستهلاك. ولنجاح هذا الهدف برزت فلسفات تربوية ركزت عمل مناهج التربية على علوم الصناعة والتجارة ونشاطات الإنتاج والاستهلاك، وإحكام هذا الهدف صنفت المتعلمين تصنيفاً وضع الأذكياء في خدمة العلوم المذكورة، بينما ترك متوسطو الذكاء والأغبياء للتخصص فيما أسمته " الإنسانية " و " العلوم الاجتماعية " بعد أن نزعت عن الأخيرة صفة العلم وقصرت هذه الصفة على " العلوم الطبيعية " وحدها.

**والتوصية الخامسة؛** هي إنشاء الموائى التربوية التي تنظم التفاعل مع الفكر العالمي. ومراعاة هذه التوصية تقتضي قيام مؤسسات مجهزة بكل الكفاءات العلمية ووسائل البحث، ويكون عملها تتبع النشاط العلمي والثقافي الجاري في قرية الكرة الأرضية بالدراسة والتحليل بغية تحقيق هدفين اثنين:

الأول؛ معرفة الاتجاهات العلمية والثقافية الجارية في المجتمعات الإنسانية وتحديد الإيجابية منها والسلبية، وتحديد جوانب الحكمة المفيدة فيها ثم استيرادها وإعادة تصنيفها وأسلمتها وتهيئة المؤسسات التربوية والثقافية المؤهلة للاستفادة منها.



والهدف الثاني؛ هو تحديد نوع الإسهامات الفكرية والعلمية والثقافية التي تقع مسؤوليتها على المفكر المسلم والعالم المسلم والمجتهد المسلم للإسهام في تيارات الفكر العالمي ومنجزاته العلمية والثقافية.

## الفصل الخامس عشر

### المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية:

أ - القرآن الكريم والحديث الشريف:

1- القرآن الكريم

1- صحيح البخاري

2- صحيح مسلم

3- سنن الترمذي

4- سنن النسائي

5- سنن أبي داود

6- سنن ابن ماجه

7- مسند احمد

8- سنن الدارمي

9- موطأ الامام مالك.

10- المعجم الكبير - للطبراني

11- المستدرک - للحاكم

12- السنن الكبرى - للبيهقي

13- ابن مندة، محمد ابن اسحق (ت395هـ)، الايمان، 3 أجزاء، المدينة المنورة: الجامعة

الاسلامية، 1401هـ - 1981م.

14- البيهقي، الجامع لشعب الايمان، 10 أجزاء، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد

حامد، بومباي، الدار السلفية، 1406هـ - 1986م.

15- السيوطي، صحيح الجامع الصغير، تحقيق الألباني، بيروت: المكتب الاسلامي، ط3،

1408هـ - 1988م.

16- المتقي الهندي، كتر العمال.

17- محمد خليل الخطيب، إتحاف الأنام بخطب رسول الإسلام، طنطا، 1373هـ-  
1954م.

18- تفسير الطبري.

19- تفسير الرازي

20- تفسير القرطبي

21- تفسير ابن كثير

22- تفسير الشوكاني.

23- تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا.

24- سيرة ابن هشام، 4 أجزاء، القاهرة: مكتبات الكليات الأزهرية، بلا تاريخ

#### ب - المصادر والمراجع:

25- ابن تيمية، الفتاوى، توحيد الألوهية، ج1.

26- ابن تيمية، كتاب الايمان، ج7.

27- ابن تيمية، كتاب السلوك، ج10.

28- ابن تيمية، مقدمة التفسير، ج13.

29- ابن تيمية، التفسير (الجزء الثاني)، ج15.

30- ابن تيمية، التفسير (الجزء الثالث)، ج16.

31- ابن تيمية، أصول الفقه، ج20.

32- ابن تيمية، كتاب الجهاد، ج28.

33- ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم.

34- ابن الجوزي، نواسخ القرآن، تحقيق محمد أشرف المياري، المدينة المنورة: الجامعة

الإسلامية، 1404هـ- 1984م.

35- ابن الجوزي، صيد الخاطر، الرياض والمنصورة: دار القبليتين ودار اليقين، 1413هـ-

1993م

36- ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز.

37- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، بيروت: دار الفكر، بلا تاريخ.

38- ابن سعد، طبقات الصحابة، ج3، بيروت: دار صادر، بلا تاريخ.

39- ابن القيم، زاد المعاد، ج1، القاهرة: المكتبة العصرية، بلا تاريخ.

- 40- ابن القيم الوابل الصيب.
- 41- اعلام الموقعين
- 42- ابن كثير، البداية والنهاية، ج8.
- 43- ابن منظور، لسان العرب، بيروت: دار صادر 1388هـ-1968م.
- 44- ابو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ج1، ج2، ج5، بيروت: دار الكتب العلمية، بلا تاريخ.
- 45- الجيلاني، عبد القادر، الغنية لطالبي طريق الحق، مكة: 1314هـ.
- 46- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، بيروت: دار المعرفة، 1391هـ-1972م.
- 47- السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، بيروت: دار صادر 1987م.
- 48- السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، بيروت: دار المعرفة والقاهرة: مكتبة مصطفى الباي الحلبي، 1398هـ-1978م.
- 49- السيوطي، الرد على من أخلد الى الأرض.
- 50- الشاطبي، الاعتصام، ج1، الخبر (السعودية): دار ابن عفان للنشر والتوزيع، 1412هـ-1992م.
- 51- الشريف الرضي، نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، ج2، القاهرة: المكتبة التجارية، بلا.
- 52- الطرطوشي، الحوادث والبدع.
- 53- الكاندهلوي، حياة الصحابة، ج4، بيروت: دار الكتاب العربي، 1408هـ-1987م.
- 54- النحاس، ابو جعفر محمد (ت338هـ)، كتاب الناسخ والمسوخ في القرآن الكريم، بيروت: مؤسسة الكتاب الثقافية 1409هـ-1989م.
- ج- الكتب الحديثة:**
- 55- البار، محمد علي، خلق الانسان بين الطب والقرآن، جدة: الدار السعودية للنشر، 1406هـ-1986م.
- 56- بن نبي، مالك، مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي.
- 57- الكيلاني، ماجد عرسان، تطور مفهوم النظرية التربوية الاسلامية، المدينة المنورة: دار التراث، 1407هـ-1987م.

- 58- الكيلاني، ماجد عرسان، اتجاهات معاصرة في التربية الأخلاقية، مكة المكرمة: جامعة أم القرى 1412هـ-1992م.
- 59- الهاشمي، عبد الحميد محمد، أصول علم النفس العام، جدة: دار الشروق، 1404هـ-1984م.
- 60- علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، 10 اجزاء، ط2، بيروت- بغداد: دار العلم للملايين ومكتبة النهضة، 1978م.
- ثانياً: المصادر الأجنبية:

- 1- Abbs, peter, " Education and the Libing Images" in toward the Recobery of Wholeness: know ledge, Education and Human Balues, ed. By Douglas Sloan, New York: Columbia Unifersity Teachers College Press, 1984.
- 2- Altbach, Phlip G. & Gail p. Kelly (ed) Education and Colonial Edperience, New Branswick: Transaction Books, 1984.
- 3- Almond, Brend, The Philosophical Kuest, London: Penguing BooksLtd, 1988.
- 4- Apple, Michael W. Ideology and Curriculum, 2<sup>nd</sup> ed. New York & London: Routledge, 1990.
- 5- Barfield, Owen, " Language, Ebovolution of Consciuousness and the Recobery of Human Meaning" in Toward the Recobery of Wholeness,... 1984.
- 6- Barrow, Robing, Moral Philosophy for Education, London: George Allen & Unwin Ltd, 1975.
- 7- Becker, Ernest, Beyond Alienation: A Philosophy of Education for the Crisis of Democracy, New York: George Braziller, Inc, 1967.
- 8- Bell, Daniel, The Coming of post-industrial Society, New Ywrk: Basic Books, inc, Publishers, 1976.
- 9- Bell, Bernard Iddings, Crisis in Education, New York: McGrkw-Hill, 1949.

- 10- Bellach, Arno A. " The Structure of Curriculum" in Contemporary American Education. Ed. by Stan Dropkin & others, New York: Macmillan Publishing co. 1975.
- 11- Bellah, Robert N. " Cultural Bision and the Human Future" in Toward The recobery of Wholeness... 1984.
- 12- Beentt, Kathleen P. & Margaret D. Le Compte, How Schools Work, New York: Longman, 1990.
- 13- Berman, Louise M. (ed). The Humanities and the Curriculum Washigton: Assoc, for Superbision and Curriculum Debelopment, 1967.
- 14- Beyer, Landone E. & Michael W. Apple, **The Curriculum: Problems, Politics, and Possibilities**, State Unibersity of New York, 1988.
- 15- Bode, Boyd H. Modern Education Therories, New York: Macmillan Go. 1927.
- 16- Bohn, Dabid, " Insight, Knowledge, Science and Human Balues" in Toward the Recobery of Wholeness... 1984.
- 17- Bolman, Frederick Dew, " Not in Our Star" in Disorders in Higher Education. Ed. by Clearence C. Watlon & Frederick d. Bolman, Ebglewood Chiffs N.J. Present-Hall inc. 1979.
- 18- Bronoski, Jacob. A Sence Of the Future, the Massach setts institute of Technology, 1977.
- 19- Bull, Norman J. **Moral Education**, London: Routlege & Kegan Pual, 1969.
- 20- Carnoy, Martin, Education as Cultural Imperialism, New York: Longman, Inc. 1974.
- 21- Colinbaud, Puaul A. Introduction to Econlogy , New York: John Wiley & Sons, Inc. 1973.
- 22- Colodny, Robert G. (ed). **Frontiers of Seicence and philosophy**. Unibersity of Pittsbargh Press, 1962.
- 23- Dabidson, Robert F. **The Humanities in Contemporary life**, New York: Holt, 1962.

- 24- Dabis, Paul, **The Edge of Infinity**, New York: Touchstone Book, 1982.
- 25- Dewey John, **Reconstruction in Philosophy**, Boston: Beacon Press, 1957.
- 26- - -, **Experience and Nature**, New York: Dober Publication Inc, 1958.
- 27- Did, H.M. **Environmental Pollution**, New YorkK Johny Wiley & Sons Inc, 1981.
- 28- Dubos, Rene, **Beast or Animal**, New York: Charle's Scribner's Sons, 1974.
- 29- - -, **So Human an Animal**, New York: Charle's Scribner's Sons, 1968.
- 30- Doren, Mark Ban, **Liberal Education**, Chichester, New York: Holt, Rinehart & Winton, 1943.
- 31- Drefus, Herbert, L. " Knowledge and Human Balues: A Gencology of Nihilism' in **Toward the Recovery of Wholences... 1984.**
- 32- Eccles, Sir John C. " The self-Conscious Mind and the Meaning of the Mystery of personal Edistence" in **Toward the Rocovery of Wholoeness.. 1984.**
- 33- Finn, Chester E. Jr. & others, **Challenges to Humanities**, New York: Holmes and Meier, 1985.
- 34- Foster, M. George **Traditional Societies and Techological Change**, New York: Harper & Row Publishers, 1973.
- 35- Freire, Paulo, **Pedagogy of the Oppressed**, trans by Myra B. Rames, New York: the seabury press, 1968.
- 36- Asdfs
- 37- Gasset, Jose Ortega Y. **What is Philosophy**, Trans from the Spanish, New York: Norton Co. Inc, 1960.
- 38- - -, **The Origin Philosophy**, trans New York: W.W.Norton & Co. 1967.
- 39- - -, **Mission of the university**, New Brunswick:
- 40- Giroud, Henry A. **Teacher As intellectual**, Granby: Mssach. Bergin & Garbey Publishers, Inc, 1988.



- 41- Grattan, C.H. (ed.) **The Critique of Humanism**, New York: Brewer and Warren, 1930.
- 42- Harris, Martin, **America Now: The Anthropology of a Changing Culture**, New York: Simon & Schuster, Inc, 1981.
- 43- Henderson, A.d. **Vitalizing Liberal Education** New York: Harper & Row, 1944.
- 44- Heron, A.R. **Why men Work**, Stanford: Stanford University Press, 1948.
- 45- Hirst, Paul H. **Moral Education In a Secutar Society**, London: Unifersity of London, 1974.
- 46- Hoffman, Ross, **Tratition and Progress**, Milwaukee: The Bruce Publishing Co. 1938.
- 47- Hofstadter, Richard, **Social Darwinism in American Thouhgt**, Boston: Beacon Press, 1955.
- 48- Jarrelt, James Lewis, **The Humanities and Humanistic Education**, Massach, Addison-Westley, Co. 1973.
- 49- Day, Wiliam, **Moral Education**, London: George Atten & Unwin Ltd, 1975.
- 50- Kliebard, Herbert, **M. The Struggle for the Amercan Curriculum**, Boston: Routledge & Kegan Paul, 1986.
- 51- Machlup, Fritz, **The Production and Distribution of Knowlodhe in the United States**, Princeton, N.J. 1962.
- 52- Mard, Karl & Frederich Engles. **The Communist Manifesto**, New York: International Publishers, 1948.
- 53-

## المؤلف في سطور

### الحالة الشخصية:

من مواليد قرية الشجرة/ محافظة اربد في الأردن.

### الدراسة:

- دكتوراة في أصول التربية من جامعة بتسبرج - ولاية بنسلفانيا في الولايات المتحدة الأمريكية.
- ماجستير أصول تربية من الجامعة الأردنية.
- ماجستير في التاريخ الاسلامي من الجامعة الأميركية ببيروت.
- ليسانس في التاريخ من جامعة القاهرة.
- دورة في القياس والتقويم في الجامعة الأميركية بالقاهرة.
- الثانوية العامة في الرمثا و نابلس.

### الخبرات الوظيفية:

- استاذ التربية في جامعة الشارقة/ دولة الامارات العربية المتحدة.
- أستاذ أصول التربية والتربية الاسلامية المشارك في كلية التربية/ جامعة أم القرى / مكة المكرمة.
- رئيس قسم التربية الاسلامية والمقارنة في كلية التربية/ جامعة الملك عبد العزيز - فرع المدينة المنورة.
- أستاذ أصول التربية في كلية التربية للبنات / المدينة المنورة.
- مدير مركز البحوث والدراسات الاسلامية - رابطة العالم الاسلامي، الأمم المتحدة بنيويورك.
- محاضر في الدراسات العربية في جامعة بتسبرج.
- مدير التعليم والتدريب في وزارة الأوقاف في الأردن.
- رئيس قسم البحث التربوي في وزارة التربية والتعليم في الأردن.
- مدير معهد معلمين في وزارة التربية والتعليم في الأردن.
- رئيس شعبة الاجتماعيات في مديرية المناهج في الأردن.
- عضو قسم القياس والتقويم في وزارة التربية والتعليم في الأردن.

- مدرس تاريخ واجتماعيات في الأردن.

### الخبرات الفنية:

- المشاركة في تخطيط المناهج في المدارس والجامعات العربية.
- المشاركة في تقويم أبحاث ودراسات جامعية.
- المشاركة في مؤتمرات تربوية في العالم العربي الإسلامي وأمريكا وأوروبا.
- عضو لجان الاشراف على مجالات تربوية في الأردن وأمريكا.
- محاضر في دورات تربوية وحلقات دراسية في الأردن وأمريكا.
- عضو في مجلس " مركز بحوث الدراسات التربوية والنفسية" في جامعة أم القرى.

### العضوية الأكاديمية:

- عضو في جمعية دراسات الشرق الأوسط لأمريكا الشمالية.
- عضو في جمعية تاريخ التربية بالولايات المتحدة.
- عضو في جمعية أصول التربية بالولايات المتحدة.
- عضو في معهد دراسات الشرق الأوسط - واشنطن.

### من الانتاج العلمي:

- 1- تطور مفهوم النظرية التربوية الاسلامية.
- 2- فلسفة التربية الاسلامية.
- 3- الفكر التربوي عند ابن تيمية.
- 4- أهداف التربية الاسلامية
- 5- مناهج التربية الاسلامية والمربون العاملون فيها.
- 6- التربية والوعي والتجديد.
- 7- اتجاهات معاصرة في التربية الأخلاقية.
- 8- الأمة المسلمة: مفهومها، مقوماتها، إخراجها.
- 9- مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح.
- 10- هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس.
- 11- التعليم ومستقبل المجتمعات الإسلامية.
- 12- الصنمية والأصنام في ثقافة العصبية القبلية.
- 13- رسالة المسجد.

- 14- رسالة المسلم في المجتمع الأمريكي.
- 15- عشرات الأبحاث والمقالات في مجالات عربية وإسلامية.
- 16- مقدمة في فلسفة التربية (مترجم).
- 17- الأصول التربوية لمشكلات الناشئة في الأسرة.
- 18- رسالة مفتوحة إلى الفتاة المسلمة المعاصرة.

George M. Foster, Traditional Societies and Technological Change. 2<sup>nd</sup>. Ed.(New (1) York: Harper & Row Publishers, 1973). P.13

H.M.Did, Environmental Pollution.( Chichester & New York: Johny Wiley & Sons, 1981).

<sup>(1)</sup>Abraham H. Maslow, Motivation and Personality, PP.17-72.

<sup>(1)</sup> Erich Fromm, The Sane Society, PP.157-158.

<sup>(1)</sup>Harry Schifield, The Philosophy of Education, PP.13-14.

<sup>(1)</sup>Abraham H.Maslow, Motivation and Personality, PP.35-51.

<sup>(1)</sup> Abraham H.Maslow, **Motivation and Personality**, PP.60-61.

<sup>(1)</sup> Ross Hoffman, Tradition and Progress (Milwaukee: the Bruce Publishing Co. 1938) P.Id.

Da'bid Martin" The Urban Revolution: A Search for identity" in Education in A Dynamic Society, edited by Dorothy Westby-gibson, PP.177-183

<sup>(1)</sup> Willian C. Miller, Dealing With Stress: A Challenge for Education, (Blooming: Ikiana: Phi Delta Kappa Educational Foundations, 1979) PP.7-14.

<sup>(2)</sup> Marbin Harris, America Now: The Anthropology of A Chaning Culture, (New York: Simon & Schaster Inc, 1981) PP. 52-53>

<sup>(1)</sup> Rene Dubos, So Human an Animal, P.59, 212-213.

<sup>(2)</sup> Rene Dubos, *Beast Of Animal: Choices that make us Human*, (New york: Charies Scribner's Sons, 1974) P. 96.

<sup>(1)</sup> Abraham H. Maslow, *Motifation and Personality*, PP. 61-62.

<sup>(4)</sup> Abraham H. Maslow, *Toward a Psychologe of Being*, PP. 3-8.

- Paul A. Colinbaud, Introduction to Ecoloty, (New <sup>(1)</sup> York: John Wiley & Sons, Inc. 1973) PP. 280-285.
- <sup>(3)</sup> Dabid E. Purple, The moral and Spiritual Crisis in Education, p.12.
- <sup>(4)</sup> E. Frize Shcumacher, Small is Beautiful. Pp. 80-81.
- <sup>(4)</sup> Ernest Backer. Beyond Atienation, PP. 238-248.
- <sup>(4)</sup> Mihaly Csikszent mihaly and Kebin Rathund, "The Psychology of wisdoms Wisdon, ed. By Robert J. Stentberg. P.25.
- <sup>(1)</sup>Erick Fromm, The Sane Swciety, PP. 199-200.
- Aldous Hudley, Brabe New World.
- <sup>(3)</sup> Hocob Bronowski, A Sense of the Future, PP. 196-198.
- <sup>(4)</sup>Lewis Munford, The Conduct of life, (New York: Hercourt, Brace & Co. 1951) P. 14.
- <sup>(2)</sup> Abraham H. Maslow, Motifation and Personality, P.18.
- <sup>(1)</sup>Abraham H. Maslow, Motifation and Personality, PP. 19-20.
- <sup>(4)</sup> Abraham H. Maslow, The Psychology of Science, PP. 20-21.
- <sup>(4)</sup>Hoston Smith, "Beyond the Modern Western Mind Set" in Toward the Recovery of Wholeness, PP. 77-73.
- <sup>(2)</sup> Paul Dabis, The Edge of Infinity, (New york: Torchstone Book, 1982).
- <sup>(4)</sup> Hose Ortega Gasset, **What is Philosophy**, PP. 66-67.
- <sup>(2)</sup> Morris & Pai, **Philosophy and the American School**, P.20.
- <sup>(4)</sup> Jose Ortega Y. Gasset. **What is Philosophy**, P. 16-18.
- <sup>(2)</sup> Keith Thompson, **Education and Philosophy**. P.1.



- (3) Harry Schofield, **The Philosophy of Education**, P.3.
- (4) John Dewey, *Esperience and Nature* (New York: Dober Publication Inc. 1958).
- John Dewey, *Reconstruction in Philosophy*, (Boston: Beacon Press. 1957).
- (1) Huston Smith, OP, Cit, PP. 70-72.
- (1) R.H.Tawney, **The Acquistitive Society**, (New york: Hartcourt, Brace & Co.Inc. 1920). P. 99.
- (2) Erich Fromm, **The Sane Society**, P. 83.
- (1) Jacob Bronowski, *A Sense of the Future*, ( Cambridge: Massachusets MIT Preas. 1970) PP. 197-203.
- (2) Henry A. Ciroud, *Teachers As Intellectuals*, PP. 121-128.
- (1) Theodosius Dobzhansky, "Human Nature as a Product of E6olution" in *New Knowledge in Human Balues*. Ed. By Abraham H. Maslow, ( South Bend, Indiana, 1959) PP. 84-85.
- (2) Alwd Molnar (ed.), *Current Tbhought on Currculum*, P.6ii.

## الفهرس

4	مقدمة
	الباب الأول:
11	أهمية البحث في منهاج التربية الإسلامية
	الفصل الأول:
14	حاجة النظم التربوية في الأقطار الإسلامية إلى تأصيل منهاج التربية
	الفصل الثاني:
20	أزمة التربية المعاصرة في ميدان المناهج التربوية
	الفصل الثالث:
40	التطلع إلى منهاج تربوية شاملة ومتكاملة للخروج من الأزمة القائمة
	الباب الثاني:
49	منهاج التربية الإسلامية
	الفصل الرابع:
54	ميدان تلاوة الآيات
	الفصل الخامس:
107	ميدان التزكية
	الفصل السادس:
	صورة رقم (6)
241	ميدان تعليم الكتاب والحكمة
	الفصل الحادي عشر:
317	البعد الطولي والافقي _ الدرسي لمنهاج التربية الإسلامية
	الفصل الثاني عشر:
322	تكامل ميادين التربية ودرجاتها والمربين العاملين في ميادين التربية الإسلامية
	الفصل الرابع عشر:
327	الملاحظات والتوصيات

الفصل الخامس عشر:

334..... المصادر والمراجع

341..... المؤلف في سطور